الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

الجزء ١

مطابع
المجد
التجارية

التعريف بكتاب

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

للسيد على صبح المدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله الذى جعل من العلماء ، مصابيح يهتدى الناس بها فى ظلمات الشبهات ، وصلاة وسلاماً على من أضاء القلوب ومحا الضلالات .

تسمية الكتاب :

أما بعد : فإن هذا الكتاب ـ إنما هو فى حقيقته وجوهره ـ دراسة مقارنة للأديان السماوية وقد يجد القارئ لهذا الكتاب صعوبة بادئ ذى بدء عندما يقارن بين العنوان وهو « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » والموضوع .

ولكن هذه الصعوبة لا تلبث أن تتبدد حينما يعرف سبب تصنيف هذا الكتاب .

سبب تأليفه :

كان السبب فى تأليف هذا الكتاب القيم ، أن شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، قرأ رسالة جاءت من قبرص ، مضافة إلى « بولص الراهب » أسقف « صيدا » الإنطاكى ، وكان قد كتبها إلى بعض أصدقائه ، ويدعى أن له مصنفات كثيرة ، ورحلات إلى بلاد الروم والقسطنطينية و بلاد الملافطة وبعض أعمال الإفرنج ورومية ، واجتمع بأجلاء تلك الناحية وناظر أفاضلهم وعلماءهم ،

وقد كان اسم الرسالة « المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » .

منهج الكتاب :

بدأ الكتاب بمقدمة ذكر فيهاسبب تأليف الكتاب ، وقسمه إلى فصول، فى الفصول الأولى منه ، رد على من يدعون أن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما بعث إلى العرب خاصة ، ومن يدعون أن إرساله صلى الله عليه وسلم كان إرسالا كونياً، وكان سنده فى ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية ، وما أوتيه من قوة الحجاج والمنطق ، وكان ذلك هو المنهاج الذى سار عليه فى جميع فصول الكتاب .

غير أنه ـ حينما أراد أن يثبت وقوع التبديل والتغيير فى عقائد النصارى واليهود ـ استدل ببعض نصوص الكتب السماوية والنبوات السابقة .

وكذلك فعل حينما رد عليهم قولهم :إن النبوات والكتب السابقة لم تبشر بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم :

وقد تقيد فى رده على النصارى بترتيب الرسالة التى جاءت من قبرص .

غير أنه — فى بعض الأحايين — كان يستطرد :

ومن ذلك أنه فى الجزء الثانى رد على الدعوى السادسة ومكانها فى الجزء الرابع حيث يقول :

« وهذا يتناول الأمر لكل أهل الكتاب إذا جاءهم رسول ثان ، أن يؤمنوا به وينصروه . . . » .

ومما يذكر لشيخ الإسلام أنه وفّى الكلام حقه، إذ كان بإزاء الرد على أناس عرفوا بالمكر والخيانة لدينهم .

والإمام يبدأ الفصل ـ فى غالبية الكتاب ـ بالقول المخالف ، ثم يعقب بالرد

عليه ، مثل قوله فى أول الجزء الثانى: « فصل : فحينئذ فقولهم: إنا نعجب من هؤلاء القوم - على علمهم وذكائهم ومعرفتهم - كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ ».

ويبدو أنه كان هناك واسطة أثناء حجاجه مع النصارى :

فهو يقول فى بعض الفصول « قال الحاكى عنهم » :

وهو - فى معظم الفصول - يكثر من الاستطراد الهادف لإبطال ما ألصق بالدين من المبتدعات ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على غزارة علمه وفضله وأدبه .

مضمون الكتاب :

ويتضمن هذا الكتاب أربعة عناصر مهمة : —

العنصر الأول: الرد على ما جاء فى « الرسالة القبرصية » ومضمونها ستة دعاوى :

الدعوى الأولى :

أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إليهم - أى النصارى - بل بعث إلى أهل الجاهلية من العرب ، وأن القرآن فيه ما يدل على ذلك ، وكذلك العقل .

الدعوى الثانية :

أن محمداً أثنى فى القرآن على دينهم - أى النصرانية - الذى هم عليه ، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه :

الدعوى الثالثة :

أن كتب الأنبياء المتقدمين - كالتوراة والزبور والإنجيل ، وغير ذلك من الصحف والنبوات - تشهد لما عليه دينهم من الأقانيم والتثليث والاتحاد ، وغير ذلك وأنه يجب التمسك به ، إذ لا يعارضه شرع ، ولا يدفعه عقل .

الدعوى الرابعة :

أن ما هم عليه ثابت بالعقل والشرع ، متفق مع الأصول .

الدعوى الخامسة :

أنهم موحدون وأن ما عندهم مما يوهم التعدد كألفاظ الأقانيم ، إنما هى من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر فيها التشبيه ، والتجسيم :

الدعوى السادسة :

أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلاحاجة بعد إلى شرع آخر ، بل يكون ما بعد ذلك شرعاً آخر غير مقبول .

العنصر الثانى : تفسير النصوص القرآنية والنبوية التى استدل بها فى رده عليهم

العنصر الثالث : تصحيح ما وقع فى تفسير بعض النصوص الدينية فى الإنجيل والتوراة من أخطاء .

العنصر الرابع : دراسة مقارنة للنبوات الثلاثة ، الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية .

* * *

والكتاب مقسم إلى أربعة أجزاء .

الجزء الأول :

رد الإمام شيخ الإسلام على هذه الدعاوى السابق ذكرها فى هذا الكتاب ودحض ما فيها من أباطيل ، وقدمها دراسة موضوعية ، ليس فيها شىء من التعصب ، ولا من الذاتية البغيضة ، فيقول فى مقدمة الرد عليها :

« ونحن ــ ولله الحمد والمنة ــ نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية ــ من القرآن أو من الكتب المتقدمة على القرآن ــ أو عقلية ، لا حجة لهم فى شىء منها ، بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم لا لهم ، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، ومن المعقول ــ هو نفسه ــ حجة عليهم ويظهر منه فساد قولهم ، مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية والموازين التى هى مقاييس عقلية » .

وقد رد الإمام على هذه الدعاوى الستة حسب ترتيبها فى الرسالة النصرانية فهو يقول فى الرد على الدعوى الأولى :

« إن كل من ادعى الرسالة لابد من أن تنبنى دعواه على أصلين :

أحدهما : أن نعرف ، هل قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ؟ أو قال : إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة لا إلى غيرها ؟

والثانى : أن نعرف ، هل هو صادق أو كاذب » ؟

أما الأصل الأول : فالرسول صلى الله عليه وسلم أعلن أنه رسول إلى الناس كافة ، ولا ينافى ذلك أنه من أصل عربى ، وأن رسالته جاءت للعرب خاصة ، وللناس كافة عامة » إذا عرف هذا ، فهؤلاء القوم ـ فى هذا المقام ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، فهذه الدعوى على وجهين :

١ — : إما أن يقولوا . إنه ـ بنفسه ـ لم يدع أنه أرسل إليهم ، ولكن أمته ادعوا له ذلك .

٢ — : وإما أن يقولوا : إنه ادعى أنه أرسل إليهم ، وهو كاذب فى هذه الدعوى . وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول ، وفى آخره قد يقال إنهم قد أشاروا إلى الوجه الثانى ـ يعنى ما جاء فى الرسالة النصرانية على لسان « بولص » الراهب ـ لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب ، وإنما أنكروا رسالته إليهم . أما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه ، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب ، بل صدقوا بما وافق قولهم ، وكذبوا بما خالف قولهم .

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء من القرآن على صحة دينهم بوجه من الوجوه ،

ونبين أن القرآن لاحجة فيه لهم ولا فيه تناقض، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التي يحتجون بها هي حجة عليهم ، ليس في شيء منها لهم حجة ، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف والكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام ، في إبطال دينهم ، وقولهم في التثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، مع العقل الصريح ؟ !

فهم يحتجون في كتابهم هذا ـ أي رسالتهم ـ بالقرآن ، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العقل ، ولا حجة لهم فيه .

وهذا بخلاف المسلمين فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن المسلمين مقرون إيمانهم بنبوة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام .

وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي أرسله الله ، وهذا أصل دين المسلمين » .

قال : ذلك لماذا ؟ ، لأنهم استدلوا على أن الدين الإسلامي ، إنما جاء إلى العرب فقط بقوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

وما شاكل ذلك من الآيات .

ثم قال : « وحينئذ فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكل ماثبت عنه من الكتاب والحكمة كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل » .

ثم رد على من قال من أهل الكتاب : « إنه رسول غضب أرسله الله إرسالا كونياً ، لا دينياً لينتقم به منهم ، كما أرسل بختنصر وسنجاريب على بني إسرائيل ؛ وكما أرسل جنكس خان وغيره » .

فقال: « إن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم : إن الله أنزل عليه كتاباً ؛ ولا هذا

الـكلام الذى أبلغه إليـكم هو كلام الله ، ولا أن الله أمركم أن تصدقونى فيما أخبرتـكم به ، وتطيعونى فيما أمرتـكم به ، ومن لم يصدقنى باطناً وظاهراً فإن الله يعذبه فى الدنيا والآخرة ، بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونيا قدّره وقضاه ، كما يرسل الريح بالعذاب ، وكما يرسل الشياطين» وفرق بين الإرسال الكونى والإرسال الدينى « فالإرسال الدينى : هو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله » .

وأما الدعوى الثانية ، فقد رد عليها بقوله :

« قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ ـــ وهى أعظم كذباً عليه من التى قبلها ـــ فـكيف يثنى عليهم وهو يـكفرهم فى غير موضع من كتابه ويأمر بجهادهم وقتالهم ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم ، ويصف من لم ير طاعته فى قتالهم بالنفاق ويذكر أنه يدخل جهنم» .

« وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه ، وكان على دينه الذى لم يبدل ، فهذا حق ، وهو لا ينافى وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على من بعث إليه ، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل ، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها ، وقال ـ مع ذلك ـ : إن الله أرسلنى إليـكم ، لم يكن متناقضاً .

وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

فـكيف وهو إنما مدح من اتبع دينا لم يبدل ؟

وأما الذين بدّلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم .

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود ، كفروا بتبديلهم ما فى الـكتاب الأول ، وكفروا بتـكذيبهم بالـكتاب الثانى .

وأما من لم يبدل الـكتاب ، أو أدرك محمدا فآمن به ، فهؤلاء مؤمنون ، ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة ، واتباعه لها ، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم

محمـد صلى الله عليه وسلم للإنجيل ، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطا عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح ، فكيف يكون تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل مسقطا عن النصارى وجوب اتباعه ؟

وقد اتفق المسلمون على ماهو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وبجميع ما أنزل الله من الكتب .

فمن كفر بنبى واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان و يونس وعيسى ، فهو كافر عند جميع المسلمين ، حكمه حكم الكفار » .

ثم قال : « وإن أرادوا بتصديقه كتبهم ، أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التى ابتدعوها بغير إذن من الله ، وخالفوا بها ما تقدم من شرائع المسلمين ، أو خالفوا بها الشرع الذى بعث به ، مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت ، وقولهم : إن المسيح هو الله ، وابن الله ، وماهم عليه من إنكار مايجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن تحليل ماحرمه الله ورسله كالخنزير وغيره ، فقد كذبوا » .

وأما الدعوى الثالثة فقد ردها بقوله :

« وإن احتج بشىء من المنقول عن غيره ــ أى غير رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ــ من الأنبياء عليهم السلام ، طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلا فتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التى تثبت بها النبوات خبران متناقضان لايجوز تصديق هذا ، وتكذيب ذاك إن لم يتبين ما يدل على صدق هذا وكذب هذا ، وكذلك إذا عوض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر .

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا مايحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفاً لخبر محمد صلى الله عليه وسلم . فإن المسلمين لايطعنون فى نبوة

أحد من الأنبياء المعروفين ، وإنما يطعنون فى أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لايثبت ، أى لم يثبت اللفظ والترجمة ، وتفسير اللفظ ، وهذه المقدمات تمتنع أن تقوم على شىء يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، لا جملة ولا تفصيلا .

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات :

إحداها : تقدير أن أولئك صادقون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كاذب .

والثانية : ثبوت ما أتوا به لفظا .

والثالثة : معرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيرا .

وإن قال الكتابىّ للمسلم ، أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين .

أجابه المسلم بوجوه : منها أن يقول : إنى لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين المسلمين كلهم ، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر ، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم ؟ ! .

بل قد يقول له أكثر المسلمين : نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد أنهم أنبياء . فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبوتهم لزم القدح فى نبوتهم ، والفرع — إذا قدح فى أصله — دل على فساده فى نفسه ، سواء قدر أصله صحيحا أو فاسدا . فإنه إن كان أصله فاسدا فسد هو ، وإن كان أصله صحيحا — وهو يناقضه — بطل هو ، فهذا إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير ، وكذلك إذا قال له الكتابى : قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة أوالمسيح أو الإنجيل . قال له المسلم : إنما أوافقك على تصديق موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم .

« ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب

المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله ، لم يقع فيها تبديل » .

أما قولهم : إن هذه الكتب وقع فيها تبديل فى بعض ألفاظها ، وأنه لا يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله ، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ فى معارضة ماعلم نبوته ، وأن هذه التوراة والإنجيل الموجودتان اليوم بين اليهود والنصارى لم تتواتر عن موسى وعيسى عليهما السلام . أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا ، وأجلى منه بنو إسرائيل . ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له : عازر . وزعموا أنه نبى .

وأما الإنجيل الذى بأيدى المسيحيين ، فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح « متى » و « يوحنا » ـ وكانا قد صحبا المسيح ـ ولم يحفظه خلق كثير يبلغون حد التواتر و « مرقس » و « لوقا » وهما لم يريا المسيح عليه السلام . وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ماقاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله ونقل اثنين أو ثلاثة يجوز عليهم الغلط ، لا سيا وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب !

الجزء الثانى :

ويبدأ الإمام شيخ الإسلام فى هذا الجزء بالردّ على الدعوى الرابعة .

فهو يقول : وحينئذ فقولهم : إنا نعجب من هؤلاء القوم ـ يعنى علماء المسلمين ـ على علمهم وذكائهم ومعرفتهم ـ كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ وهو قول المسلمين لهم : إن هذا الكتاب الذى بأيديكم ليس حجة علينا فقد غيرتموه وبدلتموه وكتبتم فيه ما أردتم واشتهت نفوسكم .

فإذا قالوا : إن القرآن أيضاً قد بُدِّل وغُيِّر :

قلنا لهم : هذا مما لا يجوز ولا يمكن لأحد أن يقوله ، ولا يمكن تغييره ، ولا تبديل حرف واحد منه . فقالوا : سبحان الله العظيم ، إذا كان الكتاب المكتوب بلسان واحد لا يمكن تبديل ولا تغيير حرف منه ، فكيف يمكن تغيير كتبنا التى كتبت باثنين وسبعين لساناً ؟

والجواب أن يقال :

أولا هذا الكلام منهم ، يدل على غاية جهلهم بما يقوله المسلمون فى كتبهم ، وتبين أنهم ـ لفرط جهلهم ـ يظنون أن المسلمين يقولون مقالة لا تخضع للعقل والمنطق ، وأن ما يقولونه لا يخفى فساده على من له أدنى عقل ومعرفة .

والجواب على ما ادعوه من وجوه :

أحدها : أن المسلمين لم يدعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها وكثرة النسخ بها ، ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير فى كثير من معانيها ، وكثير من أحكامها . وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم فى التوراة والنبوات المتقدمة فإنهم يسلمون أن اليهود بدلوا كثيراً من معانيها وأحكامها . ومما تسلمه النصارى فى فرقهم ، أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة .

ومما تسلمه اليهود ، أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها ، وأنها بدلت أحكام التوراة .

الثانى : أن قياسهم كتبهم على القرآن ـ مع أنه لم تسمع دعوى التبديل فيه ـ قياس باطل فى معناه وفى لفظه .

الثالث : أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمداً كان يقول : إنه كلام الله لا كلامه ، وأنه مبلغ له عن الله ، وكان يفرق بين القرآن و بين ما يتكلم به من السنة .

وأما قولهم إنها ـ أى الأناجيل ـ مكتوبة باثنين وسبعين لساناً ، فمعلوم باتفاق

النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية ، فالـكلام المنقول عنه في الأناجيل إنما تـكلم به عبريا ، ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها . والترجمة يقع فيها الغلط كثيراً ، كما وجدنا في زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ويظهر في الترجمة من الغلط ما يشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين .

ثم انتقل إلى دعوى التثليث فقال :

« قالوا : وكذلك شهد « أشعيا » بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره . وذلك بقوله : رب القوات ، وبقوله : رب السموات والأرض .

ومثل هذا القول في التوراة والمزامير شيء كثير ، حتى اليهود يقرءون هذه النبوات ، ولا يعرفون لها تأويلا ، وهم مقرون بذلك ، ولا ينـكرون كلمة واحدة ، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها » .

كما أنهم إذا اجتمعوا في الـكنيسة يقف «الحران» ويقول كلاما عبرانياً ، ترجمته : نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمـكتوب على لسان نبيك ، فيصيح الجميع : قدوس ، قدوس ، قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض ، فما أوضح إقرارهم بالثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه ! !

ثم أوضح معنى التثليث الذي جاء في التوراة فقال :

« وأما قولهم : نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً كالمـكتوب على لسان نبيك أشعيا ، وقولهم : قدوس ، قدوس ، قدوس رب القوات ، ورب السموات والأرض . فيقال : هذا الـكلام صريح في أن المثلث ، هو نفس التقديس ، لا نفس الإله المقدس . وكذلك قولهم : قدوس ، قدوس ، قدوس ، قدسوه : ثلاث مرات . فإنه قال : نقدسك ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، فنصب التثليث على المصدر ، الذي ينصب بفضل التقديس ، فقال : نقدسك تقديساً مثلثاً ، فنصب التقديس على المصدر ، كما تقول : سبحتك تسبيحا مثلثا ، أي

سبحتك ثلاث مرات ، وقال : نثلث لك ، أى نثلث تقديسا لك ، لم يقل : « أنت » ثلاثة ، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث ، وهم يثلثون له ، وهذا صريح فى أنهم يسبحونه ثلاث مرات ، لا يسبحون ثلاثة آلهة ولا ثلاثة أقانيم .

ثم تتبع تبريرهم التثليث فقال : « قالوا : وقد علمنا أنه لا يلزمنا — إذا قلنا هذا — عبادة ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان ، ونطقه ، وروحه ، ثلاثة أناس ، بل إنسان واحد ، ولا إذا قلنا : لهيب النار ، وضوء النار ، وحرارة النار ، ثلاثة نيران . ولا إذا قلنا قرص الشمس ، وضوء الشمس ، وشعاع الشمس ، ثلاثة شموس — أى لا يلزمهم التثليث فى كل مامر . بل الإنسان هو الإنسان بنطقه وروحه ، والنار هى النار بضوئها وحرارتها ، وقرص الشمس هو قرص الشمس بضوئه وشعاعه .

ولكن شيخ الإسلام رد عليهم بقوله : « والجواب من وجوه :

أحدها : أنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب فى عقيدة إيمانكم ، وفى استدلالكم ، وغير ذلك من كلامكم ، فليس ذلكم شيئاً ألزمكم الناس به ، بل أنتم تصرحون بذلك ، كما تقدم من قولكم : نؤمن بإله واحد ضابط الكل ، خالق ما يرى وما لا يرى وبرب واحد . يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد . المولود من الأب ، قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر ، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذى معه الأب مسجود له ، وممجد .

الوجه الثانى : أن تمثيلهم بالإنسان ونطقه وروحه ، والنار وحرها وضوئها ، والشمس وضوئها وشعاعها ، باطل من وجوه :

أحدها : أن حر النار وضوءها القائم بها ليس ناراً من نار ، ولا جوهراً من

جوهر ولا هو مساو النار والشمس فى الجوهر . وكذلك نطق الإنسان ، وضوء الشمس ، وهم قد أثبتوا ثلاثة أرباب بقولهم فى الأمانة :

نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، و برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور على نور ، إلهحق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساو الأب فى الجوهر .

الثانى : أن الضوء فى الشمس ، والنار يراد به نفس الضوء القائم بها ، و يراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران ، وهذا مباين لها ، ليس قائماً بها فهم جعلوا الأب جوهراً قائماً بنفسه ، والابن أيضا جوهراً قائماً بنفسه ، وروح القدس رباً جوهراً قائماً بنفسه ، ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتهما ليس كل منهما شمساً وناراً قائمة بنفسها ، ولا جوهراً قائماً بنفسه . فلو أثبتوا حياة الله ، وعلمه ، أو كلامه صفتين قائمتين به ـ ولم يجعلوا هذا رباً جوهراً قائماً بنفسه ، وهذا رباً قائما بنفسه ـ لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقا . . .

وهكذا ثابر الإمام شيخ الإسلام على إدحاض حججهم الباطلة فى كل ما ذهبوا إليه من « التثليث » ، وتجسيم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء ، وتجسدها بإنسان مخلوق ، وهو الذى أخذ من مريم العذراء المصطفاة . ودعواهم الخلق لعيسى واستدلالهم ببعض آيات من القرآن الكريم يوهم ظاهرها ذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ﴾ وما ذهبوا إليه من اتحاد الناسوت باللاهوت .

الجزء الثالث :

وفيه أكمل شيخ الإسلام رده على الدعوى الرابعة وما ذهبوا إليه من الحلول ، وما اتصف به النصارى من تعصب ضد اليهودية .

ثم انتقل إلى الرد على الدعوى الخامسة ، فهو يقول :

« قال الحا كى عنهم : فقلت لهم : إنهم يقولون لنا : ـ يعنى المسلمين ـ إذا كان اعتقادكم فى البارى تعالى أنه واحد ، فما حملكم على أن تقولوا : أب ، وابن ، وروح قدس ؟ فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون فى الله ثلاثة أشخاص مركبة ، أو ثلاثة آلهة ، أو ثلاثة أجزاء ، وأن له ابناً ، ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك المباضعة والتناسل ، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون ؟

قالوا: وهم أيضاً لما كان اعتقادهم فى البارى جلت عظمته وأنه غير ذى جسم، وغير ذى جوارح وأعضاء ، وغير محصور فى مكان ، فما حملهم على أن يقولوا إن له عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساق ووجه ، يوليه إلى كل مكان وجنب ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام ، فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وذو أعضاء وجوارح ، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان فى ظلل من الغمام ، فيظن من لا يعرف اعتقادهم ، أنهم يجسمون البارى ، حتى إن قوما منهم اعتقدوا ذلك ، واتخذوه مذهبا ، ومن لم يتحقق اعتقادهم يتهمهم بما هم بريئون منه .

قال ، فقلت لهم : إنهم يقولون : إن العلة فى قولهم هذا ، أن الله له وجه لأن القرآن نطق بذلك ، ولكن يراد به غير ظاهر اللفظ ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ، و يعتقد أن الله له جوارح وأعضاء وأن ذاته تنتقل يلعنونه ويكفرونه ، فإذا كفروا من يعتقد هذا ، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن بينوا أنهم لا يعتقدونه ، قالوا : وكذلك ـ نحن أيضا النصارى ـ العلة فى قولنا : إن الله ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح قدس أن الإنجيل نطق به ، والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة، والأجزاء ، والأبعاض وغير ذلك مما يقتضى الشرك، والتكثير، والمراد بالأب والابن غير أبوة و بنوة نكاح أو تناسل أو جماع أو مباضعة .

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة . أو ثلاثة آلهة متفقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة أو ثلاثة أجزاء متفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة ، أو أعراض أو قوى أو غير ذلك مما يقتضى الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه أو بنوة نكاح أو تناسل أو مباضعة أو جماع أو ولادة زوجة ، أو من بعض الأجسام أو من بعض الملائكة ، أو من بعض المخلوقين ، فنحن نلعنه ونكفره ونحرمه وإذا لعنا وكفرنا من يعتقد ذلك ، فليس لمخالفينا أن يلزمونا به بعد أن لا نعتقده

فإن ألزمونا الشرك والتشبيه ألزمناهم التجسيم والتشبيه .

ويخيل إليك الآن وأنت تسمع هذه المناظرة أن الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولكننا نسمع الإمام يقول :

« والجواب من وجوه : أحدها : أن يقال من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه ، فهذا لا إنكار عليه ، بخلاف من ابتدع أقوالا لم تقلها الرسل ، بل هى تخالف ما قالوه : إما لفظا ومعنى ، وإما معنى فقط ، فهذ يستحق لإنكار عليه باتفاق الطوائف ، وأصل دين المسلمين ، أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه فى كتبه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ويتبعون فى ذلك أقوال رسله ويجتنبون ماخالف أقوال الرسل كما قال تعالى: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» أى عما يصفه به الكفار المخالفون للرسل ، وقد قال تعالى « ليس كمثله شيء » وهو رد على الممثلة ﴿ وهو السميع البصير ﴾ وهو رد على المعطلة ، وقد قال تعالى ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وإذا كان كذلك فهم فى أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد فى كلام الأنبياء .

الوجه الثانى : أنهم ركبوا من ألفاظ القرآن ـ بسوء تصرفهم وفهمهم ـ تركيبا زعموا أن المسلمين يطلقونه ، وليس فى القرآن مايدل ظاهره على ماذكروه فإن الله تعالى قال فى كتابه «وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » واليهود أرادوا بقولهم : « يد الله مغلولة » أنه بخيل فكذبهم الله فى ذلك ، وبين أنه جواد لا يبخل .

الوجه الثالث : أن ما جاء فى القرآن والحديث هو مثل ما جاء فى التوراة وسائر كتب الأنبياء ، وهذا الذى فى التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب ، ولو كانوا ، هم ابتدعوه ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم لكان النبى صلى الله عليه وسلم ذمهم على ذلك . كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص مثل قوله :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » .

ثم ينتقل شيخ الإسلام إلى الدعوى السادسة فيمهد للرد عليها بقوله :

« والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم ، وهو أن منهم من يقول :

محمد لم تبشر به النبوات بخلاف المسيح ، فإنه بشرت به النبوات ، وزعموا أن من لم تبشر به فليس بنبى وهذا السؤال يورد على وجهين :

أحدهما : أنه لا يكون نبيا حتى يبشر به .

والثانى : أن من بشرت به أفضل ، أو أكمل ممن لم تبشر به ، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح ، اختص به ، وأنتم ـ أى النصارى ـ قد قلتم : مامن طريق تثبت به نبوة نبى إلا وعيسى تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل .

فأما هذا الثانى فيستحق الجواب ، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضاً ، لكن هل يجب الإجابة عنه ؟ قولان بناء على الأصل ، وهو أنه هل من شروط النسخ الإشعار بالمنسوخ ، ولنظار المسلمين فيه قولان :

الأول : أنه لابد إذا شرع الله حكما يريد أن ينسخه ، فلابد أن يشعر المخاطبين بأنه سينسخه ، لئلا يظنوا دوامه ، فيكون ذلك تجهيلا لهم .

والثانى : لا يشترط ذلك .

ثم أتى بما أثبته القرآن من بشارات الأنبياء السابقين ، ثم عقب بنفس بشارات الأنبياء السابقين فى الكتب السابقة .

وكان آخر بشارة فى الجزء الثالث هى بشارة دنيال .

الجزء الرابع :

وبما أتم به الجزء الثالث ، بدأ به الجزء الرابع ، فهو يقول :

وقال دانيال عليه السلام ، وذكر محمدا باسمه صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ستنزع فى قسيك إغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » .

وقال أيضا : « سألت الله ، وتضرعت أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ؟ ويرد إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك فى غيرهم ؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه فقال: السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا على ، وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب فسلطت عليهم بختنصر ، فقتل رجالهم وسبى ذراريهم ، وهدم مسجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راض عنهم ، ولا مقيلهم عثرات فلا يزالون فى سخطى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط . فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة ، حتى أبعث نبى بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر ، وأرسلت إليه ملاكى وبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى ، وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته والرشد سنته ، أخصه

بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلىّ ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه وأسلم عليه ، وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادى السرور والغبطة ، حافظا لما استودع صادقا فيما أمر ، يدعو إلى توحيدى باللين من القول ، والموعظة الحسنة ، لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، رءوف بمن ولاه ، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى فيكذبونه ويؤذونه .

وقص القصة إلى أن قامت قيامة الدولة الإسلامية .

ثم انتقل من التمهيد إلى صلب الدعوى فقال :

« إذا كان أهل الكتاب أكمل فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ممن لا كتاب له ، فمعلوم أن أمتنا أكمل من طائفتى أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأعدل . وقد جمع لهم محاسن ما فى التوراة وما فى الإنجيل .

فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية ولا عملية ، إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها .

فأما العلوم فهم أحذق فى جميع العلوم من جميع الأمم ، حتى العلوم التى ليست بنبوية ولا أخروية ، كالطب والحساب .

وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، وما أخبرت به الأنبياء ، فكل من نظر فيها وقارنها بما قاله اليهود والنصارى ، وجد الأولى أكمل وأتم .

وبهذا يثبت فضل محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء ، وبالتالى يتضح لنا حاجة البشرية إلى هذه الرسالة . ومنه نعرف فساد دعوى النصارى فى قولهم : إن النصرانية جاءت بغاية الكمال ، وكذبوا على أنفسهم وعلى الله . فما جاء بغاية الكمال إلا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وما الإنجيل إلا مجموعة وصايا بكملة لما نقص مما جاء فى التوراة

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأدلة الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأ بأعظمها فقال : والقرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة .

فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له من وجوه جملة وتفصيلا .

وآياته صلى الله عليه وسلم المعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع :

الأول : منها ماهو فى العالم العلوى كانشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث ، وكمعراجه إلى السماء .

فقد ذكر الله انشقاق القمر وبين أنه فعله وأخبر به لحكمين عظيمين .

الأول : كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية فأراهم انشقاق القمر .

والثانى : أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات .

الثانى : آيات الجو .

الثالث : تصرفه فى الحيوان والجن .

الرابع : تأثيره فى الماء والطعام والثمار .

هذا عرض سريع لأهم ما اشتمل عليه الكتاب ، والله سبحانه ولى التوفيق ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبره تكبيراً .

والله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذباً .

والحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور .

والحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ، مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه

السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، الأول الآخر الظاهر الباطن الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، أرسله بالحق بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، أرسله إلى جميع الثقلين ، الجن والإنس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، وأنزل عليه أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم و يهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وهو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو دين الله الذى بعث به الرسل قبله ، كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ، [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩٢] ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء ، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وهيمن على ما بين يديه من الكتاب ، وذلك يعم الكتب كلها ، شاهداً وحاكما ومؤتمناً ، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة : وقرر ما فى الكتب المتقدمة من أصول الدين وشرائعه الجامعة ، التى اتفقت عليها الرسل ، كالوصايا المذكورة فى آخر الأنعام ، وأول سورة الأعراف ، وسورة سبحان ، ونحوها من السور المكية .

قال تعالى : ﴿ قل تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم و إياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده و وفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى و بعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٠ ــ ١٥٣] . وقال تعالى : ﴿ قل

أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون • يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم رَبِّىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغىَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩ ــ ٣٣]

وقال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً * ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وَإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرفْ فى القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا • وأوفوا الكيل إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا •

ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا • ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا • كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها • ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فَتُلْقَى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٣٩] .

فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد ، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل شرعة ومنهاجا ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بينى وبينه نبى »[1] .

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين ، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠ ـ ٣٢] ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين • يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم • وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ـ وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فاعبدون ﴾ ـ ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٠ ـ ٥٣] .

---

(١) حديث أبى هريرة ، المتفق عليه ، فى شرح مسلم ١٥ : ١١٩ ، والبخارى (فتح البارى ٦ : ٣٥٣ ، ٣٥٤) بغير هذا اللفظ ، وكأنه رواه بمعناه .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ » [سورة الشورى : ١٣] .

وقد خص الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين ، وجعل له شرعة ومنهاجاً ، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين ، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس ، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم ، وجعلهم وسطاً عدلا خياراً ، فهم وسط فى توحيد الله وأسمائه وصفاته،وفى الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهى والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود ، ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلتها النصارى ، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود ، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى ،فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة فى الصلاة ، بل يعد كثير من عبادهم مباشر النجاسات من أنواع القرب والطاعات ، حتى يقال فى فضائل الراهب : « له أربعون سنة ما مس الماء » ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأتباعه .

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة ، لا يواكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها فى بيت واحد ، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض .

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة . بل إذا أصاب ثوب أحد منهم قرضه بالمقراض ، والنصارى ليس عندهم شىء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه .

وكذلك المسلمون وسط فى الشريعة ، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ ، كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئاً من شرعه المحكم ، ولاابتدعوا شرعاً لم يأذن به الله ، كما فعلت النصارى ، ولا غلوا فى الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ، ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه - من الفقر والبخل والعجز ، كفعل اليهود - ولا المخلوق متصفاً بخصائص الخالق سبحانه ، التى ليس كمثله فيها شىء كفعل النصارى . ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ، ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى .

وأهل السنة والجماعة فى الإسلام كأهل الإسلام فى أهل الملل ، فهم وسط فى باب صفات الله عز وجل ، بين أهل الجحد والتعطيل ، و بين أهل التشبيه والتمثيل ، يصفون الله بما وصف به نفسه ، و بما وصفته به رسله ، من غير تعطيل ولا تمثيل ، إثباتاً لصفات الكمال ،وتنزيهاً له عن أن يكون له فيها أنداد وأمثال، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ؛ كما قال تعالى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، [سورة الشورى : ١١] ، وهو رد على الممثلة ، ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ، [سورة الشورى : ١٢] ، رد على المعطلة

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، [سورة الإخلاص بأكملها] .

فالصمد : السيد المستوجب لصفات الكمال ، والأحد الذى ليس له كفو ولا مثال .

وهم وسط فى باب أفعال الله عز وجل ، بين المعتزلة المكذبين بالقدر ، والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله ، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه .

وفى باب الوعد والوعيد ، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين فى النار ، و بين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد ؛ وما فضل الله به الأبرار على الفجار .

وهم وسط فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بين الغالى فى بعضهم ؛ الذى يقول فيه بإلهية أو نبوة أو عصمة ؛ والجافى فيهم : الذى يكفر بعضهم أو يفسقه . وهم خيار . هذه الأمة .

والله سبحانه وتعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للناس رحمة ؛ وأنعم به نعمة يا لها من نعمة : قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ؛ [سورة الأنبياء : ١٠٧] ؛ وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً) ؛ [سورة إبراهيم : ٢٨] : وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده . فجمع الله لأمته بخاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين مافرقه فى غيرهم من الفضائل . وزادهم من فضله أنواع الفواضل ، بل أتاهم كفلين من رحمته ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ، [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩]

وفى الصحيحين عن ابن عمر ، وأبى موسى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم مابين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، و إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على

قيراط قيراط ؟ ، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ! فقال الله تعالى : فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال الله تعالى : فإنه فضلى أعطيه من شئت » .(١)

أما بعــد : فإن الله تبارك وتعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وأكمل له ولأمته الدين ، و بعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل ، فأحيا به ما درس من معالم الإيمان ، وقمع به أهل الشرك والكفر من عبدة الأوثان والنيران والصلبان ، وأذل به كفار أهل الكتاب ، أهل الشرك والارتياب ، وأقام به منار دينه الذى ارتضاه ، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه ، وأظهر به ما كان مخفياً عند أهل الكتاب ، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب ، وحقق به صدق التوراة والزبور والإنجيل ، وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل .

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم ، بحيث يبعث فى كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وقال تعــالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيراً وَإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا

---

(١) رواه البخارى فى مواضع من حديث ابن عمر ، فى كتاب مواقيت الصلاة ، وفى كتاب الإجارة ، وفى كتاب الأنبياء (وهو بلفظه هنا) وكتاب فضل القراءات ، وكتاب التوحيد فى موضعين . ورواه من حديث أبى موسى فى كتاب الإجارة .
وأما حديث أبى موسى ، فرواه البخارى فى كتاب الإجارة .

تترى ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٤] . وقال : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

ولما أهبط آدم إلى الأرض قال تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٨] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ـ ١٠] : وقال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقال تعالى ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا

كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ » [سورة الأنعام : ١٣٠ ، ١٣١] .

فصل

وكان دينه الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام ، الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، ولا يقبل من أحد ديناً غيره ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين ، وهو دين الأنبياء وأتباعهم ، كما أخبر الله بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تُنْظِرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأُمِرْتُ أن أكون من المسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٧١ ، ٧٢]

وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [سورة البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطرَ السموات والأرض أنت وَلِيِّي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى أنه قال : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٨٤] .

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٤] .

وقال تعالى عن أنبياء بنى إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلمو للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى عن المسيح : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، وعبادته تعالى فى كل زمان ومكان ، بطاعة رسله عليهم السلام . فلا يكون عابداً له مَن عبده بخلاف ماجاءت به رسله ، كالذين قال تعالى فيهم : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ﴾ ، [سورة الشورى : ٢١] فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله ، ولا يكون مؤمناً به ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه ، فيطاع كل رسول إلى أن يأتى الذى بعده ، فتكون الطاعة للرسول الثانى ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ، [سورة النساء : ٦٤] .

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافراً ، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢] .

فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين ، لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره ، كما وعد به في الكتاب ، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ، ويعرف به مساوىء الكفر ومفاسده .

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين ، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فَذَرْهُم وما يفترون * ولتصغَى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه وليقترفوا ماهم مقترفون * أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٢ ـ ١١٥] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتَى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا * وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٢٧ ـ ٣١] .

وذلك أن الحق ـ إذا جحد وعورض بالشبهات ـ أقام الله تعالى له مما يحق به الحق و يبطل به الباطل من الآيات والبينات بما يظهره من أدلة الحق و براهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة .

فالقرآن لما كذب به المشركون ، واجتهدوا على إبطاله بكل طريق ـ مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ، ثم بالإتيان بعشر سور ، ثم بالإتيان بسورة واحدة ـ كان ذلك مما دل ذوى الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب ، ولو اتبعوه ـ من غير معارضة وإصرار على التبطيل ـ لم يظهر عجزهم عن معارضته التى بها يتم الدليل

وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام ، وأبطل الله ما جاءوا به ، كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام . وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء و براهينهم التى تسمى بالمعجزات ، و بين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشيطان من التصرفات ، فإن بين هذين فروقاً متعددة ، منها ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ هل أنبئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كل أفّاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢]

ومنها ما بينه فى آيات التحدّى ، من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى ، ولا يمكن أحداً إبطالها ، بخلاف خوارق السحرة والشياطين ، فإنه يمكن معارضتها بمثلها ، وأقوى منها ، و يمكن إبطالها .

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن ، الذين يوحِى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ـ إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ، ويموهون فى ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول ـ كان ذلك من أسباب ظهور الايمان ، الذى وعد الله تعالى

يظهوره على الدين كله ، بالبيان والحجة والبرهان ، ثم بالسيف واليد والسنان .

قال الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنامعهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التى يظهر بها الحق من الباطل ، والحالى من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغىّ من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد . وهذا كالمحنة للرجال التى تميز بين الخبيث والطيب ، قال تعالى : ﴿ ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ ، [سورة العنكبوت ١ — ٤] .

والفتنة هى الامتحان والاختبار ، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » ، أى امتحانك واختبارك ، تضل بها من خالف الرسل ، وتهدى بها من اتبعهم . والفتنة للانسان كفتنة الذهب إذا أدخل كير الامتحان ، فإنها تميز جيده من رديئه . فالحق كالذهب الخالص ، كلما امتحن ازداد جودة ، والباطل كالمغشوش المغشى ، إذا امتحن ظهر فساده فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظر ، ظهرت له البراهين ، وقوى به اليقين ، وازداد به إيمان المؤمنين ، وأشرق نوره فى صدور العالمين . والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل ، ورام أن يقيم عوده المائل ، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا

هو زاهق ، و يبين أن صاحبه الأحمق ، كاذب مائق . وظهر فيه — من القبح والفساد ، والحلول والاتحاد ، والتناقض والإلحاد ، والكفر والضلال ، والجهل والمحال — ما يظهر به لعموم الرجال ، أن أهله من أضل الضلال ، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد ، و يتنبه بذلك من كان غافلا من سنة الرقاد ، من كان لا يميز الغيّ من الرشاد ، ويحيي بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا ينكر[1] منكر المغضوب عليهم والضالين ، فإن[2] ما ذم الله به اليهود والنصارى فى كتابه — مثل تكذيب الحق المخالف للهوى ، والاستكبار عن قبوله ، وحسد أهله ، والبغى عليهم ، واتباع سبيل الغى ، والبخل والجبن وقسوة القلوب ، ووصف الله سبحانه وتعالى بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم ، وجحد ما وصف به نفسه من صفات الكمال المختصة به ، التى لا يماثله فيها مخلوق ، و بمثل الغلو فى الأنبياء والصالحين ، والإشراك فى العبادة لرب العالمين ، والقول بالحلول والاتحاد الذى يجعل العبد المخلوق هو رب العالمين ، والخروج فى أعمال الدين عن شرائع الأنبياء والمرسلين، والعمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووجده فى الدين ، من غير اتباع العلم الذى أنزله الله فى كتابه المبين ، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أربابا يتبعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] ، ومخالفة صريح المعقول وصريح المنقول ، بما يظن أنه من التنزلات الإلهية

---

(١) قوله : « ولا ينكر » ، عطف على قوله : « لا يعرف . . . » .
(٢) أنظر التعليق التالى .

والفتوحات القدسية ، مع كونه من وساويس اللعين ، حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] ، وقال تعالى فيه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٧٩] ، إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلات التى ذم الله بها أهل الكتابين [١] — فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار ، وجعل ما حل بهما عبرة لأولى الأبصار .

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا بد من وقوعها فى بعض هذه الأمة ، وإن كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال فى أمته أمة قائمة على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة ، وأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، ولا يغلبها من سواها من الأمم ، بل لاتزال ظاهرة منصورة متبعة لنبيها المهدى المنصور ، ولكن لابد أن يكون فيها من يتبع سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا فى جحرضب لدخلتموه » ، قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال . « فمن ؟ » [٢]

وفى الصحيحين أيضاً ، عن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً

---

(١) سياق الكلام : « بأن ماذم الله به اليهود . . . . فإنها ممـا حذر الله منه الأمة . . » وبين الكلامين اعتراض طويل .

(٢) حديث أبى هريرة رواه البخارى فى كتاب الاعتصام (الفتح ١٣ : ٢٥٤) ، وانظر تفسير الطبرى (طبع دار المعارف) الأحاديث من رقم : ١٦٩٣٠ — ١٦٩٣٣ ، والتعليق عليها .

بذراع » ، قالوا : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال « فمن الناس إلا أولئك ؟ »[١] .

وفى المظهرين للاسلام منافقون ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، تحت اليهود والنصارى . فلهذا كان ما ذم الله به اليهود والنصارى قد يوجد فى المنافقين المنتسبين للاسلام ، الذين يظهرون الإيمان بجميع ما جاء الرسول ، و يبطنون خلاف ذلك ، كالملاحدة والباطنية ، فضلا عمن يظهر الإلحاد منهم . ويوجد بعض ذلك فى أهل البدع ، ممن هو مقر بعموم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، باطناً وظاهراً ، لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه على هؤلاء ، فاتبع المتشابه ، وترك المحكم ، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء .

وللنصارى — فى صفات الله سبحانه وتعالى ، واتحاده بالمخلوقات — ضلال شاركهم فيه كثير من هؤلاء ، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالا من النصارى .

والحلول والاتحاد نوعان : عام وخاص .

فالعام كالذين يقولون : إن الله بذاته حالّ فى كل مكان ، أوأن وجوده عين وجود المخلوقات .

والخاص : كالذين يقولون بالحلول والاتحاد فى بعض أهل البيت ، كعلىّ ، وغيره ، مثل النصيرية وأمثالهم ، أو بعض من ينتسب إلى أهل البيت ، كالحاكم[٢] ، وغيره ، مثل الدرزية وأمثالهم ، أو بعض من يعتقد فيه المشيخة ، كالحلاّجية وأمثالهم.

فمن قال : إن الله سبحانه وتعالى حل أو اتحد بأحد من الصحابة ، أو القرابة ، أو المشايخ ، فهو من هذ الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد

(١) حديث أبى سعيد الخدرى . رواه البخارى (الفتح ١٣ : ٢٥٥) ومسلم فى صحيحه (شرح النووى ١٦ : ٢١٩)

(٢) لا الحاكم بأمره العبيدى الذى حكم مصر مدة .

والحلول فى المسيح ، فإن المسيح عليه السلام أفضل من هؤلاء كلهم .

ومن قال بالحلول والاتحاد العام فضلا له أعم من ضلال النصارى ، وكذلك من قال بقدم أرواح بنى آدم ، أو أعمالهم ، أو كلامهم ، أو أصواتهم ، أو مداد مصاحفهم ، أو نحو ذلك ، ففى قوله شعبة من قول النصارى .

فبمعرفة حقيقة دين النصارى وبطلانه ، يعرف بطلان ما يشبه أقوالهم ، من أقوال أهل الإلحاد والبدع . فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه ، كما قال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨١] . وأبان الله سبحانه وتعالى من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقاً .

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره ، أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب ، ويظهر مابعث الله به رسله من الميزان والكتاب . وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانهافصلا فصلا ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلا ، وعقداً وحلا . وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان ، وقبل هذا الزمان ، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض ، بحسب الأحوال . فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بهاموجودة قديمة. وهى مضافة إلى «بولص» الراهب أسقف صيدا الأنطاكى ، كتبها إلى بعض أصدقائه ، وله مصنفات فى نصر النصرانية ، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد اللافطة وبعض أعمال الإفرنج ورومية ، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية ، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم ، وقد

عظم هذه الرسالة ، وسماها : « الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » .

ومضمون ذلك ستة فصول :

(الفصل الأول) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إليهم ، بل إلى أهل الجاهلية من العرب ، ودعواهم أن فى القرآن مايدل على ذلك ، والعقل يدل على ذلك .

(الفصل الثانى) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى فى القرآن على دينهم الذى هم عليه ، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه .

(الفصل الثالث) : دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين ، كالتوراة والزبور والإنجيل ، وغير ذلك من النبوات ، يشهد لدينهم الذى هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، بأنه حق وصواب ، فيجب التمسك به ، ولا يجوز العدول عنه ، إذ لم يعارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه .

(والفصل الرابع) : فيه تقرير ذلك بالمعقول ، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول ، والشرع المنقول ، موافق للأصول .

(والفصل الخامس) : دعواهم أنهم موحدون ، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهرا منها تعدد الآلهة ، كألفاظ الأقانيم ، بأن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر منها التشبيه والتجسيم .

(والفصل السادس) : أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلاحاجة -بعد النهاية- إلى شرع مزيد على الغاية، بل يكون مابعد ذلك شرعاً غير مقبول .

ونحن - ولله الحمد والمنة - نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية ، من القرآن ، أو من الكتب المتقدمة على القرآن ، أو عقلية ، فلا حجة لهم فى شىء منها ، بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم ، لا لهم ، بل عامة

ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، ومن المعقول ، فهو نفسه حجة عليهم ، و يظهر منه فساد قولهم ، مع مايفسده من سائر النصوص النبوية ، والموازين التى هى مقاييس عقلية .

وهكذا يوجد عامة ما يحتج به أهل البدع من كتب الله عز وجل ، ففى تلك النصوص ما تبين أنه لا حجة لهم فيها ، بل هى بعينها حجة عليهم ، كما ذكر أمثال ذلك فى الرد على أهل البدع والأهواء ، وغيرهم من أهل القبلة . و إنما عامة ماعند القوم ألفاظ متشابهة ، تمسكوا بها ، ظنوها تدل عليه ، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة ، مع مايقترن بذلك من الأهواء . وهذه حال جميع أهل الباطل ، كما قال تعالى فيهم ، ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، [سورة النجم : ٢٣] .

فهم فى جهل وظلم ، كما قال تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات و يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] .

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام ، فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل ، كما قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، [سورة النجم ١ — ٤] فبين سبحانه وتعالى أنه ليس ضالا جاهلا ، ولا غاو ياً متبعاً هواه ، ولا ينطق عن هواه ، إنما نطقه وحى أوحاه الله سبحانه وتعالى .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] .

فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ، ومبناه على العدل ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

وأصل العدل فى حق الله تعالى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هو كما تظنون ، إنما هو الشرك . ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : إن الشرك لظلم عظيم ؟ »[١] .

ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل ، كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل ، لا بالظن وما تهوى الأنفس . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة . رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » رواه أبو داود وغيره[٢] .

فإذا كان من يقضى بين الناس فى الأموال والدماء والأعراض — إذا لم يكن عالماً عادلا — كان فى النار ، فكيف بمن يحكم فى الملل والأديان، وأصول الإيمان ، والمعارف الإلهية ، والمعالم الكلية ، بلا علم ، ولا عدل ؟ كحال أهل البدع والأهواء ، الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك ، ويدعون المحكم الصريح من نصوص الأنبياء ، ويتمسكون بالقدر المشترك المتشابه فى المقاييس والآراء ، ويعرضون عما بينها من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء ، كحال الكفار

---

(١) حديث عبد الله بن مسعود ، رواه البخارى (الفتح ١ : ٨١ / ٨ : ٢٢٠) ورواه مسلم (شرح النووى ٢ : ١٤٣ و ١٤٤) ، وانظر تفسير الطبرى (طبع دار المعارف) ، الأحاديث ١٣٤٧٦ ــ ١٣٤٨٣ ، والتعليق عليها .

(٢) رواه أبوداود فى سننه ٣٠٦،٣ رقم ٣٥٧٣ ، وأخرجه الترمذى وابن ماجه أيضاً

وسـائر أهل البدع والأهواء ، الذين يمثلون المخلوق بالخالق ، والخالق بالمخلوق ، ويضربون لله المثل السوء بالقول الهزء .

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع ، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام، وغيروا به دين المسيح ، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه . ثم لما بعث الله تعالى محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام كفروا به ؛ فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول ، وتكذيب الرسول الثانى : كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام .

ونبين ـ إن شاء الله تعالى ـ أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد لم يدل عليه شيء من كتب الله ، لا الإنجيل ، ولا غيره ، بل دلت على نقيض ذلك . ولا دل على ذلك عقل ، بل العقل الصريح ، مع نصوص الأنبياء ، تدل على نقيض ذلك . بل وكذلك عامة شرائع دينهم ، محدثة مبتدعة ، لم يشرعها المسيح عليه السلام .

ثم التكذيب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو كفرهم المعلوم لكل مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام ، وأبلغ وهم يبالغون فى تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير ، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيخ ساحر كذاب ، بل يقولون : إنه ولد بغية ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله سبحانه : ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٦] ، والنصارى يدعون أنه الله الذى خالق الأولين والآخرين ، وأنه ديان يوم الدين ، فكانت الأمتان فيه على غاية التناقض والتعادل والتقابل . ولهذا كل أمة تذم الأخرى بأكثر مما تستحقه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شى وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون

مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] .

ذكر محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ربيع بن حرملة : ما أنتم على شىء ، وكفر بعيسى والإنجيل جميعاً ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء ، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى ذلك فى قولهما : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] ، قال: كل يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به : أى تكفير اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله تعالى عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام ، وفى الإنجيل بإجابة عيسى بتصديق موسى عليه السلام ، وبما جاء به من التوراة من الله تعالى ، وكل يكفر بما فى يدى صاحبه .

قال قتادة : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء » ، قال : بلى ، قد كان أوائل النصارى على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا . «وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » ، قال : بلى ، قد كان أوائل اليهود على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا : فاليهود كذبوا بدين النصارى ، وقالوا . ليسوا على شىء . والنصارى كذبوا بجميع ما يتميز به اليهود عنهم ، حتى فى شرائع التوراة التى لم ينسخها المسيح ، بل أمرهم بالعمل بها ، واليهود كذبوا بكثير من الذى تميزوا به عنهم ، حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق .

لكن النصارى ــ وإن بالغوا فى تكفير اليهود ومعاداتهم عن الحد الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال ــ فلا ريب أن اليهود لما كذبوا

المسيح صاروا كفاراً ، كما قال الله تعالى للمسيح : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وكفر النصارى ـ بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، و بمخالفة المسلمين ـ أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح ، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلا ، وسائر شرعه إحالة على التوراة ، ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح . فلم يكن فى مجرد تكذيب اليهود له ـ من مخالفة شرع الله ـ ما فى تكذيب النصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جاء بكتاب مستقل من عند الله ، لم يحل شىء من شرعه على شرع غيره . قال تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٥١] .

والقرآن أصل كالتوراة ، و إن كان أعظم منها ، ولهذا كان علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كما قال النجاشى ملك النصارى لما سمع القرآن : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك قال ورقة بن نوفل ، وهو من أحبار نصارى العرب ، لما سمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه يأتيك الناموس الذى يأتى موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً حين يخرجك قومك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أوَمُخْرِجِىَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .(١)

(١) رواه البخارى فى أول كتابه فى باب بدء الوحى بغير هذا اللفظ .

ولهذا يقرن سبحانه وتعالى بين التوراة والقرآن فى مثل قوله : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » ، يعنى التوراة والقرآن ، وفى القراءة الأخرى : « قالوا ساحران » ، أى موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، « وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] . فلم ينزل كتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن .

ثم قال تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين» ، [سورة القصص : ٥٠] .

وهؤلاء النصارى ، ذكر كاتب كتابهم فى كتابه : أنه لما سأله أن يفحص له فحصاً بيناً عما يعتقده النصارى المسيحيون المختلفة ألسنتهم ، المتفرقة فى أربع زوايا العالم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، والقاطنون بجزائر البحر ، والمقيمون بالبر المتصل إلى مغيب الشمس ، فإن الأسقف ديان الملك الرومى اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم ، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم ، فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص ، وخاطبهم فى دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم ، قال الكاتب على لسان الأسقف : إنهم يقولون : إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد ، ويقول : إنه رسول الله ، وأتى بكتاب فذكر أنه منزل عليه من الله ، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا . قال : فقلت لهم : إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان ، واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذى أتى به عندكم ، فلأى حال لم تتبعوه ، ولا سيما وفى هذا الكتاب

يقول : « ومن يبتغ غير الإســـلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، [سورة آل عمران : ٨٥) . ؟ أجابوا قائلين : لأحوال شتى . قال : فقلت : وما هى ؟ قالوا : منها أن الكتاب عربى وليس بلساننا ، حسب ما جاء فيه ، يقول : « إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون » ، [سورة يوسف: ٢) ، وقال : « بلسان عربى مبين » ، (سورة الشعراء : ١٩٥) ، وقال فى سورة الشعراء : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ ، (سورة الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩) ، وقال فى سورة البقرة : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ ، (سورة البقرة : ١٥١) ، وقال فى سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى فى سورة القصص ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [سورة القصص : ٤٦] ، وقال فى سورة يس ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ ، [سورة يس : ٦] ، قالوا : فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا ، بل إلى جاهلية العرب ، الذين قالوا : إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله . وإنه لا يلزمنا اتباعه ، لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله : خاطبونا بألسنتنا ، وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا ، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا ، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذى أتى به هذا الرجل ، حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] ، وقال فى سورة النحل : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] : وقال فى سورة الروم : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾ ، (سورة الروم : ٤٧) . فقد صح فى هذا الكتاب أنه لم يأت إلا إلى الجاهلية

من العرب ، وأما قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، (سورة آل عمران : ٨٥) ، فيريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم ، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه . ونعلم أن الله عدل ، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمة من الأمم باتباع إنسان لم يأت إليهم ، ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ، ولا من جهة داع من قبله .

وهذه ألفاظهم بأعيانها فى الفصل الأول ، وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه . ولا لتكذيبه ، بل زعموا أنه فى نفس هذا الكتاب أنه لم يقل : إنه مرسل إليهم ، بل إلى جاهلية العرب . وأن العقل أيضا يمنع أن يرسل إليهم .

فنحن نبدأ بالجواب على هذا ، ونبين أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه مرسل إليهم وإلى جميع الإنس والجن ، وأنه لم يقل قط : إنه لم يرسل إليهم ، ولا فى كتابه ما يدل على ذلك . وأن ما احتجوا به من الآيات التى غلطوا فى معرفة معناها ، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة فى كتابه ، التى تبين أنه مرسل إليهم ، من جنس ما فعلوه فى التوراة والإنجيل والزبور . وكلام الأنبياء ، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة ، وتمسكوا بقليل من المتشابه الذى لم يفهموا معناه . ومعلوم أن الكلام فى صدق مدعى الرسالة وكذبه ، متقدم على الكلام فى عموم رسالته وخصوصها ، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر . لكن هؤلاء القوم ادعوا خصوص رسالته ، وذكروا أن القرآن يدل على ذلك . فنجيب عما ذكروه على حسب ترتيبهم فصلا فصلا ، فنقول وبالله التوفيق :

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ، وغيره ممن قال : إنه رسول الله ، كإبراهيم ، وموسى ، ونحوهما من

الأنبياء الصادقين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وآل كل من الصالحين ، وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسى ، ونحوهما ، من المتنبئين الكاذبين ، ينبنى[(١)] على أصلين :

أحدهما : أن يعرف ما يقوله فى خبره وأمره ، فيعرف ما يخبر به ويأمر به ، وهل قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ؟ أو قال : إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة ، لا إلى غيرها ؟

والثانى : أن نعرف هل هو صادق أو كاذب ؟

وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل ، وهو معرّفة صدق الرسول ، ومعرفة ما جاء به .

وأما الإيمان المجمل ، فيحصل بالأول ، وهو معرفة صدقه فيما جاء به ، كإيماننا بالرسل المتقدمة . وقد يعلم صدقه أو كذبه ، قبل أن يعلم ما يذكره . وقد يعلم ما يذكره ، قبل أن يعلم صدقه أو كذبه . وهؤلاء بدأوا فى كتابهم هذا بما ذكره الرسول ، مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه ، وعلى مدح دينهم الذى هم اليوم عليه ، بعد النسخ والتبديل . ثم ذكروا حججاً مستقلة على صحة دينهم ، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفى دينه ، فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن ، كما قدموه فى كتابهم .

فصل

ودلائل صدق النبى الصادق ، وكذب المتنبى الكاذب ، كثير جداً . فإن من ادعى النبوة ــ وكان صادقاً ــ فهو من أفضل خلق الله تعالى ، وأكملهم فى العلم والدين ، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه ، صلوات الله عليهم

---

(١) تقدير العبارة : « الكلام ... ينبنى ... » .

وسلامه ، وإن كان بعضهم أفضل من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وإن كان المدعى للنبوة كاذباً فهو من أكفر خلق الله ، وشرهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين . والذى جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة الزمر : ٣٢ ـ ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٦٠] ، فالكذب أصل للشر ، وأعظمه الكذب على الله عز وجل . والصدق أصل للخير ، وأعظمه الصدق على الله تبارك وتعالى .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(١) .

ولما كان هذا فى أعلى الدرجات ، وهذا فى أسفل الدركات ، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين ، التى تدل على صدق أحدهما وكذب الآخر ـ

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الأدب ، ورواه مسلم فى صحيحه أيضا فى كتاب البر والصلة والآداب .

ما يظهر لكل من عرف حالها . ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة ، كما قد بسط فى موضع آخر .

فصل

إذا عرف هذا ، فهؤلاء القوم ـ فى هذا المقام ـ ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم ، بل إلى أهل الجاهلية من العرب ، فهذه الدعوى على وجهين :

إما أن يقولوا : إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم ، ولكن أمته ادعوا له ذلك .

وإما أن يقولوا : إنه ادعى أنه أرسل إليهم ، وهو كاذب فى هذه الدعوى وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول .

وفى آخره قد يقال : إنهم قد أشاروا إلى الوجه الثانى ، لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب ، وإنما أنكروا رسالته إليهم . وأما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه ، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب بل صدقوا بما وافق قولهم ، وكذبوا بما خالف قولهم .

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نتكلم على الوجهين جميعاً ، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء من القرآن على صحة دينهم ، بوجه من الوجوه . ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم ، ولا فيه تناقض ، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين ، التى يحتجون بها ، هى حجة عليهم ، ليس فى شىء منها حجة لهم ، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام ، فى إبطال دينهم ، وقولهم فى التثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، مع

العقل الصريح ؟ فهم احتجوا فى كتابهم هذا بالقرآن وبما جاءت به الأنبياء ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العقل .

ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله ، ولا فى العقل . بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاءت به الأنبياء قبله ، مع صريح العقل ، كلها براهين قطعية على فساد دينهم . ولكن نذكر قبل ذلك : أن احتجاجهم بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يصح بوجه من الوجوه ، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد صلى الله عليه وسلم من يكذبه فى كلمة واحدة مما جاء به .

وكذلك كلام سائر الأنبياء عليهم السلام ، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء ، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض . وأما ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام ، أو من قال : إنه نبى ، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض ، سواء قدر صدقهم أو كذبهم .

فيقال لهم ، على كل تقدير ، سواء إن أقروا بنبوته إلى العرب أو إلى غيرهم ، أو كذبوه فى قوله : إنه رسول الله مطلقاً ، أو سكتوا عن هذا وهذا ، أو صدقوه فى البعض دون البعض[١] .

إن احتجاجهم على صحة ما يخالفون فيه المسلمون ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم ، أو على صحة دينكم بشىء من القرآن ، حجة داحضة ، على كل تقدير .

مع أنا سنبين ، إن شاء الله تعالى ، أن الكتب الإلهية كلها ، مع المعقول ، لا حجة لكم شىء منها ، بل كلها حجة عليكم .

وهذا بخلاف المسلمين ، فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . وأهل الكتاب

---

(١) سياق العبارة : « فيقال لهم ... إن احتجاجهم .. » .

لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، و بكل نبي أرسله الله ، وهذا أصل دين المسلمين : فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد ، فهو عندهم كافر . بل من يسب نبياً من الأنبياء فهو عندهم كافر مباح الدم ، كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، و إن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ، يتناول التوارة والإنجيل ، كما يتناول القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى : « وكتابه » ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك و بالآخرة هم

يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ـ ٥] .

فذكر أن هذا الكتاب الذى أنزل عليه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله وبالآخره هم يوقنون . ثم أخبر تعالى أن هؤلاء هم المفلحون . فحصر الفلاح فى هؤلاء ، فلا يكون مفلحاً إلا من كان من هؤلاء ، وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ هو صفة للمذكورين ليس هؤلاء صنفاً آخر . فإن عطف الشىء على الشىء قد يكون لتغاير الصفات ، وإن كانت الذات واحدة . هذا هو الصحيح هنا . وإن كان قد قيل : إن الصنف الثانى مؤمنو أهل الكتاب ، والأول هم المسلمون ، فهذا ضعيف . وأفسد منه ، قول هؤلاء النصارى : إن الكتاب المراد به الإنجيل ، كما سيأتى الكلام على ذلك ، إن شاء الله تعالى .

والعطف لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ [سورة الأعلى : ١ ـ ٥] . وهو سبحانه الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى . وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ١ ـ ٥] . . . إلى آخر الآيات . وكذلك قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ ، [سورة البقرة : ٤] هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهم الذين على هدى من ربهم ، وهم المفلحون . ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله ؛ لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع ، وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل

إلى من قبله : فلو قال أحد من الناس : أنا أومن بالغيب ، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ببعض ما أنزل على من قبله لم يكن مؤمناً ، حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه ، وما أنزل إلى من قبله . ولو كانوا صنفاً آخر لكان المفلحون قسمين : قسما يؤمنون بالغيب ، ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ، وقسما يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ، ولا يؤمنون بالغيب وهذا باطل عند جميع الأمم : المؤمنين ، واليهود ، والنصارى . فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله ، يتضمن الإيمان بالغيب . والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان[1] بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى .

والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشيء مما أنزل على من كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات :

أحدها : ثبوت ذلك عن الأنبياء عليهم السلام .

والثانية : صحة الترجمة إلى اللسان العربي ، أو اللسان الذي يخاطب به ، كالرومي ، والسرياني ، فإن لسان موسى ، وداود ، والمسيح ، وغيرهم ، من أنبياء بني إسرائيل ، كان عبرانياً : ومن قال إن لسان المسيح كان سريانياً أو رومياً فقد غلط .

والثالثة : تفسير ذلك الكلام ، ومعرفة معناه

فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئاً من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء في شيء قاله ، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم ، أو يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه ، بمعنى آخر ، على وجه الغلط .

و إن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل ، أو تأويل

(١) في المطبوعة الأولى : « والإيمان بالغيب لا يتم إلا بأن يؤمن بالإيمان » وكأنما أراد أن يقول : « بأن يؤمن » ، ثم عدل عنها إلى : « بالإيمان » ، وهما بمعنى ، ونسي الناسخ أن يحذف الأولى ، فحذفناها هنا .

بعض المنقول عنهم . فهو كما يغلط من يغلط منهم ، ومن سائر أهل الملل ، فى التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمن يقر بنبوته ، أو فى تأويل المنقول عنه .

وهذا بخلاف تكذيب نفس النبى ، فإنه كفر صريح بخلاف أهل الكتاب ، فإنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله ، ومتى كذب بكلمة واحدة مما أخبر به من قال : إنه رسول الله ، بطل احتجاجه بسائر كلامه . فكانت حجتهم التى يحتجون بها داحضة وذلك أن الذى يقول : إنه رسول الله ، إما أن يكون صادقاً فى قوله : إنى رسول الله ، وفى جميع ما يخبر به عن الله ، وإما أن يكون كاذباً ، ولو فى كلمة واحدة عن الله .

فإن كان صادقاً فى ذلك ، امتنع أن يكذب على الله فى شىء مما يبلغه عن الله ؛ فإن من كذب على الله ، ولو فى كلمة واحدة ، كان ممن افترى على الله الكذب ، ولم يكن رسولا من رسل الله ، ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين . ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله ، فإنه قد علم أن الله لم يرسله . وإذا قال هو قولاً ، وكان صدقاً ، كان كما يقوله غيره ، يقبل . لا لأنه بلغه عن الله ، ولا لأنه رسول عن الله ، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق ؛ فإن عباد الأوثان ، إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركى العرب بأن الله خلق السموات والأرض لم نكذبهم فى ذلك ، وإن كانوا كفاراً . وكذلك إذا قال الكافر : إن الله حى قادر خالق ، لم نكذبه فى هذا القول . فمن كذب على الله فى كلمة واحدة ، قال : إن الله أنزلها عليه ، ولم يكن الله أنزلها عليه ، فهو من الكذابين ، الذين لا يجوز أن يحتج بشىء من أقوالهم ، التى يقولون : إنهم يبلغونها عن الله تبارك وتعالى . وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس ، بل كأمثالهم من الكذابين : إن عرف صحة ذلك القول من جهة غيرهم ، قبل ، لقيام الدليل على صحته ، لا لكونهم

قالوه . وإن لم يعرف صحته من جهة غيرهم ، لم يكن فى قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة .

وحينئذ ، فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة ، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة ، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل .

وإن كذبوه فى كلمة واحدة ، أو شكوا فى صدقه فيها ، امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله . وإذا لم يقروا بأنه رسول الله ، كان احتجاجهم بما قاله ، كاحتجاجهم بسائر ما يقوله من ليس من الأنبياء ، بل من الكذابين ، أو من المشكوك فى صدقهم . ومعلوم أن من عرف كذبه على الله فيما يقول : إنه يبلغه عن الله : أو شك فى صدقه ، لم يعلم أنه رسول الله ، ولا أنه صادق فى كل ما يقوله ويبلغه عن الله . وإذا لم يعلم ذلك منه ، لم يعرف أن الله أنزل إليه شيئاً . بل إذا عرف كذبه ، عرف أن الله لم ينزل إليه شيئاً ، ولا أرسله ، كما عرف كذب مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، وكما عرف كذب «مانى» وأمثاله ، من المتنبئين الكذابين .

وإذا شك فى صدقه فى كلمة واحدة ، بل جوز أن يكون كذبها عمداً أو خطأ ، لم يجز تصديقه مع ذلك ، فى سائر مايبلغه عن الله ؛ لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله ، إنما يكون إذا كان رسولا صادقاً ، لايكذب عمداً ولا خطأ . فإن كل من أرسله الله لابد أن يكون صادقاً فى كل مايبلغه عن الله ، لا يكذب فيه عمداً ولا خطأ .

وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم : المسلمون ، واليهود ، والنصارى وغيرهم ، اتفقوا على أن الرسول لابد أن يكون صادقاً معصوما فيما يبلغه عن الله ، لايكذب على الله خطأ ولاعمدا . فإن مقصود الرساله لاتحصل بدون ذلك ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على أن

لا أقول على الله إلا الحق ﴾ ، [سورة الأعراف : ٤ ١٠٥٠١] . وفى القراءة المشهورة : يخبر أنه جدير وحرى وثابت ومستقر على أن لا يقول على الله إلا الحق وعلى القراءة الأخرى : أخبر أنه واجب عليه أن لا يقول على الله إلا الحق ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة ٤٤ : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله الكذب فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى: ٢٤] . وقال تعالى: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ـ ١٠٢] . وقال تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلىّ ـ الآية﴾ ، [سورة يونس : ١٥]. وهذا لبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا : أن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فإنه ، إن كان رسولاً صادقاً فى كل ما يخبر به عن الله عز وجل ، فقد علم كل واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى ، فيلزم إذا كان رسولا صادقاً أن يكون دين النصارى باطلا : وإن قالوا فى كلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة ، لزم أن يكون عندهم رسولا صادقاً ؛ مبلغا عن الله ، وحينئذ فسواء قالوا : هو ملك عادل ، أو هو عالم من العلماء ، أو هو رجل صالح من الصالحين ، أو جعلوه قديساً عظيما من أعظم القديسين . فمهما عظموه به ، ومدحوه به ، لما رأوه من محاسنه الباهرة ، وفضائله الظاهرة ، وشريعته الطاهرة ، متى كذبوه فى كلمة واحدة مما جاء به ، أو شكوا فيها ؛ كانوا مكذبين له فى قوله : إنه رسول الله ، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله . ومن كان كاذباً فى قوله : إنه

رسول الله ، لم يكن من الأنبياء والمرسلين . ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجة البتة ، لكن له أسوة أمثاله . فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منفصل ، قبل القول ؛ لأنه عرف صدقه من غير جهته ، لا لأنه قاله . وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل .

فتبين أنه ، إن لم يقر المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق فى كل ما يبلغه عن الله ، معصوم عن استقرار الكذب ، خطأ أو عمداً ، لم يصح احتجاجهم بقوله . وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب ، وهو لقول جهالهم أعظم إبطالا ، فإن كثيراً من عقلاء أهل الكتاب ، أو أكثرهم ، يعظمون محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما دعا إليه من توحيد الله تعالى ، ولما نهى عنه من عبادة الأوثان ، ولما صدق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله ، ولما ظهر من عظمة القرآن الذى جاء به ، ومحاسن الشريعة التى جاء بها ، وفضائل أمته التى آمنت به ، ولما ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات . لكن يقولون مع ذلك إنه بعث إلى غيرنا ، أو إنه ملك عادل له سياسة عادلة ، وإنه مع ذلك حصل علوماً من علوم أهل الكتاب وغيرهم ، ووضع لهم ناموساً بعلمه ورتبه ، كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التى بأيديهم ومهما قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به ، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشىء مما قاله ؛ لأنه قد عرف بالنقل المتواتر، الذى يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ، وأن الله أنزل عليه القرآن ، فإن كان صادقاً فى ذلك فمن كذبه فى كلمة واحدة فقد كذب رسول الله ، ومن كذب رسول الله فهو كافر وإن لم يكن صادقاً فى ذلك لم يكن رسولا لله ، بل كان كاذباً . ومن كان كاذباً على الله ، يقول : الله أرسلنى بذلك ، ولم يرسله به لا يجوز أن يحتج بشىء من أقواله .

وأما من كان من جهال أهل الكتاب ، الذين يقولون : إنه كان ملكا مسلطاً عليهم ، وأنه رسول غضب أرسله الله إرسالا كونياً ، لا دينياً ، لينتقم به منهم ،

كما أرسل بختنصر وسنجاريب على بنى إسرائيل ، وكما أرسل جنكس خان ، وغيره من الملوك الكافرين والظالمين ، مما ينتقم الله به ممن عصاه ، فهؤلاء أعظم تكذيباً له ، وكفراً به ، من أولئك ؛ فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم : إن الله أنزل عليه كتابا ، ولا أن هذا الكلام الذى أبلغه إليكم هو كلام الله ، ولا أن الله أمركم أن تصدقونى فيما أخبرتكم به ، وتطيعونى فيما أمرتكم به ، ومن لم يصدقنى باطناً وظاهراً ، فإن الله يعذبه فى الدنيا والآخرة ، بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونياً قدره وقضاه كما يرسل الريح بالعذاب ، وكما يرسل الشياطين

قال الله تعالى ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ ، [سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٤ ، ٥] . وهذا بخلاف قوله : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، [سورة نوح : ١] وقوله : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ــ ١٦٥] . فإن هذا يعنى به الإرسال الدينى ، الذى يحبه تعالى ويرضاه ، الذى هدى به من اتبعهم ، وأدخله فى رحمته ، وعاقب من عصاهم ، وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ، [سورة النساء : ٦٤] . وقال تعالى :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، [سورة النساء ٨٠] . وهذه الرسالة التى أقام الله بها الحجة على الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] . وقال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ، [سورة الحج : ٧٥] . وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام ، لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى و بشرى للمؤمنين ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] . وقال تعالى : ﴿ و إنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] . وقال تعالى : ﴿ و إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ، ١٠٢] . فأخبر أنه نزل به جبريل ، وسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس . وقد ذكره أيضاً فى قوله ﴿ إنه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين • مطاع ثمَّ أمين ﴾ ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون • ولقد رآه بالأفق المبين • وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم • فأين تذهبون • إن هو إلا ذكر للعالمين • لمن شاء منكم أن يستقيم • وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ ـ ٢٩] فهذا الرسول جبريل عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين • ولو تقول علينا بعض الأقاويل • لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ ـ ٤٧] فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الإرسال الكونى الذى قدره وقضاه مثل إرسال الرياح وإرسال الشياطين فذلك نوع آخر . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾،[سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى:﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾ ، [سورة الأعراف : ٥٧] . والله تعالى له الخلق والأمر فالفظ الإرسال ، والبعث ، والإرادة ، والأمر ، والإذن،والكتاب ،والتحريم،والقضاء والكلام ينقسم إلى : خلقى ، وأمرى ، وكونى ،ودينى ، وقد ذكرنا الإرسال .

وأما البعث ، فقال تعالى فى البعث الدينى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة الجمعة : ٢] . وقال فى الكونى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ ،[سورة الإسراء : ٥] : وقال تعالى : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ﴾ ، [سورة المائدة : ٣١] .

وأما الإرارة ، فقال تعالى فى الكونية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد فى السماء ﴾،[سورة الأنعام : ١٢٥].وقال نوح عليه السلام:﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾،[سورة هود : ٣٤].وقال تعالى فى الإرادة الدينية : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، [سورة البقرة : ١٨٥] . وقال تعالى ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٦] ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ، [سوره النساء : ٢٧ ــ ٢٨] . وقال تعالى . مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد أن يطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٦] . وقال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ ،[سورة الأحزاب . ٣٣] .

وقال تالى فى الأمر الكونى . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : ٨٢] .

وكذلك أظهر القولين قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٦] .

وأما الأمر الدينى مثل قوله: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [سورة النساء : ٥٨] .

وأما الإذن الكونى مثل قوله فى السحرة : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢] . والدينى مثل قوله: ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا*وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ [سورة الأحزاب:٤٥،٤٦]

والكتاب الكونى مثل قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ، (سورة المجادلة ٢١) . وقوله . ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ، (سورة التوبة ٥١).والدينى مثل قوله:﴿ كتاب الله عليكم ﴾،[سورة النساء: ٢٤] وقوله : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] وقوله : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ ، (سورة البقرة : ١٧٨) .

والقضاء الكونى كقوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾،(سورة فصلت:١٢) والدينى كقوله : ﴿ وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ ، (سورة الإسراء : ٢٣] . أى . أمر .

والتحريم الكونى مثل قوله : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ ، (سورة القصص ١٢)وقوله:﴿ إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾، (سورة المائدة : ٢٦) . وقوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون ﴾ ، (سورة الأنبياء:٩٥) .والدينى مثل قوله:﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، (سورة المائدة : ٣) . وقوله . ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم وأخواتكم ﴾، (سورة النساء : ٢٣) .

والـكلمات الـكونية مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم . « أعوذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر » ومنه قوله تعالى : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

والدينية : مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » ومنه قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : تفرق أهل الـكتاب فى النبي صلى الله عليه وسلم ، كل يقول فيه قولا هو نظير تفرق سائر الـكفار ، فإن الـكفار بالأنبياء من عادتهم أن تقول كل طائفة فيه قولا يناقض قول الطائفة الأخرى ، وكذلك قولهم فى الـكتاب الذى أنزل عليه ، وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة ، وهذا هو الاختلاف المذموم الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة هود : ١١٩] . وفى قوله : ﴿ إنـكم لفى قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾ ، [سورة الذاريات : ٨] . وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٦] . وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٠٥ ، ١٠٦] . وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

ومثال أقوال الـكفار فى الأنبياء ما ذكره تعالى فى قوله : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليـكون للعالمين نذيرا * الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا * واتخذوا

من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ، ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا * وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما * وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحور * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان ١ ـ ٩] .

فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة ضلوا فيها عن الحق ، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق ، وضرب لأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين ، وجعله فى تلك الأنواع التى ليس هو منها ولا مماثلا لأفرادها مثل قولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤] . مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتريه ، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره ، فيقرأ عليه طرفى النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله ومثلوه بالمسحور ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٤٥ ـ ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إنى أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون *

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ ، [سورة الحجر : ٨٧ ـ ٩٦] .

قال كثير من السلف : الذين جعلوا القرآن عضين : هم الذى عضهوه ، فقالوا سحر ، وشعر ، وكهانة ونحو ذلك ، كما قال تعالى: ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [الحاقة : ٣٨ـ ٥٢] . وقال تعالى: ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور : ٢٩ ـ ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لفى زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون * أفبعذابنا يستعجلون ، أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون * وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ، (سورة الشعراء ١٩٢ ـ ٢٠٩) ثم قال تعالى : ﴿ وماتنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون * فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون * وتوكل

على العزيز الرحيم • الذى يراك حين تقوم • وتقلبك فى الساجدين • إنه هو السميع العليم * هل أنبئكم على من تنزل الشياطين • تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ *وأنهم يقولون مالا يفعلون* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٠ ـ ٢٢٧] وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون * وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون • بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون • وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم مافى السموات والأرض ، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون . ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦ ـ ٥٥] وقال تعالى: ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون* فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور . ٣٤ ، ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة يونس : ٣٨] ، وقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون؟ ﴾،

[سورة هود ١٤] . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤] . وقال تعالى: ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ ، [سورة الذاريات : ٤٩ ـ ٥١]

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن هذه سنة الكفار فى الأنبياء قبله كما قال : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٢،٥٣] ، وقال تعالى . ﴿ مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ﴾ ، [سورة فصلت . ٤٣] . وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون ﴾ ، [سورة الأنعام ١١٢] .

وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام : إنه ساحر ، وإنه مجنون ، فقال فرعون : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » ، [سورة الشعراء : ٢٧] . وقوله : « وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك » ، [سورة الزخرف : ٥٩] وقوله : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » ، [سورة طه : ٧١] وكذلك قالوا عن المسيح بن مريم كما قال تعالى : « وقال المسيح يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » ، [سورة الصف : ٦] .

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتاناً عظيما : فقول اليهود فى

المسيح من جنس أقوال الـكفار فى الأنبياء ، وكذلك قول كفار أهل الـكتاب فى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم تسليما

وإن قالوا : نحن مقصودنا بيان تناقضه وأن كلامه ينقض بعضه بعضاً .

قيل : فهذا أيضاً يستلزم أنه ليس رسولا صادقاً ، فلا يصح لـكم الاحتجاج بشىء من قوله على هذا التقدير ، وإن كنا نحن نبين أنه — ولله الحمد — قوله يصدق بعضه بعضاً ، وكذلك يصدق قول الأنبياء قبله ، وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل ، فلا يتناقض شىء من الحق المعلوم بسمع أو عقل ، فإذا علم هذا فنقول بعد ذلك لمن قال إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الـكتاب : إنه من المعلوم بالضرورة لـكل من علم أحواله و بالنقل المتواتر الذى هو أعظم تواتراً مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما ، و بالقرآن المتواتر عنه وسنته المتواترة عنه ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ، أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه أرسل إلى أهل الـكتاب اليهود والنصارى ، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين رسولا ، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بنى آدم: عربهم وعجمهم من الروم، والفرس والترك ، والهند ، والبربر ، والحبشة ، وسائر الأمم ، بل إنه أرسل إلى الثقلين الجن والإنس جميعاً ، وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه ، التى اتفق على نقلها عنه أصحابه — مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم — وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصى عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى ، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عدداً ثم ذلك منقول قرناً بعد قرن إلى زمننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما أخبر بذلك قبل أن يكون ، فقال فى الحديث الصحيح: «زويت إلىَّ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » وكان كما أخبر ، فبلغ ملك أمته طرفى العمارة مشرقاً ومغرباً ، وانتشرت دعوته فى وسط الأرض ، كالإقليم الثالث والرابع والخامس ؛ لأنهم

أكمل عقولا وأخلاقاً ، وأعدل أمزجة ، بخلاف طرفى الجنوب والشمال ، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم ، وانحرفت أمزجتهم .

أما طرف الجنوب، فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم، فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم .

وأما أهل طرف الشمال فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم ، بل صارت فجة فأفرطوا فى سبوطة الشعر والبياض البارد الذى لا يستحسن .

ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة وهم أعدل بنى آدم وأكملهم ، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولا وأخلاقاً ، وأما النصارى المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقص عقولا وأخلاقاً ، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام .

والمقصود : أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به ، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم، وهو الذى أخبر عن الله تبارك وتعالى يكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم ، وبأنهم يصلون جهنم وساءت مصيراً ، وهو الذى أمر بجهادهم ودعاهم بنفسه ونوابه ، وحينئذ فقولهم فى الكتاب لم يأت إلينا ، بل إلى الجاهلية من العرب ، سواء أرادوا به أن الله بعثه إلى العرب ولم يبعثه إلينا أو أرادوا أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا. فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمداً دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم ، فإذا قيل مع هذا إنه قال : لم أبعث إلا إلى العرب ، كان كذباً ظاهراً عليه ، سواء صدقه الإنسان أو كذبه ؛ فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به ، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين .

أما اليهود : فإنهم كانوا جيرانه فى الحجاز وبالمدينة وما حولها وخيبر ، فإن

المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال ، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به ، وقد حصل من الأذى في الله لمن آمن بالله ماهو معروف في السيرة ، وقد آمن به في حياته كثير من اليهود والنصارى بعضهم بمكة و بعضهم بالمدينة ، وكثير منهم كانوا بغير مكة والمدينة ، فلما قدم المدينة عاهد لمن لم يؤمن به من اليهود ، ثم نقضوا العهد ، فأجلى بعضهم وقتل بعضهم لمحاربتهم لله ورسوله ، وقد قاتلهم مرة بعد مرة ؛ قاتل بنى النضير ، وأنزل الله تعالى فيهم سورة الحشر ، وقاتل قريظة عام الأحزاب ، وذكرهم الله فى سورة الأحزاب ، وقاتل قبلهم بنى قينقاع ، و بعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان ، الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة . ففتح الله عليهم خيبر وأقر اليهود فيها فلاحين ، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك ، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أرسل إلا إلى مشركى العرب وهذه حال اليهود معه

وأما النصارى ، فإن أهل نجران — التى باليمن — كانو نصارى، فقدم عليه وفدهم ستون راكباً وناظرهم فى مسجده وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولما ظهرت حجته عليهم ، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم ، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾،[سورة آل عمران : ٦١].فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا فاشتوروا ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون أنه نبى وأنه ما باهل قوم نبيا إلا نزل بهم العذاب ، فاستعفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون ؛ لما خافوا من دعائه عليهم ، لعلمهم أنه نبى فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين فى بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله وأدوا إليه الجزية عن يدوهم صاغرون ، وهم أول من أدى الجزية من النصارى ، واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصارى ، وكتب له كتاباً

مشهوراً يذكر فيه شرائع الدين فكانوا فى ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصارى — رضى الله عنه — وقصتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، وأهل الحديث ، وأهل الفقة ، وأصل حديثهم معروف فى الصحاح وفى السنن كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ماجرى صدر سورة آل عمران ، وذكر تعالى فرض الحج بقوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . وهذا أنزل إما سنة تسع وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم :القاضى أبو يعلى وغيره

قالوا وجوب الحج ثبت بقوله ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ روى أنه نزل فى سنة عشر ، وروى أنه نزل فى سنة تسع ، وهذا قول جمهور العلماء .

قالوا : إن فرض الحج إنما ثبت بهذه الآية ، وقال بعضهم : بل ثبت ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٩٦] وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت وصالحهم ذلك العام وبايع المسلمين تحت الشجرة ، وأنزل الله فيها سورة الفتح ، ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع ، وفيها قدم عليه جعفر بن أبى طالب مع وفد الحبشة ، ثم أرسل جعفرا ، وزيدا،وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤته ، ثم فتح مكة سنة ثمان فى رمضان ، ثم فى أثناء سنة تسع غزوا النصارى إلى تبوك ، وفيها حج أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وأردفه بعلى بن أبى طالب —رضى الله عنه—لنبذ العهود ، وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، [سورة التوبة : ٥] .

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ﴾، [سورة التوبة : ٢]

فإن المشركين كانوا نوعين : نوعاً لهم عهد مطلق غير مؤقت ، وهو عقد جائز غير لازم ، ونوعاً لهم عهد مؤقت فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق ؛ لأن هذا العهد جائز غير لازم ، وأمره أن يسيرهم أربعة أشهر ، ومن كان له عهد مؤقت فهو عهد لازم ، فأمره الله أن يوفى له إذا كان هو مؤقتاً ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة . وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للامام أن يفسخ الهدنة المؤقتة مع قيامهم بالواجب ، والصواب هو القول الثالث ، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة .

فأما المطلقة فجائزة غير لازمة يخير بين إمضائها و بين نقضها .

والمؤقتة لازمة ، قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ،إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا

عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون* وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ، [سورة التوبة : ١ ـ ١٣] .

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارى «السيد والعاقب ومن معهما» .

قال أبو الفرج بن الجوزى : ثم دخلت سنة عشر من الهجرة فمن الحوادث فيها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث ابن كعب ، فروى ابن إسحاق قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى من سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم * وذكر القصة ، ثم قال : وفيها قدم وفد الأزد ، وفيها قدم وفد غسان ، وفيها قدم وفد زبيد ، وفيها قدم وفد عبد القيس ، قال ابن إسحاق : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو فى وفد عبد القيس وكان نصرانياً فأسلموا ، وفيها قدم وفد كندة فأسلموا ، وفيها قدم وفد بنى حنيفة ، وفيها قدم وفد بجيلة قال : وفيها قدم العاقب والسيد من نجران ، فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب صلح .

وذكر محمد بن سعد فى الطبقات قدومهم فى ذكر الوفود فقال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب ذكره بإسناده : أنبأنا محمد بن عمر ، حدثنى إبراهيم بن موسى المخزومى عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه ، ثم ذكر قدوم

نصارى نجران من طريق على بن محمد فقال : أنبأنا على بن محمد القرشى وهو المدائنى المشهور ، فقال : أخبرنا على بن محمد عن أبى معشر عن يزيد بن رمان ومحمد بن كعب قال : أنبأنا على بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهرى ، وعكرمة بن خالد ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وأنبأنا يزيد بن عياض بن جعدية عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض قالوا : ووفد فلان وفلان فى رجال من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ماهدم جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ ذا الخلصة وقتل من قتل من خثعم ، فقالوا : آمنا بالله ورسوله فا كتب لنا كتاباً ، وذكروا القصة : وقدوم وفود متعددة ، قالوا: وقدم وفد الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خمسون رجلا فيهم أبو موسى وذكر قصتهم ، قالوا:وقدم وفد حضرموت مع وفد كندة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قصتهم ، قالوا : وقدم وفد أزد عمان ، قالوا : وقدم وفد غافق » قالوا : وقدم وفد دوس ، وقدم وفد حزام ووفد حمير ، قالوا : وقدم وفد نجران ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارى وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم :

العاقب ، واسمه عبد المسيح رجل من كندة وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه ، وأبو حارثة أسقفهم و إمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد وهو صاحب رحلتهم فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير ، فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم » ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنهم فلم يكلمهم ، فقال لهم عثمان . ذلك من أجل زيكم هذا ، فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه ، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم » فانصرفوا على ذلك فغدا عبد المسيح

ورجلان من ذوى رأيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك ، فصالحهم على ألفى حلة فى رجب ، وألف فى صفر ، أو قيمة كل حلة من الأواق ، وعلى عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد .

ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ، وملتهم ، وأرضهم ، وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم و بيعهم لا يغير أسقف من سقيفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا واقف من وقفانيته وأشهد على ذلك شهوداً منهم : أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة ، فرجعوا إلى بلادهم ، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما وأنزلها دار أبى أيوب الأنصارى ، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى قبضه الله —صلوات الله عليه وسلم ورحمته ورضوانه — ثم ولى أبو بكر الصويق — رضى الله عنه — فكتب بالوصاة بهم عند وفاته ، ثم أصابوا ربا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم ، وكتب لهم هـذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله لا يضرهم أحد من المسلمين ، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من خراب الأرض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم ، فكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم .

أما بعد فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا ، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التى اعتملوا غير مظلومين ولا ممسوف عليهم ، شهد عثمان بن عفان ومعيقيب بن أبى فاطمة فوقع ناس منهم العراق ، فنزلوا النجرانية التى بناحية الكوفة .

وما ذكره ابن سعد عن علي بن محمد المدائني عن أشياخه في حديث وفد نجران فهو يوافق ما ذكره بن إسحاق فإن قوله أربعة عشر من أشرافهم يوافق قول ابن إسحاق عن محمد بن جعفر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح . والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ونجعتهم واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس،وبسطوا له الكرامات،لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم ، فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة فعثرت بغلة أبي حارثة فقال كرز تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو حارثة ، بل أنت تعست فقال لم ياأخي ؟ قال: والله ،إنه للنبي الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما منعك منه وأنت تعلم هذا ؟قال:ما صنع بنا هؤلاء القوم ،شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك وهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغني .

قال ابن هشام : وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي قبله ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي فعثر ، فقال ابنه تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه : لا تفعل فإنه نبي واسمه في الوضائع ـ يعني : الكتب ـ

فلما مات لم يكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو يقول :

إليك تغدو قلقاً وضينها*معترضاً فى بطنها جنينها*مخالفا دين النصارى دينها*

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعوهم فصلوا إلى المشرق ، قال ابن إسحاق وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح . والسيد وهو الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل . وأوس . والحارث . وزيد . وقيس . ويزيد و بنيه وخويلد . وعمرو . وخالد . وعبد الله . ويحنس . فى ستين راكبا فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبوحارثة بن علقمة . والعاقب عبدالمسيح والأيهم السيد . وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم فى أمرهم يقولون ، هو الله و يقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصارى ، فهم يحتجون فى قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس . ويحتجون فى قولهم إنه ولد الله فإنهم يقولون لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد وهذا شىء لم يصنعه أحد من ولد آدم . ويحتجون فى قولهم ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم ففى كل ذلك من أقوالهم قد نزل القرآن فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « أسلما قالا قد أسلمنا ، قال « إنكما لم تسلما فأسلما » . قالا : بل قد أسلمنا قبلك ، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولداً ، وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فلم يجبهما » فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلافهم فى أمرهم كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية ، وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد مثلما ذكره محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره قال حدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا ابن أبى جعفر - يعنى عبد الله بن أبى جعفر الرازى - عن أبيه عن الربيع فى قوله تعالى : ﴿ ألم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ ، ٢] . قال : إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : نعم ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حىٌّ لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا ، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم ؟ قالوا لا . قال : فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء . قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ؛ ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ قال فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا » فأنزل الله ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

وقد ثبت فى الصحاح حديث وفد نجران ففى البخارى ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلى .

وفى البخارى عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فلا تبعث معنا إلا أميناً ، قال : لأبعثن معكم رجلا أمنياً حق أمين . قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أمين هذه الأمة » .

وفى سنن أبى داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامى حدثنا يونس — يعنى ابن بكير — حدثنا أسباط بن نصير الهمدانى عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى ، عن ابن عباس قال : صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفى حلة : النصف فى صفر ، والنصف فى رجب ، يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات عذر . على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم مالم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا قال إسماعيل : فقد أكلوا الربا قال أبو داود . إذا نقضوا بعض ما شرط عليهم ، فقد أحدثوا ، وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الأموال » ذكره من طريقين .

قال أبو عبيد رحمه الله حدثنا أبو أيوب الدمشقى قال حدثنى سعدان بن يحيى عن عبد الله بن أبى حميد عن أبى المليح الهذلى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران فكتب له كتاباً (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن فى كل سوداء و بيضاء وصفراء وحمراء أوثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم ، ألفى حلة : فى كل صفر ألف حلة ، وفى كل رجب ألف حلة ، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقى فليحسب ، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب، وعلى أهل نجران أن يقروا رسلى عشرين ليلة فمادونها ، وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيرا ، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة ، وما هلك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم و بيعهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ، ولا واقها من وقيهاه ، ولا راهباً من رهبانيته. وعلى أن لا يحسروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ومن ملك منهم حقاً فالنصف بينهم وهذا لنجران على أن لا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم . شهد عثمان بن عفان ومعيقيب) .

قال أبو عبيد الواقه ولى العهد فى لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه .

قال أبو عبيد : قال أبو أيوب ، وحدثنى عيسى بن يونس ، عن عبد الله ابن أبى حميد ، عن أبى المليح عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وزاد فى حديثه قال : فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب لهم كتاباً نحواً من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ولى عمر بن الخطاب

ـ رضى الله عنه ـ أصابوا الربا فى زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم أما بعد : فمن وقعوا به من أمراء الشام أوالعراق فليوسعهم من خراب الأرض، وما اعتملوا من شىء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم ، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية .

قال أبو عبيد : وهى قرية بالكوفة ، وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة .أما بعد : فإن العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتونى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرونى شرط عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأنى أنه قد كان بحث على ذلك فوجده صار للدهاقين ، فنزعهم عن أرضهم ، وإنى قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتى حلة لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم وإنى أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

قال أبو عبيد : وحدثنا عثمان بن صالح عن عبدالله بن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب لأهل نجران من محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحو هذه النسخة وليس فى حديثه قصة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفى آخره ، شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نصر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة ابن شعبة .

قال أبو عبيد حدثنى سعيد بن عفير ، عن يحيى بن أيوب، عن يونس بن يزيد الأيلى ، عن ابن شهاب قال: أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى .

فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ [سورة آل عمران ٦٤]

وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل مع دحية الكلبى مدة هدنته للمشركين وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح ، ونزول آية الجزية كان بعد الفتح

سنة تسع ، فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة ، وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة - قد علم يقينا أنها نزلت فى قصة قدوم وفد نجران - والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران ، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل .

ونقل أهل المغازى والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية . وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة ، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التى هى آية الجزية .

قال الزهرى : أهل نجران أول من أدى الجزية وقوله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم﴾ بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله ﴿ ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [سورة آل عمران : ٧٠، ٧١] . فيكون هذا مماتقدم نزوله وتلك مماتأخر نزوله ، وجمع بينهما للمناسبة كما فى نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يضعها فى مواضع تناسبها ، وإن كان ذلك مما تقدم . ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿قل ياأهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ لفظها يعم اليهود والنصارى كذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء للطائفتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بها اليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية ، ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ولكن لما بعث معاذاً لليمن - وكان كثير من أهلها يهوداً - أمر أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافراً وهذا كان متأخره بعد غزوة تبوك ، وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن . قال ابن أبى حاتم فى تفسيره . حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد ، حدثنا الضحاك بن عبدالرحمن بن حوشب وغيره، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى (إليون) طاغية الروم قال فيما أنزل الله على محمد

صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل يا أهل الكتاب ـ يعنى اليهود والنصارى ـ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ،[سورة آل عمران : ٦٤] .

وروى بإسناده عن ابن جريج فى قوله تعالى : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ قال : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم ، وكذلك سائر الآيات التى فيها خطاب للطائفتين ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٥ـ٦٧]

ومما ينبغى أن يعلم ، أن أهل نجران المذكورة ، نجران اليمن لا نجران الشام، وأهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة، وكان منهم مسلمون ـ وهم الأكثرون ـ والنبى صلى الله عليه وسلم بعث أبى عبيدة لهؤلاء وهؤلاء ،واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء ، كما أخرجا فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أمينا و إن أميننا أيها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وعن أنس أيضاً : أن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث معنا رجلا أمينا يعلمنا السنة والإسلام ، فأخذ بيد أبى عبيدة ابن الجراح فقال : « هذا أمين هذه الأمة » .

وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيا رسول الله ابعث إلينا رجلا أميناً فقال : « لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين» قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث أبا عبيدة ابن الجراح .

وللبخاري عن حذيفة قال : جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما للآخر : لا تفعل فوالله لإن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا فالا . إنا نعطيك ماسألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فقال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم يا أباعبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أمين هذه الأمه » .

وكذلك استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عليهم عمرو بن حزم. وكتب له الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن ، وقد رواه النسائي بطوله وروى الناس بعضه مفرقاً ، ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان ، فدل على أن قدومهم كان متأخراً ،ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم في أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجمع بين خبر اليهود والنصارى ، وذكر في سنة عشر فتح نجران وإرسال النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأربعة أشهر ، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام ، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى ، فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك ، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى ، آية الجزية هي قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] . وهذه آية السيف مع أهل الكتاب ، وقد ذكر فيها قتالهم إذ لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ من أحد الجزية إلا بعد هذه الآية ، بل قالوا : إن أهل نجران أول من أخذت منهم الجزية ، كما ذكر ذلك أهل العلم ، كالزهري وغيره ، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبي صلى الله عليه وسلم الجزية على أحد قبل نزول هذه الآية ، لا من الأميين ولا من أهل الكتاب ، ولهذا لم يضربها على يهود

قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، ولا ضربها على أهل خيبر ، فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية ، وأقرهم فلاحين وهادنهم هدنة مطلقة قال فيها : « نقركم ما أقركم الله » فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران علم أن قدومهم عليه ، ومناظرته لهم ، ومحاجته إياهم ، وطلبه المباهلة معهم ، كانت بعد آية السيف التى فيها قتالهم ، وعلم بذلك أن ما ذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم محكم لم ينسخه شيء ، وكذلك ما ذكره تعالى من مجادلة الخلق مطلقاً بقوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ، [سورة النحل : ١٢٥] . فإن من الناس من يقول : آيات المجادلة والمحاجة للكفار ، منسوخات بآية السيف ؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافى المجادلة المشروعة وهذا غلط ، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام فى الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام ، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يوم مسكيناً ، ومناقضة نهيه عن تعدى الحدود التى فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، ومناقضة قوله لهم : كفوا أيديكم عن القتال لقوله قاتلوهم ، كما قال تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ، [سورة النساء : ٧٧] . فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم ، فأما قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » [سورة النحل : ١٢٥] . وقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » [سورة العنكبوت : ٤٦] . فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهى عنه والاقتصار على المجادلة .

فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به ، فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ، ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر ، وأن استعمالها جميعاً أبلغ فى إظهار الهدى ودين الحق ، ومما يبين ذلك وجوه :

أحدها : أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال ، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتى هى أحسن ، وليس هو داخلا فيمن أمر الله بقتاله .

الثانى : أنه قال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا » [سورة العنكبوت : ٤٦] . فالظالم لم يؤمر بجداله بالتى هى أحسن ، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين ، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتى هى أحسن ، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم ، سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقاً ، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه ، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتى هى أحسن ، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاء له بموجب عمله .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] . فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمره الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه ، ثم يبلغه مأمنه وهذا فى سورة براءة التى فيها نقض العهود وفيها آية السيف ، وذكر هذه الآية فى ضمن الأمر بنقض العهود ؛ ليبين سبحانه أن مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة ، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ثم «أبلغه مأمنه» إن لم يوافقه مانقص عليه

ونخبر به فأبلغه مأمنه قال : وليس هذا بمنسوخ ، وقال مجاهد : من جاءك واستمع ما تقول واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك ، وقال عطاء فى الرجل من أهل الشرك يأتى المسلمين بغير عهد قال : خيره إما أن تقره ، وإما أن تبلغه مأمنه .

وقوله تعالى : ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] . قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعاً يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى ، فلو كان غير عربى لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة ، ولو كان عربياً وفى القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته ، وجب أن نبين له معناها ، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه ، فعلينا ذلك . وإن سألنا عن سؤال يقدح فى القرآن أجبناه عنه، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن ؛ فإنه كان يجيبهم عنه كما أجاب ابن الزبعرى لما قاس المسيح على آلهة المشركين وظن أن العلة فى الأصل بمجرد كونهم معبودين ، وأن ذلك يقتضى أن كل معبود غير الله فإنه يعذب فى الآخرة ، فجعل المسيح مثلا لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل .

قال تعالى: ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] . فبين سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ، [سورة الأنبياء: ١٠١]. وبين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلا محضاً لا يوجب علماً ؛ لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل ، فإن الأصنام إذا جعلوا حصباً لجهنم ، كان ذلك إهانة وخزياً لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب ، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم ، فإن هذا لا يفعله الله تعالى ، لا سيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل

ـ سلفهم وخلفهم ـ الذين يقولون : إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته ، ولا يحمل عليه سيئات غيره ، بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال رسول إليه ، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ ، [سورة طه : ١١٠] . وقال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » ، [سورة الجن : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعلمون ؟ » ، [سورة النمل : ٩٠] . وقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، [سورة الإسراء : ١٥] .

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل : إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء ، وأن الظلم هو الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة ، فهؤلاء يقولون : إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله ، وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين فى الجنة لا يعذبهم فى النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا و يتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهته لفعلهم ونهيهم عن ذلك ، ومن زعم أن لفظ «ما» كانت تتناول المسيح وأخر بيان العام ، أو أجاب بأن لفظ « ما » لا يتناول إلا مالا يعقل بالقولان ضعيفان ، كما قد بسط فى موضعه و إنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياس فاسد ، فبين الله تعالى فساد القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع ، وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى: ﴿ يا أخت هارون ﴾ . [سورة مريم :٢٨] ظناً منه أن هارون هذا : هو هارون أخو موسى بن عمران ، وأن عمران هذا : هو عمران أبو مريم أم المسيح ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . أجاب : بأن هارون هذا ليس هو ذاك ، ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين . وبعض جهال النصارى يقدح فى القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المفرط فى جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدة طويلة جداً يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالى المسيح، وأن هذا

مما لا يخفى على أقل أتباع محمد صلى الله عايه وسلم ، فضلا عن أن يخفى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا السؤال مما أورده أهل نجران ، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : ألستم تقرءون «ياأخت هارون» ، وقد علمتم مابين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أجيبهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم ؟ » .

وهذا السؤال الذى هو سؤال الطاعن فى القرآن لما أورده أهل نجران الكفار على المغيرة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم عنه أجاب عنه النبى صلى لله عليه وسلم ، ولم يقل لهم .ليس لكم عندى إلا السيف ، ولا قال.قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه ، وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولا إلا والجهاد مأمور به ، وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه كما أورد عليه عمر عام الحديبية لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى، أقلت لك إنك تأتيه فى هذا العام ؟قال :لا قال : فإنك آتيه ومطوف به ، وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبى صلى الله عليه وسلم له ؛ ومعلوم أنه ليس فى ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام ؛ ولكن السائل ظن مالا يدل اللفظ عليه ؛ وكذلك لما قال « من نوقش الحساب عذب» قالت له عائشة : ألم يقل الله: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابًا يسيرا ﴾ ، [سورة الانشقاق : ٧ ، ٨] . فقال ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب ، ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش ؛ وقد زادها بيانًا ، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة وكذلك لما قال : إنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، قالت له حفصة ألم يقل الله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، [سورة مريم : ٧١] . فأجابها بأنه قال : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » ، [سورة مريم : ٧٢] .

فبين صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم ، وهذا الدخول هو الذى نفاه عن أهل الحديبية ، وأما الورود : فهو مرور الناس على الصراط كما فسره فى الحديث الصحيح حديث جابر بن عبد الله ، وهذا المرور لايطلق عليه اسم الدخول الذى تجزى به العصاة وينفى عن المتقين ومثل هذا كثير .

وأما مافى القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها ، فهذا كثير جداً ، فإنه يجادلهم تارة فى التوحيد ، وتارة فى النبوات ، وتارة فى المعاد ، وتارة فى الشرائع بأحسن الحجج وأكملها ، كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا*ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] .

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أولى العزم من الرسل بمجادلة الكفار ، فقال تعالى عن قوم نوح ، ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ ، [سورة هود : ٣٢] وقال عن الخليل : ﴿ وحاجة قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ـ إلى قوله ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ [سورة الأنعام ٨٠ ـ ٨٣]

وأمر تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالمجادلة بالتى هى أحسن ، وذم سبحانه من جادل بغير علم أو فى الحق بعد ما تبين ومن جادل بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ ويجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال تعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] . وهذا هو الجدال المذكور فى قوله : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ . [سورة غافر : ٤]

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال ،

وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه ، والمراد بذلك تبليغه رسالات الله وإقامة الحجة عليه ، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذى تقوم به الحجة ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقا .

الوجه الرابع : إن القائل إذا قال : إن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعى نسخه منسوخة بآية السيف قيل له : ما تعنى بآية السيف ؟ أتعنى آية بعينها أم تعنى كل آية فيها الأمر بالجهاد ؟

فإن أراد الأول ، كان جوابه من وجهين :

أحدها : أن الآيات التى فيها ذكر الجهاد متعددة ، فلا يجوز تخصيص بعضها .

وإن قال : أريد قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ،فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، [سورة التوبة : ٥] .

قيل له : هذه فى قتال المشركين ، وقد قال بعدها فى قتال أهل الكتاب : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة ، ٢٩]. فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه .

وإن قال : كل آية فيها ذكر الجهاد .

قيل له : الجهاد شرع على مراتب ، فأول ما أنزل الله تعالى فيه الإذن فيه بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله نصرهم لقدير ﴾ ، [سورة الحج : ٣٩] .

فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، [سورة البقرة ، ٢١٦].

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال : ﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق،أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم،فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ ، [سورة النساء : ٨٩ ، ٩٠] .

وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله ، وإن كانت الهدنة عقداً جائزاً غير لازم ، ثم أنزل الله فى « برآءة » الأمر بنبذ العهود ، وأمرهم بقتال المشركين كافة ، وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولم يبح لهم ترك قتالهم و إن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم .

فإن قيل : آية للسيف التى نسخت المجادلة هى آية الإذن .

قيل . فآية الإذن نزلت فى أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئاً من السرايا ، وقد جادل بعد هذا الكفار .

وكذلك إن قيل . آيات فرض القتال ، قيل كقوله ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، [سورة البقرة ، ٢١٦] . نزلت فى البقرة أول الأمر قبل بدر،وقيل. لاريب أن الجهاد كان واجباً يوم أحد والخندق وفتح خيبر ومكة،وقد ذكر الله آيات فرض الجهادفى هؤلاء المغازى، كما ذكر ذلك فى سورة آل عمران والأحزاب، فإن قيل بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم

قيل : هذا باطل ، فإن الجدال إن كان منافياً للجهاد ، فهو مناف لإباحته ولإيجابه ولو للمسالم ، وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمسالمين ، كما لم يناف يجاب جهاد غيرهم

فإن المسالم قد لا يجادل ولا يجالد ، وقد يجادل ولا يجالد ، كما أن غيره قد يجادل و يجالد وقد يفعل أحدهما ، فإذا كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدىء بالقتال

لا ينافى مجادلته ، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ بالقتال لا ينافى مجادلته أولى وأخرى ، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالا . يبين هذا .

الوجه الخامس : هو أن يقال المنسوخ ... صار على الجدال ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر مأموراً ان يجاهد الكفار بلسانه لا بيده ، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيرا قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا ﴾ ، (سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢) . وكان مأمورا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك ، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له فى الجهاد ، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم ؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار ، فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب ، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت ، وأمره بنبذ العهود المطلقة ، فكان الذى رفعه ونسخه ترك القتال .

وأما مجاهدة الكفار باللسان ، فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره ، فإنه إذا شرع جهادهم باليد ، فباللسان أولى ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم » وكان ينصب لحسان منبرا فى مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال ، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب ؟

الوجه السادس : إنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة ، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال ، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقاً وجوباً أصلياً .

وأما الجهاد : فمشروع للضرورة ، فكيف يكون هذا مانعاً من ذلك ؟

فإن قيل : الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم تبق حاجة إلى إظهار آياته، وإنما يحتاج إلى السيف .

قيل : معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان ، فقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ،[سورة الصف : ٩] .

وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا . ولفظ الظهور يتناولها فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل ، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثلاث عشرة سنة ، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين ، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختيارا بغير سيف ، لما بان لهم من الآيات البينات ، والبراهين والمعجزات ، ثم أظهره بالسيف فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعاً ، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداءودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى .

فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته ، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف ، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين ، مع أن كثيرا من الكفار لم يقهره سيفه ، فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون حججهم على بطلانه ، ولا سيما والمقهرون بالسيف فيهم منافقون كثيرون ، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان يؤكد هذا .

الوجه السابع : وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم ، فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالماً متعدياً ، ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين

له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالما .

وأما المجادلة فقد تكون لظالم ، إما طاعن فى الدين بالظلم ، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة فامتنع من قبولها ، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه، أما من بلغه بعض أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته ، ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافى ذلك ، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات ، وأما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذى يعلم به ذلك ، فإذا كان القتال الذى لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً ، فالمجادلة التى تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وامتناع غيره مشروعة بطريق الأولى . قال مجاهد : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾

قال : الذين ظلموا : من قاتلك ولم يعطك الجزية ، وفى لفظ آخر عنه قال : الذين ظلموا : منهم أهل الحرب من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف .

وفى رواية عنه قال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ولم يعط الجزية .

وفى رواية عنه قال . من أدى منهم الجزية فلا تقولوا لهم إلا خيراً ، وعن مجاهد : إلا بالتى هى أحسن ، فإن قالوا : شراً فقولوا :خيراً ، فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهو قول أكثر المفسرين .

قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم : ﴿ ولو تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾. ليست منسوخة، ولكن عن قتادة قال: نسختها : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ولا مجادلة أشد من السيف ، والأول أصح ؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد فى أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة مايبلغ نحو ثمانين سؤالا ، وأجابوا

عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً فى المسائل الظنية ، بل هى إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين ، وهم كما مثلهم الغزالى وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به ، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها ، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب فى الإيمان بالنبوة اضطراباً ليس هذا موضع بسطه ، وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التى هى غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها ، إما عجزاً وإما تفريطاً .

الوجه الثامن : أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات ، فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقيل لهم : ليس لكم جواب إلا السيف ، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب ، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام ، وأنه ليس دين رسول من عند الله ، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف .

الوجه التاسع : إنه من المعلوم أن السيف لا سيما سيف المسلمين وأهل الكتاب هو تابع للعلم والحجة ، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم ، والسيف من جنس العمل ، والعمل أبدا تابع للعلم والرأى .

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ماخالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام ، واجتثاث لأصل غيره من الأديان التى يقاتل عليها أهلها ، ومتى ظهرت صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين :

إما رجل تبين له الحق فاتبعه ، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل.

وإما رجل لم يتبعه ، فهذا رجل قامت عليه الحجة ؛ إما لكونه لم ينظر فى أعلام الإسلام ، أو نظر وعلم فاتبع هواه أو قصر ، وإذا قامت عليه الحجة كان أرضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار ، وإذا قدر أن

فيهم من يعجز عن فهم الحجة ، فهذا إذاً لم يكن معذوراً مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر ، وإن كان معذوراً مع قيامها فهو مع عدمها أعذر ، فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر ، وقد قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ، [سورة الاسراء: ١٥] . قال تعالى :﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء: ١٦٥] . وقال تعالى : ﴿ فالملقيات ذكراً ۝ عذراً أو نذراً ﴾ ، [سورة المرسلات : ٥،٦] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » .

فصل

وكان قبل قصة نجران قد آمن بالنبي كثير من اليهود والنصارى رؤسائهم وغير رؤسائهم لما تبين لهم أنه رسول الله إليهم كما آمن به النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانياً هو وقومه ، وكان إيمانه به في أول أمر النبي صلى الله عليه وسلم لما كان أصحابه مستضعفين بمكة ، وكان الكفار يظلمونهم و يؤذونهم و يعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله ، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم من الرجال والنساء إلى بلده وكان ملكا عادلا ، فأرسل الكفار خلفهم رسلا إلى أرض الحبشة ـ أرض النجاشي ـ بهدايا ليردهم إليهم . فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم ، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبي صلى الله عليه وسلم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وآواهم .

ولما سمع القرآن قال : إن هـذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . ولما سألهم عن قولهم في المسيح عليه السلام قالوا : نشهد أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يمسها رجل ، فقال النجاشي

لجعفر بن أبى طـالب : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت هـذا العود فنخرت أصحابه ، فقـال : وإن نخرتم ، وإن نخرتم . وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم مع جعفر بن أبى طالب ، وقدم جعفر على النبى صلى الله عليه وسلم عام خيبر ، وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ ، كأحمد بن حنبل فى المسند ، وابن سعد فى الطبقات ، وأبى نعيم فى الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير ، والحديث ، والفقه ، وهى متواترة عند العلماء .

قال أحمد : حدثنى يعقوب بن إبراهيم بن سعيد عن أبيه قال : حدثنـا محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، عن أبى بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ـ ورضى عنها ـ قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشى) آمنا على ديننـا ، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نـكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مـكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[1] فجمعوا له أدما كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعـة بن المغيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأمروهما أمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تـكلموا النجاشى فيهم ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم اسألوه أن يسلمهم إليـكم قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا فقدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لـكل بطريق منهم : إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين

---

(١) الأدم : مفردها أديم ، وهو الجلد المدبوغ .

مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردهم إليهم،فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلا بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم ، ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له .

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منك غلمان سفهاء ،فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلا بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامنا .

فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عيناًوأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لا وايم الله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فاسألهم ما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول لله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا اجبتموه ؟ قال : نقول : والله ما علمنا وما جاء به نبيناً كائن فى ذلك ما هو كائن : فلما جاءوه زاد أبو نعيم وقد دعى النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله ، فلما جاءوه فسألهم فقال : ما هذا الدين فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الأمة ؟ .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال .

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنه ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة . والصيام .

قالت فعدد عليه أمور الإسلام ، قال : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدنا علينا قومنا فعذبوا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ،

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ .

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال النجاشي : فأقرأه عليّ ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * و إنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب راضيا * يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب أجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم

الناس ثلاث ليال سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ٭ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وأتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ٭ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ٭ واذكر فى الكتاب مريم إذا أنتبذت من من أهلها مكاناً شرقياً ٭ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا * فكلى وأشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فريا * ياأخت هارون ما كان أبوك أمر سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال بعيد * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ ، [سورة مريم :١ ــ ٤٠] .

قالت أم سلمة – رضى الله عنها – فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج مشكاة واحدة ، ثم قال لعبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص : انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد .

قالت أم سلمة : فلما خرج من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً أعيبهم عنده ، ثم أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة – وكان أتقى الرجلين فينا – لاتفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله فيه ما قاله الله وما جاء به نبينا كائناً فى ذلك ماهو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى يده على الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ماعدى عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، والسيوم: الآمنون. من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ؛ فما أحب أن لى ديراً

ذهباً وأنى آذيت رجلا منكم ــ والدبر بلسان الحبشة: الجبل ــ ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله إنا على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه فى ملكه .

قالت : فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفنا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجلا لايعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

وروى عبد الله بن عامر بن الزبير عن أبيه قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أرضه جاء المهاجرون فقالوا : إنا نحن نخرج إليهم فنقاتل معك وترى حربنا ونجزيك بما صنعت بنا . فقال: ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، يقول: الذى ينصره الله خير من الذى ينصره الناس فأبى ذلك عليهم .

(رجعنا إلى) حديث أم سلمة قالت : وسار النجاشى ــ وبينهما عرض النيل ــ قالت : فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا .

قالت : وكان من أحدث القوم سنا ، قالت : فنفخنا له قربة فجعلها فى صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت . ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى ويلوح بثوبه ويقول . ألا أبشروا قد ظهر النجاشى وقد أهلك الله عدوه .

قالت : فوالله ما علمت فرحنا فرحة مثلها قط .

قالت : فرجع النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى جمل هذه القصة أبو داود فى سننه من حديث أبى موسى .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى قال : بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ،فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهما فى اثنين وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده ، قال جعفر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا وأمرنا ــ يعنى بالإقامة ــ فأقيموا معنا . قال : فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً . قال : فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر فأسهم لنا منها ، وما قسم لأحد غائب عن فتح خيبر غيرنا إلا لمن شهد معنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم .

قال . فلما رأى ناس من الناس يقولون لنا ــ يعنى أهل السفينة ــ سبقنا كم لهجرة ، قال . ودخلت أسماء بنت عميس وهى ممن قدم معنا على حفصة زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء . من هذه ؟ قالت . أسماء بنت عميس ، فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء . نعم . فقال عمر سبقناكم بالهجرة نحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ، فغضبت وقالت . ياعمر كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم وكنا فى أرض البعدالبغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله تبارك وتعالى ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسأله ، الله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فماذا قلت له ؟ قالت : قلت كذا وكذا ، قال : ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث مامن الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو بردة : قالت أسماء فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى . أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم .

وأخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى لهم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه قال : استغفروا لأخيكم » .

وعنه — رضى الله عنه — قال : نعى النبي صلى الله عليه وسلم النجاشى يوم توفى وقال : « استغفروا لأخيكم » ثم خرج بالناس إلى المصلى فصفوا وراءه وصلى علفه وكبر أربع تكبيرات . أخرجاه .

وقال جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشى فكبر عليه أربعاً . أخرجاه فى الصحيحين .

فصل

وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم الوحى عرضت خديجة امرأته أمره على عالم كبير من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل ، وكان من العرب المتنصرة ، فقال هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى بن عمران

يا ليتنى أكون فيها جذعاً حين يخرجك قومك ـ يعنى ليتنى أكون شاباً ـ فإنه كان شيخاً كبيراً قد كف بصره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً » . رواه أصحاب الصحيح .

وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنو به ، فآذاهم المشركون فصبروا واحتملوا أذاهم ، فأنزل الله فيهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ ـ ٥٥] .

وقصتهم مشهورة فى كتب التفسير وغيرها ، وروى البيهقى فى كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة فقال : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار ، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا ـ وهو بمكة أو قريب من ذلك ـ من النصارى حين ظهر خبره فى الحبشة فوجدوه فى المجلس فكلموه وساءلوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم مانعلم ركباً أحمق منكم أو كما قال لهم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألوا لأنفسنا

إلا خيراً ، ويقال — والله أعلم — إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — إلى قوله تعالى — لا نبتغى الجاهلين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ ـ ٥٥]

ولما كان بعد عام الحديبية ومهاذنة قريش أرسل رسله إلى جميع الطوائف ، فأرسل إلى جميع النصارى : نصارى الشام ومصر ، فأرسل إلى هرقل ملك الروم ، وقد قيل : إن هرقل هذا هو الذى زادت النصارى له فى صومهم عشرة أيام لما اقتتلت الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا له خطيئته بما زادوه فى الصوم ، وكانت الفرس مجوساً والروم نصارى ، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا ، وكان هذا فى أوائل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل ، ففرح المشركون بانتصار الفرس ، لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب وساء المسلمين ذلك ؛ لأن أهل الكتاب أقرب إليهم ، فدخل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بانتصار الفرس على الروم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٥] .

وكان هذا مما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون ، فكان كما أخبر ، ولما ذكر ذلك أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على ذلك كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون.

قال سفيان بن سنيد فى تفسيره ـ وهو شيخ البخارى ـ حدثنا حجاج عن أبى الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى أنه قال : لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى

الأرض ـ إلى قوله ـ وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٥] . خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعاً بها صوته:﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آلم ۝ غلبت الروم ۝ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۝ فى بضع سنين ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٤] .

فقال له رءوس أهل مكة : ما هذا ياابن أبى قحافة لعله مما يأتى به صاحبك ؟ قال : لا والله ، ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى ، قالوا : فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، فراهنهم أبو بكر بفتح الله الروم على فارس دون التسع ، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين .

قال ابن مكرم : وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس ؛ لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث ، وأهل أصنام ، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم ؛ لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ۝ بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم ٤ ، ٥] .

وهذا الحديث رواه الترمذى فى جامعه فقال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال : حدثنى ابن أبى الزناد عن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ﴿ ألم ۝ غلبت الروم ۝ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۝ فى بضع سنين ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٤] . فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب .

وذلك قوله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ۝ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم ٤ ، ٥] .

وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ

يصيح فى نواحى مكة : ﴿ الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ .

قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا و بينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد ـ يعنى غريباً من هذا الوجه ـ وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير ، والمغازى ، والحديث ، والفقه ؛ والقصة متواترة عند الناس .

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيره : عن سفيان عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس ؛ لأنهم أهل أوثان . قال : فذكروا ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ فذكره أبو بكر للمشركين ، فقالوا : اجعل بيننا و بينك أجلا ، فإن غلبو كان لك كذا وكذا ، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا ، فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له . « هلا احتطت ، أفلا جعلته دون العشر ؟ » قال سعيد بن جبير . والبضع مادون العشرة ، قال : فغلبت الروم ثم غلبت ، فذلك قوله : ﴿ الم غلبت الروم ﴾ الآية .

وهذا أيضاً أخرجه الترمذى : حدثنا حسن بن حريث ، أنبأنا معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة .

ورواه أيضاً من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ، وقال . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

ورواه أيضاً من حديث الأعمش عن عطية عن أبى سعيد ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر ، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية ـ وهذا هو الصحيح ـ وهرقل كان قد مشى شكراً لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره الله على الفرس ، فوافاه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس ، ففرح النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

قال علماء السير : فلما انتصرت الروم ، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشياً على قدميه إلى بيت المقدس متشكراً لله عز وجل حين رد عليه مارد ليصلى فيه ، فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلى فيه ، قدم عليه حينئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى أبو سفيان قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعنى التى عقدت يوم الحديبية ـ فلما عقدت الهدنة آمنا ، فخرجت فى نفر من قريش تاجراً إلى الشام ، وكان وجه متجرنا ، فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس ، فأخرجهم منها ، وانتزع له صليبه لأعظم وقد كانوا صلبوه إياه ، فلما بلغه ذلك منهم ، و بلغه أن صليبه قد استنقذ له ، وكانت حمص منزله ، فخرج

منها على قدميه متشكراً لله عز وجل حين رد عليه مارد ليصلى فى بيت المقدس و بسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأساقفته الروم ، وقدم عليه كتاب رسول الله صلى عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبى فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى ،أما بعد : فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » ـ يعنى الأكارين ـ .

قال ابن إسحاق ، وقال ابن شهاب : حدثنى أسقف النصارى فى زمان عبد الملك بن مروان زعم لى أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر هرقل وعقله ، قال : لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذه فجعله على خاصرته ، ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ، ويخبره ما جاء منه ، قال : فكتب إليه صاحب رومية أنه النبى الذى ننتظره لاشك فيه فاتبعه وصدقه ، فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له فى دسكرة ملكه ، وأمر بها فاسترخت عليهم أبوابها ، ثم طلع عليهم من علية وخافهم على نفسه وقال : يا معشر الروم إنى قد جمعتكم لخير ، إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه ، وإنه والله للرجل الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا ، فهم فلنتبعه ولنصدقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها ، فوجدوها قد أغلقت دونهم . فقال . كروهم على وخالفهم على نفسه فكروا عليه ، وقال يا معشر الروم ، إنما قلت لكم هذه المقالة التى قلت لكم ؛ لأنظر كيف صلابتكم على دينكم الأمر الذى حدث ، فقد رأيت منكم الذى أسر به فوقعوا سجوداً وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا .

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق ـ وهو ذو علم و بصيرة بهذا

الشأن ، حفظ مالا يحفظه غيره ـ قال ابن إسحاق : وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله فى قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له ، وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح ، ففى البخارى ومسلم والسياق للبخارى عن الزهرى قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان فقال . أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبا سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال : لترجمانه : إنى سائل هذا عن هـذا الرجل ، فإن كذبنى فـكذبوه . قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على الـكذب لـكذبت عليه ، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيـكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منـكم أحد قبله قط ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . فقال . أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت لا . قال: فهل كنتم تتهمونه بالـكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال فهل يغدر ؟ ؟ قلت لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الـكلمة . قال فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم قال : فـكيف كان قتالـكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننـال منه . قال : فبماذا يأمركم ؟ قلت : يقـول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف ، والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيـكم ذو نسب

وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . فقلت: لو كان فى آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك؟ أبيه .وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ؛ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك هل يغدر ! فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع دحية الكلبى إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده

الصخب ، وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة أنه ليخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

وكان ابن الناطور صاحب إيليا أسقفاً على نصارى أهل الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس ، فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك . قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ، أن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ فقالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب قال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع عليهم فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت دونهم ، فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال : ردوهم على ، وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عليه ، فكان هذا آخر شأن هرقل .

قلت : وكان هرقل من أجل ملوك النصارى في ذلك الوقت ، وقد أخبر

غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند ذرية هرقل فى أرفع صوان وأعز مكان يتوارثونه كابراً عن كابر ، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق الآن عند الفنش صاحب قشتالة و بلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور معروف .

وقد روى سنيد ــ وهو شيخ البخارى ــ فى تفسيره قال :حدثنا هشام قال: أخبرنا حصين عبد الله بن شداد بن الهاد قال : لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فقرأ كتابه وجمع الروم فأبوا عليه قال : فلما كان يوم الأحد لم يحضر أسقفهم الكبير وتمارض ، فأرسل إليه فأبى ، ثم أرسل إليه ،فأبى ثلاث مرات فركب إليه فقال له : أليس قد عرفت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال : أليس قد رأيت ما ركبوا منى فأنت أطوع فيهم منى فتعال فادعهم . قال : أو تأذن لى فى ذلك ؟ قال : نعم . قال : اذهب هو ذا أجيء ، قال : فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى ، فلما رأوه خروا له سجداً الملك وغيره ، فقام فى المذبح فقال : يا أبناء الموتى ، هذا النبى الذى بشر به عيسى ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنخروا ووثبوا إليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه ، قال : وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات .

فصل

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم رسولا أيضاً إلى ملك مصر المقوقس ــ ملك النصارى فى ذلك الوقت بالإسكندرية ــ وكان رسوله إليه حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه ــ قال حاطب : قدمت على المقوقس ــ واسمه جريج بن مينا ــ بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك . قال : هات ، قلت : إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافى بعد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس

إلى الله ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل من أدرك نبياً فهو من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به ، ثم ناوله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأه قال : خيراً قد نظرت فى هذا فوجدته قد لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة ، ثم جعل الكتاب فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه ، وكتب جوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد علمت أن نبياً قد بقى وقد أكرمت رسولك ، وأهدى للنبى صلى الله عليه وسلم جاريتين و بغلة تسمى الدلدل ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هديته ، واصطفى الجارية الواحدة ـ واسمها مارية القبطية ـ لنفسه فولدت منه إبراهيم ، وأعطى الأخرى لحسان بن ثابت ، فولدت منه عبد الرحمن ، وعاشت البغلة إلى زمان معاوية فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه » .

قال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة ، بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس القبطى صاحب الإسكندرية ، وكتب إليه معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلما قرأ الكتاب قال له خيراً ، وأخذ الكتاب ـ وكان مختوماً ـ فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى خازنه وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم جواب كتابه ولم يسلم ، وأهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ما تقدم ذكره :

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضع له ولكتابه ، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذى بشرت به الأنبياء عليهم السلام .

وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب ، ولكن ضن بملكه ولم يؤمن ، وكان قد خرج إليه المغيرة بن شعبة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك .

قال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى محمد بن سعد الثقفى ، وعبد الرحمن ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان بن سهل بن حنيف ، وعبد الملك بن عيسى ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومحمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه وغيرهم ، كل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة منه قال : قال المغيرة بن شعبة فى خروجه إلى المقوقس مع بنى مالك و إنهم لما دخلوا على المقوقس قال : كيف خلصتم إلىّ من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى و بينكم ؟ قالوا : ألصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك . قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟ قالوا : ما تبعه منا رجل واحد . قال : ولم ذلك ؟ قالوا . جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء ، ولا يدين به الملك ، ونحن على ما كان عليه آباؤنا . قال : فكيف صنع قومه ؟ قالوا : تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن ، مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له . قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو إليه ؟ قالوا : يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعو إلى الصلاة والزكاة . قال : وما الصلاة والزكاة ؟ ألها وقت يعرف وعدد تنتهى إليه ؟ قالوا : يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد سموه له ، و يؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال ، وأخبروه بصدقة الأموال كلها . قال : أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها ؟ قالوا : يردها على فقرائهم ، و يأمر بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والخمر ، ولا يأكل مما ذبح لغير الله فقال المقوقس : هذا نبى مرسل إلى الناس ، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم ، وهذا الذى تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله ، وسيكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ، و يظهر إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ،

و يوشك قومه أن يدافعوه بالراح . قالوا : فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا ، قال المغيرة : فأنغض المقوقس رأسه وقال : أنتم فى اللعب ، ثم قال : كيف نسبه فى قومه؟ قلنا : هو أوسطهم نسباً . قال : كذلك والمسيح ، الأنبياء تبعث فى نسب قومها ، ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟ قال : قلنا : ما يسمى إلا الأمين من صدقه ، قال : انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم و بينه ويكذب على الله . قال : فمن تبعه ؟ قلنا : الأحداث . قال : هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله . قال : فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة ؟ قلنا : خالفوه فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا فى كل ناحية . قال : هم قوم حسدة حسدوه ، أما إنهم يعرفون من أمره مثل مانعرف ؟ قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد صلى الله عليه وسلم وخضعنا له ، وقلنا : ملوك العجم يصدقونه و يخافونه فى بعد أرحامهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه ، وقد جاءنا داعياً إلى منازلنا قال المغيرة : فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لاأدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنس ، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أرقط أشد اجتهادا منه فأتيته فقلت : هل بقى أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، هو آخر الأنبياء ليس بينه و بين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبى مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبى الأمى العربى اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، فى عينيه حمرة ، وليس بالأبيض ولا بالأدم ، يعفى شعره ، و يلبس ما غلظ من الثياب ، و يجتزى بما لقى من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالى بمن لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم ، يخرجهم من أرض حرم و يأتى إلى حرم ، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام . قال المغيرة : فقلت له : زدنى فى صفته . قال : يأتزر على وسطه ، و يغسل أطرافه ، و يخص بما لا تخص به الأنبياء قبله ، وكان النبى يبعث إلى قومه ،

ويبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ، ومن كان قبله كان مشدداً عليهم لا يصلون إلا فى الكنائس والبيع . قال المغيرة بن شعبة : فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره ، وما سمعت من ذلك .

فذكر الواقدى حديثاً طويلا فى رجوعه وإسلامه ، وما أخبر به من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعجب النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحب أن يسمعه أصحابه . قال المغيرة : فكنت أحدثهم بذلك ، وهذا أمر معروف عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم .

وقد أخرج أبوحاتم فى صحيحه عن عمرو بن العاص أنه قال : خرج جيش من المسلمين — أنا أميرهم — حتى نزلنا الإسكندرية ، فقال عظيم من عظمائهم : أخرجوا إلى رجلا يكلمنى وأكلمه . فقلت : لا يخرج إليه غيرى . قال، فخرجت إليه ومعى ترجمانى ومعه ترجمانه . فقال : ما أنتم ؟ فقلت : نحن العرب ، ونحن أهل الشوك ، ونحن أهل بيت الله الحرام ، كنا أضيق الناس أرضاً ، وأجهدهم عيشاً ، نأكل الميتة والدم ، ويغير بعضنا على بعض ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ ، ولا بأكثرنا مالا ، فقال : أنا رسول الله إليكم ، فأمرنا بما لا نعرف ، ونهانا عما كنا عليه ، وكان عليه آباؤنا ، فكذبناه ، ورددنا عليه مقالته ، حتى خرج إليه قوم غيرنا ، فقاتلنا وظهر علينا : وغلبنا وتناول من يليه من العرب فقاتلهم حتى ظهر عليهم ولو يعلم من ورائى من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش فضحك ، ثم قال : إن رسولكم قد صدق ، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذى جاء به رسولكم ، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه ، ولن يشارككم أحد إلا ظهرتم عليه ، وإن فعلتم مثل الذى فعلنا وتركتم أمر نبيكم ، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشد منا قوة .

فصل

ثم بعد الإرسال إلى الملوك ، أخذ صلى الله عليه وسلم فى غزو النصارى ، فأرسل أولا زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة فى جيش ، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك وقال لأصحابه : « أميركم زيد ، فإن قتل ، فجعفر ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فقتل الثلاثة ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الثلاثة فى اليوم الذى قتلوا فيه ، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد ، ففتح الله على يديه ، ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه فى الغزاة ، ولم يأذن فى التخلف عنه لأحد ، وغزا فى عشرات ألوف غزوة تبوك ، فقدم تبوك ، وأقام بها عشرين ليلة ليغزو النصارى ، عربهم وورومهم وغيرهم ، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم فسمعوا به وأحجموا عن قتاله ، ولم يقدموا عليه ، وأنزل الله تعالى فى ذلك أكثر سورة براءة ، وذم تعالى الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذماً عظيما ، والذين لم يروا جهادهم طاعة جعلهم منافقين كافرين ، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ ، [سورة المنافقون : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ ، [سورة التوبة : ٨٤] .

فإذا كان هذا حكم الله ورسوله فيمن تخلف عن جهادهم إذ لم يره طاعة ولا يراه واجباً ، فكيف حكمه فيهم أنفسهم ؟ حتى قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٤] .

ثم عند موته صلى الله عليه وسلم أمرنا بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة

العرب ، ففى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو عبيد عن أبى عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ قال : آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخرجوا يهود أهل الحجاز ، ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب » وقام خلفاؤه ـ رضى الله عنهم ـ بعده بدينه صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش لغزو النصارى بالشام ، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات ، ومات أبو بكر وهم محاصروا دمشق . ثم ولى عمر بن الخطاب ففتح عامة الشام ومصر والعراق و بعض خراسان فى خلافته ، وقدم إلى الشام فى خلافته ، وسلم إليه النصارى بيت المقدس لما رأوه من صفته عندهم .

قال أبو عبدالله محمد بن عائذ . فى كتاب الفتوح قال : قال عطاء الخراسانى: لما نزل المسلمون بيت المقدس قال لهم رؤساؤهم : إنا قد أجمعنا لمصالحتكم وقد عرفتم منزل بيت المقدس . و إنه المسجد الذى أسرى بنبيكم إليه ونحن نحب أن يفتحها ملككم — وكان الخليفة عمر بن الخطاب — فبعث المسلمون وفداً، وبعث الروم أيضاً وفداً مع المسلمين حتى أوتوا المدينة ، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين ، فقال الروم لترجمانهم: عمن يسألون ؟ قالوا :عن أمير المؤمنين، فاشتد عجبهم وقالوا : هذا الذى غلب فارس والروم ، وأخذ كنوز كسرى وقيصر، وليس له مكان يعرف به بهذا غلب الأمم ، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحر نائما ، فازدادوا تعجباً، فلما قرأ كتاب أبى عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنى عشر ألفا من الروم وخمسون ألفاً من أهل الأرض فصالحهم ، وكان من جملة المصالحة أن لا يدخل عليهم من اليهود أحد ، ثم دخل المسجد فوجد زبالة عظيمة على الصخرة ، فأمر بكنس الزبالة ، وتنظيف المسجد وأمر ببنائه وجعل مصلاه فى مقدمه ،

ثم رجع إلى المدينة ، وقصته مشهورة فى كتاب الفتوحات ، ثم قدم مرة ثانية إلى أرض الشام لما تم فتحه فشارط بوضع الخراج ، وفرض الأموال ، وشارط أهل الذمة على شروط المسلمين فأتم بها المسلمون بعده .

وقد ذكرها أهل السير وغيرهم ، فروى سفيان الثورى عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبت لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا فى مدينتهم ولا ما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا ماخرب ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤووا جاسوساً ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوى قرابتهم من الإسلام إن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين ، وأن يقيموا لهم إذا أرادوا الجلوس ، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشىء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا يتسموا بأسماء المسلمين ، ولا يكتنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجاً ، ولا يتقلدوا سيفاً ، ولا يتخذوا شيئاً من سلاح ، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربا خفياً ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا سعانين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، فإن خالفوا فى شىء مما شرطوه ، فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق أخرجه أبو داوود فى سننه .

وقال أبو عبيدة فى كتاب الأموال : حدثنا النضر بن إسماعيل عن عبد الرحمن ابن إسحق عن خليفة بن قيس قال : كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يأمر فأ كتب إلى أهل الأمصار فى أهل الكتاب أن يجزوا نواصيهم ، وأن

يربطوا الكستنجات فى أوساطهم لعرف زيهم من زى أهل الكتاب .

وحدثنا أبو المنذر، ومصعب بن المقدام كلاهما عن سفيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن أسلم قال : كتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يختموا رقاب أهل الذمة.

قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر عن نافع عن أسلم أن عمر أمر أهل الذمة أن يجزوا نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكف ، وأن يركبوا عرضاً لا يركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق .

قال أبو عبيد : يعنى الزنانير .

ولما كتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أهل الذمة هذه الشروط والتزموها ، أوصى بهم نوابه ومن يأتى بعده من الخلفاء وغيرهم ، وهذا هو العدل الذى أمر الله به ورسوله .

ففى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته عند وفاته : وأوصى الخليفة من بعدى بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم ، وهذا امتثال لقول النبى صلى الله عليه وسلم: « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه من حقه ، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » رواه أبو داود .

فكان هذا فى النصارى الذين أدوا إليه الجزية .

عمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون ، أسلم منهم خلق كثير لا تحصى عددهم إلا تبارك وتعالى ، فإن العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى ، ولم يكن فى المسلمين من يعمل فلاحة ولم يكن للمسلمين فى دمشق مسجد يصلون فيه إلا مسجد واحد لقلتهم ، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعاً لا كرها ، فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز ، كما قال الله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله

سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

قال أبو عبيد فى كتاب الأموال عن ابن الزبير قال : كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن أنه من أسلم من يهودى أو نصرانى ، فإنه من المؤمنين، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهودية أو نصرانية ، فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية .

فصل

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس ، وفتح أرضهم ، وظهر تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عز وجل » أخرجاه فى الصحيحين .

وهذا ، بعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسوله إلى المجوس ، وكتب كتابا إلى كسرى ملك الفرس ، كما كتب إلى ملوك النصارى كما تقدم عن قيصر والمقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له فبقى ملكهم وأما ملك الفرس فمزق كتابه فدعا عليهم فقال : « اللهم مزق ملكهم كل ممزق » فلم يبق لهم ملك .

قال ابن عباس · بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه ـ يعنى كسرى ـ مزقه فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق .

وقال ابن إسحاق : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى : فلما قرأ الكتاب مزقه ، وأما قيصر : فلما قرأ الكتاب طواه

ووضعه عنده ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما هؤلاء - يعنى كسرى - فيمزقون ، وأما هؤلاء ، فستكون لهم بقية » .

قال ابن إسحاق : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، آمن بالله ورسوله ، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنى أدعوك بدعاية الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم وإن أبيت ، فإن إثم المجوسية عليك » .

فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شققه وقال : يكتب إلى بهذا الكتاب وهو عبدى ؟ .

قلت : وسبب قول كسرى هذا واستعلائه : أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن ، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى ، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أبابيل ، وهى جماعات فى تفرقة ، تحمل حجارة من طين ، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم ، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت ، وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصراً من الله لمشركى العرب ، فإن دين النصارى خير من دينهم ، وإنما كان نصراً للبيت وللأمة المسلمة التى تعظمه وللنبى المبعوث من البيت ، وكان ذلك عام مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ، [سورة الفيل] .

ثم إن سيف بن ذى يزن ذهب إلى كسرى ، وطلب منه جيشاً يغزو به الحبشة ، فأرسل معه عسكراً من الفرس المجوس ، فأخرجوا الحبشة من اليمن ،

وصارت اليمن بيد العرب ، وبها نائب كسرى ، وسيف بن ذى يزن هذا ، ممن بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لمـا وفد عليه .

فلمـا كانت اليمن مطيعة لـكسرى ، لهذا أرسل إلى نائبه باليمن أن يأتيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عسكر اليمن فى العادة يقهر أهل مكة والمدينة .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مزق الله ملـكه » حين بلغه أنه شقق كتابه .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمن أن ابعث إلى هـذا الرجل الذى بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتيانى به . قال : فبعث باذان قهرمانه ، وهو بانويه . وقال غيره : فيروز الديلمى — وكان حاسباً كاتباً — وبعث معه برجل من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبانويه : ويلك ، انظر ما الرجل وكلمه وائتنى بخبره .

قال : فخرجا حتى قدما إلى الطائف ، فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هو بالمدينة واستبشروا — يعنى الـكفار — وقالوا : قد نصب له كسرى كفيتم الرجل ، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فـكلمه بانويه ؛ فقال : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك فانطلق معى ، فإن فعلت كتبت معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به ، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلـكك ومهلك قومك ومخرب بلادك ، وكانا قد دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانا قد حلقا لحاهما ، وأبقيا شواربهما ، فـكره النظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لهما : « ويلـكما من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا — يعنيان كسرى — فقال لهما رسول الله صلى الله

عليه وسلم : لكن ربى عز وجل أمرنى بإعفاء لحيتى و بقص شاربى ، ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى الغد » .

قال : وجاء الخبر من السماء ، أن الله عز وجل سلط على كسرى ولده شيرويه ، فقتله فى شهر كذا ، فى ليلة كذا ، فى ساعة كذا ؛ فلما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : « إن ربى قتل ربكما ليلة كذا ، فى شهر كذا ، بعد ما مضى من الليل كذا ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فقالا له : هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك ، ونخبر الملك به . قال : نعم ، أخبراه ذلك عنى وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » ، وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة ، كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر

فقال : والله ما هـذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ، ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان ماقد قال حقاً ما بقى فيه كلام إنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا ، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه .

أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجهيزهم فى بعوثهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب إليك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه . فلما انتهى الكتاب — كتاب شيرويه — إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول الله ، وأسلم لله وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن .

وقال أبو معشر : حدثنى المقبرى قال : جاء فيروز الديلمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال إن كسرى كتب إلى باذان : بلغنى أن فى أرضك

رجلا تنبأ تنبؤًا فاربطه وابعث به إلى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربى غضب على ربك فقتله فدمه بنحره سخن الساعة » فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه ، وكان رجلا صالحاً ، له فى الإسلام آثار جميلة منها : قتل الأسود العنسى الكذاب ، الذى ادعى النبوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الأسود جباراً ، استدعى بأبى مسلم الخولانى فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال أبو مسلم : ما أسمع ؛ فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فردد ذلك عليه مراراً ، فأمر بنار عظيمة فأضرمت ، ثم أمر بإلقاء أبى مسلم فيها فلم تضره ، فأخمدها الله تعالى حين ألقى فيها ، فقيل له : أخرج هذا عنك من أرضك لئلا يفسد عليك أتباعك » فأخرجه .

فقدم أبو مسلم المدينة وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر ، فأناخ راحلته بباب المسجد ، ثم دخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر فقام إليه ، ممن الرجل ؟ قال : من أهل اليمن ، قال : ما فعل الذى حرقه الكذاب ؟ قال : ذلك عبد الله بن ثوب . قال نشدتك بالله أنت هو ؟ قال : اللهم نعم ، فاعتنقه ثم بكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر ، فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن ، ثم خرج فيروز الديلمى على الأسود العنسى فقتله ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو فى مرض موته ، فخرج فأخبر أصحابه بذلك ، وقال : « قتل الأسود العنسى الليلة قتله رجل صالح من قوم صالحين » وقصته مشهورة . وكذلك قصة مسيلمة الكذاب ، ونحوهما من المتنبئين الكذابين .

فصل

ولما فتح خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم : عمر وعثمان العراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس ، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام ، كما

دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ضرب النبى صلى الله عليه وسلم الجزية على اليهود والنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل ، فإنه صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن سارى العبدى صاحب هجر ـ وهى قرية بالبحرين ـ بكتابه صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال العلاء : فلما دخلت عليه قلت : يامنذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة ، فإن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحى من نكاحه ، ويأكلون ما تكرم عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة . ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب أن تصدقه ؟ ولمن لا يخون أن تأمنه ؟ ولمن لا يخلف أن تثق به ؟ فإن كان هذا . هكذا فهذا هو النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمره به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد فى عفوه ، أو نقص من عقابه ، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر .

فقال المنذر : قد نظرت فى هذا الذى فى يدى ، فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الممات ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله ، وسأنظر ، ثم أسلم المنذر وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالإسلام والتصديق .

وقال عمر بن عوف : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة إلى البحرين فأتى بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الصبح مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم حين

رآهم وقال: « أظنكم قدسمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء ، قالوا :أجل يارسول الله، «قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » أخرجاه فى الصحيحين .

وأخرج البخارى عن بجالة بن عبدة أنه قال : أتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة : (فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس) ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر .

وقال ابن شهاب : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر ، وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس ، وأخذها عثمان بن عفان من البربر .

قال ابن شهاب : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا ، وكانوا نصارى ،وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً ، ثم أدى أهل (أيله) وأهل (أذرح) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية فى غزوة تبوك ، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل فأسروا رئيسهم (أكيدر) فبايعوه على الجزية .

قال أبو عبيد : الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل ، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسنة .

فصل

وأخرج مسلم عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل – وليس بالنجاشى الذى نعاه لأصحابه فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف وصلى عليه – بل نجاشى آخر تملك بعده .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الناس كافة ، وختم بى النبيون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٨] .

وفى القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، فكيف يقال : إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم ؟ .

وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه — وهو القرآن — يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به فى مواضع كثيرة جداً ، بل يذكر الله تبارك وتعالى فيه كفر من كفر من اليهود والنصارى ، ويأمر فيه بقتالهم كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقوله فى هذه السورة أيضاً : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢ ـ ٧٧] .

وقال تعالى فى سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن

الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ٭ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ٭ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ، [سورة التوبة ٣٠ ـ ٣٢] .

فصل

فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب ، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها ، كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام ، فإن المسلمين لايجوزون لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير شيئاً من شريعته ، فلا يحلل ما حرم ؛ ولا يحرم ما حلل ، ولا يوجب ماأسقط ؛ ولا يسقط ماأوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعا لم يشرعها المسيح عليه السلام ولا نطق بها شيء من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدمة ، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين ، فإن المسيح يمضيه لهم ، وهذا موضع تنازع فيه الملل الثلاث : المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، كما تنازعوا فى المسيح عليه السلام وغير ذلك .

فاليهود : لا يجوزون لله سبحانه وتعالى أن ينسخ شيئاً شرعه .

والنصارى : يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم .

وأما المسلمون . فعندهم أن الله له الخلق والأمر ، لاشرع إلا ماشرعه الله على ألسنة رسله ، وله أن ينسخ ما شاء كما نسخ بالمسيح ما كان شرعه للأنبياء قبله ، فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح كما وضع لهم الثلاث

مائة وثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً ، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح ، فقالوا فيها : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى ومالا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء وتانس وصلب على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وبروح القدس الرب المحى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق فى الأنبياء ، واعتقد بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وارجا قيامة الموتى وحياة الدهر الآتى آمين] ، ووضعوا لهم من القوانين والناموس ما لم يوجد فى كتب الأنبياء ولا تدل عليه ، بل يوجد بعضه فى كتب الأنبياء ، وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد فى كتب الأنبياء ، وغيروا كثيراً مما شرعه الأنبياء ، فما عند النصارى من القوانين والنواميس التى هى شرائع دينهم ، فبعضه منقول عن الأنبياء ، وبعضه عن الحواريين ، وكثير منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء ، فدينهم من جنس دين اليهود ، قد لبسوا الحق بالباطل ، وكان المسيح عليه السلام بعث بدين الله الذى بعث به الأنبياء قبله ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، والنهى عن عبادة كل ما سواه ، وأحل لهم بعض ماحرمه الله فى التوراة ، فنسخ بعض شرع التوراة ، وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهيا كل العلوية والأصنام الأرضية فبعث المسيح عليه السلام رسله

يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض ، وبعضهم بعد رفعه إلى السماء ، فدعاهم إلى دين الله تعـالى ، فدخل من دخل فى دين الله ، وأقاموا على ذلك مدة ، ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح ، فابتدعوا دينا مركبًا من دين الله ورسله ، دين المسيح عليه السلام ، ومن دين المشركين ، وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل ، وهذا كان دين الروم واليونان ، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأفثيته كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم ، وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليونانى المقدونى التى تؤرخ له التاريخ الرومى من اليهود والنصارى ، وهذا كان مشركا يعبد هو وقومه الأصنام ، ولم يكن يسمى ذا القرنين ، ولا هو ذا القرنين المذكور فى القرآن ، ولا وصل هذا المقدونى إلى أرض الترك ولا بنى السد ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس ، ومن ظن أن أرسطو كان وزير ذى القرنين المذكور فى القرآن ، فقد غلط غلطًا يتبين أنه ليس بعارف بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم ، فلما ظهر دين المسيح عليه السلام بعد أرسطو بنحو ثلاثمائة سنة فى بلاد الروم واليونان ، كانوا على التوحيد إلى أن ظهرت فيهم البدع ، فصوروا الصور المرقومة فى الحيطان ــ جعلوا هذه الصور عوضا عن تلك الصور ــ وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب ، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة المشرق التى تظهر منها الشس والقمر والكواكب . وجعلوا السجود إليها بدلا عن السجود لها ، ولهذا جاء خاتم الرسل ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ الذى ختم الله به الرسالة ، وأظهر به من كمال التوحيد ما لم يظهره من قبله ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن لا يتحرى أحد بصلاته طلوع الشمس ولا غروبها ؛ لأن المشركين يسجدون لها تلك الساعة ، فإذا صلى الموحدون لله عز وجل فى تلك الساعة ؛ صار فى ذلك نوع مشابهة لهم ، فيتخذ ذريعة إلى السجود لها ، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور .

ففى صحيح مسلم وغيره عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرنى أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته » .

وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال فى مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وفى الصحيحين أنه قال قبل موته بخمس ليال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ،وإنى أنهاكم عن ذلك».

ولما ذكروا له الكنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها. فقال : « إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوروا تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ونهى أن يستقبل الرجل القبر فى الصلاة حتى لا يتشبه بالمشركين الذين يسجدون للقبور ، ففى الصحيح أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » إلى أمثال ذلك مما فيه تجريد التوحيد لله رب العالمين ، الذى أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله . فأين هذا ممن يصور صور المخلوقين فى الكنائس ويعظمها ويستشفع بمن صورت على صورته ، وهل كان أصل عبادة الأصنام فى بنى آدم من عهد نوح عليه السلام إلا هذا ! والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب والسجود إليها ذريعة إلى السجود لها ، ولم يأمر أحد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها ، ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب ، وإن كان يذكر عن بعض الأنبياء تصوير صورة لمصلحة ، فإن هذا من الأمور التى قد تتنوع فيها الشرائع بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها ، فإن هذا لم يشرعه نبى من الأنبياء ، ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله عز وجل،لا عند قبره ولا فى مغيبه ، ولا يتشفع به فى مغيبه بعد موته بخلاف الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ويوم القيامه ، وبالتوسل به بدعائه والإيمان به ،

فهذا من شرع الأنبياء عليهم السلام ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة يونس : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ ، سورة الزمر : ١ ــ ٤] .

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحد منهم يقول : إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين فى الصفات ، فإن هذ. لم تقله طائفة معروفة من بنى آدم ولكن الثنوية من المجوس ونحوهم يقولون : إن العالم صادر عن أصلين : النور والظلمة ، والنور عندهم:هو إله الخير المحمود، والظلمة : هى الإله الشرير المذموم.

و بعضهم يقول : إن الظلمة هى الشيطان، وهذا ليجعلوا ما فى العالم من الشر صادراً عن الظلمة .

ومنهم من قال : إن الظلمة قديمة أزلية مع أنها مذمومة عندهم ليست مماثلة للنور .

ومنهم من قال : بل هى حادثة ، وأن النور فكرة رديئة فحدثت الظلمة عن تلك الفكرة الرديئة .

فقال لهم أهل التوحيد : أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الرب سبحانه وتعالى خلق ما فى العالم من الشر ، وجعلتموه خالقاً لأصل الشر ، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية ، فهم لا يقولون . إن الشر مماثل للخير.

وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم ، منهم من ينكر الصانع للعالم ، كالقول الذى أظهره فرعون لعنه الله ، ومنهم من يقر بعلة بتحرك الفلك للتشبه بها كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك كابن سينا والسهروردى المقتول بحلب وأمثالها من متفلسفة الملل .

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع ، و بأنه خاق السموات والأرض ، فكانت عقيدة مشركى العرب خيراً من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية ؛ إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن ، وهذا مذهب جماهير أهل الأرض من أهل الملل الثلاثة : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، ومن المجوس والمشركين وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السموات أزلية قديمة لم تزل ، وكان مشركو العرب يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعى إذا دعاه ، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئاً بمشيئته ، ولا يجيب دعاء الداعى ، بل ولا يعلم الجزئيات ، ولا يعرف هذا الداعى من هذا الداعى ، ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله ، بل منهم من ينكر علمه مطلقاً كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول : إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله .

ومعلوم : أن كل موجود فى الخارج فهو جزء معين ، فإن لم يعلم الا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات المعينة لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها ، والدعاء عندهم : هو تصرف النفس القوية فى هيول العالم كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله ، وزعموا أن اللوح المحفوظ: هوالنفس الفلكية ، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك ، كما قد بسط الرد عليهم فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساوياً له فى الصفات والأفعال ، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ، ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم ، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين ، أو أن الخليل عليه السلام لما قال : « هذا ربى » ، أراد به رب العالم ، فقد غلط غلطاً بيناً ، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع ، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين

قال الله تعالى عن الخليل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعوكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى و يسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون * فكبكبوا فيها هم

والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٦٩ ـ ١٠١] .

فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين ، وأخبر عنهم أنهم يقولون يوم القيامة : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم ـ يعنى آلهتهم ـ برب العالمين ، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، كما قال تعالى فى الموضع الآخر : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى برىء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ . [سورة الزخرف : ٢٦ ـ ٢٧] .

ولهذا قال . وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين ، ولم يقل : من المعطلين ، فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين ، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ ، [سورة الفرقان: ٦٨].

وقال تعالى : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٣] .

وقال تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٢] .

وقال تعالى فيما حكاه عن قوم نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن

وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، [سورة نوح : ٢٣ ، ٢٤] .

قال ابن عباس وغيره من العلماء : هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوها ، وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام فى كتاب سر بطرس الذى يسمى بشمعون ، وسمعان ، والصفا ، وبطرس ، والأربعة لمسمى واحد عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم ، وهذا فيه عندهم عن المسيح ، فالذى تفعله النصارى أصل عبادة الأوثان ، وهكذا قال عالمهم الكبير الذى يسمونه فم الذهب — وهو من أكبر علمائهم — لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار . قال : وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصاً يعظم بعضهم بعضاً فوق المقدار الذى ينبغى ، الأحياء منهم والأموات .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

قالت طائفة من العلماء : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح وغيرهما ، فبين الله تبارك وتعالى : أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده ، يرجون رحمته كما ترجون رحمته ، ويخافون عذابه ، كما تخافون عذابه ، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه ، وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فبين الله تعالى : أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون ، فإنه لم يقل أحد قط : إن جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله سبحانه وتعالى فى خلق العالم ، وقد قال تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٦] .

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون . الله ، وهم يعبدون غيره ، وقد قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان : ٢٥] . فى غير موضع فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه سبحانه يتخذونهم شفعاء إليه أو يتقربون بهم إليه .

فصل

وكذلك تعظيمهم للصليب ، واستحلالهم لحم الخنزير ، وتعبدهم بالرهبانية، وامتناعهم من الختان ، وتركهم طهارة الحدث والخبث ، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوء ، ولا يوجبون اجتناب شىء من الخبائث فى صلاتهم لا عذرة ولا بولا ولاغير ذلك من الخبائث إلى غير ذلك، كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام ، ودان بها أئمتهم وجمهورهم ، ولعنوا من خالفهم فيها ، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوباً مقموعاً قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصاً عن المسيح عليه السلام

وأما المسلمون : فكل ما أجمعوا عليه إجماعاً ظاهراً يعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لم يحدث ذلك أحد بعده لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده ، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه يوجد مأخوذاً عن نبيهم .

وأما ما يظن فيه إجماعهم ولا يقطع به ، فمنه ما يكون ذلك الظن خطأ ويكون بينهم فيه نزاع ، ثم قد يكون نص الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا القول ، وقد يكون مع هذا القول ، ومنه ما يكون ظن الإجماع عليه صوابا ، ويكون فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أثر خفيت دلالتة أو معرفته على بعض الناس ، وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبينه وبلغه البلاغ المبين ، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئاً من دينه ، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذى بعث به فقط ، وأمته لا تجتمع على ضلالة ، بل لا يزال فى أمته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة ، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فأظهره بالحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان . ولا يزال فى أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة .

والمقصود هنا : أن ماأجمعت عليه الأمة إجماعاً ظاهراً تعرفه العامة والخاصة، فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمة ، وأما كثير من طوائف الأمة ، ففيهم بدع مخالفة للرسول ، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى ، وفيهم فجور ومعاصى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم برىء من ذلك ، كما قال تعالى له . ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ ، [سورة الشعرء : ٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سنتى فليس منى » وذلك مثل إجماعهم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الأمم ـ أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ـ فإن هذا تلقوه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهو منقول عندهم نقلا متواتراً يعلمونه بالضرورة ، وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم ، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل

المتواتر عن نبيهم وهو مذكور فى كتابهم ، وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت العتيق الذى بناه إبراهيم خليل الرحمن ودعا الناس إلى حجه وحجته الأنبياء حتى حجه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما ، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة ، وتحريم الخبائث ، وإيجاب الطهارة للصلاة ، فإن هذا كله مما نقلوه عن نبيهم ، وهو منقول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً ، وهو مذكور فى القرآن .

وأما النصارى فليست الصلوات التى يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ، ولا الصوم الذى يصومونه منقولا عن المسيح ، بل جعل أولهم الصوم أربعين يوماً ، ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلى الربيع ، وليس هذا منقولا عندهم عن المسيح عليه السلام ، وكذلك حجهم لقمامه ، وبيت لحم ، وكنيسه صيدنايا ، ليس شيء من ذلك منقولا عن المسيح عليه السلام ، بل وكذلك عامة أعيادهم مثل عيد القلندس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس ـ وهو القداس ـ وعيد الخميس ، وعيد الصليب الذى جعلوه فى وقت ظهور الصليب ؛ لما أظهرته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين ، وعيد الخميس والجمعة والسبت التى فى آخر صومهم ، وغير ذلك من أعيادهم التى رتبوها على أحوال المسيح ، والأعياد التى ابتدعوها لكبرائهم ، فإن ذلك كله من بدعهم التى ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى ، بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظمونه ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامه » وهذا بخلاف المساجد التى تبنى لله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، [سورة الجن : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ ، [سورة النور : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاه ، ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوامن المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٨] . والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله و يدعون غير الله .

فصل

والمقصود هنا : أن الذى يدين به المسلمون من أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث رسولا إلى الثقلين : الإنس والجن أهل الكتاب وغيرهم ، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد ، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى جاء بذلك وذكره الله فى كتابه وبينه الرسول أيضاً فى الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب ، فإنه تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة ، ولم يبتدع المسلمون شيئاً من ذلك من تلقاء أنفسهم ، كما ابتدعت النصارى كثيراً من دينهم ، بل أكثر دينهم ، و بدلوا دين المسيح وغيروه ، ولهذا كان كفر النصارى لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام ، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجىء المسيح فكفروا بذلك، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وبتكذيب الكتاب الثانى ، وكذلك النصارى كانوا قد بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام ، بل تخالف ما بعث به ، وافترقوا فى ذلك فرقا متعددة وكفَّر فيها بعضهم بعضاً ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فصاروا

كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وتكذيب الكتاب الثانى ، كما يقول علماء المسلمين : إن دينهم مبدل منسوخ ، وإن كان قليل من النصارى كانوا عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم متمسكين بدين المسيح ، كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله على الحق ، فهذا : كما أن من كان متبعاً شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكاً بالحق كسائر من اتبع موسى فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافراً ، وكذلك لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافراً .

والمقصود فى هذا المقام : بيان ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم من عموم رسالته ، وأنه هو نفسه الذى أخبر أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأنه نفسه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الكتاب وجاهدهم وأمر بجهادهم ، فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب ــ واليهود والنصارى ــ : إنه لم يبعث إلينا بمعنى أنه لم يقل : إنه مبعوث إلينا ، كان مكابراً جاحداً للضرورة مفترياً على الرسول فرية ظاهرة تعرفها الخاصة والعامة ، وكان جحده لها كما لو جحد أنه جاء بالقرآن ، أو شرع الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وجحد محمد صلى الله عليه وسلم وما تواتر عنه أعظم من جحد أتباع الحواريين للمسيح عليه السلام ، وإرساله لهم إلى الأمم ، ومجيئه بالإنجيل ، وجحد مجىء موسى عليه السلام بالتوراة ، وجحد أنه كان يسبت ، فإن النقل عن محمد صلى الله عليه وسلم مدته قريبة ، والناقلون عنه أضعاف أضعاف أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه ، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسى عليه السلام ، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما زالوا كثيرين منتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما زال فيهم من هو ظاهر بالدين منصور على الأعداء ، بخلاف بنى إسرائيل ، فإنهم زال ملكهم فى أثناء المدة لما خرب بيت القدس الخراب الأول

بعد داود عليه السلام ، ونقص عدد من نقل دينهم حتى قد قيل : إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد .

والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل ، ولكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصمون مثل : إبراهيم وموسى ، وسيأتى الكلام على هذا إن شاء الله تعالى إذا وصلنا إليه ، إذ المقصود هنا بيان من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لم يبعث إلا إلى مشركى العرب ، فإنه فى غاية الجهل والضلال ، أو غاية المكابرة والمعاندة ، فإن هذا أعظم جهلا وعناداً ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة ، والغسل من الجنابة ، ويحرم الخمر والخنزير ، وأعظم جهلا وعناداً ممن ينكر ما تواتر من أمر المسيح وموسى عليهما السلام ، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم : علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب .

فصل

فإذا عرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التى ظنوا دلالتها على نبوته خاصة بالعرب ، تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده ، وأنهم ممن قيل فيه : ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ، [سوره النساء : ٧٨] . فليسوا أهلا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء ، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبيا ـ عليهم السلام ـ بل ولا يحتجون بكلام الأطباء ، والفلاسفة ، والنحاة ، وعلم أهل الحساب ، والهيئة ، على مقاصدهم ، فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أنصح لغات الآدميين وأصحها ، ومتفقون على أن القرآن فى أعلا درجات البيان ، والبلاغة ، والفصاحة ، وفى القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم التى يذكرفيها : أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب

وغيرهم مالا يحصى إلا بكلفة ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأهل الكتاب ، وأمره لهم بالإيمان به ، وجهاده لهم إذ كفروا به مالا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به وسمعه القاضى والدانى ، فإذا كان الناس ــ المؤمن به وغير المؤمن به ــ يعلمون أنه كان يقول : إنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة ، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول : إنى لم أبعث إلا إلى العرب واستمر على ذلك حتى مات، دل على فساد نظرهم وعقلهم أو على عنادهم ومكابرتهم ، وكان الواجب إذا لم يكن لهم معرفة بمعانى هذه الآيات التى استدلوا بها على خصوص رسالته ، أن يعتقدوا أحد أمرين .

إما أن لها معانى توافق ما كان يقوله . أو أنها من المنسوخ ، فقد علمت الخاصة والعامة أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف ، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البيت الحرام ، والنصارى يوافقون على أن شرائع الأنبياء فيها ناسخ ومنسوخ ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخاً ، ولكن المقصود : أن المعلوم من حال الرسول صلى الله عليه وسلم علماً ضرورياً يقينيا متواتراً لا يجوز دفعه ، فإن العلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق معلوم لكل من عرف أخباره صلى الله عليه وسلم ، سواء صدقه أو كذبه ، والعلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله إلى جميع الناس ممكن قبل أن يعلم أنه نبى أو ليس بنبى ، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل يعلم عموم رسالته ، فليس العلم بأحدهما موقوفاً على الآخر ، ولهذا كان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول . إنه رسول الله إلى جميع الخلق، وطائفة ممن يقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلى جميع الخلق .

والمقصود هنا : الـكلام مع هؤلاء بأن العـلم بعموم دعوته لجميع الخلق ـ أهل الـكتاب وغيرهم ـ هو متواتر معلوم بالاضطرار ، كالعلم بنفس مبعثه ، ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته ، وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة ، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق والعدل ، وتحريم الظلم والفواحش ، وغير ذلك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : بل فى القرآن مايقتضى أن رسالته خاصة وفيه ما يقتضى أن رسالته عامة وهذا تناقض .

قيل : هذا يعلم بطلانه قبل العلم بنبوته ، فإنه من المعلوم لـكل أحد آمن به أو كذبه ، أنه كان من أعظم الناس عقلا وسياسة وخبرة ، وكان مقصوده : دعوة الخلق إلى طاعته واتباعه ، وكان يقرأ القرآن على جميع الناس ، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم ، وكل من طلب منه أنة يؤمنه حتى يقرأ عليه القرآن من الـكفار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركا ، فـكيف إذا كان كتابياً كما قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] .

وكان قد أظهر أنه مبعوث إلى أهل الـكتاب وسائر الخلق ، وأنه رسول الله إلى الثقلين : الجن والإنس ، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل على أنه لم يبعث إليهم ، فإن هذا لايفعله من له أدنى عقل لمناقضته لمراده ، فـكيف يفعله مثل هذا الذى اتفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق وأحسنهم سياسة وشريعة ؟

وأيضا فـكان أصحابه والمقاتلون معه لعدوه ينفرون عنه ، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا ، وهذا لم يستشـكله أحد ، ثم بعد هذا : فلو قدر أن فى القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلا إلى العرب وفيه مايدل على أنه بعث إلى سائر الخلق ، كان هذا دليلا على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلا

إليهم ، وأن الله عم بدعوته بعد أن كانت خاصة فلا مناقضة بين هذا وهذا ، فكيف وليس فى القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب ؟ وإنما فيه إثبات رسالته إليهم ، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش ، وليس هذا مناقضا لهذا ، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب آمنوا بما أنزلنا ﴾ كما فيه إثبات رسالته إلى بنى إسرائيل كقوله : ﴿ يابنى إسرائيل ﴾ ليس هذا التخصيص لليهود منافياً لذلك التعميم وفى رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة ، وليس خطاب لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها ، وفى كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته فى دعوته لهم إلى شرائع دينه ، وليس فى ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم وفى كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

ثم لم يكن هذا مانعاً أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، بل هذا الحكم ثابت فى المجوس بسنته واتفاق أمته .

وإن قيل إنهم ليسوا من أهل الكتاب ، فهذا كله مما يعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوته ، فكيف ونحن نتكلم على تقدير نبوته والنبى لا يتناقض قوله ؟ وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلوماً بالاضطرار قبل العلم بنبوته وبعد العلم بنبوته ، فالعلم الضرورى اليقينى لا يعارضه شىء ، ولكن هذا شأن الذين فى قلوبهم زيغ من أهل البدع النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم ؟ وبسبب مناظرة النصارى للنبى صلى الله عليه وسلم

بالمتشابه وعدولهم عن المحكم أنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

فالتأويل : يراد به تفسير القرآن ، ومعرفة معانيه ، وهذا يعلمه الراسخون ويراد به ما استأثر الرب بعلمه من معرفة وكنه معرفة ما وعد به ووقت الساعة ، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله :

والضلال : يذكرون آيات تشتبه عليهم معرفةمعانيها،فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها ، وليسوا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويلها ، مع أن هذه الآيات التى ذكروها من أوضح الآيات وهذا الذى سلكوه فى القرآن هو نظير ما سلكوه فى الكتب المتقدمة وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها ، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح مالا يحصى إلا بكلفة ، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباة فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفى المشكل من الكتب المتقدمة ، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح فهم سلكوا فى القرآن ما سلكوه فى الكتب المتقدمة ، لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها ومحمد صلى الله عليه وسلم هم فيه مضطربون متناقضون ، فأى قول قالوه فيه ، ظهر فساده وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه ، وإن قالوا : كلامه متناقض ونحن نحتج بما يوافق قولنا ، إذا مقصودنا بيان تناقضه . قيل لهم عن هذا أجوبة .

أحدها : أنه فى الكتب المتقدمة مما يظن أنه متعارض أضعاف مافى القرآن وأقرب إلى التناقض ، فإذا كانت تلك الكتب متفقة لا تناقض فيها وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرسل فيكون كما قيل :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

فكيف القرآن الذى هو أفضل الكتب ؟

الثانى : أنهم متمسكون بالمتشابه فى تلك الكتب ومخالفون المحكم منها كما فعلوه بالقرآن وأبلغ .

الثالث : أنه إذا كان ما جاء به متناقضا لم يكن رسول الله ، فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفا متناقضاً ، وإنما يتناقض ما جاء به من غير الله ، قال تعالى : ﴿ أفلايتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ ، [سورة النساء : ٨٢] ، فكل كتاب ليس من عند الله لابد أن يكون فيه تناقض ، وما كان من عند الله لا يتناقض ، وحينئذ فإن كل متناقضاً لم يجز لهم الاحتجاج بشىء منه ، فإنه ليس من عند الله ، وإن لم يكن متناقضاً ثبت أن ما فيه من عموم رسالته ، وأنه رسول إليهم ليس فيه شىء يناقضه ، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض :

الرابع : أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافى ما فيه من أنه أرسل إلى العرب ، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين ، وأمر قريش لا ينافى ما فيه من دعوة سائر العرب ، فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضى التخصيص لم يدل على أن ما سوى المذكور مخالفة ، وهذا الذى يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب ، والناس كلهم متفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن لاسم اللقب مفهوم بل ولا للصفة ، كقوله تعالى : ﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [سورة الإسراء : ٣١] . فإنه نهاهم عن ذلك ؛ لأنه هو الذى كانوا يفعلونه ، وقد حرم فى مواضع أخر قتل النفس بغير حق ، سواء كان ولداً أو غيره ، ولم يكن ذلك مناقضاً لتخصيص الولد بالذكر .

الخامس : أنه فى ذلك أسوة بالمسيح عليه السلام ، فإن المسيح خص أولا

بالدعوة ، ثم عم ، كما قال فى الإنجيل : [ما بعثت وأرسلت إلا لبنى إسرائيل] وقال أيضاً فى الإنجيل : [مابعثت إلا لهذا الشعب الخبيث] ثم عم فقال لتلاميذه حين أرسلهم كما فى الإنجيل [كما بعثنى أبى أبعث بكم فمن قبلكم فقد قبلنى] وقال: [قد أرسلنى أبى وأنا أرسلكم] وقال : [كما أفعل أنا بكم كذلك افعلوا أنتم بعباد الله ، فسيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس بإسم الأب والإبن وروح القدس ، ولا يكون لأحدكم ثوبان ، ولا يحمل معه فضة ولا ذهباً ، ولا عصا ولا حرابة] ونحو ذلك مما هو فى الأناجيل التى بين أيديهم من تخصيص الدعوة ثم تعميمها، وهو صادق فى ذلك كله ، فكيف يسوغ لهم إنكار ما فى الإنجيل عن المسيح نظيره ؟ ثم يقال فى بيان الحال : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما بعث المسيح وغيره ، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما يذكر فى موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى طائفه بعد طائفة ، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكاناً ونسباً ، ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٩] — أى من بلغه القرآن — فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم ، وتبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب ، بل ينذرهم به ، و ينذر من بلغهم القرآن ، فأمره الله تبارك وتعالى أولا بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش ، فقال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] . ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق صلى الله عليه وسلم إلى مكان عال فعلا عليه ، ثم جعل ينادى : «يابنى عبدمناف: إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله نخشى أن يسبقوه ، فجعل يهتف : ياصباحاه ياصباحاه ».

وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم -رضى الله عنهم- فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة والمسانيد والتفسير

قال ابن عباس : لمـا نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين[1] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فجعل ينادى : «يابنى فهر ، يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو ، فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتكم لو أخبرتـكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقاً ، ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لـكم بين يدى عذاب شديد » .

وقال أبو هريرة : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : « يابنى كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لـكم من الله شيئاً غير أن لـكم رحماً سأبلها ببلالها » .

وقالت عائشة — رضى الله عنها — لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، ياصفية عمة رسول الله ، ياعباس عم رسول الله : لا أملك لـكم من الله شيئاً » .

وقال ابن إسحاق : لما نزلت هذه الآية جعل النبى صلى الله عليه وسلم ينادى: « يابنى عبد المطب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — ثم قال : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لـكم من الله شيئاً ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا؟

(١) ليست فى التلاوة .

تباً لك سائر اليوم ، فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾ ، [سورة المسد] .

ودعا قريشاً إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأنزل الله تعالى: ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [سورة قريش : ١ ـ ٣] .

وقد أنزل الله عليه فى غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته ، كقوله تعالى ﴿ ياأيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١] وقوله : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٦] . وقريش هم قومه الذين كذبه جمهورهم أولا كما قال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦٦] .

كما أن جمهور بنى إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولا . ثم أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب ، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكر صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة ، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، فكان صلى الله عليه وسلم يأتيهم فى منازلهم بمنى وعكاظ ومجنة وذى المجاز ، فلا يجد أحداً إلا دعاه إلى الله ، ويقول : « ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به ، يا أيها الناس إن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى ، فمن يمنعنى أن أبلغ كلام ربى إلا رجلا يحملنى إلى قومه فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى ، ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم بها العجم ، فيقولون : يامحمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك هذا لعجب » وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن دعوته ، ويظهر رسالته ، ويدعو الخلق

إليها : وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه ويردون عليه بأقبح الرد وهو صابر على أذاهم ، ويقول : « اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا » فلما اشتد عليه أمر قريش خرج إلى الطائف — وهى مدينة معروفة شرقى مكة بينهما نحو ليلتين — ومعه زيد بن حارثة ومكث بها عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه فى منزله وكلمه ودعاه إلى التوحيد : فلم يجبه أحد منهم ، وخافوه على أحداثهم ؛ فأغروا سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى ؛ حتى إن رجليه لتدميان وزيد مولاه يقيه بنفسه ، حتى ألجأوه إلى ظل كرمة فى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة فرجع عنه ما كان من سفهائهم ، فدعا فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . فلما رأى ابنا ربيعة ماصنع به رثيا له وقالا لغلام لهما يقال له عداس وكان نصرانياً : خذ قطفاً من عنب ثم اجعله فى طبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله ، ففعل عداس وأقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال : بسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلدة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أى البلاد أنت وما دينك ؟ فقال عداس: أنا نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عداس : وما يدريك مايونس ابن متى ، والله لقد خرجت من نينوى ومافيها عشرة يعرفون متى ، من أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفى أمة أمية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو :

أخى ، كان نبياً وأنا نبى » فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رجع عداس فقالا له : ويلك ياعداس ، ومالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه ، فقال : ياسيدى ما فى الأرض خبر من هذا الرجل ، لقد خبرنى بأمر لايعلمه إلا نبى . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون ، إذ لم يستجب له رجل واحد ولا إمرأة . فقال له زيد بن حارثه : كيف تدخل عليهم يارسول الله وقد فعلوا وفعلوا؟ فقال : « يازيد إن الله عز وجل جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » ثم ذكر ابن إسحاق دخوله إلى مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقى من أهل مكة والطائف لما لقى ، ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال كما فى صحيح البخارى : أن عائشة رضى الله عنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبه إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرب الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة وقد أظلتنى فنظرت ، فإذا فيها جبريل فنادانى : إن الله قد سمع قول قومك وماردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال : فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يامحمد : إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم . بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ادع الله على المشركين . فقال : « إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة » .

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت أنه قال : لما اشتد البلاء علينا من

المشركين أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : ألا تدعوا الله لنا ؟ ألا تستنصر الله لنا ؟ فقال : «لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، ولكنكم تستعجلون » . وذكر ما لقى النبي صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى والاستهزاء والإغراء وهو صابر محتسب ، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته لاتأخذه فى الله لومة لائم ، مواجهة لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم ، وتسفيه أحلامهم، وإظهار عدواته وقتاله إياهم مابلغ مبلغ القطع.

قال عكرمة عن ابن عباس : ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة فلما حضر الموسم حج نفرمن الأنصار ، فانتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى فريق منهم، فقرأ عليه القرآن ، ودعاهم إلى الله ، وأخبرهم بالذى آتاه الله فأيقنوا واطمأنت قلوبهم إلى دعوته ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته ، ومايدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به ، وكان من أسباب الخير الذى ساق الله للأنصار إلى ما كانوا يسمعون من الأخبار فى صفته ، فلما رجعوا إلى قومهم جعلوا يدعونهم سراً ويخبرونهم بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى بعثه الله به من النور والهدى والقرآن ، فأسلموا حتى قل دور من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وقد ذكر الله ذلك فى القرآن وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون به العرب ويستفتحون به عليهم ، فكان أهل الكتاب مقرين بنبوته مخبرين بها مبشرين بها قبل أن يبعث فقال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب:

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله

بكفرهم فقليلا ما يؤمنون *ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧ – ٩١] .

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، أى يستنصرون به ، وكانوا هم والعرب يقتتلون فتغلبهم العرب ، فيقولون : سوف يبعث النبى الأمى من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة ، وكانوا ينعتونه بنعوته وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة ، وكما قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٩] .

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب،فإنهم مازالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم ، فإما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم ، وإما أن يراد به مرتان فالغضب الأول : بتكذيبهم المسيح والإنجيل . والغضب الثانى : لمحمد والقرآن .

فصل

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزاته تزيد على ألف معجزة ، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، ومثل القرآن المعجز ، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به ، ومثل أخبار الكهان والهواتف به ، ومثل قصة الفيل التى جعلها الله آية عام مولده وما جرى عام

مولده من العجائب الدالة على نبوته ، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التى ترجم بها الشياطين ، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه ، ومثل إخباره بالغيوب التى لا يعلمها أحد بتعليم الله عز وجل ، ومن غير أن يعلمه إياها بشر ، فأخبرهم بالماضى مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم ، بالمستقبلات ، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم ، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه ، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربى ولا كان هو يحسن لسانا غير العربى ، ولا كان يكتب كتاباً ، ولا يقرأ كتاباً مكتوبا ، ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين سفرة وهو صغير مع عمه أبى طالب لم يفارقه ، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم . وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم ، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ، وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنبوته ؛ وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته ، ولهذا تزوجت به خديجة بنت خويلد قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله . وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمداً صلى الله عليه وسلم له معجزات كثيرة ، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة ، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم ، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير ، وهذا قد جرى غير مرة له ولأمته من الآيات ما يطول وصفه فكان بعض أتباعه يحيي الله له الموتى من الناس والدواب ، وبعض أتباعه يمشى بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى ، ومنهم من ألقى النار فصارت عليه بردا وسلاما ، وأمثال ذلك كثيرة ، ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما فى القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرا مفصلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبياً أو من أخبره نبى ، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر ، وهذا مما قامت به الحجة عليهم ،

وهم مع قوة عدواتهم له وحرصهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم ، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له ، المجتهدين فى الطعن عليه ، وهم يمكنهم أن يقولوا : إن هذه الغيوب علمه إياها بشر يوجب على علم جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ولهذا قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هـذا ﴾ ، [سورة هود : ٤٩] . فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه . وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه ، ولهذا لما زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لـكل أحد كما قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بمـا ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنو وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنمـا يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ﴾ [سورة النحل : ٩٨ ـ ١٠٣]

وكان بمكة رجل أعجمى مملوك لبعض قريش فادعى بعض الناس أن محمداً كان يتعلم من ذلك الرجل الأعجمى فبين الله أن هذا كذب ظاهر ، فإن ذلك رجل أعجمى لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم عربى لا يعرف شيئاً من ألسنة العجم ، فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه ، فلا ذلك الرجل يحسن التـكلم بالعربية ، ولا محمد صلى الله عليه وسلم يفهم كلاماً بغير العربية ، فلهذا قال تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه ﴾ ، [سورة النحل : ١٠٣] . أى يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠٣] . وكذلك

قال بعض الناس عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ [سورة الفرقان : ٤] . قال تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤ ـ ٦] .

فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلا عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك ، وليس فى قومه ولا فى بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه فلهذا قال تعالى ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين ، وكذلك قولهم أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، فإن قومه المعادين له يعلمون أنه ليس عنده من يملى عليه كتابا وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله ﴿ قد أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾ فإن فى القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه فإن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا ، ذكر ما قدحوا به فى نبوته فقال : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ ، [سورة الفرقان : ٨٧] .

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه فى الأسواق التى يباع فيها ما يؤكل وما يلبس ، وقالوا هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يستغنى عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً .

قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان : ٩] . يقول مثلوك بالكاذب وبالمسحور والناقل عن غيره ، وكل من قال هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك ، ولهذا

قال تعالى : ﴿ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود ، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم فى المناظرة .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٣] .

فإنه أتاهم بجلية ما فى الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً ، فإذا أخبرهم بالغيوب التى لا يعلمها إلا نبى أو من أخبره نبى ، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبى وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون له وغير المعادين له مقربين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولا بالتواتر ، وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن ، فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك ، وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى : ﴿ غلبت الروم * فى أدنى الأرض ﴾ ثم قال : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم : ٢ ـ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] . فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك فى المستقبل، وكان كما أخبر .

وقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] .

فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة ، ولم يقدر أحد من الإنس والجن

أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وقال عن الكفار وهو بمكة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٤٥] . وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره بعد ذلك بسنين كثيرة .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ﴾ ، [سورة النور : ٥٥] . وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] . فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان .

وقال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٢] .

فكان كما أخبرهم غلبوا فى الدنيا كما شاهده الناس وهذا يصدق الخبر الآخر وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، وقد أيده تأييداً لا يؤيده إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء ، كما أيده كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع ، وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره ، وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقاً كما أيد نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان ، بل وأيد شعيباً وهوداً وصالحاً فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع ، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته تعرف بها ما يصنع ، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييداً لا يمكن أحداً معارضته ، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب

لا يتم الله أمره ولا ينصره ويؤيده فصار هذا معلوماً من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله فى الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم .

وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] .

قال تعالى: ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور * وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠ ـ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ ، [سورة الروم : ٩ ، ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٤ ، ٥] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ ، [سورة غافر . ٢١ ، ٢٢] .

وقالى تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ، [سورة غافر : ٨٢ ـ ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ [سورة ص : ١٢ ـ ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٥ ، ٦] .

فأخبر أن المكذبين له سيأتيهم فى المستقبل أخبار القرآن الذى استهزءوا به و بين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقاً للخبر وكان الأمر كذلك ومثله قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم

يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣] .

أخبر أنه سيريهم فى أنفسهم وفى الآفاق ما يبين أن القرآن حق ، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به ، ثم قال : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التى تتبين بشهادة الرب بأنه حق فلايحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة .

وقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ ، [سورة القمر : ١ ـ ٥] .

أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر . وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه السورة فى المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد؛ ليسمع الناس مافيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة . ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم فقال: ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ ، [سورة القمر : ٩ ـ ١٥] .

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه. ثم قال : فكيف كان عذابى لمن كذب ونذرى ؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم، يقول فى عقب كل قصة: فكيف كان عذابى ونذر ؟ ونذره إنذاره وهو مابلغته عنه الرسل من الإنذار ، وكيف كانت عقوبته للمنذرين: والإنذار:

هو الإعلام بالخوف ، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله ، وذكر قصة فرعون فقال : ﴿ وقد جاء آل فرعون النذر ٥ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ٥ أكفارهم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ٥ أم يقولون نحن جميع منتصر ٥ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٤١ ـ ٤٥] .

وذكر فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم مع الناس أنواعا من ذلك فقال : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ٥ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ٥ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ ، سورة الحشر : ٢ ـ ٤] .

ومثل هذا كثير فى القرآن من ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه ، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك . وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنجاريب وجنكسخان وغيرهم من الملوك الكافرين . جوابه ظاهر ، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته ، ومن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار . بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلا رسولا صادقاً ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم . أو يكون كذاباً فينتقم الله منه ويقطع دابره ، ويتبين أن ما جاء به ليست من الآيات والبراهين التى لا تقبل

المعارضة ، بل هى من جنس مخارق السحرة والـكهان والـكذابين التى تقبل المعارضة ، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها و يأتى بمثلها بخلاف غيرها ، فإن معارضتها ممكنة فتبطل بدلالتها والمسيح الدجال يدعى الألوهية ويأتى بخوارق ، ولـكن نفس دعواه الألوهية دعوى ممتنعة فى نفسها ، ويرسل الله عليه المسيح بن مريم فيقتله و يظهر كذبه ، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه . منها أنه مكتوب بين عينيه كافر .ومنها أنه أعور والله ليس بأعور. ومنها أن أحداً لن يرى ربه حتى يموت . و يريد أن يقتل الذى قتله أولا فيعجز عن قتله . فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه ، بخلاف معجزات الأنبياء فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتى بنظيرها ولا يبطلها مثل ، قلب العصا حية لموسى ،وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح ، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المشركين لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك .

وقد أخبر الله تعالى بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر * فتول عنهم يدع الداع إلى شىء نـكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداعى يقول الـكافرون هذا يوم عسر ﴾ ، [سورة القمر : ١ ـ ٨] .

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمـكذبين مع رسلهم فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى أعظم اجتماعات الناس عنده وهى الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر. وقول المـكذبين إنه سحر ، والناس كلهم : المؤمن به،والمنافق،

والـكافر ، يقرون على هذا ، لم يقل أحد منهم إن القمر لم ينشق ولا أنـكره أحد وفى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى ما يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ، فقال : «كان يقرأ فيهما بقاف والقرآن المجيد. واقتربت الساعة وانشق القمر » ومعلوم بالضرورة فى مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع الناس المؤمنون به إلى تـكذيب ذلك فضلا عن أعدائه من الـكفار والمنافقين ، لاسيما وهو يقرأ عليهم ذلك فى أعظم مجامعهم . وأيضاً فمعلوم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق ، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا ويقرأ على جميع الخلق ويستدل به ويجعله آية له ، فإن من يكون من أقل الناس خبره بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه ويقرأه على الناس فى أعظم المجامع ، وهى اقتربت الساعة وانشق القمر بصيغة الفعل الماضى، ولم يقل قامت الساعة ولا تقوم بل اقتربت ـ أى دنت ـ اقتربت وانشق القمر الذى هو دليل على نبوة محمد وعلى إمكان انخراق الفلك الذى هو قيام القيامة ، وهو سبحانه قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر فإن مبعث محمد صلى الله عليه وسلم هو من أشراط الساعة وهو دليل على قربها ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين أصبعيه السبابة والواسطى » وقد قال تعالى : : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ [سورة محمد : ١٨]

وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه ، كما يذكر ذلك عن المسيح فى الإنجيل أنه لما سئل عنها فقال [إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائـكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده] وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك لما سئل عنها . قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات

والأرض﴾ ، أى : خفيت على أهل السموات والأرض ﴿لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ؛ [سورة الأعراف : ١٨٧] . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله » فانشقاق القمر كان آية على شيئين على صدق الرسول . وعلى مجىء الساعة وإمكان انشقاق الفلك ، فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين وانشقاق السموات وانفطارها سواء أقروا بالقيامة الصغرى وأن الأرواح بعد الموت تتنعم أو تعذب، كما هو قول الفلاسفه اللا إلهيين أو أنكروا المعاد مطلقاً كما أنكر ذلك من أنكره من مشركى العرب والفلاسفة الطبيعيين. وغيرهم ينكرون انشقاق السموات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق ، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضى حركة مستقيمة وهى ممتنعة بزعمهم فى الفلك المحدد إذ لاخلاء وراءه عندهم وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك فى الفلك الأطلس لا فيما دونه فكيف وهو باطل فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء فى هذه الأحياز التى هى فيها سواء سمى خلاء أو لم يسم كما هو مذكور فى غير هذا الموضع. والمقصود هنا أنه تعالى أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة ؛ لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذى هو قيام الساعة الكبرى ، وهو آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو من أشراط الساعة والله تعالى فى كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى كما فى سورة الواقعة ذكر فى أولها القيامة الكبرى وفى آخرها القيامة الصغرى ، وذلك كثير فى سور القرآن مثل سورة ق وسورة القيامة وسورة التكاثر وسورة الفجر وغير ذلك ، وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر ففى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشهدوا » وفى لفظ « ونحن معه بمنى » فقال كفار قريش

سحركم ابن أبى كبشة فقال رجل منهم إن محمدا إن كان ساحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا ، فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ، وعن أنس بن مالك أنه قال « سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما فنزلت ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [سورة القمر ١ ، ٢] .

وهذا حديث صحيح مستفيض رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس ، وهو أيضاً معروف عن حذيفة قال : أبو الفرج بن الجوزى : والروايات فى الصحيح بانشقاق القمر عن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس - رضى الله عنهم - ومما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه .

قال الله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ . [سورة الطور : ٣٣ ، ٣٤] . ثم تحداهم بعشر سور فقال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة هود : ١٣ ، ١٤] . ثم تحداهم بسورة واحدة فقال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ ، [سورة يونس : ٣٨] . فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] .

فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأناً والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عدواتهم له وحصرهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله ، وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول الله إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم .

فقال تعالى فى سورة القصص : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون * وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ [سورة القصص : ٤٣ ـ ٤٧] .

وقال فى سورة السجدة : ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ ، [سورة السجدة : ٣] .

وقال فى سورة يس : ﴿ يس * والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ [سورة يس : ١ ـ ٦] .

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الثلاثة نعمته على هؤلاء وحجته عليهم بإرساله وذكر بعض حكمته فى إرساله ، وذلك لا يقتضى أنه لم يرسل إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف فى لسان العرب وغيرهم .

قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ ، [سورة النحل : ٨] .

ومعلوم أن فى هذه الدواب منافع غير الركوب ، وقال تعالى : ﴿ يلقى بالروح من أمره على من يشاء من عبــاده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون ﴾ [سورة غافر : ١٥ ، ١٦] . فقد أخبر أنه ينزل الملائـكة بالوحى على الأنبياء لينذروا يوم القيامة وذلك لا يمنع أن يـكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهى بالشرائع .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بـكل شىء علماً ﴾ ، [سورة الطلاق : ١٢] .

فأخبر تعالى أنه خالق العالم العلوى والسفلى ليعلم العباد قدرته وعلمه، ومع هذا ففى خلق ذلك له من الحـكمة أمور أخرى غير علم العباد ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ جعل الله الـكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم ﴾ ، [سورة المائدة : ٩٧] .

ومعلوم أن فى جعل الـكعبة قياماً للناس والهدى والقلائد حكما ومنافع أخرى.

وقال تعالى . ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ، [سورة النجم : ٣١] .

ومعلوم أن فى ملك الله حكما أخرى غير جزاء المحسن والمسىء وكذلك قوله: ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بمـا كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ، [سورة الجاثية : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ـ إلى قوله ـ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء: ١٣٦ ـ ١٦٥] .

ومعلوم أن فى إرسال الرسل سعادة من آمن بهم وغيرها حكم أخرى غير دفع

حجة الخلق على الله وكذلك قوله تعالى . ﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، [سورة الحج : ٣٧] .

ومعلوم أن فى تسخيرها حكماً ومنافع غير التكبير ، وقوله : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، [البقرة : ١٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] .

ومعلوم أن لله حكماً فى خلق الشمس والقمر ، والليل والنهار ، غير انتفاع بنى أدم وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ ، [سورة يونس : ٦٧] . وقوله : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٦٢] . وفيهما حكم أخرى .

وقال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] .

وفى إنزال الكتاب من هدى من اهتدى به واتعاظه وغير ذلك مقاصد غير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٨ ، ٣٩] .

ومعلوم أن فى بعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف فى علم هؤلاء ، ومما يبين ذلك أنه قال فى الآية التى احتجوا بها : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ [سورة يس : ٦] .

ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار ، بل وليبشر من آمن به ، ولأمرهم بالمعروف

ونهيهم عن المنكر ، وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وغير ذلك من مقاصد الرسل كما قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ . [سورة النساء : ١٦٥] . وقوله : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ لا ينافى كونه لم يصفهم فى موضع آخر إلا بالإنذار ، وقد قال : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ [سورة الكهف : ١ ـ ٥] .

وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضرة حصار النصارى فاقم خطيبهم نخطب بهذه الآية ، ولما قرأ قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ [سورة الكهف : ٢] ، أشار إلى جند الإيمان ، ولما قرأ قوله : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ . [سورة الكهف : ٤] . أشار إلى جند الصلبان .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وفى إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك ، وكذلك قوله عن أهل الكهف : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ . [سورة الكهف : ١٢] . وفى بعثهم حكم أخرى بدليل قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ، [سورة الكهف : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ ، [سورة الجن : ٢٧ ، ٢٨] . ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق ، وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك. وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب ﴾ ، [سورة ص: ٢٩]. وفيه حكم أخرى من قيام الحجة على الخلق وضلال من ضل به ، ومثله

قوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ . [سورة إبراهيم : ٥٢] .

ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من البشارة والأمر والنهى وغير ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتيكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

ومعلوم أن فى جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب ومامعه .

وقال تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٢] .

ومعلوم أن فيه حكما أخرى مثل تبشير من آمن به ، والأمر ، والنهى ، وإنذار هؤلاء من العرب .

وقال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ ، [سورة يس : ٦٩ ، ٧٠] .

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار

وقال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٢] ومعلوم أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتبشير المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ ، [سورة الأحزاب ٧ ، ٨] . ومعلوم أن فى أخذ الميثاق حكماً أخرى .

وقال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من

ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ﴾ ، [سـورة الفتح : ١ ، ٢] .

وقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — إلى قوله — لنريه من آياتنا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١] . وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين — إلى قوله — لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ، [سورة النساء : ١٢] وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ، [سورة يونس : ٥] . وفى ذلك كله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ ، [سورة القصص : ٨] . وإن كانت هذه اللام لام العاقبة ، فليست العاقبة منحصرة فى ذلك ، بل فى ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى ، ومثل قوله : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ الآية ، [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ ، [سورة الصف : ٩] وفى إرساله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، [سورة النساء : ١٠٥] .

وفى إنزاله تبشير وإنذار وأمرونهى ، ووعد ووعيد ، وكذلك قوله فى عيسى ابن مريم : ﴿ هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٩] . وكذلك قوله : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٢] وفيه حكم أخرى، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ ، [سورة النحل : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ؛ وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ، [سورة فاطر : ١٢].

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً — إلى قوله — ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٢٢، ١٢٣] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] . وفى كونهم وسطاً حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، [سورة الملك : ٢] . وفيهما حكم أخرى ، وكذلك قوله : [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . [سورة الفرقان: ١]. وفى ذلك حكم أخرى من البشارة والأمر والنهى .

وقال تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء — إلى قوله — وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] .

وفى ذلك حكم أخرى ، ومثل ذلك كثير فى كلام الله عزوجل ، وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى ، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر فى ذلك الموضع من مناسبة ، وهذا كالمناسبة فى قوله : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] . فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين ، وأحقهم بالإنذار ، فكان فى تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم .

وقال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] .

ومعلوم أنه نزل به ليكون بشيرا ، وليأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويضع الآصار والأغلال صلى الله عليه وسلم .

فصل

وأما احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥١] . وقوله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] فهذا كقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، [سورة التوبة : ١٢٨] .

وهذا فى عمومه نزاع ؛ فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس ، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر ، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة ، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا .

قال تعالى : ﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨ ، ٩] .

وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين ، فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم ، وليس فى هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم ، فإنه إن كان خطابا للانس كلهم ، فهو أيضا مرسل إلى الجن،وليس من جنسهم ، فكيف يمتنع إذا كان الخطاب خطابا للعرب بما امتن به عليهم، أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك ، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس ، وقد أخبر فى الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به .

قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى

طريق مستقيم ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لـكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢] .

وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا • وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلـكه عذابا صعداً * وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا * وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا * قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا * قل إنى لا أملك لـكم ضراً ولا رشدا * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحـداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط

بما لديهم وأحصى كل شىء عددا ﴾ ، [سورة الجن] .

ونظير هذا قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٤] . وقومه قريش، ولا يمنع أن يكون ذكراً لسائر العرب بل لسائر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، [سورة القلم : ٥١ ، ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [سورة الفرقان : ١] .

وقال تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ، [سورة ص : ٨٦ ـ ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ ـ ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] وهذا على أصح القولين ، وأن المراد بقوله . ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ، أنه ذكر لهم يذكرونه فيهتدون به .

وقيل : إن المراد أنه شرف لهم وليس بشىء ، فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفا لجميع قومه ، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال تعالى . ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦٦] .

بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم ، كما قال تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩] . فعم العالمين جميعهم ،فقال: ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [سورة يوسف : ١٠٤]

فصل

هذا الكلام على الوجه الأول ، وهو قول من يقول إنه لم يقل إنه أرسل إلا إلى العرب .

وأما الوجه الثانى ،وهو أن نقول : هو ذكر أنه رسول إلى الناس كافة كما نطق به القرآن فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٨] . وقوله ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ، [سورة الأعراف . ١٦٨] .

وقد صرح فيه بدعوة أهل الكتاب و بدعوة الجن فى غير موضع فإذا سلموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه فى ذلك ، فإما أن يقروا برسالته إلى العرب أولا يقروا . فإن أقروا بأنه رسول أرسله الله لم يكن مع ذلك ، تكذيبه كما تقدم ، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك ، كما تقدم أن من ذكر أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم ،أو من شر الخلق وأكذبهم ، فإنه إن كان صادقاً فهو من أفضلهم ، و إن كان كاذباً فهو من شرهم ، و إذا كان الله قد أرسله ـ ولو إلى قرية كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى ، كان من أفضل الخلق ، وكان صادقاً لا يكذب على الله ، ولا يقول عليه إلا الحق ، ولو كذب على الله ولو فى كلمة واحدة ، لكان من الكاذبين ، لم يكن من رسل الله الصادقين ، فإن الكاذب لا يكذب فى كل شىء ، بل فى البعض فمن كذب على الله فى كلمة واحدة ، فقد افترى على الله الكذب ، وكان من القسم الكاذبين فى دعوى الرسالة لا من الصادقين . وأيضاً فإن مقصود الرسالة تبليغ

رسالات الله على وجهها ، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة، وأيضاً . فإذا علم أنه كذب فى بعضها لم يتميز ماصدق فيه مما كذب فيه إلا بدليل آخر غير رسالته ، فلا يحصل المقصود برسالته .

ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه ، وقد قال تعالى ما يبين إنه لا يقر كاذبا عليه بقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ٭ لأخذنا منه باليمين ٭ ثم لقطعنا منه الوتين ٭ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] .

فقوله تعالى : (ويمح الله الباطل ويحق الحق) كلام مستأنف ليس داخلا فى جواب الشرط ، فإنه لو كان معطوفاً على جواب الشرط لقال : ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين ، كما فى قوله : ﴿قم الليل﴾ فلما قال : ويحق الحق، بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه ، ويحق الحق كحق الصادقين عليه ، فمحو الباطل نظير إحقاق الحق ليس مما علق بالمشيئة بل لا بد منه بخلاف الختم على قلبه ، فإنه معلق بالمشيئة ولايجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم ، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه .

وقال تعالى فى صيانته وإحكامه لما تبلغه رسله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ٭ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ٭ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه

الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ ـ ٥٤] .

وأيضاً : فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به ، وجاهدهم وقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم ، كان ذلك ظلماً لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس ، ومن كان نبياً قد أرسله الله فهو منزه عن هذا وهذا . فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم ـ مع ماظهر من عموم دعوته للخلق كلهم ـ قول متناقض ظاهر الفساد ، وكل مادل عليه أنه رسول فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق ، وكل من اعترف بأنه رسول لزمه الاعتراف بأنه رسول إلى جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولا يفترى عليه الكذب، ويقول للناس : إن الله أمركم باتباعى وأمرنى بجهادكم إذا لم تفعلوا وهو كاذب فى ذلك ، ومعلوم أن كل ما دل على أن الله أرسله ، فإنه يدل على أنه صادق فى الرسالة وإلا فلا . فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة ، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب ، وأولئك ليسوا من رسل الله ، ولا يجوز تصديقهم فى قولهم : إن الله أرسلهم .

فصل

وأما إن لم يقروا برسالته لا إلى العرب ولا غيرهم ، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر، أو ساحر، أو مفتر كاذب ، ونحو ذلك. فيقال لهم على هذا التقدير: فدليلكم أيضاً باطل، ولا يجوز أن تحتجوا بتقدير تكذيبكم لمحمد صلى الله عليه وسلم بشىء من كلام الأنبياء قبله ، سواء صدقتم محمداً صلى الله عليه وسلم فى جميع مايقوله أو فى بعضه ، أو كذبتموه فدليلكم باطل، فيلزم بطلان دينكم على كل تقدير، وما ثبت بطلانه على كل تقدير، فهو باطل فى نفس الأمر ، فيثبت أنه باطل فى نفس الأمر ، وذلك أنكم إذا كذبتم محمداً لم يبق لكم طريق تعلمون به صدق

غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القول بصدق غيره، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره، لم يكن عالماً بصدق غيره، بل يكون مصدقاً لهم بغير علم؛ وإذا لم يكن عالما بصدقهم لم يجز احتجاجه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلا علم، ومحاجة فيما لا علم له بها، فإن الدلائل الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره، والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا. ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن مثله أو أكمل منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد صلى الله عليه وسلم إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى، وهذه جملة مبسوطة في موضع آخر لم نبسطها هنا؛ لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك، فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً واتباعاً لهواه، وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم، بل أخذوا ذلك مسلماً وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله، وبما نقلوه عنه على صحة دينهم، وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه. فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته، كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل، وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم في غير موضع، ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه. فإن من كان رسولا لله، فإنه لا يكذب على الله، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم منه أنه

دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم ، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار ، وهذا متواتر عنه تواتراً تعلمه العامة والخاصة وفى القرآن من ذلك ما يكثر ذكره ، كما قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ ، [سورة البينة] .

وقال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا ، فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران ١٨ ــ ٢٠].

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى فى موضع ، كقوله تعالى عن النصارى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] . وقال تعالى أيضاً ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا

إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، و إن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتو بون إلى الله و يستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة ٧٢ ـ ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً * يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ـ ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ و إذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ر بى ور بكم و كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ ، [سورة المائدة ١١٦ ، ١١٧] . فقد قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ فى موضعين

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ .

وقال تعال : ﴿ وقالت النصارى : المسيح ابن الله ﴾ .

فذكر الله عنهم هذه الأقوال الثلاثة ، والنصارى قالت الأقوال الثلاثة ، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وقولهم : ثالث ثلاثة قول النسطور ية . وقولهم : إنه ابن الله قول الملكانية . ومنهم من يقول : قوله : إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقو بية : وقولهم والابن وروح القدس .

وظن ابن جرير الطبرى أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقو بية والنسطورية والملكية ، كما ذكره طائفة من المفسرين ، كابن جرير الطبرى والثعلبى وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقو بية : أن عيسى هو الله ، وعن النسطور ية : أنه ابن الله ، وعن المر يوسية : أنه ثالث ثلاثة ، وتارة يحكون عن النسطور ية : أنه ثالث ثلاثة ،وعن الملكية : أنه الله ، و يفسرون قولهم : ثالث ثلاثة بالأب والابن ، وروح القدس

والصواب : أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة : الملكية ، واليعقوبية والنسطورية ، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم

الثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة ، وتقول عن المسيح : إنه الله ، وتقول : إنه ابن الله ، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة ، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التى تتضمن ذلك ، وهو قولهم : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ،و برب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ . وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

فقد فسروه بالتثليث المشهورعنهم ، المذكور فى أمانتهم ، ومن الناس من يقول : إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية ، وقولهم : ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والابن . وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة ، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب ، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله .

قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ قال : قالت النصارى : إن الله هو المسيح وأمه . فذلك قوله : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبى صخر . قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾

قال: هو قول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا ضعيف ، وقد ذكر سعيد بن البطريق فى أخبار النصارى أن منهم طائفة ـ يقال لهم المرسية ـ يقولون : إن مريم إله وإن عيسى إله ،

فقد يقال : إن هذا قول هؤلاء ، كما أن القول : بأن عزير ابن الله ، قول طائفة من اليهود .

وأما الأول فتوجه ، فإن النصارى المتفقين على الأمانة ، كلهم يقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

فذكر سبحانه فى هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما ، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .وقال: ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ ثم قال : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، ولم يذكر هنا أمه . وقوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ قال معمر عن قتادة : وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان ، وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل فى مصنفه الذى صنفه فى كتبه فى الرد على الجهمية ، وذكره عنه الخلال والقاضى أبو يعلى . قال أحمد : ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر فقال : إنا وجدنا فى كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق . قلنا : أى آية ؟

قال : قول الله : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . وعيسى مخلوق .

فقلنا : إن الله منعكم الفهم فى القرآن ، عيسى عليه السلام تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ؛ لأن عيسى يجرى عليه نسمة ومولود وطفل وصبى وغلام يأكل و يشرب وهو يخاطب بالأمر والنهى ، يجرى عليه الوعد والوعيد ، هو من ذرية نوح ، ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى . هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى؟ ولكن المعنى فى قوله

جل ثناؤه : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن فكان عيسى بـ« كن » ، وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله : وليس الكن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ؛ لأن الكلمة مخلوقة .

قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة .

قال أحمد : وأما قوله جل ثناؤه ﴿ وروح منه ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٣] يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله ، كما يقال : عبد الله وسماء الله ، وفى نسخة روح يملكها الله خلقها الله .

وقال الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ الكلمة حين قال له : كن فكان عيسى بـ « كن » وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان . وقال ليث عن مجاهد : روح منه . قال : رسول منه يريد مجاهد قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ ـ ١٩] .

والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح وهو جبريل روح القدس — سمى روحاً كما سمى كلمة ؛ لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون فى أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ؛ لأنه جاء كذلك فى الكتب المتقدمة ، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب ، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئاً من

صفاته روح القدس ، بل روح القدس فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء ، كالوحى ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا فى تفسير ابن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس : أن عيسى بن مريم استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك قال: [اللهم أنت ربى ، وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتكَ خلقتنى ، ولم آتهم من تلقاء نفسى] . وذكر تمام الحديث

وقد قال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

فهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال : إنما أنا رسول ربك ﴾ . وهذا مبسوط فى موضع آخر

والمقصود هنا : أنهم سواء صدقوا محمداً أو كذبوه ، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين ، فإنه إن كان نبياً صادقاً ، فقد بلغ عن الله فى هذا الكتاب كفر النصارى فى غير موضع ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم ، فمن علم أنه نبى ولو إلى طائفة معينة ، فيجب تصديقه فى كل ما أخبر به ، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم ، فإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشىء من الكتب والمعقول ، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل ، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقا ، كما أن المسيح عليه السلام لما حكم بكفر من كذبه من اليهود ، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلا ، فكل ما عارض قول النبى صلى الله

عليه وسلم المعصوم فهو باطل ، وإن كذبوا محمداً تكذيباً عاماً مطلقاً وقالوا : ليس هو نبى أصلا ، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين ، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره ، فإن الطريق الذى يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأرض ، فإذا قالوا : علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا . قيل لهم : معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ، وتواترها أبلغ ، والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكمل ، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، وموسى جاء بالعدل ، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جمع فى شريعته بين العدل والفضل ، فإن ساغ لقائل أن يقول : هو مع هذا كاذب مفتر ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك ، فيبطل بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم جميع ما معهم من النبوات إذا حكم أحد الشيئين حكم مثله ، فكيف بما هو أولى منه ؟ فلو قال قائل : إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيا . أو أن داود وسليمان ويوشع ويحيى كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيا . أو قال ما يقوله السامرة : إن يوشع كان نبيا ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء . أو قال مايقوله اليهود: إن داود وسليمان وشيعا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، والمسيح بن مريم لم يكن نبيا ، كان هذا قولا متناقضاً معلوم البطلان ، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له . ودلائل نبوة الأكمل أفضل ، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبى المفضول دون الفاضل ؟ وصار هذا كما لو قال قائل : إن زفر وابن القاسم والمزنى والأثرم كانوا فقهاء ، وأبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال : إن الأخفش وابن الأنبارى والمبرد كانوا نحاة ، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة . أو قال : إن صاحب الملكى والمسيحى ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ،

وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء . أو قال : إن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، و بطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة .

ومن قال : إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمد ابن عبد الله لم يكن نبيا . فتناقضه أظهر ، وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال : إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ، ومحمداً ليس برسول ، والقرآن لم ينزل من الله . فبطلان قوله فى غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من قبله ، وتدبر كتابه والكتب التى قبله ، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء ، وهذه الجملة مفصلة مشروحة فى غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : التنبيه على مجامع جوابهم ، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء ، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم ، ولا حجة لهم أيضاً على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء ، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح فى الأصل الذى به علموا صدقهم . وأيضاً فالطريق الذى به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم ، فكذلك تعلم نبوة بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى ، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد فى كلمة مما جاء به .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم : أن كثيراً من النصارى إنما يعتمدون فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتى بعدهم ، فيقولون : المسيح ــ عليه السلام ــ بشرت به الأنبياء قبله ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يبشر به نبى . وجواب هؤلاء من وجهين :

أحدها : أن يقال : بل البشارة بمحمد صلى عليه الله وسلم فى الـكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح عليه السلام ، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم بل هو آخر ينتظرونه . وهم فى الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال ، فإنه الذى يتبعه اليهود ، ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان ، ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله . كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وثبت أيضاً فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل عيسى بن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقتل مسيح الهدى عيسى بن مريم مسيح الضلالة الأعور الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد ؛ ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلها ، فيقتل من ادعى فيه أنه الله وهو برىء مما ادعى فيه لمن ادعى فى نفسه أنه الله وهو دجال كذاب ، فهكذا البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الـكتب المتقدمة ، وقد يتأولها بعض أهل الـكتاب على غير تأويلها ، كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن بسط الـكلام فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فى الـكتب التى بأيدى أهل الـكتاب له موضع آخر .

الجواب الثانى : أن يقال : ليس من شرط النبى أن يبشر به من تقدمه ، كما أن موسى كان رسولا إلى فرعون ، ولم يتقدم لفرعون به بشارة ، وكذلك الخليل عليه السلام أرسل إلى نمرود ، ولم يتقدم به بشارة نبى إليه ، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم بواحد من هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين ، فإن دلائل نبوة النبى لا تنحصر فى أخبار من تقدمه ، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وهؤلاء النصارى إنما مستند دينهم فى التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الـكتب الإلهية جاءت بذلك ، ليس مستندهم فيه العقل ، فإذا تبين أنهم مع

تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات ، وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة ، وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم ، وسنبين إن شاء الله أن لا حجة لهم فى سمع ولا عقل ، بل ذلك كله حجة عليهم .

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التى كتب الوفاء فى ظهرها فتمثيل باطل غير مطابق ؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولا وسقوطه آخراً بالوفاء ، بل أمكن مع هذا دعواه ، وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله فى بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض ، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذى ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض ، فإنه إن كان صادقا فى قوله : إنه رسول الله ، كان معصوما فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكذب فى شىء منه لا عمداً ولا خطأ ، ووجب اتباع الكتاب الذى جاء به من عند الله ولم يمكن رد شىء مما ذكر أنه جاء به من الله ، وإن كان كاذباً فى كلمة واحدة مما أخبر به عن الله ، فهو من الكاذبين المفترين ؛ فلا يجوز أن يحتج بشىء من دينهم ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله ، بل ولا بمجرد خبره وقوله إن لم يذكر أنه خبر عن الله ، كما لا يجوز مثل ذلك فى سائر من عرف أنه كاذب فى قوله : إنى رسول الله ، كمسيلمة الحنفى ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى وأمثالهم من الكذابين .

والواحد من المسلمين ، وإن كان الله لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ ، بل والرسول أيضاً وإن لم يكن مؤاخذاً بالنسيان والخطأ فى غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين ، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ ، فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله الله ويستقر ذلك و يأخذه الناس

عنه معتقدين أن الله قاله ولم يقله الله ، كان هذا مناقضاً لمقصود الرسالة ولم يكن رسولا لله فى ذلك ، بل كان كاذباً فى ذلك وإن لم يعتمده ، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق فى ذلك ، كان قد صدق من قال على الله غير الحق ، ومن تقوّل عليه ما لم يقله ، وإن لم يكن متعمداً ويمتنع فى مثل هذا أن يصدقه الله فى كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه فى كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك ، ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقا فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكون فى خبره عن الله شىء من الكذب لا عمدا ولا خطأ ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر فى خبره عن الله خطأ ، وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبينه ، فلا ينافى مقصود الرسالة كما نقل من ذكر «تلك الغرانيق العلى ، وأن شفاعتها لترتجى» هذا فيه قولان للناس : منهم من منع ذلك أيضاً وطعن فى وقوع ذلك . ومن هؤلاء من قال : إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ فى سمعهم والشيطان ألقى فى سمعهم .

ومن جوز ذلك قال : إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن فى ذلك محذور ، وكان ذلك دليلا على صدقه وأمانته وديانته ، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق ، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه .

وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه ، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور ، واستدل على ذلك بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم

أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ — ٥٤] .

وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله : لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقا . وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق ، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع .

والصدق الذى هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقاً لمخبره ، لا يخالفه عمداً ولا خطأ ، ولو قال قائل : أنا لا أسمى الخطأ كذبا ، أو قال : إن المخطىء لا إثم عليه فى خطابه ، قيل له : هذا لا ينفع هنا ؛ فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته ، والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له ، كما لا يجوز إرسال من يتعمد عليه الكذب ، بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به ، ولو علم أنه يقول عليه مالم يقل وأرسله مع ذلك ، لكان جاهلا سفيها ، ليس بعليم حكيم ، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين ، وأحكم الحاكمين ؟

وأيضاً : فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه فى كل ما يبلغه عن الله ، وأن الله مصدقه فى كل ما يبلغه عنه ، فيمتنع أن لا يكون صادقا فى شىء من ذلك ، ويمتنع أن يصدق الله فى كل ذلك من لا يصدق فى كل ذلك ، فإن تصديق من لا يصدق كذب ، والكذب ممتنع على الله .

وإذا تبين أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولا صادقا فى جميع ما يبلغه ، فيمتنع مع هذا تناقض أخباره ؛ لأنها كلها صادقة ، وإما أن يكون غير صادق ولو فى كلمة فلا يكون رسولا لله ، فلا يحتج بشىء مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله ، بالمقر باستيفاء وثيقته تمثيلا باطلا ؛ فإن صاحب الوثيقة الذى أقر بوفائها بعد ، كانت له حجة ثم استوفاها .

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق ، وإما كاذب ، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتج ببعض كلامه دون بعض ، وإذا قال القائل : مقصودى أن أبين أنه متناقض ، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا ، وأن ديننا حق ، كما أن نفس كلام الذى كان له الحق هو المقر بالوفاء ، قيل : إن كان كلامه متناقضا فليس برسول ، وحينئذ فلا يجوز لك أن تحتج بشىء مما بلغه عن الله ، بخلاف المقر بالوفاء ، فإن إقراره مقبول على نفسه ، فإنه شاهد على نفسه وشهادته على نفسه مقبولة ، ولو كان كافراً وفاسقاً ، بخلاف شهادته على الله أن الله أرسله ، إذا كذب فى كلمة واحدة لم يكن الله أرسله فلا يقبل شىء من شهادته ، وخبره عن الله .

فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذى يقول : إنه رسول الله ، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل . فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقاً معروفاً بالكذب ، ليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره . فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفا بالكذب ، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله ؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره ، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصما فيه ، ولا تقبل شهادته بما ادعاه .

وأما من يقول : إنه رسول الله ، فلا يمكن أن يصدق فى بعض ما يخبر به عن الله ، ويكذب فى بعض ، بل إن كان كاذبا فى كلمة واحدة ، فليس هو رسولا لله ، فلا يحتج بكلامه ، وإن قدر أن الكلام فى نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقا فيه إذا كذب فى كلمة واحدة ؛ لأن الله لا يرسل كاذبا .

وإن لم يكن كاذبا فى كلمة واحدة وجب تصديقه فى كل ما يخبر به ، فلا

يمكن تصديقه فى بعض ما يخبر به عن الله دون بعض ، بخلاف المقر والشاهد .

وإن كان المقصود : بيان تناقضه ، كان هذا احتجاجا على أنه ليس برسول ، فلا ينفعهم ذلك ، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض .

وإن كان المقصود : إلزام المسلمين به ، فقد بينا أنه لا يلزمه من وجوه متعددة ، فهذا بيان أنه لا يجوز لهم الاحتِجاج بشىء من كلام محمد صلى الله عليه وسلم سواء صدقوه أو كذبوه .

ثم يقال لهم ثانياً : فالجواب عن التمثيل بالوثيقة : إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق . وأما القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى إخباره بأنه أرسل إلى قريش ، ثم إلى العرب ، ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغيرهم ، كما أنه ليس فى إخباره أنه أرسل إلى بنى إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: «يابنى إسرائيل» مايمنع أن يكون مرسلا إلى اليهود من غير بنى إسرائيل وإلى النصارى والمشركين ، وهو أنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، ولا قال ما يدل على هذا ، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال : إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس ، إلى أهل الكتاب وغيرهم ، ولو قدر أنه قال : إنه لم يرسل إلا إلى العرب ، ثم قال : إنى أرسلت إلى أهل الكتاب ، لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب ، كما قال : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٤٥] . وقال أيضاً : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، [سورة النحل : ١١٥] . ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفى تحريمها فى الزمن الأول ، و إثبات تحريمها فى الزمن الثانى منافاة .

ولكن نظير الدين إذا أوجب شيئاً ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة

بين يدى النجوى ، فنى مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للاقرار بالدين .

فصل

وقد ذكر أنه لا يجوز أن يحتجوا بشىء من القرآن ، وما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم إلا مع التصديق برسالته ، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره ، ولا الاحتجاج بشىء من كلام الأنبياء . فتكذيبهم به يستلزم تكذيبهم بغيره ، فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته ، وذلك يستلزم بطلان دينهم ، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول ، وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل ، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه ، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه ، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل . فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله لزم بطلان دينهم ، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته . وإذا لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله . فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين .

ونحن نذكر هنا : أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم ، وأيضاً فإن الذين احتجوا بقولهم : مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم ، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم ، كالاستدلال بآياتهم و براهينهم التى تسمى بالمعجزات ، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل ، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين ؛ لأنهم يسلمون بنبوة هؤلاء . وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم .

أما على الأول ؛ فلأنه : أى طريق ثبت به نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، فإنه تثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بمثلها وأعظم منها ، وحينئذ

فإن لم يقروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم ، يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائماً مع انتفاء مدلوله ، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته ، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول .

فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد ،لم يكن مستلزماًله فلا يكون دليلا ؛ فإن من جعل المعجزات دليلا على نبوة نبي ، وقال : المعجزة هى الفعل الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، السالم من المعارضة . ونحو ذلك مما يذكر فى هذا المقام وجعلوا ذلك دليلا على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . قيل له : إن كان هذا دليلا ، فهو دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكن دليلا لم يكن دليلا على نبوة موسى وعيسى ، فإنه قد ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات مالم يثبت مثله عن غيره ، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره ، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا معجزات محمد صلى الله عليه وسلم لم تتوافر عندنا . قيل : ليس من شرط التواتر أن تتواتر عند طائفة معينة ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم لم تتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح عليهما السلام ، وإنما تتواتر أخبار كل إنسان عند كل من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جرا .

ومعلوم : أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح عليه السلام . والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح عليه السلام التصديق بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح ، وإن قالوا عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله . قيل : وفى الكتب المتقدمة من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر كما سيأتى بعضها إن شاء الله تعالى .

وإن تأولوا تلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يمنع دلالتها .
قيل لهم : واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح .

فإذا قالوا : تلك التأويلات باطلة من وجوه معروفة ، بين لهم أن هذه باطلة أيضاً بمثل تلك الوجوه وأقوى ، فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح ، إلا ودلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكثر فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد ، ومن الطعن فى نبوة محمد الطعن فى نبوة موسى والمسيح . وإن قالوا : إن المسيح إله . قيل لهم : ثبوت كونه إلهاً لو كان ممكناً أبعد من ثبوت كونه رسولا ، فكيف إذا كان ممتنعاً ؟ وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء ، أوالخوارق ، والخوارق لا تدل على الإلهية فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم .

وأما أقوال الأنبياء — عليهم السلام — فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم أظهر من دلالتها على إلهية المسيح ، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد ورسالة المسيح ، ومتى ثبت أن محمداً رسول الله يطلب إلهية المسيح ، فإنه كفر من قال : إنه الله أو ابن الله . بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهاً ، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض . وقولهم : إنه إله بلاهوته ، ورسول بناسوته ، كلام باطل من وجوه :

منها : أن الذى كان يكلم الناس ، إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله ، فإن كان هو الله ، بطل كونه رسول الله . وإن كان هو رسول الله ، بطل كونه هو الله .

ولهذا لما كان الذى كلم موسى - عليه السلام - من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله ، وهذا وارد بأى وجه فسروا الاتحاد ، فإنه من

المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلاماً بصوته المعروف ، وصوته لم يختلف عليهم، ولا حاله عند الكلام تغيرت، كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا دخل فيه الجنى ، و إذا فارقه الجنى ، فإن الجنى إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع و بين غيره من الناس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقيناً أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته ، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحالّ فيه المتحد به المتكلم بكلامه؟ فإنه لابد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذى بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما .

يبين هذا : أن موسى لما سمع كلامه سمع صوتاً خارقاً للعادة مخالفاً لما يعهد من الأصوات ، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذى نسمعه لا يقدر على التكلم به إلا الله، وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته طول عمره، وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبى فضلا عن أن يدل على أنه إله ، و إنما علم أنه نبى بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: إن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته فى بطن أمه مريم و إلى الأبد لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبداً

وحينئذ فمن المعلوم : أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هو رسوله ، وإن كان خطاب رسوله ، لم يكن ذلك صوت رب العالمين .

الوجه الثانى : أن خطابه خطاب رسول ونبى ، كما ثبت ذلك عنه فى عامة المواضع .

الثالث . أن مصير الشيئين شيئاً واحداً مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنع فى صريح العقل، و إنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا و يختلطا ، كالماء مع الخمر واللبن ، فإنهما إذا صارا شيئاً واحداً ، استحالا واختلطا .

الرابع : أنه مع الاتحاد يصير الشيئان شيئاً واحداً ؛فيكون الإله هو الرسول والرسول هو الإله،إذ هذا هو هذا،وإن كان الإله غير الرسول ، فهما شيئان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيههم ذلك بالنار فى الحديد والروح فى البدن ، فإنه يدل على فساد قولهم ، فإن الحديد متى طرق أو وضع فى الماء ، كان ذلك مصيباً للنار ، وكذلك البدن إذا جاع أو صلب وتألم ، كان ذلك الألم مصيباً للروح ، فيلزم أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع والعطش ، وكذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود : إنه بخيل ، وإنه مسه اللغوب .

فصـــل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . قيل لهم : أولا هذه حجة جدلية،فما مستندكم فيما بينكم وبين الله فى تصديق شخص وتكذيب آخر، مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة ، بل هى فى الذى كذبتموه أظهر ؟ فإن كانت حقاً لزم تصديق من كذبتموه وفسد دينكم . وإن كانت باطلة ، بطل استدلالكم بها على دينكم ، فثبت أنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليهم وسلم لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

وقيل لهم ثانياً : المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلهم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن محمد صادقاً لم يعرفوا صدق هؤلاء فيبطل دليلكم ، وإن كان صادقاً بطل دين النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير .

وقيل لهم ثالثاً : المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإن قيل إنهم عرفوا ذلك بطريق آخر ، فإن الدليل الذى يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق محمد بطريق الأولى فلا يمكنهم تصديق شىء مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم :

وقيل لهم رابعاً : هم إنما يصدقون بموسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله

عليه وسلم ، فإن كانا قد بشرا به فتثبت نبوته ، وإن لم يكونا بشرا به ، فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به ، وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما ، فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا : نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدل على صدقهم ؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء و يقولون هم أنبياء . فاتبعنا آباءنا فى ذلك من غير علم ، وهذا هو الواقع من أكثرهم . قيل : فإذا كان هذا قولكم فى الأنبياء وفيما شهدوا به ــ إن كانوا شهدوا ــ فيلزم أن لا يكونوا عالمين به ، بل متبعين فيه لآبائهم بغير علم بطريق الأولى ، وبهذا يحصل المقصود ، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقادين النصرانية لا علم لكم به ولا دليل لكم على صحته ، بل أنتم فيه متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم ، ولا ريب أن هذا حال النصارى ، ولهذا سماهم الله ضلالا فى قوله : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ ، [سورة الكهف : ٤ ، ٥]

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤] .

ولهذا كان النصارى معروفين بالجهل والضلال ، كما أن اليهود معروفون بالظلم والقسوة والعناد ، فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فى كلمة واحدة الاحتجاج بقول أحد من الأنبياء على شىء من دينهم ولا دين غيرهم .

فصـــل

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربى وحده فعنه أجوبة :

أحدها : أن يقال : والتوراة إنما أنزلت باللسان العبرى وحده ، وموسى عليه السلام لم يكن يتكلم إلا بالعبرية ، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية ، ثم وكذلك سائر الـكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد ، بلسان الذى أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولا ، وسائر الأنبياء إنما يخاطبون الناس بلسان قومهم الذى يعرفونه أولا ، ثم بعد ذلك تبلغ الـكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم ، إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الـكتاب ، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الـكتاب فيعرفون معانيه ، وإما بأن يبين المرسل إليه معانى ما أرسل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به .

وقد أخبر الله فى القرآن ماقالته الرسل لقومهم وماقالوا لهم وأكثرهم لم يكونوا عرباً ، وأنزله الله باللسان العربى ، وحينئذ فإن شرط التـكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم ، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الـكتاب بترجمة من يترجم معناه ، وهذا مقدور للعباد ، ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التى أرسل بها ، وجب عليه ذلك . فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بخلاف مالا يتم الوجوب إلا به ، فإنه ليس بواجب ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لا فى الأصل ولا فى التمام . فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به ، وكان مقدوراً للمـكلف فهو واجب ، فإن ما ليس مقدوراً عليه لا يكلف به العباد ، بل وقد يكون مقدوراً عليه ولا يكلفون به ؛ فلما كانت الاستطاعة شرطاً فى وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة بخـلاف قطع المسافة ، فإنه ليس شرطاً فى الوجوب . فلهذا يجب على الإنسان الحج من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعاً ، وجمهور الناس لا يعرفون معانى

الـكتب الإلهية : التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يبينها أو يفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة ، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه ، وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق ، وكذلك ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من معانى الـكتاب الذى أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه ، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان .

كما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، فمن ادعى علمه فهو كاذب ، والله تعالى قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ، لـكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولا ليبين لقومه ، فإذا بين لقومه ما أراده حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم ، فإن قومه الذين بلغ إليهم أولا يمـكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ ، ويمـكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة ، ويمـكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده ، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول ، تارة المعنى وتارة اللفظ ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى ، والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربيـة بعضهم جوزه مطلقاً ، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهيم بغير العربية ، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه . وإن كان التفسير ليس قرآنا متلوا ، وكذلك الترجمة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « نضّر الله امرءا سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقال أيضاً فى الحديث الصحيح : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء ، فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا ، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

فدعا النبى صلى الله عليه وسلم لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه وقال : « رب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد كان العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إنما يوجدون فى جزيرة العرب وما والاها ، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق، ثم انتشر فصار أكثر الساكنين فى وسط المعمورة يعرفون العربية، حتى اليهود والنصارى الموجودون فى وسط الأرض يتكلمون بالعربية ، كما يتكلم بها أكثر المسلمين ، بل كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجود مما يتكلم بها كثير من المسلمين ، وقد انتشرت هذه اللغة أكثر مما انتشرت سائر اللغات حتى إن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب ، ومن كتب الفرس والهند ، واليونان ، والقبط ، وغيرهم عربت بهذه اللغة . ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربى أيسر على جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية . فإن اللسان العبرى ، والسريانى ، والرومى ، والقبطى ، وغيرها وإن عرفة طائفه من الناس ، فالذين يعرفون اللسان العربى أكثر ممن يعرف لساناً من هذه الألسنة .

وأيضاً فمعرفة ما أمر الله به عباده أمراً عاماً هو مما نقلته الأمة عن نبيها محمد صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً ، وأجمعت عليه مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه أرسل إلى جميع الناس، أميهم وغير أميهم، وإقام

الصلوات الخمس ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلا ، وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم ، والأمر بالإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة ، ولا يحتاج الإنسان فى معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن ، بل يمكن للانسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية ، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسوراً معها يصلى بهن ، وكثير من الفرس ، والروم ، والترك والهند ، والحبشة ، والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين . ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية ، وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له .

الوجه الثانى : أن المسيح عليه السلام كان لسانه عبريا ، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولا ، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عليه السلام ، فإن قالوا : إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم .

قيل : هذا منقول فى رسل المسيح ، وفى رسل محمد صلى الله عليهما وسلم الذين أرسلهم إلى الأمم ، ولا ريب أن رسل رسل الله ، كرسل محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام إلى الأمم ، لابد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم ، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم ، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية ، فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم .

وكذلك رسل النبى صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلى الأمم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض ، فبعث إلى ملوك العرب باليمن ، والحجاز ، والشام ، والعراق ، وأرسل إلى ملوك النصارى

بالشام ومصر قبطهم ، وروميهم ، وعربهم ، وعجمهم ،وغيرهم،وأرسل إلى الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان .

قال محمد بن سعد فى الطبقات : ذكر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم،وذكر ما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم لناس من العرب وغيرهم . ثم قال:أخبرنا محمد بن عمرو الأسلمى قال :حدثنى محمد بن معمر بن راشد ، ومحمد بن عبد الله عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : وعن الواقدى : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن المسور بن رفاعة ، وحدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن جدته الشفا ،وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد عن العلاء بن الحضرمى ، وحدثنا ابن محمد الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى عن أهله عن عمرو بن أمية الضمرى دخل حديث بعضهم فى حديث بعض قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام . و كتب إليهم كتبا فقيل :يارسول الله،إن الملوك لايقرأون كتابا إلا مختوما ، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتما من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع،وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم . أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل:دحية بن خليفة الكلبى،و إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية: حاطب بن أبى بلتعة ، وإلى كسرى : عبد الله بن حذافة السهمى . وأرسل إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى ـ وكان نصرانياً يظاهر دمشق ـ فبعث إليه شجاع ابن ذهب الأسدى ، وأرسل إلى غير هؤلاء .

وقال أيضاً : أخبرنا الهيثم بن عدى قال : أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلى عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمى قال : وحدثنا محمد بن إسحاق

عن يزيد ابن رومان والزهرى ، وحدثنا الحسن بن عمارة عن فراش عن الشعبى دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ائتونى بأجمعكم بالغداة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر يجلس فى مصلاه ليلا يسبح ويدعو ، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة ، وقال صلى الله عليه وسلم : انصحوا لله فى أمر عباده ، فإن من أخبر عن شىء من أمور المسلمين ، ثم لم ينصح حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا ــ يعنى الرسل ــ وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم وذكر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عز وجل عليهم فى أمر عباده » .

الوجه الثالث : أن النصارى فيهم عرب كثير فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل من يفهم اللسان العربى ، فإنه يمكن فهمه للقرآن ، وإن كان أصل لسانه فارسيا أو روميا أو تركيا أو هنديا أو قبطيا ، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرأوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن ، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا : كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه ؟

الوجه الرابع : أن حكم أهل الكتاب فى ذلك حكم المشركين ، معلوم أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم ــ ترك وهند وغيرهما ــ فكما أن جميع المشركين كمشركى العرب ، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفى اليهود والنصارى ممن يعرف لسان العرب من لا يحصيه إلا الله عز وجل .

الوجه الخامس : إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به ، وما نهاه عنه بأى عبارة كانت ، هذا ممكن لجميع الأمم ، ولهذا دخل فى الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس ، والترك ، والهند ، والصقالبة ، والبربر ، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربى ، ومنهم من يعلم

مما فرض الله عليه بالترجمة ، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن فى غير الصلاة والتعبير ، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين ، وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ فى الصلاة ؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك ، وحينئذ فإذا قرأ الأعجمى فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزأه ، وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسيراً يسير من أكثر الواجبات ، فكيف يمتنع أن يأمر الله تبارك وتعالى عباده بذلك ؟

وأما جمل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وما حرمه الله من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك ، فهذا مما يمكن أن يعرفه كل أحد بتعريف من يعرفه ، إما باللسان العربى ، وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العرب .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ، [سورة يوسف : ٢] . وقوله : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ﴾ ، [سورة فصلت : ٤٤] . وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ ، [سورة الزخرف : ٣] .

فهذا يتضمن إنعام الله به على عباده ؛ لأن اللسان العربى أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعانى ، فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره ، وهو إنما خوطب به أولا العرب ليفهموه ، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم ، وكان إقامة الحجة به على العرب أولا والإنعام به عليهم أولا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم .

قال تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٨] . ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدا ﴾ ، [سورة مريم : ٩٧] .

واللد جمع الألد ، وهو الأعوج فى المناظرة الذى يروغ عن الحق ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » ، وأما قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] .

فهو كما قال تعالى وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم قريش ، وبلسانهم أرسل ، وهو سبحانه لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه ، كما تقول النصارى : إنه بعث المسيح عليه السلام ، أوالحواريون إلى غير بنى إسرائيل ، وليسوا من قومه ، وكذلك بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى قومه وغير قومه ، ولكن إنما يبعث بلسان قومه ، ليبين لهم ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم ، إما بلغتهم ولسانهم ، وإما بالترجمة لهم ولو لم يبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم ، وإذا تبين لقومه أولا حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم وقومه إليهم بعث أولا ولهم دعا أولا ، وأنذر أولا ، وليس فى هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم ، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم ، أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه ، إما بتعلمه بلسانهم ، وإما بتعريف بلسان يفهم به ، والرجل يكتب كتاب علم فى طب أو نحو أو حساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب ، وينقل إلى لغات أخر ، وينتفع به أقوام آخرون ، كما ترجمت كتب الطب والحساب ، التى صنعت بغير العربى ، وانتفع بها العرب ، وعرفوا مراد أصحابها ، وإن كان المصنف لها أولا إنما صنفها بلسان قومه ، وإذا كان هذا فى بيان الأمور التى لا تتعلق بها سعادة الآخرة ، والنجاة من عذاب الله ، فكيف يمتنع فى العلوم التى تتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان إلى لسان حتى يفهم أهل اللسان الثانى بهاما أراده بها المتكلم بها أولا باللسان الأول ، وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم عناية بهذا ، ترجموا مصاحف كثيرة ، فيكتبونها بالعربى ، ويكتبون الترجمة بالفارسية ، وكانوا قبل

الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى ، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معانى القرآن بالعربى وترجمته ، فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم ؟ وعامة الأصول التى يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها فى التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، وغير ذلك من النبوات، بل كل من تدبر بنبوات الأنبياء وتدبر القرآن جزم جزماً يقينيًا بأن محمداً رسول الله حقا ، وأن موسى رسول الله صدقاً، لما يرى من تصادق الكتابين: التوارة والقرآن مع العلم بأن موسى عليه السلام لم يأخذ عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأخذ عن موسى ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أمياً ، من قوم أميين ، مقيما بمكة ، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة ، ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين : إلى الشام خرج مرة مع عمه أبى طالب قبل الاحتلام ، ولم يكن يفارقه ، ومرة أخرى مع ميسرة فى تجارته ، وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئاً ، لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، لا بحيرى ولا غيره، ولكن كان بحيرى الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك ، وأمرهم بحفظه من اليهود ، ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة ، وسنبين إن شاء الله الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب كلمة واحدة ، وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى فى جامعه : حدثنا الفضل أبو العباس البغدادى قال : حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح أنا يونس بن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش: فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك

يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء، فأخذ بيد رسول اللهصلى اللهعليه وسلم فقال : هذا سيدالعالمين، هذا رسولرب العالمين،يبعثه الله رحمة للعالمين،فقال له أشياخ منقريش:ماعلمك؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجد ،ولا يسجدون إلا لنبي،وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثلالتفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاماً،فلما أتاهم به ــ وكان هو فى رعية الإبل ــ فقال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنامن القوم وجدهم قد سبقوهإلى فىء الشجرة، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، فقال:انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه . قال: فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهمالراهب فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن هذا النبي خارج فى هذا الشهر فلم يبقطريق إلا بعث إليه بأناس وأنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذه . فقال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا . قال : فتابعوه وأقاموا معه . قال : أنشدكم الله يامعشر العرب أيكم وليه ؟ فقال أبو طالب : أنا . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ورواه البيهقى فى كتاب دلائل النبوة من حديث العباس بن محمد عن قراد بن نوح . وقال العباس : لم يحدث به ــ يعنى بهذا الإسناد ــ غير قراد وسمعه يحيى وأحمد بن قراد .

قال البيهقى : أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء ،فأما القصة فهى عند أهل المغازى مشهورة .

قال ابن سعد فى الطبقات : حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قال

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أثنى عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها التجارة ، فنزلوا بالراهب بحيرى فقال بحيرى لأبى طالب فى النبى صلى الله عليه وسلم ماقال ، وأمره أن يحتفظ به فرده أبو طالب معه إلى مكة ، وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب يكلؤه الله و يحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريده به من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى ماروئى ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة .

وقال ابن الجوزى : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، فنزل الركب ببصرى وبها راهب ـ يقال له بحيرى ـ فى صومعة له ، وكان ذا علم بالنصرانية، ولم يزل فى تلك الصومعة راهب تنتهى إليه علم النصرانية صاغرا عن كابر وفيها كتب يدرسونها، وكان كثيرا ما يمر به الركب فلا يكلمه ، حتى إذا كان فى ذلك العام نزلوا منزلا قريبا من الصومعة ، فصنع لهم الراهب طعاما ودعاهم . وإنما حمله على ذلك شيء رآه ، فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال : يا معشر قريش ، أحب أن تحضروا طعامى ولا يتخلف منكم أحد ، فقال : وهذا شيء تكرمونى به ، فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبى صلى الله عليه وسلم لحظا شديدا ، و ينظر إلى جسده ، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب ، ثم قال الراهب لأبى طالب : ارجع بابن أخيك ، فإنه كائن له شأن عظيم، فإنا نجد صفته فى كتبنا ونرويه عن آبائنا . فلما فرغوا من التجارة رجع به أبو طالب سريعاً إلى مكة ، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفا عليه . هذا مع أن فى القرآن من الرد على أهل الكتاب فى بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح عليه السلام صلب . وقول بعضهم : إنه إله . وقول بعضهم : إنه ساحر.

وطعنهم على سليمان عليه السلام وقولهم : إنه كان ساحرا وأمثال ذلك مما يبين أنه لم يأخذ عنهم .

وفى القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام مالا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك .

وفى القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب مالا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة مافيها من الوعد والوعيد ، فهو فى الدنيا كالوعد بالرزق والنصر ، والعافية ، والوعيد بالقحط ، والأمراض ، والأعداء . وإن كان ذكر المعاد موجودا فى غير التوراة من النبوات ، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد ، وقيام القيامة الكبرى ، وقد قيل : إن ذلك مذكور فى التوراة أيضاً ، لكن لم يبسط كما بسط فى غير التوراة .

فصل

فإن قالوا : إن الكتب التى عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون ، وهم عندنا رسل معصومون ، ترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم ، فعن هذا أجوبة .

أحدها : أن هذا كذب بين ، فإن من العرب من النصارى من لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم قوم على دين المسيح الذى لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة ، كسائر من كان على دين المسيح عليه السلام ، فإن كل من كان على دين المسيح الذى لم يبدل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة .

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين ، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبرى أو غيره إلى العربية ، وكذلك الإنجيل

ينقل من اللسان الرومى ، أو السريانى ، أو اليونانى ، أو غيره إلى اللغة العربية ، فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونبوات بلسانهم، لكان نصارى العرب أحق بهذ من نصارى الحبشة والصقالبة والهند، فإنهم جيران البيت المقدس، وهم بنو إسماعيل عليه السلام والأناجيل عندهم أربعة ، وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان . كتبت بلسان العبرى ، والرومى ، واليونانى ، مع أن فى بعض الأناجيل ما ليس فى بعض . مثل قولهم: عمدوا الناس باسم الأب ، والإبن وروح القدس الذى جعلوه أصل دينهم . وهذا إنما هو قوله فى إنجيل متى ، وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلا بلسانه ،لم يكن هناك إنجيل واحد أصلى . ترجع إليه الأناجيل كلها ، ثم إنهم مع هذا يدعون أنها ترجمت باثنين ،سبعين لسانا . وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبه إن شاء الله على بعضها، لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانا . ومعلوم أن الألسنة الموجودة فى بنى آدم فى جميع المعمورة فى زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا ، كما يعرفه من عرف أحوال العالم ، بل اللسان الواحد كالعربى ،والفارسى ؛ والتركى جنس تحته أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلمه منهم ، والعرب أقرب الأمم إلى بنى إسحاق بنى إسرائيل والعيص ، فإنهم بنوا إسماعيل وجيرانهم ، فإن أهل الحجاز جيران الشام ، ومكة لم تزل تحج إليها العرب ، ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح عليه السلام ، بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل لا معرب ولا غير معرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، [سورة القصص : ٤٦] . فكيف يدعى أن التوراة ، والإنجيل ترجمها الحواريون لكل قوم من جميع بنى آدم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بلسان يفهمونه به، وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم ؟

الوجه الثانى : أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لاتحتاج إلى معصوم

بل هذا أمر تعلمه الأمم ، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة و يحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين لايتواطؤون على الكذب ، بقرائن تقترن بخبر أحدهم و بغير ذلك ، وهذا موجود معلوم ، بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لايعرف ما يقوله الآخر لم يتواطؤوا حصل بذلك المقصود فى الغالب ، وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبراً من اليهود ،ولم يكونوا معصومين، وأن الملك فرقهم لئلا يتواطأوا على الكذب ، واتفقوا على ترجمة واحدة ، وهذا كان بعد الخراب الأول ، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة وهذه التوراة فى زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية ، و يعرف المقصود به بلا ريب ، فكيف بالقرآن الذى يفهم أهله معناه و يفسرونه و يترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل ، التوراة والإنجيل ؟

الوجه الثالث : أن دعوى العصمة فى كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، دعوى ممنوعة وهى باطلة ، وإنما هم رسل المسيح عليه السلام بمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد صلى الله عليهم وسلم ، وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون : هم رسل الله وليسوا بأنبياء ، وكل من ليس بنبى ، فليس برسول الله وليس بمعصوم، إن كانت له خوارق عادات ، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم ، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق،فليسوا معصومين من الخطأ ،والخوارق التى تجرى على أيدى غير الأنبياء،لاتدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء ، فضلا عن كونهم معصومين ، فإن ولى الله من يموت على الإيمان ومجرد الخوارق لا تدل على أنه يموت على الإيمان ، بل قد يتغير عن ذلك الحال ، و إذا قطعنا بأن الرجل ولى الله كمن أخبر النبى بأنه من أهل الجنة ، فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء ــ عليهم السلام ــ فإنهم معصومون لايجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ، ومن كفر بواحد منهم

فهو كافر ، ومن يسب واحداً منهم ، وجب قتله فى شرع الإسلام ، كما قال تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ، و إسماعيل ، و إسحاق ، و يعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٥] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

فصل

وأما قولهم : لا يلزمنا اتباعه ؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا على ما يشهد لها الكتاب الذى أتى به هذا حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] وقال فى سورة النحل : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل ٣٦].
فالجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان ، فإن بنى إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى عليه السلام وكانوا على شريعة التوراة ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إليهم المسيح عليه السلام فوجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً وإن قال إنى متمسك بالكتاب الذى أنزل إلىّ .

فكذلك إذا أرسل الله رسولا بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن

جه كان كافراً ، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بنى إسرائيل كان كافراً
و بنو إسرائيل أكثر اختصاصاً بموسى والتوراة من الروم وغيرهم فالمسيح
والإنجيل فإنهم كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية .

الوجه الثانى : دعواهم أنهم متمسكون فى هذا الوقت بالدين الذى نقله الحواريون عن المسيح عليه السلام كذب ظاهر ، بل هم عامة ما هم عليه من الدين عقائده وشرائعه ، كالأمانة والصلاة إلى المشرق ، واتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس واتخاذها وسائط والاستشفاع بأصحابها ، وجعل الأعياد بأسمائهم ، و بناء الكنائس على أسمائهم ، واستحلال الخنزير ، وترك الختان والرهبانية ، وجعل الصيام فى الربيع ، وجعله خمسين يوماً ، والصلوات والقرابين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح ولا هو موجود لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ، و إنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء . وأما كفرياتهم و بدعهم فكثيرة جداً ولم ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه فى صلاتهم السحرية : تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا . وفى الصلاة الثانية والثالثة : يا والدة الإله مريم العذراء إفتحى لنا أبواب الرحمة .

الوجه الثالث : قولهم إنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحاً فى بعض النصارى لا فى جميعهم ، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيلا بلسانهم ، وهذا أمر معروف ولا يوجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين ، وإنما عربت فى الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم ، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم ؟

الوجه الرابع : أن يقال : الأمة إذا غيرت دين رسولها الذى أرسل إليها

و بدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذى يحبــه الله و يرضاه ، كما أن بنى إسرائيل لمـا غيروا دين موسى و بدلوه ، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذى يحبه الله ، وكذلك النصارى لمابدلوا دين المسيح وغيروه ، بعث الله إليهم و إلى غيرهم محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الذى يحبه و يرضاه .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الـكتاب » وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على دين الله عز وجل . وأما من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »

الوجه الخامس : أن يقال : دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لساناً ، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحـد دعوى يعلم أن قائلها يتـكلم بلا علم بل مفتر كاذب ، وذلك أن هذا يقتضى أنه الآن فى الأرض هذه الـكتب باثنين وسبعين لساناً كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا أربع دعاوى أنهـا موجودة باثنين وسبعين لساناً ، وأنها متفقة ، وأنها كلها منقولة عن الحواريين .

الرابعة : أنهم معصومون . فيقال من الذى منكم لو قدر أن هذه الـكتب التى باثنين وسبعين لساناً هى عن الحواريين . وهى موجودة اليوم ، فمن الذى يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضاً ؟ وذلك لايمكن إلالمن يعلم الاثنين وسبعين لساناً ويكون ما عنده من الـكتب يعلم إنما هى مأخوذة عن الحواريين و يعلم أن كل نسخة فى العالم بذلك اللسان توافق النسخة التى عنده وإلا فلو جمع اثنين

وسبعين نسخة باثنين وسبعين لساناً لم يعلم أن كل نسخة من هـذه هى المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنين وسبعين لساناً . ولا يعلم أن كل نسخة فى العالم توافق تلك النسخة ، فإنه من المعلوم أنه فى زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانيـة إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها .

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعـد الحواريين أو هى من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها . بل قد وجـدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضاً فى الترجمة مخالفة شـديدة تمنع الثقة ببعضها ، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها ، ورأيت من التوراة المعربة من النسخ مايكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب ، فـكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التى بالاثنين وسبعين لساناً ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيهـا النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين ؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولايمكن ذلك إلا لمن يكون عارفاً بالاثنين وسبعين لساناً معرفة تامة ، وليس فى بنى آدم من يقدر على ذلك ولو قدر وجود ذلك فـلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها .

ولو وجد ذلك لـكان هذا خبر واحد وأن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهى الترجمة إلى لسان واحد كالعربى مثلا ويعلم حينئذ اتفاقها . وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهـذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من ترجم له اللسانان باللسان الذى يعرفه ،

ومعلوم أن أحداً لم يترجم له الاثنان وسبعون لساناً بلسان واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لساناً .

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لساناً منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدى الناس هو مما يترجم بعد ذلك بالعربى وغيره ؟ هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً وأنها باقية إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن لأحد معرفته . فليس اليوم توراة ، و إنجيل ، ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربى من عهد الحواريين بل ولا بأكثر الألسنة ، وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير فى بعض المترجمات ، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تتغير فيها لا يمنع وقوع التغيير فى بعض ما ترجم بعدها أو فى بعض ما نسخ بعدها ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لساناً بخلاف القرآن الذى هو بلسان العرب وخط العرب ، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخه ممكن وهو محفوظ فى الصدور لا يحتاج إلى حفظ فى الكتب فهو منقول بالتواتر لفظاً وخطاً .

الوجه السادس : قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا : فيقال لهم : ليس فى القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق .

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين المسيح عليه السلام من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث بقول الله: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة : إبراهيم : ٤] . وقوله تعالى : ﴿ ولقد

بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [رسورة : النحل : ٣٦] . فيقال لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل و بلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام ، وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب واحد من الرسولين أحدا إلا باللسان العبرانى،لم يتكلم أحد منهما لا برومية ، ولا سريانية، ولا يونانية ، ولا قبطية ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل ، ٣٦] . كلام مطلق عام كقوله : وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . ليس فى هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بألسنتهم .

الوجه السابع : أن يقال عمدتهم فى هذه الحجة أنهم يقولون : الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى. والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل هؤلاء إلينا فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا ، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا ، فيقال لهم : هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين إن شاء الله تعالى أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم فى هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذى هو القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم ، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أو لم تقروا بها : فإن من المعلوم يقينا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله ، بل كفر من قال ذلك ، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله ، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله ، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤]

وسيأتى الكلام على هذا مبسوطاً ونبين أن الرسل المذكورين فى سورة «يٰس» ليس هم الحواريين ولا كانوا رسلا للمسيح ، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما قال تعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يٰس : ٢٨ ، ٢٩] .

والرسل المذكورون فى سورة «يٰس» هم ثلاثة ، وكان فى القرية رجل آمن بهم وهذه وإن كانت إنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح . والمسيح عليه السلام ذهب إلى إنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجوداً إذ ذاك ، وآمن أهل إنطاكية بالمسيح عليه السلام وهى أول مدينة آمنت به كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يشهد للمسيح بالألوهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وما ذكروه من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان ، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان

كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم بل يكفي أن يقرءوها بلسان الأنبياء عليهم السلام ثم يترجموها بلسان أولئك وهو سبحانه قال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون هم ذلك عن المسيح عليه السلام .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾ ، فتمام الآية : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وهذا كقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . وقوله : إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ ، [سورة الرعد : ٧] ـ في أصح الأقوال ـ أي : ولكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هاد أي داع لمن أرسلت إليه ، والهادي : بمعنى الداعي المعلم المبلغ لا بمعنى الذي يجعل الهدى في القلوب كقوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾،[سورة الشورى :٥٢،٥٣] وقوله ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾،[سورة فصلت:١٧]

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى و بعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف نبي وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئاً ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شرع التوراة بأمر الله عز وجل ، فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم

يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى اهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

هذه الفترة التى كانت بين المسيح وبين محمد صلوات الله عليهما وسلامه وهى فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسي وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل ستمائة سنة شمسية وهى ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية . كما قال تعالى :﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ ، [سورة الكهف : ٢٥] .

وهذه التسع و بعض العاشرة ، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة ، فمن قال عشرين حسب الناقصة ، ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط .

فصل

وأما قولهم : ونعلم أن الله عدل وليس من عدله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ولا من جهة داع من قبله ، فيقال الجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحد يفهم بالعربية فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية وقد قرءوه وناظروا بما فيه وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ فى قيام الحجة عليهم ، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر .

الوجه الثانى : أنهم يفهمون مافى كتبهم الرومية ، والسريانية ، والقبطية ،

وغيرها و يترجمونها للعرب من النصارى بالعربية ، فإذا قامت الحجة على عرب النصارى باللسان الرومى فلأن تقوم على الروم باللسان العربى أولى ، فإن اللسان العربى أكثر انتشاراً فى العالم من اللسان الرومى، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بياناً وأتم تفهماً

وحينئذ فيكون وصول المعانى به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه ولكثرة العارفين به . وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسان العربى مع أن مصنفيها كانوا عجما من رومى ويونانى وغير ذلك . فما المانع أن يقرأ القرآن العربى وتفسيره وحديث النبى صلى الله عليه وسلم باللسان العبرى ؟ مع أنه أخذ عن الرسول بالعربى فهو أولى بأن يعرف به مراد المتكلم به .

الوجه الثالث : أن يقال الناس لهم فى عدل الله ثلاثة أقوال ، قيل : كل مايكون مقدوراً لله فهو عدل ، وقيل : العدل منه نظير العدل من عباده وهما قولان ضعيفان ، وقيل : من عدله أن يجزى المحسن بحسناته ولا ينقصه شيئا منها ولا يعاقبه بلا ذنب .

ومعلوم أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزاً باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهاً للانسان فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ماهو مكروه لهم وشاق عليهم فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم والعرب الذى نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض . ومنهم نصارى لايحصون فكل من عرف بالعربية من النصارى أمكنه فهم ما يقال بالعربى ومن كان منهم رومياً كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس ، والترك ، والهند ، والبربر ، والحبشة وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله به والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم ، بل الروم أقدر على ذلك من

غيرهم فلأى وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك ؟ ومالايتم الواجب إلا به إذا كان مقدوراً للعبد، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى .

وإن ما تنازع الناس فيه هل يسمى واجبا ؟ فقيل يسمى واجبا ، وقيل لايسمى واجبا . فإن الآمر لم يقصده بالأمر وقد لايخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقا قال : ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعاً ، أو يعاقب تاركه شرعا ، أو ما يستحق تاركه الذم أو العقاب ، أو ما يكون تركه سببا للذم أو العقاب ، قالوا : ومالا يتم الواجب إلا به لايستحق تاركه الذم والعقاب . فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة البعيد على الترك أعظم من عقوبة القريب مع أن المسافة التى لابد لهما من قطعها أكثر ، وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى بيع شىء من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال له ليقضى به دينه ، وفصل الخطاب أن مالا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب . ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع فالمأمور به لايمكن فعله إلا بلوازمه والمنهى عنه لايمكن تركه إلا بترك ملزوماته ، لكن هذا اللزوم لزوم عقلى أو عادى فوجوبه وجوب عقلى عادى ، لا أن الأمر نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه وتنازع الناس ، هل يقال مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، سواء كان وجوبه شرعياً أو عقلياً؟ أو يحتاج أن يقال مالا يتم الواجب إلا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب ؟ فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى ، و بعض المتأخرين قيدوها بالمقدور ولا حاجة إلى ذلك.فإن مالم يكن مقدوراً ينتفى الوجوب مع انتفائه فيكون شرطاً فى الوجوب لافى فعل الواجب والجمهور قالوا : مالا يتم الواجب إلا به فإنه يجب .

والمقصود هنا : أن الله إذا أوجب على العباد شيئاً واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شىء من العلم كان تعلمه واجباً فإذا كان معرفة العبد لما أمره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك

الألفاظ التي ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك .

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه ، لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجز أن يقول أنت لم تبعث إلىّ من يخاطبنى بلغتى من قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة ، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟ ولو أمر بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ظلما ذلك ، فكيف يكون ظلما من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين ؟ .

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض أو ظلم بعضهم بعضاً لوجب على الملك أن ينصف المظلوم و يرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف و يعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متمكنا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل ، ليس العدل أن يترك الناس ظالمين فى حق الله وحق عباده والله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى ؛ ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذى أنزله ، وهو القسط الذى بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة ، والناس فى مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون ، و بينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض ، و يتراسلون فى عمارة بلادهم ، وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم ، وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا ، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض ؟ وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه ، واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم .

قال تعالى : ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾، [سورة النجم : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه من ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ ، [سورة الكهف ٢٨] .

الوجه الرابع : أنه من العجب أن تعد النصارى مثل هذا ظالماً خارجاً عن العدل ، وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل مالم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه ، مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيده ، وتمجيده ، وحمده ، والثناء عليه ، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه ، وإن تلك العقوبة بقيت فى ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب ، وأنه كانت الذرية فى حبس إبليس ، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم فى حبس إبليس حتى قالوا ذلك فى الأنبياء نوح وإبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم .

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد ؟ هذا لو قدر أن آدم لم يتب ، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة ؟ ثم يزعمون أن الصلب الذى هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم ، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصياً لله مستحقاً للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته ، وبنو آدم لاعقوبة عليهم فى ذنب أبيهم ، فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التى هى مضاحك العقلاء ، والتى لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم ، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل ، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر على تعلمه ، وفيه صلاح معاشه ، ومعاده ، ويجعلون مثل هذا موجبا لتكذيب

كتابه ، ورسله ، والإصرار على تبديل الكتاب الأول ، وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى ، وعيسى ، وسائر الأنبياء والرسل ؟

والنصارى يقولون : إن المسيح الذى هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس ، قالوا : فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم ، قالوا : ومكن أعداءه من أخذه وضربه ، والبصاق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه ،وأظهر الجزع من الموتَ وصار يقول : يا إلهى لم سلطت أعدائى على ليخفى بذلك عن إبليس ، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين . فيحتج عليه الرب ؛ حينئذ ويقول بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحى ؟ فيقول له إبليس : بخطيئتك فيقول ناسوتى : لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء ، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تأخذ أرواحهم إلى جهنم ، وأنا لا خطيئة لى ، قالوا : فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم ، وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه ، فمن هذا قوله : فقد قدح فى علم الرب وحكمته وعدله قدحاً ما قدحه فيه أحد ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن يقال إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم ، وهم قالوا : إنما أخذهم بذنب آدم ؟

الثانى : أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين ، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء ، وهم أيضاً يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين ، فكيف جاز

تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح ؟

الوجه الثالث : أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم . إما أن يكون ظلما من إبليس . وإما أن يكون عدلا . فإن كان عدلا فلا لوم على إبليس ، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذى يستحقه بل يجب تمكينه من المتقدمين والمتأخرين . وإن كان ظلما فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح ؟ فإن قيل : لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز . وإن قيل : قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه فى زمان دون زمان ، أو جاز ذلك جاز فى كل زمان وإن امتنع امتنع فى كل زمان .

الوجه الرابع : أن إبليس إن كان معذوراً قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا يلام عليه . وإن لم يكن معذوراً استحق العقوبة ولا حاجة أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه .

الوجه الخامس : إنه بتقدير أنه لم يقم عليه حجة قبل الصلب فلم يقم عليه بالصلب فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوب هو ناسوت الرب ، وأنت يا رب قد أذنت لى أن آخذ جميع ذرية آدم فأؤديهم إلى الجحيم ، وهذا واحد منهم ، وما علمت أنك أو ابنك اتحد به ، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور فى ذلك فلا يجوز أن تظلمنى .

الوجه السادس : أن نقول أن إبليس يقول حينئذ يا رب فهذا الناسوت الواحد أخطأت فى أخذ روحه لكن سائر بنى آدم الذين بعده لى أن أحبس أرواحهم فى جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح ، إما بذنب أبيهم، وإما بخطاياهم أنفسهم ، وحينئذ فإن كان ما يقوله النصارى حقا فلا حجة لله على إبليس .

الوجه السابع : أن يقال هب أن آدم أذنب و بنوه أذنبوا بتزيين الشيطان

فعقوبة بنى آدم على ذنوبهم هى إلى الله أو إلى إبليس ؟ فهل يقول عاقل أن إبليس له أن يغوى بنى آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعا بغير إذن من الله له فى ذلك ، وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل مافى العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل أبليس لم يفعل الله شيئاً من ذلك ، ولا عاقب الله أحداً على ذنب ؟ ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس ولهذا لا ينقلون هذا القول فى كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركبا من دين النصارى والمجوس، وكان رأسهم مانى نصرانياً مجوسياً فالنسب بين النصارى ، والمجوس ، بل وسائر المشركين نسب معروف .

الوجه الثامن : أن يقال إبليس عاقب بنى آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه ؟ إن قالوا بإذنه . فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع وإن كان بغير إذنه فهل جاز فى عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز؟ فإن جاز ذلك فى زمان جاز فى جميع الأزمنة، وإن لم يجز فى زمان لم يجز فى جميع الأزمنة ، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده .

الوجه التاسع : أن يقال هل كان الله قادراً على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلا منه لو فعله أم لا ؟ فإن كان ذلك مقدوراً له ، وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه ، ثم إن كان هذا العدل واجباً عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجباً جاز تمكينه فى كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان وإن قيل : لم يكن قادراً على منع إبليس فهو تعجيز للرب على منع إبليس ،وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول الثنوية الذين يقولون : لم يكن يقدر النور أن يمنع العالم من الشر ، ومن جنس قول ديمقراطيس والحنانيين الذين يقولون : لم يكن واجب الوجود الذى يمنع النفس عن ملابسة الهيولى بل تعلقت النفس بها بغير اختياره .

الوجه العاشر : أن ما فعله به الـكفار اليهود الذين صلبوه قد كان طاعة لله أو معصية ؟ فإن كان طاعة لله : استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له،والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثماً ــ وهم من شر الخلق ــ وهم يستحلون دمهم ولعنتهم مالا يستحلونه من غيرهم ، بل يبالغون فى طلب اليهود ، وعقوبتهم فى آخر صومهم الأيام التى تشبه أيام الصليب، و إن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا ؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية فى الزمن المستقبل ، و إن كان قادراً على منعهم من المعاصى ولم يمنعهم كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة ، وإن كان حسناً منه تمـكينهم من هذه المعصية كان حسنا منه تمـكين إبليس من ظلم الذرية فى الماضى والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه .

واعلم : أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جداً ، وكلما تصور العاقل مذهبهم ، وتصور لوازمه ، تبين له فساده ، لـكن المقصود هنا بيان تناقضهم فى أنهم يقيمون عذر أنفسهم فى ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لـكونه سبحانه عدلا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه ، وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرون عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بنى آدم يوضح هذا .

الوجه الحادى عشر : وهو إما أن نقول فى الظلم كما تقول الجهمية المجبرة الذين يقولون يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب ولا مراعاة عدل ،وإما أن يقال بقول القدرية إنه يجب عليه العدل الذى يجب على المخلوقين ، وإما أن يقال هو عادل منزه عن الظلم ولـكن ليس عدله كعدل المخلوقين فهذه أقوال الناس الثلاثة .

فإن قيل بالأول : جاز أن يسلط إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن

يعاقبهم جميعاً بلا ذنب ، ولا حاجة حينئذ إلى الحيلة على إبليس .

وإن قيل بالثانى : فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمره غيره بذنب يكرهه السيدففعله كان العدل منه أن يعاقب الآمر والمأمور جميعاً وأما تسليطه للآمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الآمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل .

وإن قيل : بل هو استحق أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه قيل فحينئذ يستحق أن يأسر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتيال عليه

وإن قيل : إنما يستحق أخذهم بخطاياهم ، قيل : فله أن يأخذ الأولين والآخرين .

وإن قيل : هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب ؟ قيل: هذا إن كان ذنباً فهو أخف ذنوبه فإنه لم يعلم أنه ناسوت الإله فإذا استحق الرجل أن يسترق أولاد غيره فطلب رجلا ليسترقه لظنه أنه منهم ، ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنباً يمنع استرقاق الباقين .

وإن قيل : إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحداً من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم ، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم بأن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب ، فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة ، فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصراً على الذنب مع أن هذا تقدير باطل ،ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل ، فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك : فكيف يجوز في العدل الذى يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار ؟

الوجه الثانى عشر : أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدم ، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل ، أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله فهذا تجهيل له ، أو كان يعترف وعجز عن دفعه فهذا تعجيز له ، ثم ما الفرق بين زمان وزمان ؟ أم كان ترك منعه عدلا منه فهو عدل فى كل زمان ؟

فصـــــل

وأما تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخره من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . بأن مراده قومه كما قالوا .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء به ، فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أى : متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه ، وإن كان المتكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علما ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم علما ضرورياً أنه أراد العموم ؟ فإن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ﴾ صيغة عامة وصيغة « من » الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ، [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا فى سورة آل عمران فى أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً ، وفيهم السيد ، والأيهم، والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها .

وقد قال قبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذين ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذى بعث به المسيح بالباطل الذى ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق و باطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المعنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . ثم قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن

بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ــ يتناول جميع النبيين ــ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم . واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط ، والقسم كقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ، [سورة الحشر : ١٢] ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ ، [سورة التوبة : ٧٥] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٩] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ ، [سورة النور : ٥٣] . وقوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ [سورة فاطر : ٤٢] ومنه قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان : ٢٥] . وقوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٥] وقوله : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٤٩] . وقوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٦٠] . وقوله : ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٦] . وقوله : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٣] . وقوله : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٢] . وقوله تعالى :

﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ ، [سورة الروم : ٥٨] . وقوله : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ١٠] ، وقوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ﴾ ، [سورة هود : ٨] .

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام ﴿ ـ والله ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ـ والله ـ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ [سورة الحشر : ١٢] . ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام مايدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ، لاسيما فيما يكثر استعماله كالقسم ، وقوله : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . هى ما الشرطية والتقدير ، أى : شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته ، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى : ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . ثم قال تعالى : ﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٢] . ثم قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] . ثم قال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله

وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] .

قالت طائفة من السلف : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون . فقال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . فقالوا لانحج . فقال تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] .

فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن . واليهود ، والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً وإن شاء نصرانياً » . وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مبانى الإسلام الخمس: الشهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فإنه كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى فى أول سورة آل عمران : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨-٢٠] . فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾

[سورة آل عمران : ١٩] . أن يقول أسلمت وجهى لله ، ومن اتبعن . وأن يقول للذين أوتوا الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلتم فالعرب الأميون يدخلون فى لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما من سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل فى معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] . فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : إنما عليك البلاغ . أى : تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذى يحاسبهم ، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الذى كتبه إلى هرقل ملك النصارى : « من محمد رسول إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر فى كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ، ويعقوب ، وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وإن الدين عند الله الإسلام فى كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٧١ ، ٧٢] .

فهذا نوح الذى غرق الله أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

وأما الخليل فقال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨] . ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، سورة البقرة : ١٣٠ ، ١٣٢] .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون .

وقال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٧ ، ٦٨] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٨٤] .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون* إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٥٠ ، ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

قال تعالى فى قصة سليمان : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألاَّ تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٠ ، ٣١] .

و ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ ، [سوره النمل : ٤٢]

وقال تعالى عن بلقيس التى آمنت بسليمان : ﴿رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٤] .

وقال ــ عن أنبياء بنى إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [سورة آل عمران : ٥٣] .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين، وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وقوله : ﴿إن الدين عندالله

الإسلام ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩] . لا يختص بمن بعث إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو حكم عام فى الأولين والآخرين ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسـلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ [سورة النساء : ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنـة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانـكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ ، [سورة البقرة :١١١،١١٢]

فصل

قولهم : ثم وجدنا فى هـذا الـكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول فى سورة الأنبياء هـذا ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ قالت الملائـكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٢] مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات ، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجـل لبشارة ملائـكة الله لأمه ، وأنه تـكلم فى المهد ، وإحياء الميت ، وإبراء الأكمه ، ونقى الأبرص وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فـكان طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت . ووجدنا أيضاً فى الـكتاب أن الله رفعه إليه .

وقال فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧،١٥٨] . وفى سورة آل عمران : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

وقال فى سورة الحديد : ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣، ١١٤] .

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا . الجواب : أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق ، وكذلك مدح من كان على دينه الذى لم يبدل قبل أن انبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بقى على ذلك إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به ، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وكذلك من كان على دين موسى الذى لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون لا إلى غلو ، ولا إلى تقصير .

وأما اليهود والنصارى : فهم على طرفى نقيض . هؤلاء ينحرفون إلى جهة ، وهؤلاء إلى الجهة التى تقابلها كما ذكرنا تقابلهم فى النسخ ، وكذلك تقابلهم فى التحريم ، والتحليل ، والطهارة ، والنجاسة . فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون فى اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها ، ولا يشاربونها ، ولا يجامعونها ، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها ، ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الآصار ، والأغلال التى كانت عليهم .

وأما النصارى : ففى مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئاً حراماً ، ولا نجساً إلا ما كرهه الإنسان بطبعه ، ويصلون مع الجنابة ، والحدث ، وحمل النجاسات، ويأكلون الخبائث : كالدم ، والميتة ، ولحم الخنزير ، إلا من كره منهم شيئاً فتركه ، والمسلمون وسط كما قال تعالى فيهم : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾، [سورة البقرة:١٤٣] أى : عدلا خياراً ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾، [سورة الأعراف:١٥٦، ١٥٧]

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى ، مأموراً بترك ذلك الانحراف ، واتباع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، غير المغضوب عليهم كاليهود . ولا الضالين كالنصارى . وذلك مثل من بالغ فى اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله ، ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله ، ويأخذه الوسواس فى اجتناب النجاسات ، ويحرم الطيبات التى أحلها الله للمسلمين ، مثل : من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا غيره . أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثر فالمحل نجس إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره . أو يرى أن الطيبات التي أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال ، وإن كان قد كان خمرا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته ، أو يرى أن الماء الطيب ، والمائعات الطيبة التى ليس فيها أثر من الخبيث

حرام لكون الخبيث لاقاها استهلك فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذى هو أذى إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء ، ولكن غيرهم نازعهم فى ذلك واتبع ما دل عليه الكتاب والسنة . وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين ، ويرى نجاسة الكفار كما دل عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم ، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم . وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه ، وثيابه ، وحصر بيته بتوهم نجاستها ، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها ، أو يمنع الجنب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل ، فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود .

وأما من يشبه النصارى : فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ، ولا يصلى من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة ، مثل من يكون فى مواضع الشياطين والنجاسات . كالحمام ، والأتانين ، والمزابل وهو ملوث بالبول والعذرة ويباشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة بل ولا يصلى أو ويصلى بلا وضوء ، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد ، وأن الوضوء من الحدث ، والاغتسال من الجنابة فرض ولا يصلى إلا به مع القدرة ، وأن لا يتيمم مع القدرة . فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين . ومن جعل الزاهد العابد الذى له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذى يكون من الشياطين ، والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلى الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين ، أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن لم يحرم الخبائث التى حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول ولياً لله فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقاً

فى الدرك الأسفل من النار ، ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابا فى الآخرة منه . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٤٥، ١٤٦]. وكذلك المسلمون وأهل السنة فى المسلمين فى التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق ، وهو صفات النقص الذى يجب تنزيه الرب عنها . والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق ، وهو صفات الكمال التى لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى : فقال من قال من اليهود ، ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨١] وقالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٤] . وهو بخيل ؛ وقالوا : إنه خلق العالم فتعب فاستراح .

وحكى عن بعضهم أنه قال : بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميته ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه و يتقدس سبحانه وتعالى. وأيضاً فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله ، و يعصون أمره ويتعدون حدوده ، ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه . والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه رب العالمين خالق كل شيء ومليكه الذى هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون واتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله ، وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعلت عباد الأوثان كما قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ ، [سورة يونس : ١٨].

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ ، [سورة السجدة : ٤] والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال ، وينزهونه عن النقائص التى تمتنع على الخالق ولا يتصف بها المخلوق، فيصفونه بالحياة ، والقدرة، والرحمة ، والعدل ، والإحسان وينزهونه عن الموت ، والنوم ، والجهل ، والعجز والظلم ، والفناء ، ويعلمون مع ذلك أنه لا مثل له فى شىء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ،ولا يقدر كقدرته ، ولا يرحم كرحمته ، ولا يسمع كسمعه ، ولا يبصر كبصره ، ولا يخلق كخلقه ، ولا يستوى كاستوائه ،ولا يأتى كإتيانه، ولا ينزل كنزوله كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ؛ [سورة الإخلاص] ولا يصفون أحداً من من المخلوقين بخصائص الخالق جل جلاله، بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له ، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل شىء ، ويسأله كل أحد ، وهو غنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد فى شىء من الأشياء كما قال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾،[سورة مريم : ٨٨ـ ٩٥]

وقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون

له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ [سورة النساء : ١٧٠ - ١٧٣] .

وكذلك هم فى المسيح ،فالنصارى يقولون : هو الله ، ويقولون:أيضاً:ابن الله وهو إله تام وإنسان تام . واليهود يقولون : هو ولد زنا ، وهو ابن يوسف النجار ، ويقولون عن مريم : إنها بغى بعيسى كما قال تعالى . ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٦] . ويقولون عنه هو ساحر كذاب .

وأما المسلمون فيقولون : هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه ، وهو وجيه فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويصفونه بما وصفه الله به فى كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ، ولا يقصرون فى حقه تقصير اليهود ، وكذلك قولهم فى سائر الأنبياء والمرسلين : وفى أولياء الله . فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود فى نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون إن سليمان لم يكن نبياً ، ويقولون : إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم ، ويقولون : إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء ، وكان له أن يشرع شريعة ، وبعض اليهود غلوا فى العزيز حتى قالوا : إنه ابن الله .

ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله »

والله تعالى ذكر فى القرآن فى سورة « كهيعص » قصة ابنى الخالة يحيى وعيسى . ويحيى يسمونه النصارى يوحنا المعمدانى عندهم فقال تعالى بعد أن ذكر قصة يحيى ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكياً * قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ ، [سورة مريم : ١٦ – ٣٣] . ثم قال الله تعالى : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ – ٣٨] .

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح فى هذه السورة المكية التى أنزلها فى أول الأمر بمكة فى السور التى ذكر فيها أصول الدين التى اتفق عليها الأنبياء ، ثم ذكرها فى سورة آل عمران ، وهى من السور المدنية التى يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٣ ـ ٣٦] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا من الشيطان إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٧] . ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً

وسبح بالعشى والإبكار * وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب

ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين * قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون * يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٨ ـ ٦٨] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح فى هاتين السورتين . إحداها : مكية نزلت فى أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ، وهى سورة كهيعص . والثانية : مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلت فى «براءة» مجاهدتهم . فأخبر فى السور المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا . فقالت : ﴿ إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٨] .

قال أبو وائل : علمت أن المتقى ذو نهية ، أى : تقواه ينهاه عن الفاحشة . وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ ، أى : تتقى الله ، وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر إسمه تقى فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذى لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً)

[سورة مريم: ١٩] وفى القراءة الأخرى : ﴿ولأهب لك غلاماً زكياً﴾ ، فأخبر هذا الروح الذى تمثل له بشراً سوياً أنه رسول ربها ، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله ، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام ، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس فى شىء من الكتب الإلهية ولا فى كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئا من صفاته إبناً ، وهذا أحد ما تبين به ضلال النصارى ، وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبنى على ما فى أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] . فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس فى لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا إبنا ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته إبنا ، ولا يسمونه نفسه إبناً ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى المكرم إبناً ، وهذا موجود فى حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت ابنى بكرى . أى : بنى إسرائيل . وروح القدس يراد به الروح التى تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن فى كتبهم أن روح القدس كانت فى داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم فسماه أبا للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الإبن ، ولا يوجد عندهم لفظ الإبن إلا اسما للمصطفى المكرم لا إسما لشىء من صفات الله القديمة حتى يكون الإبن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان فى هذا مايبين أنه ليس المراد بالإبن كلمة الله القديمة الأزلية التى يقولون إنها تولدت

من الله عندهم مع كونها أزلية ، ولا بروح القدس حياة الله ، بل المراد بالإبن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحى والملك الذى نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله ، وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذى نزل به ، وبهذا الذى نزل به ، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شىء من اللاهوت ، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر فى غيره من الأنبياء والرسل .

ومعلوم أن غيره أيضاً فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى إبنا وروح القدس حلت فيه ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع ، والمقصود هنا : التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضاً ، وأنه ليس مع النصارى حجة سمعية ، ولا عقلية توافق ما ابتدعوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لايدل عليه ، وعندهم فى الإنجيل أنه قال : [إن الساعة لايعلمها الملائكة ولا الإبن وإنما يعلمها الأب وحده] فبين أن الإبن لايعلم الساعة فعلم أن الإبن ليس هو القديم الأزلى وإنما هو المحدث الزمانى .

فصل

والمضاف إلى الله نوعان : فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم ، والقدرة ، والكلام ، والحياة . وإما أن يكون عيناً قائمة بنفسها .

فالأول إضافة صفة كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] . وقوله : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ، [سورة الذاريات: ٥٨] . وقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ، [سورة فصلت : ١٥] .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح حديث الاستخارة : «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك

بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك » ، وقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] . وقوله : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١٠] . وقوله : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ ، [سورة الطلاق : ٥] .

والثانى : إضافة عين كقوله تعالى : ﴿وطهر بيتى للطائفين﴾ ، [سورة الحج: ٢٦]. وقوله : ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ ، [سورة الشمس : ١٣] . وقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ ، [سورة الإنسان : ٦] .

فالمضاف فى الأول : صفة لله قائمة به ليست مخلوقا له بائن عنه والمضاف فى الثانى : مملوك لله مخلوق له بائن عنه . لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التى اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى ، كما خص ناقة صالح من بين النوق ، وكما خص بيته بمكة من بين البيوت ، كما خص عباده الصالحين من بين الخلق ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧] . فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشراً سوياً ، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيا وأنه قال : «إنما أنا رسول ربك» وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها ، وهى التى تسمى فى اصطلاح النظار جوهراً ، وقد تسمى جسما إذا كانت مشاراً إليها مع اختلاف الناس فى الجسم . هل هو مركب من الجواهر المفردة ، أم من المادة والصورة ، أم ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا ؟ و إذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له ، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة ، وقد ذكرت فيما كنت كتبته قبل هذا من الرد على النصارى ، الكلام فى ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان : أعيان ، وصفات . فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت

الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلابد لها من موصوف تقوم به ، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها يسمى المقدور قدرة ، والمخلوق بالكلمة كلاما ، والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة » وقوله تعالى فيما يروى عن نبيه أنه قال للجنة : ﴿ أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ﴾ . ويقال للمطر والسحاب : هذه قدرة قادر ، وهذه قدرة عظيمة . ويقال في الدعاء : غفر الله لك علمه فيك ، أي : معلومه

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدورة ، ونحو ذلك . فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله ﴿ هذا خلق الله ﴾ وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل : بيت الله ، وناقة الله ، وعبدالله ، وروح الله ، فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق ، وكذلك اختصاص الكعبة ، واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله وأطاع أمره ، وكذلك الروح المقدسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح . فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجرى عليها حكمه وقضاؤه وقدره وهـــذه الإضافة لا اختصاص فيها ، ولا فضيلة للمضاف على غيره وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ، ويأمر به ، أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت ، والناقة ، والروح ، وعباد الله من هذا الباب .

وقد قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

وقال في سورة التحريم : ﴿ وضرب الله مثلا الذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً في الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم

الظالمين * ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١١ ، ١٢] .

فذكر امرأة فرعون التى ربت موسى بن عمران ، وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها . وذكر مريم أم المسيح التى ولدته وربته فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين ، فلما قال هنا : ﴿فنفخنا فيها﴾ ، أى : فى المرأة ، وفيه ، أى : فى فرجها من روحنا وقال هنا : فأرسلنا إليها روحها - إلى قوله - إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ ، دل على أن قوله : روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة ، ولا غيرها ، ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق ، ولا صفة الرب الخالق ، بل هو روح من الأرواح التى اصطفاها الله وأكرمها كما تقدم فى قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ . وأن الأكثرين على أنه جبريل ، وهذا الأصل الذى ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله من صفاته ، وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم ، فإن كتب الأنبياء : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه . وأشياء على هذا الوجه : فاختلف الناس فى هذه الإضافة ، فقالت المعطلة - نفاة الصفات من أهل الملل : إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به . ولا علم قائم به ، ولا قدرة قائمة به ، ولا كلام قائم به ، ولا حب ، ولا بغض ولا غضب ، ولا رضى ، بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته ، وهذا أول ما ابتدعه فى الإسلام الجهمية وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكابر التابعين لهم بإحسان وكان مقدمهم رجل يقال له : الجهم ابن صفوان ؛ فنسبت الجهمية إليه ، ونفوا الأسماء والصفات ، واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء ، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو .

وقالت الحلولية : بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفة له وإن كان بائنا عنه ، بل قالوا : هو قديم أزلى ، فقالوا : روح الله قديمة أزلية صفة لله ، حتى قال

كثيرمنهم : إن أرواح بنى آدم قديمة أزلية صفة لله ، وقالوا : إن مايسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلى ، وهو صفة لله .

وقال حذاق هؤلاء بل غضبه ، ورضاه ، وحبه ، وبغضه ، وإرادته لما يخلقه قديم أزلى ، وكلامه الذى سمعه موسى قديم أزلى ، وأنه لم يزل راضيا محبا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق ، ولم يزل غضباناً ساخطا على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق ، ولم يزل ولا يزال قائلا : يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم قبل أن يوجدوا ، وبعد موتهم ، ولم يزل ولا يزل يقول : يا معشر الجن والإنس ، قبل أن يخلقوا وبعد ما يدخلون الجنة والنار .

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيها كالأربعة وغيرهم ، وأهل العلم بالكتاب السنة ، فيفرقون بين مملوكاته ، وبين صفاته ، فيعلمون أن العباد مخلوقون ، وصفات العباد مخلوقة ، وأجسادهم ، وأرواحهم ، وأصواتهم ، وكلامهم بالكتب الإلهية وغيرها ، ومدادهم ، وأوراقهم ، والملائكة ، والأنبياء وغيرها ، ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة كعلمه ، وقدرته ، وكلامه ، وإرادته ، وحياته ، وسمعه ، وبصره ، ورضاه ، وغضبه ، وحبه وبغضه ، بل هو موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا بما وصفه به رسله ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده ، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق ، بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شىء لافى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال ، منزه عن النقائص ، وليس له مثل فى شىء من صفاته ، ويقولون : إنه لم ، ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، لم يزل متكلما إذا شاء بمشيئته وقدرته ، ولم يزل عالما ، ولم يزل قادرا ، ولم يزل حياسميعا بصيراً ، ولم يزل مريداً ، فكل كال لانقص فيه يمكن

اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالى والنصارى من أعظم الناس اضطرابا فى هذا الأصل ، فتارة : يجعلون كلامه الذى تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقا منفصلا عنه و ينفون عنه الصفات . وتارة : يجعلون كلمته قديمه أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال ، ثم يقولون هذه الكلمة هى ابنه ، ويجعلون هذه الكلمة علمه ، أو حكمته و يقولون : إن هذه الكلمة هى إله خالق وهو الذى خلق السموات والأرض ويقولون : هذه الكلمة هى المسيح والمسيح إله خالق العالم .

و يقولون : مع هذا إن هذه الكلمة ليست هى الأب الذى خلق السموات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية ، و يجعلونها ابناً له ، و يجعلون الصفة إلها خالقا . ويجعلون المسيح هو الإله الخالق . ويقولون مع هذا : هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه . ولهم فى كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب ، ومخالفة كلام الأنبياء . وتفسيره بغير ما أراده ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ماسنذكر إن شاء الله تعالى منه مايسره الله ، إذ بيان فساد دين النصارى بالاستقصاء لايتسع له هذا الكتاب ، ولما قص الله تعالى قصة المسيح قال : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] . أى : يشكون و يتمارون كتمارى اليهود والنصارى . ثم قال تعالى : ﴿ فاختلفت الأحزاب من بينهم ﴾ ، [سورة الزخرف : ٦٥] . فاختلفت اليهود والنصارى فيه ، ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابا كثيرة جداً ، كالنسطورية ، واليعقوبية ، والملكية ، والباروبية ، والمريمانية ، والسمياطية . وأمثال هذه الطوائف ، كما سنذكر إن شاء الله تعالى كثيراً من طوائفهم وأختلافهم فى مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق وغيره ، فإنه ليس فى الأمم أكثر اختلافا فى رب العالمين منهم ، فويل للذين

كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] . يقول تعالى : ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا . لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم فى ضلال مبين ضلوا عن الحق فى المسيح ، وقد وصف الله النصارى بالضلال فى مثل قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، [سورة الكهف : ٤ ، ٥] . لأن الغالب عليهم الجهل بالدين ، وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولا عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه ، وإذا سألتهم عن معناه قالوا : هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلاما يعرفون بأنهم لا يعقلونه ، وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره ، ولهذا لاتجدهم يتفقون على قول واحد فى معبودهم حتى قال بعض الناس : لو اجتمع عشرة نصارى ، افترقوا على أحد عشر قولا .

وقال الربيعى : النصارى أشد الناس اختلافا فى مذاهبهم ، وأقلهم تحصيلا لها ، لا يمكن أن يعرف لهم مذهب ، ولو سألت قسا من أقسائهم عن مذهبهم فى المسيح ، وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة ، ولقال كل واحد منهم قولا لا يشبه قول الآخر .

وقال بعض النظار : مامن قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته لم تصورت منه معنى معقولا وإن كان باطلا . إلا قول النصارى فإنك كلما تأملته تتصور له حقيقة تعقل لكن غايتهم أن يحفظوا الأمانة أو غيرها ، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر ، كما يكفر اليعقوبية ،

والملكانية ، والنسطورية بعضهم بعضاً لاختلافهم فى أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم فى التوحيد . والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضاً كما بين فى موضع آخر .

فصل

وأما قولهم : فكان طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم من غير أن يقولوا إن محمداً أراده ، تكلمنا معهم فى ذلك وبينا فساد ذلك عقلا ونقلا .

وأما قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن المراد إذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت فهذا من البهتان الظاهر على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من جنس قولهم إن قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ، [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] . أراد به : النصارى ومن جنس قولهم إن قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] أراد به : العرب ، ومن جنس قولهم : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] أراد بهم : الحواريين ، ومن جنس قولهم : ﴿ الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ، ٢] . أراد به الإنجيل فهذه المواضع التى فسروا بها القرآن وزعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى بين للناس ما أنزل إليهم ، كان يريد بها ما يتلوه من القرآن هذه المعانى التى ذكروها وهى من الكذب الظاهر الذى يدل على غاية جهل قائلها ، أو غاية معاندته ، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى ، فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والنبوات بنحو هذه التفاسير التى حرفوا فيها الكلام الذى جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفاً ظاهرا ، فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله ، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا و بدلوا ، وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل ، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل

وهم من الذين يدعون المحكم و يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، لكن فى هذه المواضع حرفوا المحكم الذى معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحداً فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المتشابه ، وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « إن المسيح عندالله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله وابن الله»

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم : وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢-٧٧] .

فقد ذكر كفر النصارى فى قولهم : هو الله مرتين ، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايته الرسالة كما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٤] .

وغاية أمه أن تكون صديقة ودل بهذا أنها ليست بنبية ، ثم قال : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ . وهذا من أظهر الصفات النافية للالهية لحاجة الأكل إلى ما يدخل فى جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات .

والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والنصارى تقول : إنه يلد ، وإنه يولد ، وإن له كفوا كما قد بين فى موضع آخر ، وقد أخبر بعبودية المسيح فى غير موضع كقوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩] .

وأخبر تعالى أن أول شىء نطق به المسيح قوله : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ــ الآيات إلى قوله ــ شهيد ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . الآيات كلها .

فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالنقل المتواتر عنه ، وبإجماع أمته إجماعاً يستندون فيه إلى النقل عنه ، وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول : إن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول ، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون : هو الله وهو ابن الله ، والذين يقولون : ثالث ثلاثة وأمثال ذلك ، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذى بلغه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيكون طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى

هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذباً ظاهراً على محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد صلى الله عليه وسلم جميع أهل الأرض العالم بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقروا بنبوته أو أنكروها .

فالمقصود فى هذا المقام : أن هؤلاء كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذباً ظاهراً معلوماً للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذباً خفيا .

وإن قدر أن ما قالوه يكون ممكنا معقولا ، فكيف إذا كان ممتنعاً فى صرائح العقول ؟ بل هو قول غير معقول . أى : غير معقول ثبوته فى الخارج ، وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التى يمتنع ثبوتها فى الخارج ، وذلك كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن قولهم : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت باطل من وجوه :

منها : أن تلك الكلمة إما أن تكون هى الله أو صفة لذاته . أولا هى ذاته ولا هى صفة له ، أو الذات والصفة جميعاً ، فإن لم تكن هى ذات الله ولا صفته ، ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له ، ولم يكن لا هوتا بل ولا خالقه ، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت ، بل لم يتحد به إن كان اتحد به إلا مخلوق . وإن كانت الكلمة هى الذات أو الذات والصفة فهى رب العالمين ، وهى الأب عندهم ، وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الأب ، ولم يتحد به الأب بل الابن .

وإن كانت الكلمة صفة لله عز وجل ، فصفة الله ليست هى الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق ، وأيضاً فصفة الله قائمة بذاته لاتفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح ،

وإن قالوا : قولنا هذا كما يقول طائفة من المسلمين : إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل فى القراء أو اتحد بهم وإن القديم حل فى المخلوق أو اتحد به

ونحو ذلك . قيل : لو كان قول هؤلاء صواباً لم يكن لهم فيه حجة ، فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور والقرآن ، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصاً بذلك دون غيره ، وأيضاً فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن ، وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ، ولا هو ابن الله ، ولا أنه خالق للعالم ، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ، ولا ابن الله ، ولا رباً للعالم ، وأيضاً فلم نعلم أحداً من هؤلاء قال : إن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ولا إن القديم اتحد بالمحدث ، ولا إن كلام الله صار هو والمخلوق شيئاً واحداً ، فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم ، ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول . وطائفة أنكرت لفظ الحلول ، وقالوا : إنما نقول ظهر القديم فى المحدث لا حل فيه ، لكن قالوا ما يستلزم الحلول . وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء ، ويبينون خطأهم عقلا ونقلا ، وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين ، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية ، والشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والثورية ، والداودية ، والإسحاقية وغيرهم ، ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية ، والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة ، وأمثالهم . وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله ، وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده فى العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع ، والتصوف أو غيرهم ، فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء ، إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح ، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، والصالحين . والنصارى تدعى اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو هو والناسوت شيئاً واحداً ، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة

خارج عن الآخر . والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون .

فمنهم من يقول : جوهر واحد . ومنهم من يقول : جوهران . ومنهم من يقول : مشيئة واحدة . ومنهم من يقول : مشيئتان ، كما سيأتى الكلام إن شاء الله تعالى على ذلك .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذى لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الله الذى بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ لأنه ليس بينى و بينه نبى » .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم

بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ ـ ٥٣] .
فكل من كان أتم إيمانا بالله ورسله ، كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر : ٥١] .

وقال فى كتابه : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] .
واليهود كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، كما قال الله فيهم : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٠] .

فالغضب الأول : تكذيبهم المسيح ، والثانى : محمداً صلى الله عليه وسلم .
والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ؛ والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحدا من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] :

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] .

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » . وقال أيضاً : « سألت ربى أن لا يسلط على أمتى عدوا

من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها » الحديث - فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

فصل

وأما قولهم[1] : وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، فهذا حق كما قال تعالى ، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى بن مريم بروح القدس فى عدة مواضع ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٣] :

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى بن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ﴾،[سورة المائدة: ١١٠]

وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾، [سورة الشعراء . ١٩٣ ، ١٩٤].

---

(١) أى : وأما احتجاجهم بقول الله : وآتينا الخ .

وقال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ . [سورة البقرة : ٩٧] .

فروح القدس الذى نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل . وثبت فى الصحيح عن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن ثابت : « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت :« اهجهم أو هاجهم وجبريل معك » . فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله ، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل عليه السلام وأهل الأرض يعلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يجعل اللاهوت متحدا بناسبوت حسان ابن ثابت ، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح ، وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدا بروح القدس. كداود وغيره بل يقولون : إن الحواريين كانت فيهم روح القدس ، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون فى غير المسيح ، بل فى غير الأنبياء كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وإنما المقصود فى هذا المقام ، بيان كذبهم على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا التأييد نظير قوله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا

أقاربه ، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب ، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب وهذه ملة إبراهيم .

قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ : [سورة الممتحنة : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ ، سورة الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ، [سورة التوبة : ١١٤] وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام فى كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم . وليس فى القرآن، ولا فى الإنجيل، ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذى أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به وهى حياته ، ولا أن روح القدس يخلق ويرزق فليس روح القدس هو الله ، ولا صفة من صفات الله ، بل ليس فى شىء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنا ، ولا روح القدس .

فإذا تأول النصارى قول المسيح عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس على أن الإبن صفته التى هى العلم ، وروح القدس صفته التى هى الحياة، كان هذا كذباً بيناً على المسيح ، ولا يوجد قط فى كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ، ولا شىء من صفاته ابناً ؛ ولا حياته روح القدس .

وأيضاً : فهم يذكرون فى الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس ، وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذى هو جبريل ، وهو روح القدس ، فنفخ فى مريم فحملت بالمسيح ، فكان المسيح متجسداً مخلوقا

من أمه من ذلك الروح ، وهذا الروح ليس صفة الله ، لا حياته ولا غيرها ، بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيراً فى كلام الأنبياء ، ويراد بها إما الملك ، وإما مايجعله الله فى قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشا من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ ، [سورة النحل : ٢] .

وقال تعالى : يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سوة غافر : ١٥] .

فسمى الملك روحا وسمى ما ينزل به الملك روحا وهما متلازمان ، والمسيح عليه السلام مؤيد بهذا وهذا .

ولهذا قال كثير من المفسرين : إنه جبريل ، وقال بعضهم : إنه الوحى : وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب سر الخير كما يراد بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل ، ويراد به الكتاب الذى نزل به وما فيه من الأمر والنهى والشرع ، ولما قال ورقة بن نوفل للنبى صلى الله عليه وسلم :هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى ، فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فنهم مهتد وكثير مهم فاسقون * ثم قفينا

على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ـ ٢٥ ـ ٢٧] .

فهو حق كما قال تعالى وليس فى ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله فى قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ ثم قال : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ . أى وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم » وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ ، [سورة المائدة : ١٠٣] .

وهذا الجعل المنفى عن البدع هو الجعل الذى أثبته للمشروع بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقوله : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ﴾ ، [سورة الحج : ٦٧].

فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله . والناس فى قوله « ورهبانية » قولان .

أحدهما : إنها منصوبة . يعنى ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده[1] أو يقال هذا الفعل يعمل فى المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين . حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله : ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما ﴾ ؛ [سورة الإنسان : ٣١] : وقوله : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ : [سورة الأعراف : ٣٠] .

وعلى هذا القول . فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة ، والرحمة .

فالقول الثانى : إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل فى قلوبهم الرأفة

---

(١) المعنى : ابتدعوا رهبانية ابتدعوها وأصحاب هذا يقولون تفسيره ما بعده .

والرحمة والرهبانية المبتدعة ، ويكون هذا جعلا خلقيا كونيا والجعل الكونى يتناول الخير والشر كقوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ ، [سورة القصص : ٤١] .

وعلى هذا القول: فلا مدح للرهبانية لأنها فى القلوب، فثبت أنه على التقديرين ليس فى القرآن مدح[1] . ثم قال: ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ أى لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع . وهذا يسمى استثناء منقطعاً كما فى قوله : ﴿ مالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ ، [سورة النساء: ١٥٧] . وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٩] . وقوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٦] . وقوله : ﴿ فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ ، [سورة الانشقاق . ٢٠ ـ ٢٥] . وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما * إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ ، [سورة الواقعة : ٢٥ ـ ٢٦] . وقوله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، [سورة النساء : ٩٢] .

وهذا أصح الأقوال فى هذه الآية كما هو مبسوط فى موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ، ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن الله لا يفعل شيئاً ابتغاء رضوان نفسه ، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ، وما رعوها حق رعايتها ، وليس فى ذلك مدح لهم بل هو ذم ثم قال تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾، سورة الحديد: ٢٧]

(١) يعنى : ليس فى القرآن مدح للرهبانية التى ابتدعها النصارى .

وبم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكثير منهم فاسقون ، ولو أريد لذين آمنوا بالمسيح أيضاً فالمراد من اتبعه على دينه الذى لم يبدل والآن فكلهم يقولون : إنهم مؤمنون بالمسيح وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذى لم يبدل ، ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنو بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : قد قال بعض الناس : إن قوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ عطف على رأفة ورحمة ، وأن المعنى أن الله جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وجعلو الجعل شرعيا ممدوحاً . قيل : هذا غلط لوجوه :

منها : أن الرهبانية لم تكن فى كل من اتبعه . بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب ، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت فى قلب كل من اتبعه .

ومنها : أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة ، فإنهم لم يبتدعوها ، و إذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم ، فإن كان المراد هو الجعل الشرعى الدينى لا الجعل الكونى القدرى فلم تدخل الرهبانية فى ذلك ، وإن كان المراد الجعل الخلقى الكونى فلا مدح للرهبانية فى ذلك .

ومنها : أن الرأفة والرحمة جعلها فى القلوب . والرهبانية لا تختص بالقلوب ، بل الرهبانية تتضمن ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك ، وقد كان طائفة من الصحابة — رضوان الله عليهم — هموا بالترهب ، فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٧] .

وثبت فى الصحيحين : أن نفراً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم .

فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وفى صحيح البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائماً فى الشمس فقال : ما هذا ؟ قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم . فقال « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه » .

وثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »

وفى السنن عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة ، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها ، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فإن قيل : قد قال طائفة : معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .

وقالت طائفة : ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله . قيل : كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم ، بل لم يشرعها لا إيجابا ولا استحبابا ، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس فى الآية ما يدل على ذلك فإنه قال : ﴿ ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] ،

فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها ، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة ، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها . فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لـكانوا ممدوحين . قيل : ليس فى الـكلام مايدل على ذلك ، بل يدل على أنهم — مع عدم الرعاية — يستحقون من الذم مالا يستحقونه بدون ذلك ، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها ، وإن لم يكن واحد منهما محموداً ، بل مذموماً مثل نصارى بنى تغلب ونحوهم ممن دخل فى النصرانية ولم يقوموا بواجباتها ، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم ، فـكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم ، والنار دركات كما أن الجنة درجات ، وأيضاً : فالله تعالى إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه ، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله ، وأيضاً : فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فـكيف بالرهبانية ؟ وأما قول من قال : ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فهذا المعنى لو دل عليه الـكلام لم يكن فى ذلك مدح للرهبانية ، فإن من فعل ما لم يأمر الله به ، بل نهاه عنه مع حسن مقصده ، غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه ، ولا على ما ليس بواجب ، ولا مستحب ، فـكيف والـكلام لايدل عليه فإنه قال: ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾، [سورة الحديد : ٢٧] . لم يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولا قال : ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، لـكان منصوبا على المفعولية ، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفى ابتداع ، بل أثبته لهم وإنما تقدم لفظ الـكتابة فعلم أن القول الذى ذكرناه هو الصواب ، وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم ، لـكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن إرضاء الله واجب مكتوب

على الخلق ، وذلك يكون بفعل المأمور و بترك المحظور ، لا بفعل ما لم يأمر بفعله و بترك مالم ينهه[1] عن تركه ، والرهبانية فيها فعل مالم يأمر به وترك ما لم ينهه[2] عنه .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران:١١٣،١١٤] فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هى مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس و باءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمرآن: ١١٠ – ١١٢] ثم قال: ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣] . ومعلوم أن الصفة المذكورة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ . صفة لليهود ، وكذلك قوله : ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ .

فقوله : عقب ذلك ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ لابد أن يكون متناولا لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد

(١ ، ٢) قوله : ينهه — هكذا فى الأصل وصحتهما | ينه بحذف الهاء الثانية لأن سياق الكلام يأبى ذلك .

صلى الله عليه وسلم . والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم فى ذلك حكم اليهود ، والله تعالى إنما أثنى على من آمن أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] . وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى فى آل عمران ، نزلت فى النجاشى ونحوه ممن آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام ، وقد قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى عليه لما مات ؛ لأجل هذا . فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه فى جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلى المسلمون على جنائزهم .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة من يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فى بلاد الحرب، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه و يسقط عنه ما يعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ، [سورة النساء : ٩٢] . فقد يكون الرجل فى الظاهر من الكفار ، وهو فى الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن : يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * وياقوم إنى

أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار * وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب * وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، [سورة غافر : ٢٨ ـ ٤٦] . فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب . وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذى ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر . وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء ، قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثل الذين آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب

ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ [سورة التحريم : ١١] . وامرأة الرجل من آله بدليل قوله : ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرناها إنها لمن الغابرين ﴾ ، ﴿ سورة الحجر : ٥٩ ، ٦٠] وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، يعمل بما يقدر عليه و يسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملا ﴿ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشى ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم فى الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر فى الباطن . إما يهودى . وإما نصرانى . وإما مشرك وإما معطل .

كذلك فى أهل الكتاب والمشركين ، من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن أهل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفى حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « استغفروا لأخيكم » ، فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، يموت بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] ذكره ابن أبى حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكره حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استغفروا لأخيكم النجاشى » فذكر مثله . وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية فى النجاشى ملك الحبشة، واسمه أصحمة . وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو ؟ قال :

النجاشى » نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع . وزاد بعضهم . وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، وقال لأصحابه : « استغفروا له » . فقال المنافقون : أبصروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط : وليس على دينه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فآمن به ، كما نقل ذلك عن عطاء . وذهبت طائفة إلى أنها نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم .

والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأظهر الإيمان به ، وهو من أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطنا فهذا من المؤمنين ، وإن كان قبل ذلك مشركا يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال فى المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ، ولا غيرهم ، أن يصلى على واحد منهم ، بخلاف من هو فى الظاهر منهم ، وفى الباطن من المؤمنين . وفى بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم . إما مطلقا وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية — فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣-١١٤] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ، ونظيره قوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٩] . هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ، ليس فى ذلك مدح لمن كذب المسيح ، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكلام تفسيره سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله - ثم قال تعالى - ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] . فقد جعلهم نوعين : نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ يتناول من كان مؤمنا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - إلى قوله - وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] . وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦] .

وقوله عن إبراهيم الخليل : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ، [سورة الصافات : ١١٣] . ثم لما قال : ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] . قال : ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١١ - ١١٢] . وضرب الذلة عليهم

أينما ثقفوا وباؤم بغضب من الله ـ الآية ـ وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ـ ثم قال بعد ذلك ـ ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦١ ، ٦٢] .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ بغير تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفا به أكثرهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الكفر ، قال : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣ ـ ١١٤] .

وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذى لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال فى الأعراف : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون * فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون * والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا

الصلاة إنا لا تضيع أجر المصلحين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٦٨ - ١٧٠] .

وقد قال تعالى مطلقا : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٨١] .

فهذا خبر من الله عمن كان متصفا بهذا الوصف قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً صلى الله عليه وسلم ، فآمن به كان له أجره مرتين .

فصل

قالوا ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ، ويقدم صوامعنا ، ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيراً ، وذلك مثل قوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] .

والجواب:أن فيها ذكر الصوامع والبيع،وأما قوله : ﴿ ويذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ فإنما ذكره عقب ذكر المساجد ، والمساجد للمسلمين ، وليس المراد بها كنائس النصارى ، فإنما هى البيع . ثم قوله : ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾إما أن يكون مختصا بالمساجد ، فلا يكون فى ذلك إخبار بأن اسم يذكر كثيراً فى الصوامع والبيع . وإما أن يكون ذكر اسم الله فى الجميع ، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم كان فيها من يتبع دين المسيح الذى لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيراً . وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم كثيرا وإن الله يحب أن يذكر اسمه .

قال الضحاك : إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به يعنى:أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذى لايذكر اسم الله بحال .

وأهل الكتاب خير من المشركين ، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ، ساء ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرهوا

انتصار الفرس على النصارى ؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وتقديم خير الخيرين على أدناهما حسب الإمكان ، ودفع شر الشرين بخيرهما ، فهدم صوامع النصارى و بيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون . وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهذا خير وصلاح . وهذه الآية ذكرت فى سياق الإذن للمسلمين بالجهاد بقوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، [سورة الحج : ٣٩] . وهذه الآية أول آية نزلت فى الجهاد ، ولهذا قال : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ [سورة الحج : ٤٠] . ثم قال : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ ، فيدفع بالمؤمنين الكفار و يدفع شر الطائفتين بخيرهما ، كما دفع المجوس بالروم والنصارى ، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا كما قال فى سورة البقرة : ﴿ وقتل داوودُ جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥١] .

وأما التقديم فى اللفظ ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] . وقوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته و بنيه ﴾ ، [سورة عبس ٣٤ ـ ٣٦] . وقوله : ﴿ والذاريات * ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً ﴾ ، [سورة الذاريات : ١ـ٤] . ونظائره متعددة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] .

بين سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات ،

وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هي الصوامع، فإن الصومعة تـكون لواحد أو طائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد ، وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً . ففي الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون ، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد ، وبعد النسخ والتبديل، إذا غلب أهل الـكتاب من هو شر منهم، كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم ، كان ذلك فسادا وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولا يشرك به ، ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحا لا فساداً ، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ المساجد مواضع معابد الـكفار ، كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات ، التي قال الله فيها: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [سورة النجم : ١٩] فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدم ذلك المعبد ، ويتخذ مكانه المسجد الذي يعبد الله وحده فيه ، فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض قال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾، [سورة الأعراف:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾، [سورة الجن:١٨]

وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالـكفر أولئك حبطت أعمالهم — الآية إلى قوله — المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٧ ، ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره — الآية إلى قوله — بغير حساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٥ ــ ٣٨] : ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الـكفار من أهل الـكتاب والمشركين ، فذكر أهل الجهل المركب والبسيط ، فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب *

أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ ، ٤٠] .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة فى شىء مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة .

فصل

قالوا : وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا ، وأن لانهمل ما معنا ، ولا نرفض مذهبنا ، ولا نتبع غير السيد المسيح ، كلمة الله ، وروحه وحوارييه الذين أرسلهم إلينا . والجواب : أنهم احتجوا بحجتين باطلتين .

أحدهما : أن محمداً لم يرسل إليهم بل إلى العرب ؛ وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلى أهل الكتاب ، ولا قال قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض أميهم وكتابيهم .

والحجة الثانية : قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم،أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ ، وهى أيضاً أعظم كذباً عليه من التى قبلها ، فكيف يثنى عليهم وهو يكفرهم فى غير موضع من كتابه ، ويأمر بجهادهم وقتالهم ، ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم،ويصف من لم ير طاعته فى قتالهم بالنفاق والكفر ، ويذكر أنه يدخل جهنم ، وهذا كله يخبر به عن الله عز وجل ويذكره تبليغاً لرسالة ربه ، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتداه ، كما قال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد

عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٠ — ٥٢] .

وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه ، وكان على دينه الذى لم يبدل ، فهذا حق وهو لا ينافى وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على من بعث إليه ، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل ، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها ، وقال مع ذلك إن الله أرسلنى إليكم ، لم يكن متناقضاً ، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

فكيف وهو إنما مدح من اتبع ديناً لم يبدل ؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم ، كما قال : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود ، كفروا بتبديلهم مافى الكتاب الأول وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثانى . وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمداً فآمن به ، فهؤلاء مؤمنون ، ومما يبين ذلك : أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها ، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل ، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطاً عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح ، فكيف يكون تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل مسقطاً عن النصارى وجوب اتباعه ؟ .

فصل

وأما قولهم : وحوارييه الذين أرسلهم إلينا أنذورنا بلغاتنا ، وسلموا إلينا ديننا الذين قد عظموا فى هذا الكتاب ، بقوله فى سورة الحديد : ﴿ لقد أرسلنا

رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] ؛

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ،[سورة البقرة : ١٢٣] . فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ،ورسله ينحو بذلك الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم ، و بشروا بالكتاب الواحد ، الذى هو الإنجيل الطاهر ؛ لأنه لوعنى عن إبراهيم وداود ، وموسى ، ومحمد ، لكان قال : معهم الكتب ؛ لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ، ولم يقل : إلا الكتاب الواحد؛ لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . وجاء أيضاً فى الكتاب : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ ، [سورة يس : ٢٠] — يعنى الحواريين — لم يقل : رسول ، إنما قال : المرسلين ، والجواب من وجوه :

أحدها : أنه ليس فيما ذكر ولا فى غيره،ما يوجب تكذيب الرسول الذى أرسل إليكم أو إلى غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ . كما أنه ليس فيما يعظم به موسى والتوراة ومن اتبع موسى ما يوجب لليهود تكذيب الرسول الذى أرسل إليهم ، وتمسكهم بدّين مبدل منسوخ .

الثانى : أن قولهم : ولا نتبع غير المسيح وحوارييه ، قول باطل ، فإنهم ليسوا متبعين ، لا للمسيح ولا لحوارييه ، لوجهين :

أحدهما : أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين ، بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين .

الثانى : أن المسيح بشر بأحمد ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ، [سورة الصف : ٦] فإذا لم يتبعوا أحمد ،

كانوا مكذبين للمسيح ، وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ، ما هو مبسوط فى موضع آخر كما سيأتى إن شاء الله .

وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشىء مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه حجة عليهم لا لهم ، إذ زعموا أن فى بعضه حجة لهم .

الثالث : أن قولهم عن الحواريين : إنهم الرسل الذين عظموا فى هذا الكتاب قول باطل، فسروا به القرآن تفسيراً باطلا من جنس تفسيرهم ﴿ الذين نعمت عليهم ﴾ بالنصارى . وتفسيرهم ﴿ بإذنى ﴾ أى : ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، وتفسيرهم ﴿ آلم ذلك الكتاب ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ، ٢] . بالإنجيل ، وتفسيرهم ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] . هم النصارى . وتفسيرهم قوله :﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] . هم النصارى . ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ هم اليهود . وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن ، بمثل ما يفسرون به التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، من التفاسير التى هى من تحريف الكلم عن مواضعه،والإلحاد فى آيات الله ، والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء لكل من تدبر ذلك.

وبطلان ذلك يظهر من وجوه .

أحدها : أن الله قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾،[سورة الحديد : ٢٥].

وقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ اسم جمع مضاف ، يعم جميع من أرسله الله تعالى .

الثانى : أن أحق الرسل بهذا الحكم الرسل الذين سماهم الله تعالى فى القرآن كما قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده

وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ — ١٦٥] .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٠٥ — ١١٠] .

وقوله : ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

وقوله : ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٤١ ـ ١٤٥] .

وقوله : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألاتتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٦٠ ـ ١٦٤] .

وقوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٧٦ ـ ١٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون

رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٢٣] . وذكر قصته ثم قال من بعد ذلك : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣ ، ٣٢] . ثم لما قضى قصته قال تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ماجاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون * ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٢ ـ ٤٦] .

فذكر إرسال رسله تترى = أى متواترة = ثم ذكر إرسال موسى ، وهارون ، و إرسال موسى وهارون قبل إرسال المسيح بمدة طويلة .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل: ٣٦] . فهذا إخبارمنه سبحانه وتعالى بأنه بعث فى كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقال تعالى فى المسيح صلوات الله عليه : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] . فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل ﴿ قد خلت من قبله الرسل﴾ وقبله قد بعث فى كل أمة رسولا.

وقد روى فى حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبى ، وأن الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر » . وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه ، فإن كان صحيحاً ، فالرسل ثلثمائة وثلاثة عشر ، وإن لم تعرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر ، كما يمكن أن يكونوا أقل ، فإن الله أخبر أنه بعث فى كل أمة رسولا ، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر : ٢٤] .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله » وهو حديث جيد ، وقال تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ . [سورة الزمر : ٧١] .

وقال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ ، [سورة الملك : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ، ٩] .

فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى فى النار ، وقد جاءهم نذير كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقد قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم إنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام: ١٣٠].

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلا كثيرين إلى جميع الأمم ، فكيف يجوز أن يدعى أن المراد بقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ هم الحواريون فقط ، الذين أرسلهم المسيح ، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى ، وإبراهيم ، ورسل محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت على الناس طاعته فيما يبلغه عن رسول الله ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » . فبين أن أميره إنما تجب طاعته فى المعروف الذى أمر الله به رسوله . لا فى كل مايأمر به ، ففى الصحيحين عن على عليه السلام : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا ، وأمر عليهم رجلا ، وأمرهم أن يسمعوا و يطيعوا ، فأغضبوه . فقال : اجمعوا لى حطبا فجمعوا له . ثم قال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا ناراً ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا: بلى . قال:فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ، وقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا ، وقال : لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف » . وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة » وفى مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول : « ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاستمعوا وأطيعوا » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع » وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوء مقعده من

النار » وفى السنن عنه أنه قال : « نصر الله امرأ استمع فسمع منا حديثاً ويبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

فالحواريون فى تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء فى تبليغهم عنهم ، وقال الله تعالى فى كتابه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ، [سورة النساء : ٥٩] . وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء ، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله ، وجبت طاعتهم ، و إن تنازع الناس فى شىء ، وجب رده إلى الله والرسول ، لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتاباً معيناً ، كما قال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد ، بل هذا يتضمن الإيمان بالتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وكل ما أنزله الله من كتاب ، كما قال فى سورة الشورى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . فأمره الله تعالى أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب ، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته ، كما قال : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٩] .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بلغوا عني ولو آية » . فكل من بلغه القرآن ، فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن . وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القراءتين موافقة للأخرى وقوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . أى فاختلفوا بعد ذلك . كما قال فى السورة الأخرى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فلما اختلف بنو آدم بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ﴾ .

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله ، ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله تعالى ، وحكمه فى كتبه المنزلة ، فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا فى شيء أن يردوه إلى الله والرسول . والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، فأمرهم بالرد إلى كتابه ورسوله . وقد ذم تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ، [سورة النساء : ٦٠ ـ ٦٤] .

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ .

يتناول الرسل الذين أرسلهم الله كلهم ، ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر فى القرآن أنه أرسلهم إلى عباده ؛ فظهر بطلان قولهم أنهم الحواريون .

الوجه الثالث: أنه قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ . [سورة الحديد : ٢٥] . فذكر أنه أنزل الحديد أيضاً ، ليتبين من يجاهد فى سبيل الله بالحديد . والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد .

الوجه الرابع : أنه قال بعد ذلك : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦] . وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام ، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التى امتاز بها عن غيره ، مما دخل فى العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ، ويأمر فلاناً وفلاناً بأن يفعلوا كذا وكذا ، ومثل أن أرسل رسله إلى فلان وفلان، وأرسل إليهم فلاناً ، وأمره بكذا وكذا ، قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ . فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان ، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة ، وقال فى نوح : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته ، كما قال تعالى فى إبراهيم : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾. ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ . فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى بن مريم ، وأتاه الإنجيل ، وهؤلاء رسل

قبل المسيح ، وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحداً من أتباع المسيح ، بل إنه جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، فكيف يجوز أن يقال : إن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب، والميزان، هم الحواريون، دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح .

الوجه الخامس : أنه ليس فى القرآن آية تنطق بأن الحواريين هم رسل الله، بل ولا صرح فى القرآن بأنه أرسلهم ، لكن قال فى سورة يس : ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذاً لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون * ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾ ، [سورة يس :١٣- ٣٠].

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين ، ولا أن الذين أرسل إليهم آمنوا بهم ، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة ، أنزل الله عليهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون .

وقد ذكر طائفة من المفسرين ، أن هؤلاء كانوا من الحواريين ، وأن القرية إنطاكية، وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار ، ثم إن بعضهم يقول : إن المسيح

أرسلهم فى حياته ، لكن المعروف عند النصارى ، أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل إنطاكية .

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذى آمن بالرسل . وأيضاً فالنصارى يقولون : إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا أثنين لم يكن لهما ثالث . قيل : أحدهما: شمعون الصفا . والآخر : بولص . ويقولون : إن أهل إنطاكية آمنوا بهم ، ولا يذكرون حبيب النجار ،ولا مجىء رجل من أقصى المدينة ، بل يقولون . إن شمعون وبولص ، دعوا الله حتى أحيا ابن الملك ، فالأمر المنقول عند النصارى ، أن هؤلاء الرسل المذكورين فى القرآن ، ليسوا من الحواريين ، وهذا أصل القولين عند علماء المسلمين . وأئمة المفسرين ذكروا أن المذكورين فى القرآن فى سورة يس . ليسوا من الحواريين ، بل كانوا قبل المسيح ، وسموهم بأسماء غير أسماء الحواريين . كما ذكر محمد بن إسحاق . قال سلمة بن الفضل : كان من حديث صاحب يس فيما حدثنى محمد بن إسحاق عن ابن عباس وعن كعب بن منبه ، أنه كان رجل من أهل إنطاكية ، وكان اسمه حبيباً ، وكان يعمل بالحرث ، وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة ، يتأخر ، وكان مؤمنا ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين ، فيطعم نصفه عياله ، ويتصدق بنصفه ، وكان بالمدينة التى هو بها ، مدينة إنطاكية ، فرعون من الفراعنة،يقال له : إنطخسر بن أنطنجس، يعبد الأصنام، صاحب شرك ،فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة : صادق ، وصدوق ، وسلوم، فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم إثنين فكذبوهما ، ثم عزز الله بالثالث .

وروى الربيع بن أنس ، عن أبى العالية فى قوله : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٣ ، ١٤] . لكى تكون الحجة عليهم أشد ، فأتوا أهل القرية

فدعوهم إلى الله وحده ، وعبادته لا شريك له ، فكذبوهم ، فأتوا على رجل فى ناحية القرية فى زرع له فسألهم الرجل : ما أنتم ؟ قالوا : نحن رسل رب العالمين ، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . قال لهم : أتسألون على ذلك أجراً ؟ قالوا : لا . قال : فألقى ما فى يده ، ثم أتى أهل المدينة فقال : ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٠ ، ٢١] .

وهذا القول هو الصواب ، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل المسيح ، وإن كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار ، فهم كانوا قبل المسيح ، ولم تؤمن أهل القرية بالرسل . بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر فى القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية . وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم . ودخلوا فى دين المسيح .

ويقال: إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام، وذلك بعد رفعه إلى السماء . ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين فى القرآن هم رسل المسيح . وهم من الحواريين فهذا غلط لوجوه :

منها : أن الله قد ذكر فى كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل ؛ وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا .

ومنها : أن الرسل فى القرآن ثلاثة ، وجاءهم رجل من أهل المدينة يسعى ، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ؛ ولم يأتهم رجل يسعى . لا حبيب ولا غيره .

ومنها : أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم، وهذا كما أن الله ذكر فى القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب . وذكر فى القرآن أن موسى أتاها وتزوج ببنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبى ،

وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس ، والحسن البصرى ، وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً النبى ، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف ولم يثبت ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين ، كما قد بسطناه فى موضع آخر .

وأهل الكتاب يقرون بأن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً بل رجل من أهل مدين ، ومنهم من يقول : إنها غير مدين التى أهلك الله أهلها. والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسرون فى المرسلين هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح ؟ قولين :

أحدهما : أن الله هو الذى أرسلهم .

قال أبو الفرج ابن الجوزى. وهذا ظاهر القرآن ، وهو مروى عن ابن عباس وكعب ، ووهب بن منبه . قال : وقال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أى ساكتون كهيئة الرماد الخامد .

ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا به قبل أن يبدل دينه ، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك . ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبى الأمم بعذاب سماوى يعمهم ، كما أهلك قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وغيرهم ، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار ، كما أمر بنى إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة ، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء ، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين فى يس كانوا قبل موسى

عليه السلام ، وأيضاً فإن الله لم يذكر فى القرآن رسولا أرسله غيره ، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . فأخبر أنه أرسلهم ، كما أخبر أنه أرسل نوحاً وموسى وغيرهما ، وفى الآية : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ﴾ ، [سورة يس : ١٥] . ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال : إن الله أرسله وأنزل عليه الوحى لامن جاء رسولا من عند رسول ، وقد قال بعد هذا : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ ، [سورة يس : ٣٠] . وهذا إنما هو فى الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله . وأيضاً : فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمداً صلى الله عليه وسلم يحذرهم أن ينتقم الله منهم ، كما انتقم من هؤلاء ، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لابمن أصحابه أفضل منهم ، فإن أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] . وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشرمثلنا ﴾ ، [سورة يس: ١٤، ١٥] . ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم ، ولم يكن فى قولهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة ، فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسل الله بشراً ، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً ، وأيضاً فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا : فأرسلوا إلى من أرسلنا ، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا فى البلاغ عنه ، بخلاف ما إذا كانا رسل الله ، وأيضا فقوله : ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ صريح فى أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله إنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبى أن الله أرسله ، ولا يقال

ذلك للمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن حذافة وأمثالهم ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل رسله إلى ملوك الأرض ، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى ، وأرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ، كما تقدم ذكر ذلك .

ومعلوم أنه لا يقال فى هؤلاء إن الله أرسلهم ، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

فإذا كانت رسل محمد صلى الله عليه وسلم لم يتناولهم اسم رسل الله فى الكتاب الذى جاء به . فكيف يجوز أن يقال : إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره ، والمقصود هنا بيان معانى القرآن وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . هل مراد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أرسلهم الله ، أو من أرسلهم رسوله ، وقد علم يقيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدخل فى مثل هذا فمن قال : إن محمداً أراد بذلك من أرسله رسولا فقد كذب على محمد صلى الله عليه وسلم عمداً أو خطأ .

فصل

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم فى تفسير آية البقرة ، فإنهم قالوا : وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . قالوا : فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك عن الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الواحد الذى هو الإنجيل الطاهر لأنه لو كان أعنى عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال : ومعهم الكتب لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد لأنه ما أتى جماعة

مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . فيقال لهم قد تقدم بعض مايدل على فساد هذا التفسير وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ . أى : فاختلفوا ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ .

والحواريون ليسوا من النبيين ، وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلا ولا يسمونهم أنبياء ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ وأنزل معهم الكتاب ﴾ والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها كما فى قوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . وفى قوله : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله ، وكذلك قوله عن مريم : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ ، [سورة التحريم :١٢] . وفى القراءة الأخرى : وكتابه ، وأيضاً قال تعالى:﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ ، [سورة البقرة:٢١٣]

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، وكان اختلافهم قبل المسيح بل قبل موسى ، بل قبل الخليل ، بل قبل نوح ، كما قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين . تارة يختلفون فيؤمن بعضهم ، ويكفر بعضهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالى ، ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ ، [سورة الحج : ١٩] يعنى : أهل الإيمان والكفر ، وقد يكون المختلفون كلهم على باطل كقوله :

﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] .
وقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة الزخرف : ٦٥]

وأيضاً : فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح . بخلاف التوراة والقرآن فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ماليس فى الإنجيل ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . وذلك يقتضى أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم لما اختلفوا فيه من الحق ، وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا . والنصارى داخلون فى هذا الذم ، ولو كان المراد بالإنجيل كانوا هم المذمومين دون غيرهم ، وليس كذلك ، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضاً ، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه . وهذا يتناول أمة محمد صلى الله عليه وسلم قطعا ، وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة ، كالذين كانوا على دين موسى ، والمسيح ، وإبراهيم الخليل ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦٢] .

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه وهذا بين فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفى الباطل ، وهذا ظاهر فى اتباعهم الحق الذى اختلفت فيه اليهود والنصارى فى التوحيد والأنبياء والأخبار ، والتشريع ، والنسخ ، والحلال والحرام ، والتصديق والتكذيب ، وغير ذلك .

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب سبحانه بصفات النقص الذى يختص بها المخلوق ، فقالوا : إنه فقير وبخيل ، وإنه يتعب وغير ذلك .

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال التي يختص بها الخالق فقالوا عن المسيح : إنه خالق السموات والأرض القديم الأزلى علام الغيوب القادر على كل شيء واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

والمسلمون هداهم الله لما اختلف فيه من الحق فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق ، بل أثبتوا لله ما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شيء وليس له كفواً أحد فى شيء من صفات الكمال فنزهوه عن النقائص خلافاً لليهود ، وعن مماثلة المخلوق له خلافاً للنصارى

وأما الأنبياء عليهم السلام فإن اليهود قتلوا بعضاً وكذبوا بعضاً كما قال تعالى: ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] . والنصارى أشركوا بهم وبمن هو دونهم فعبدوا المسيح بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وجعلوا الحواريين رسلا لله وزعموا أن الإنسان بطاعته يصير بمنزلة الأنبياء، وصوروا تماثيل الأنبياء والصالحين ، وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تماثيلهم .

وفى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وأما المسلمون فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يغلوا فيهم غلو النصارى ولا قصروا فى حقهم تقصير اليهود ، وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى يطيعون من يأمر بالشرك . وإن الشرك لظلم عظيم ، ويطيعون من يحرم الحلال

ويحلل الحرام . والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله ، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله . والنصارى فيهم الشرك بالله .واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله كما قال تعالى فى النصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . وقال فى اليهود : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به . فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، والله لا يغفر أن يشرك به . ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم . فالمسيح لم يزل مسلماً لما كان متبعاً لشرع التوراة ولما نسخ الله له ما نسخه منها .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يزل مسلماً لما كان يصلى إلى بيت المقدس ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته فمن لم يطعه لم يكن عابداً لله فلم يكن مسلماً .

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمره الله به يمتنع منه أن ينسخه .

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق ، فقالوا : إن الله سبحانه له أن ينسخ ما شرعه خلافاً لليهود ، وليس لمخلوق أن يغير شيئاً من شرع الخالق خلافاً للنصارى .

وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وشدد عليهم فى أمر النجاسات ، فمنعوا من مؤاكلة الحائض ، والجلوس معها

فى بيت ومن إزالة النجاسة ، وحرم عليهم شحم الترب والـكليتين ، وكل ذى ظفر وغير ذلك .

والمسيح عليه السلام أحل لهم بعض الذى حرم عليهم فقابلهم النصارى ، فقالوا : ليس شىء محرم ، لا الخنزير ولا غيره . بل ولا شىء نجس ، لا البول ولا غيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى ملآءة صورله فيها صور الحيوان وقيل له : كل ما طابت نفسك ودع ما تـكره وأنه أبيح لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك . فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم . والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم . فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحق فأحل الله لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث وأزال عنهم الآصار والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل خلافاً لليهود وأمرهم بالطهارة طهارة الحدث والخبث خلافاً للنصارى . والمسيح عليه السلام جعلته اليهود ولد زنا كذاباً ساحراً ، وجعلته النصارى هو الله خالق السموات والأرض ، فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلف فيه من الحق بإذنه فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافاً للنصارى وأنه رسول الله وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافاً لليهود ، وأما التصديق والتـكذيب فإن اليهود من شأنهم التـكذيب بالحق ، والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق كما قال تعالى : ﴿ أفـكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استـكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات .

فصـل

قالوا عن القرآن إنه شهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول كما قال عيسى

ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون : ﴿ نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] . فيقال هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس فى هذا أنهم رسل الله ولا فى هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم ولا فى هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط بل يأمر الله المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ ، وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار بقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ، [سورة التوبة : ١٠٠] . والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وهم أيضاً من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار ، لكن لما كان لهم يخصهم وهم المهاجرون وهو أفضل الإسمين خص الأنصار بهذا الإسم والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين .

ومع هذا فليس فيهم عندهم نبى ولا رسول لله ، ولكن فيهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

فصل

قالوا وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا فيقول : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] ، وقال فى سورة آل عمران : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ ـ ٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين *

الذى يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١ — ٥] .

فعنى بالكتاب الإنجيل والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه ثم أتبع بالقول والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، فعنى بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله ، وقال فى سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] . فعنى أيضاً بالكتاب المنير الذى هو الإنجيل المقدس .

وقال أيضاً : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] .

فثبت بهذا ما معنا ونفى عن إنجلينا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

والجواب : بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة ، ثم أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه أن يقال :

أما تصديق خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء ، فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواتراً تواتراً ظاهراً

كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤ ، ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٦] .

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور فى مواضع من القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين — إلى آخر الآية — ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، [سورة يوسف : ٣] . فبين أنه أنزل هذا القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتب ، والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم ، فشهد بما فيها من الحق ويبين ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها ، وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن فى ذلك عليها ، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص ، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شىء من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدى ، وكذلك من كان متمسكا بالإنجيل من غير تبديل شىء من أحكامه قبل النسخ ، فهو من أهل الإيمان والهدى . وليس فى ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل ، فضلا عمن تمسك بشرع مبدل منسوخ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين سبحانه كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وبترك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع .

وأما تأويلهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ، إنه الإنجيل . ﴿ والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ : عنى بهم النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، وتبديل كلام الله كما فعلوه فى قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ ، وفى قوله : ﴿ بإذنى ﴾ . أى بإذن اللاهوت ، وفى قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وفى غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذى أراد الله به ، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة

والإنجيل ، فإنه إذا كان القرآن الذى قد عرف تفسيره ، والمراد به : العام والخاص ، ونقل ذلك عن الرسول نقلا متواتراً حتى عرف معناه علماً يقينياً اضطرارياً فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ، ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس فى أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه ، وهؤلاء غرهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ فظنوا أن لفظ « ذلك » لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل . فيقال لهم هذا كقوله : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ .

وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية ، وقوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، [سورة الطلاق:٢] ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٢] . وقال أيضاً لما ذكر خبر مريم : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ ، [سورة البقرة : ٤٤] . كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ = الآية = [سورة هود:٤٩] . وقال : ﴿ آلر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [سورة يوسف: ١] و « تلك » فى المؤنث مثل « ذلك » فى المذكر ، ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله : ﴿ آلر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ ، [سورة الحجر : ١] ، وقوله : ﴿ طس * تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ ، [سورة النمل : ١] . ومنه قوله : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾ ، [سورة القصص : ١ ، ٢] . ومنه قوله : ﴿ حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله

العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الشورى: ١ ، ٣] . وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا ﴾ ، [سورة الشورى : ٧] وقوله : ﴿ المر * تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق = الآية = ﴾ ، [سورة الرعد : ١] . ومثل هذا كثير ، وذلك أنه لما أنزل قوله : ﴿ ذلك الكتاب وتلك آيات الكتاب ﴾ ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة ، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذى يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبى صلى الله عليه وسلم يشار إليه كما يشار إلى الحاضر ، كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٠] .

ولهذا قال غير واحد من السلف « ذلك الكتاب » أى هذا الكتاب ، يقولون : المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب ، وتارة إشارة حاضر ، وقد قال : ﴿ هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ﴾ ، [سورة البقرة : ٢ ، ٣] . وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، وأنهم كافرون ظالمون ، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وأول التقوى تقوى الشرك ، وقد وصف النصارى بالشرك فى قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة:٣١].

وقال تعالى لما ذكر المسيح : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين

كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] . ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٣] . ونهى عن موالاتهم فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منـكم فإنه منهم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥١] . وقد أخبر أن الله ولى المتقين فقال : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٨ ، ١٩] . فلو كانوا من المتقين فضلا عن أن يكونوا هم المتقين لـكان الله وليهم ولـكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين ، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالمـاً ، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والـكفار بعضهم أولياء بعض ، ولهذا لمـا قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الـكافرين .

قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا يرث المسلم الـكافر ، ولا الـكافر المسلم » . واتفق المسلمون على أن اليهودى والنصرانى لا يرث مسلماً ولو كان ابنه وأباه لأن الله قطع الموالاة بينهما ، وقد قال تعالى : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] . وأيضا فإنه قال تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] وهى الصلاة التى أمر بها فى قوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧٨] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » . والنصارى يصلون بغير طهور . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » وهم لا يقرءونها . والصلاة التى فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين فى كل ركعة ، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقام الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التى أمر بإقامتها ، ثم لو قال اليهودى المراد بقوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ التوراة ، ﴿ وبالمتقين ﴾ اليهود . لكان هذا = مع بطلانه = أقرب من قول القائل : إن المراد بالكتاب الإنجيل . لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ ، [سورة هود : ١٧] . وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة الأحقاف ١٠] . وقد قالت الجن لما سمعت القرآن : ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٣٠] .

وقال النجاشى — لما سمع القرآن — : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك ورقة بن نوفل قال : هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى بن عمران .

وقال تعالى : ﴿ قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ [سورة القصص : ٤٨] . أى : التوراة والقرآن . وقالوا : ساحران تظاهرا ، أى موسى ومحمد . وقالوا : إنا بكل كافرون.

قال الله تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٩] . فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن .

وقال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١]. أى الله هو الذى ﴿ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [سورة البقرة: ٤] فهى صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب ، وصفهم بالإيمان بالغيب مجملا ، ثم وصفهم بإيمان مفصل بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله . والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ ، [سورة الأعلى : ١ ــ ٥] . والذى خلق فسوى هو الذى قدر فهدى وهو الذى أخرج المرعى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٩ ــ ١٢] . ومثله قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ ،

[سورة المؤمنون : ١ – ١١] فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو ، وكذلك فى قوله : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾ ، [سورة المعارج : ١٩ – ٣٥] .

وقد فسر قبل قوله يؤمنون بالغيب ، صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركى العرب ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب .

وعلى هذا القول : هؤلاء غير هؤلاء ، لكن هذا ضعيف فإنه لا بد فى المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله . ولا بد فى مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب . فكل من الإيمانين واجب على كل واحد ، ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحاً إلا بهذا وهذا .

وأما قول النصارى : نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه . فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه . والمسلمون آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما رأوه ، بل المسلمون آمنوا بموسى ، وعيسى وسائر النبيين ، وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ثم الغيب ليس المراد به صورة النبى عليه السلام فإن صورة النبى ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس فى رؤيتها ما يوجب إيماناً ولا كفراً ، ولكن الغيب ماغاب عن مشاهدة الخلق وهو ماأخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ،

ورسله ، وهو الإيمان بأنهم رسل الله وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم ، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم .

والمقصود الإيمان برسالتهم لابنفس صورهم حتى يقول القائل : آمنا بنبي ولم نره ، وقد يعلم من دلائل نبوته وإعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه.

فصل

وأما قوله في سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] .

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه ، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . أي : قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لما يخالفك وأنت رسول الله .

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله من أعظم الذنوب .

ولفظ «السميع» : يراد به الإحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال : فلان سمع مايقول فلان . أي : يصدقه أو يطيعه ويقبل منه بقوله : سماعون للكذب . أي : مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذموماً على الإطلاق ، وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . أي : مستجيبون لهم مطيعون لهم كما قال في حق المنافقين وفيكم سماعون لهم . أي :

مستجيبون مطيعون لهم ، ومن قال : إن المراد به الجاسوس فهو غالط كغلط من قال سماعون لهم : هم الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة مايقوله ويفعله ، خلاف من كان يأتيهم من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه ، والله نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحزنه المسارعون فى الكفر من هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه . وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه .

قال تعالى : ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾. أى : لم يأتك أولئك القوم الآخرون يقولون ، أى : يقول السماعون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] .

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلابد أن يكون الشاهد صادقاً والحاكم عادلا وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم ، بل إن شئت فاحكم بينهم ، وإن شئت فلا تحكم .

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك ، إذ هو العدل .

قال تعالى ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط

إن الله يحب المقسطين ﴾ ، [سورة المائدة:٤٢] . ثم قال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٣ ـ ٤٥] .

فهذا ثناؤه على التوراة ، وإخباره أن فيها حكم الله ، وأنه أنزل التوراة ، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . وهذا أعظم مما ذكره في الإنجيل فإنه قال في الإنجيل : ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ . وقال فيه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وقال في التوراة : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ . وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فهو سبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل .

كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ .

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم تسليماً ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى ، فكذلك أيضاً ماذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه

وسلم وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل ، واتبعوا المبدل المنسوخ . واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى ، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل . فعلم اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر فى القرآن من ذكر التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس فى ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ، ولا بدين منسوخ ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ ؟ .

فصل

وهذا أصل لابد من ثباته وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه .

قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٣ — ١٥]

وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ، ٩] .

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً * حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٧١]

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم

آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ،[سورة القصص:٥٩]

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا — إلى قوله — فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧ ، ٤٨] .

وقال تعالى ﴿ : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

و إذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه كقوله : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه ، فإذا اشتبه معنى بعض الآيات ، وتنازع الناس فى تأويل الآية ، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ، فإذا اجتهد الناس فى فهم ما أراده الرسل فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد فلا يمتنع أن يقال ذلك فى أهل الكتاب قبلنا فمن لم يبلغه جميع نصوص الكتاب قبلنا ، لم تقم عليه الحجة بما بلغه فيما خفى عليهم معناه منه فاجتهد فى معرفته فإن أصاب فله أجران . وإن أخطأ فله أجر وخطأه محطوط عنه . فأما من تعمد تحريف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا مستحق للعقاب ، وكذلك من فرط فى طلب الحق واتباعه متبعاً لهواه مشتغلا عن ذلك بدنياه .

وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك وهم مجتهدون فى اتباع ما جاء به الرسول لم يجب أن يجعل

هؤلاء من المستوجبين للوعيد ، فإذا جاز أن يكون فى أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح ، بل خفى عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه فاجتهد لم يعاقب على ما لم يبلغه . وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع=تبع=والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة كابن الهتيان وغيره على هذا ، وأنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود ، وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للمناظر المستدل صدق الرسول أولا .

وإذا لم يبن له ذلك هل يستحق العقوبة فى الآخرة أم لا يستحقها . بل وتنازع بعض الناس فى المقلد منهم أيضاً والكلام فى مقامين :

المقام الأول : فى شأن خطأ المخالف للحق وضلاله . وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقلية وسمعية ، وقد يعرف الخطأ فى أقوال كثيرة من أهل القبلة المخالفين للحق ، وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل .

والمقام الثانى : الكلام فى كفرهم واستحقاقهم الوعيد فى الآخرة .

فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهورين مالك والشافعى وأحمد لهم الأقوال الثلاثة .

قيل : إنه يعذب فى النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسول لقيام الحجة عليه بالعقل وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلى من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبى حنيفة وغيرهم وهو اختيار أبى الخطاب .

وقيل : لا حجة عليه بالعقل بل لا يجوز أن يعذب من لم يقم عليه حجة لا بالشرع ، ولا بالعقل ، وهذا قول من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهم ، وكأبى الحسن الأشعرى ، وأصحابه ، والقاضى أبى يعلى ، وابن عقيل وغيرهم .

والقول الثالث وعليه السلف والأئمة : أنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة ،

ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ، [سورة ص : ٨٥] وإذا كان كذلك فهو كما تناظر فيه أهل الكتاب متقدميهم ومتأخريهم ، تارة تتكلم فى المقام الأول ؛ وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم ، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتبين كفرهم الذى يستحقون به العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهذا أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل ، كما إنا أيضا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل ومن لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات ، فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته ، فإن أطاعوه استحقوا الثواب ، وإن عصوه استحقوا العذاب.

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبعاً له بأنه مؤمن مسلم مستحق للثواب .

وكذلك من كان مؤمناً بالمسيح متبعاً له . ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار .

وكذلك لمن قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم : ﴿ إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . [سورة المائدة : ١١٥] : والذين قال فيهم : ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران ٥٥ — ٥٧] .

وأما من بعد عهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض ، أو بموسى

وبلغته بعض أخباره دون بعض ، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم . وإذا اختلفوا فى تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد فى طلبه لم يجب أن يعذب ، وإن كان مخطئاً للحق جاهلا به ضالا عنه ، كالمجتهد فى طلب الحق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا فإذا قيل : إن الحواريين ، أو بعضهم ، أو كثيراً من أهل الكتاب ، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب . كانوا مخطئين فى ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح فى إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به ، ولا يوجب لهم النار فإن الأناجيل التى بأيدى أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة : مرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، ومتى . ولم يكن فى الأربعة من شهد صلب المسيح ، ولا من الحواريين ، بل ولا فى أتباعه من شهد الصلب ، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول : إنهم علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب فى أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم . وهذا قول طائفة من أهل الكلام ، المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم وغيره . ومنهم من يقول : بل اشتبه على الذين صلبوه ، وهذا قول أكثر الناس ، والأولون يقولون إن قوله : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ . أى : شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه .

والجمهور يقولون : بل شبه للذين يقولون صلبوه كما قد ذكرت القصة فى غير هذا الموضع . والمقصود هنا أن الناس فى هذا المقام على طرفين ووسط .

أما الطرف الواحد : فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويرونه ، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه من تأويل الإنجيل .

والطرف الآخر يقول : بل كل من غلط وأخطأ فى شىء من ذلك فإنه يستحق الوعيد بل كافر .

والثالث ، الوسط : أنهم لا يعصمون ، ولا يؤثمون بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفوراً لهم إذا كانوا مجتهدين فى معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم ، وعلى هـذا تصح الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره .

وقد ثبت فى الصحيح عن عياض بن حماد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا - والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر فى القرآن إنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، فقال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . وقال : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧] . فدل ذلك على أن المقتضى لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بعد بلوغ الرسالة ، ولهذا قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل : من أجل ذلك ، أرسل الرسل ، وأنزل الكتب » وفى رواية : « من أجل ذلك : بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وما أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وما من أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » . وقد تنازع الناس فى حسن الأقوال وقبحها كحسن العدل والتوحيد ، والصدق ، وقبح الظلم ، والشرك ، والكذب : هل يعلم بالعقل أم لا يعلم إلا بالسمع ، وإذا قيل : إنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول ؟ على ثلاثة أقوال معروفة فى أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم ،

وهى ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم . فقالت طائفة لا يعرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل ، وهذا قول نظار المجبرة كالجهم بن صفوان وأمثاله ، وهو قول أبى الحسن الأشعرى وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضى أبى بكر بن الطيب ، وأبى عبد الله بن حامد ، والقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى ، وأبى الوفاء ابن عقيل وغيرهم ، وقيل : بل قد يعلم حسن الأقوال وقبحها بالعقل .

وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد : وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، وهذا هو المنقول عن أبى حنيفة نفسه ، وعليه عامة أصحابه ، وكثير من أصحاب مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل الحديث كأبى الحسن التميمى ، وأبى الخطاب ، وأبى بكر القفال ، وأبى نصر السجزى ، وأبى القاسم سعد بن على الريحانى ، وهو قول الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر ، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار القدرية ، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول : يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول : المعتزلة ، والحنفية ، وأبى الخطاب ، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة .

ومنهم من يقول : لايعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة . لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها و يوصفون بالكفر الذى يذمه الله ويبغضه ، و إن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح كما تقدم : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم . قلت : إذا يثلغوا رأسى حتى يدعوه خبزة . قال : إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً و يقظان . فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق عليك . وقال : إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة». وفى رواية : « على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه « اقرءوا إن شئتم : فطرة الله التى فطر الناس عليها . قيل : يارسول الله أرأيت من يموت وهو صغير . قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » . ومع مقت الله لهم ، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى نبعث إليهم رسولا . وهذا يدل على إبطال قول من قال إنهم لم يكونوا مسيئين ، ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السمع . وقول من قال : إنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية وإما لمحض المشيئة ، كما يقوله المجبرة .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ، [سورة القصص : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ . [سورة القصص : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٤] .

فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا ، وبين أنهم كانوا قبل الرسول قد اكتسبوا الأعمال التى توجب المقت والذم وهى سبب للعذاب لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء :

أحدها : ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلا على ذلك . والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها ، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال ؛ يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين .

والثانى : خوارق ظنوها من الآيات وهى من أحوال الشياطين ، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم مثل دخول الشياطين فى الأصنام وتكليمهم للناس . ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة ، ولا بد لهم مع ذلك من كذب . ومثل تصرفات تقع من الشياطين .

والثالث : أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقا وهى كذب . وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح ، ولا آية من آيات الأنبياء . إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة . فإذا استفسروا عن معانى تلك الكلمات وفرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه ، وإن تكلموا بمنقول . فإما أن يكون صحيحاً لا يدل على باطلهم ، وإما أن يكون غير ثابت بل مكذوب ، وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات . إما أن يكون صحيحاً قد ظهر على يد نبى كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء ، وكمعجزات موسى صلى الله عليه وسلم فهذه حق . وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين ، كالحواريين ، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق ، ولا يستقر فى كلامهم باطل ، لا عمدا ولا خطأ .

وأما الصالحون : فقد يغلط أحدهم ويخطىء مع ظهور الخوارق على يديه ، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلا صالحاً ، ولا يوجب أن يكون معصوما إذا كان

هو لم يدع العصمة ، ولم يأت بالآيات دالة على ذلك ، ولو ادعى العصمة وليس بنبي ، لكان كاذباً لا بد أن يظهر كذبه فتقترن به الشياطين فتضله ويدخل في قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] .

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن ، قام من قبره مرتين أو ثلاثا ، وأراهم موضع المسامير ، وقال : لا تظنوا أني شيطان. وهذا إذا كان صحيحاً فذاك شيطان ادعى أنه المسيح ، والتبس على أولئك ، ومثل هذا قد جرى لخلق كثير في زماننا، وقبل زماننا ، كناس كانوا بـ «تدمر» فرأوا شخصاً عظيما طائراً في الهواء ، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس ، وقال لهم : أنا المسيح ابن مريم ، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح ، وحضروا إلى عند الناس وبينوا أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم .

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم ، فتارة يرى القبر انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل ، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر ، وتارة يراه إما راكباً وإما ماشيا داخلا إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر ، وتارة يراه خارجا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح ، وقد يظن أن قوماً استغاثوا به فذهب إليهم ويكون ذلك شيطانا تصور بصورته . وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم ، وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت غائب ، فيرونه بعيونهم قد جاء ، وقد يكلمهم وقد يقضي بعض حوائجهم ، فيظنونه ذلك الشخص الميت ، وإنما هو شيطان زعم أنه هو ، وليس هو إياه ، وكثيراً ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت ، فيحدثهم ويقضي ديونا ، ويرد ودائع ويخبرهم عن الموتى ، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم ، وإنما هو شيطان تصور بصورته .

وهذا كثير جداً لا سيا فى بلاد الشرك ، كبلاد الهند ونحوها ، ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه فى الجنازة ، ومنهم من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى فأنا آتى من هذه الناحية أغسل نفسى ، فيأتى بعد الموت شخص فى الهواء على صورته يغسله هو ، والذى أوصاه ، ويظن ذلك أنه جاء ، وإنما هو شيطان تصور بصورته ، وتارة يرى أحدهم شخصاً إما طائراً فى الهواء وإما عظيم الخلقة ، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك ، ويقول له: أنا الخضر ، ويكون ذلك شيطاناً كذب على ذلك الشخص ، وقد يكون الرائى من أهل الدين والزهد والعبادة . وقد جرى هذا لغير واحد ، وتارة يرى عندقبر نبى أو غيره ، أن الميت قد خرج إما من حجرته ، وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه ، ويكون شيطاناً تصور بصورته ، وتارة يجىء من يجىء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه فى أشياء : يسأله عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتاً ، أو يرى شخصاً ، ويكون ذلك شيطاناً أضله .

وقد يرى أشخاصاً فى اليقظة ، إما ركبانا ، وإما غير ركبان ، ويقولون : هذا فلان النبى ، إما إبراهيم ، وإما المسيح ، وإما محمد ، وهذا فلان الصديق إما أبا بكر ، وإما بعض الحواريين . وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس ، وإما غيره ممن تعظمه النصارى . وإما بعض شيوخ المسلمين ، ويكون ذلك شيطاناً ادعى أنه ذلك النبى ، أو ذلك الشيخ ، أو الصديق ، أو القديس .

ومثل هذا يجرى كثيراً لكثير من المشركين والنصارى ، وكثير من المسلمين ، ويرى أحدهم شيخاً يحسن به الظن ، ويقول : أنا الشيخ فلان ، ويكون شيطاناً . وأعرف من هذا شيئاً كثيراً وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين ، الموتى ، يراه قد أتاه فى اليقظة وأعانه .

وقد جرى مثل هذا لى ولغيرى ممن أعرفه ، ذكر غير واحد أنه استغاث بى

من بلاد بعيدة ، وأنه رآنى قد جئته . ومنهم من قال : رأيتك راكبا بثيابك وصورتك ، ومنهم من قال : رأيتك على جبل ، ومنهم من قال : غير ذلك . فأخبرتهم أنى لم أغثهم ، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتى ليضلهم لما أشركوا بالله ، ودعوا غير الله .

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن ، فرآه قد جاءه وقضى حاجته ، قال صاحبى : وأنا لا أعلم بذلك ، ومن هؤلاء الشيوخ من يقول : إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه ، وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت المستغيث به ، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت الشيخ ، فيظن أنه صوت الشيخ .

وهذا جرى لمن أعرفه فأخبر بذلك عن نفسه ، وقال : بقى الجنى الذى يحدثنى يبلغنى مثل صوت المستغيثين بى ، ويبلغهم مثل صوتى ، ويرينى فى شىء أبيض نظير ما أسأل عنه ، فأخبر به الناس أنى رأيته ، وأنه سيأتى ، ولا أكون قد رأيته ، وإنما رأيت شبهه .

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم .

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذى رآه من نجوم ، والصليب الذى رآه مرة أخرى وهو ما مثله الشياطين، وأراهم ذلك ليضلهم به ، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك لعباد الأوثان .

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه فى اليقظة وقال : إنه المسيح ، إنما هو شيطان من الشياطين ، كما جرى مثل ذلك لغير واحد .

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم ، ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده ، وينقله إلى ما يستجب لهم فيه بحسب اعتقادهم .

ولهذا يتمثل لمن يستغيث من النصاري بجرجس فى صورة جرجس ، أو بصورة

من يستغيث به من النصارى من أكابر دينهم ، إما بعض البتاركة ، وإما بعض المطارنة وإما بعض الرهبان . ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ فى صورة ذلك الشيخ ، كما يتمثل لجماعة ممن أعرفه فى صورتى ، وفى صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا فى ذلك ، ويتمثل كثيراً فى صورة بعض الموتى : تارة يقول : أنا الشيخ عبد القادر ، وتارة يقول : أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصرى ، وتارة يقول : أنا الشيخ عدى . وتارة يقول : أنا أحمد ابن الرفاعى، وتارة يقول : أنا أبو مدين المغربى ، وإذا كان يقول : أنا المسيح ، أو إبراهيم ، أو محمد : فغيرهم بطريق الأولى ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » .

وفى رواية « فى صور الأنبياء » .

فرؤيا الأنبياء فى المنام حق . وأما رؤية الميت فى اليقظة فهذا جنى تمثل فى صورته .

وبعض الناس يسمى هذا روحانية الشيخ ، وبعض الناس يقول :هى رفيقه، وكثير من هؤلاء من يقوم من مكانه ويدع فى مكانه صورة مثل صورته ، وكثير من هؤلاء ، ومن هؤلاء ، يرى فى مكانين ، ويرى واقفاً بعرفات . وهو فى بلده لم يذهب ، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين .

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون فى الوقت الواحد فى مكانين .

والصادقون قد رأوا ذلك عياناً لا يشكون فيه ، ولهذا يقع النزاع كثيراً بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قد جرى ذلك غير مرة .

وهذا صادق فيما رأى وشاهد ، وهذا صادق فيما دل عليه الصريح .

لكن ذلك المرئى ، كان جنياً تمثل فى صورة الإنسان .

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كثير .

وهذا القسم المشهود فى الخارج غير ما يتخيله الإنسان فى نفسه ، فإن هذا يعرفه جميع الناس ، ويعرفه جميع العقلاء ، و يتخيلون أشياء فى أنفسهم ، كما يتخيله النائم فى منامه ، وتكون تلك الصورة موجودة فى الخيال لا فى الخارج .

والفلاسفة وجميع العقلاء يعترفون بهذا ، لكن كثيراً من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة ، وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع ، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع ، وهؤلاء جهال غالطون فى هذا ، كما جهلوا وغلطوا فى ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية ، أو طبيعية ، أو قوى فلكية ، وأن الفرق بين النبى والساحر ، إنما هو حسن قصد هذا ، وفساد قصد ظن الآخر ، وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية ، وهذا النفى باطل ، كما قد بسطنا الكلام عليه ، وبينا جهل هؤلاء وضلالهم فى غير ذلك هذا الموضع .

والذين شاهدوا ذلك فى الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة ، وجود ذلك فى الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ، ضالون ، ويعلمون أن الملائكة تظهر فى صورة البشر ، كما ظهرت لإبراهيم ، ولوط ؛ ومريم ، فى صورة البشر ، وكما كان جبريل يظهر للنبى صلى الله عليه وسلم تارة فى صورة دحية الكلبى ، وتارة فى صورة أعرابى ، ويراه كثير من الناس عياناً ، وما فى خيال الإنسان لا يراه غيره ، وكذلك لما ظهر الشيطان للمشركين فى صورة الشيخ النجدى ، وغيره ، وظهر لهم يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ؛ فلما رأى الملائكة هرب .

قال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم

إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ :[سورة الأنفال:٤٨].

وروى عن ابن عباس وغيره ، قال : تبدّى إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من مدلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين نزع إبليس يده وولى مدبراً هو وشعبه ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار فقال إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب .

قال ابن عباس : وذلك لما رأى الملائكة ، قال الضحاك : سار الشيطان معهم برايته وجنوده وألقى فى قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم .

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد ، فتنقل كثيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات ، وإذا رأى واحد من هؤلاء فى غير بلده يكون تارة محمولا، تارة قد حملته الجن ، وتارة قد تصورت على صورته ، ولا يكون هذا من أولياء الله المتقين الذين لهم كرامات ، بل قد يكون من الكافرين ، أو الفاسقين ، وأعرف من ذلك قصصاً كثيرة ليس تفصيلها فى هذا الموضع .

وعند المشركين والنصاري من ذلك شيء كثير يظنونه من جنس الآيات التى للأنبياء ، وإنما هى من جنس ما للسحرة والكهان ، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان . ويفرق بين معجزات الأنبياء ، وكرامات الصالحين ، وبين خوارق السحرة والكهان، ومن يقترن بهم الشياطين . وإلا التبس عليه الحق بالباطل ، فإما أن يكذب بالحق الذى جاء به الأنبياء الصادقون، وإما أن يصدق بالباطل الذى يقوله الكافرون والغالطون .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل وعلماء النصارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات

أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى ماعارضه به السحرة من الخوارق ، كما ذكر فى التوراة ، وكما يذكرونه عن فلان وفلان ، مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين وغير ذلك. فإذا كان هذا معلوما كان ما يذكرونه من هذا الجنس ، إذا كان مخالفاً لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان ، فلا يجوز أن يحتج على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذى أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه . وقال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر قومه وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته : إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر «ك ف ر » يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء . وقال : واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت وقد أخبر أن المسيح عيسى ابن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيقتل مسيح الضلالة ، وهذا هو الذي تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى بن مريم ، ويقولون : هذا هو الذى بشرت به الأنبياء ، و يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفاً مطيلسين ، ويقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم شر قتلة حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودى ورائى تعال اقتله » . وكل هذا ثابت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم . ولهذا أمر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته فقال : « إذا قعد أحدكم فى التشهد فى الصلاة فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات؛ ومن فتنة المسيح الدجال» .

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء ، لكن من الناس من يتعمد الكذب ، وكثير منهم لا يتعمد ، بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقاً ، ولا يكون كذلك ، ويرى فى اليقظة ما يظنه فلاناً الولى أو النبى، أو الخضر ، ولا يكون كذلك .

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم معصومون ،

لا يقرون على خطأ ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء، وإلا كان ضالا ، نسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فصل

والخوارق التي يضل بها الشياطين لبني آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ، ونحو ذلك ضل بها كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين ، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم ، ، وهم بنوا ذلك على مقدمتين .

أحدهما : أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولى لله . وبلغة النصارى هو قديس عظيم .

الثانى : أن من يكون كذلك فهو معصوم وكل ما يخبر به حق وكل ما يأمر به فهو عدل ، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق ، لا رحمانية ولا شيطانية ، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور . وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جداً ، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة ، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان .

وقد صنف بعض الناس مصنفاً فى حيل الرهبان ، مثل الحيلة المحكية عن أحدهم فى جعل الماء زيتا بأن يكون الزيت فى جوف منارة ، فإذا نقص صب فيها ماء ، فيطفو الزيت على الماء ، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتا . ومثل الحيلة المحكية عنهم فى ارتفاع النخلة ، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئاً حتى حاذت الدير ، فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة فى سفينة فى مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة .

ومثل الحيلة المحكية عنهم فى التكحل بدموع السيدة وهو أنهم يضعون

كحلا فى ماء متحرك حركة لطيفة ، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع .

ومثل الحيلة التى صنعوها بالصورة التى يسمونها القونة بصيدنايا ، وهى أعظم مزاراتهم بعد القمامة و بيت لحم ، حيث ولد المسيح : وحيث قبر ، فإن هذه هى صورة السيدة مريم ، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعاً يظن أنه من بركة الصورة ومن حيلهم الكثيرة النار التى يظن عوامهم أنها تنزل من السماء فى عيدهم فى قمامة وهى حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يصلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء و يتبركون بها وإنما هى صنعة صاحب محال وتلبيس .

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق . إما حال شيطانى . و إما محال بهتانى ليس فيه شىء من كرامات الصالحين .

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين يتخذون ديناً لم يشرعه الله ورسوله ، و يجعلونه طريقاً إلى الله ، وقد يختارونه على الطريق الذى شرعه الله ورسوله ، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله تعالى ، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطانى ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص ، إذا أفاق كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، وقد يخبر بعض الحاضرين بما فى نفسه ويكون ذلك من الشيطان ، فإذا فارق الشيطان ذلك الشخص لم يدر ما قال .

ومنهم من يحمله الشيطان و يصعد به قدام الناس فى الهواء .

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان و يزول عقله حتى يبقى دائراً زمانا طو يلا بغير اختياره .

ومنهم من يدخل النار ويأكلها و يبقى لهبها فى بدنه وشعره .

ومنهم من تحضر له الشياطين طعاما أو شيئاً من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد . ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع .

ثم من هؤلاء إذا فرق الدراهم على الحاضرين ، أخذت منهم ، فلا يمكنون من التصرف فيها ، إلى أمور يطول وصفها ، وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين ، فيصنعون حيلا ومخاريق .

فالملحدون المبدلون لدين الرسل ، دين المسيح ، أو دين محمد صلى الله عليه وسلم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال والكفار ، المرتدين المشركين وغيرهم ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، والحارث الدمشقى، وبابا الرومى وغيرهم، ممن لهم خوارق شيطانية .

وأما أهل الحيل فيكثرون ، وهؤلاء ليسوا أولياء الله ، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة ، لم يكن لهم حال شيطانى بل محال بهتانى . فهم متعمدون الكذب والتلبيس ، بخلاف من يقترن به الشياطين فإن فيهم من يلبس عليه ، فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين ، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشياطين ، ويفعله لتحصيل أغراضه ، فالمقصود أنه كثير من الخوارق ، ما يكون من الشياطين . أو يكون حيلا ومخاريق ، و يظن أنها من كرامات الصالحين . فإن ما يكون سببه الشرك أو الفجور، إنما يكون من الشياطين ، مثل أن يشرك الرجل بالله فيدعو الكواكب أو يدعو مخلوقامن البشر ميتاً،أو غائباً أو يعزم أو يقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها ، أو يعرف أنها أسما الشياطين ، أو يستعين بالفواحش

والظلم ، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان ، كما قد بسط الـكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

والصالحون لهم كرامات ، مثل كرامات صالحى هذه الأمة ، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح ، لـكن وجود الـكرامات على أيدى الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء ، بل يكون الرجل صالحًا وليًا لله وله كرامات ، ومع هذا فقد يغلط ويخطىء فيما يظنه ، أو فيما يسمعه ، ويرويه ، أو فيما يراه ، أو فيما يفهمه من الـكتب ، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك ، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، فإنه يجب تصديقهم فى كل ما أخبروا به من الغيب ، وطاعتهم فى كل ما أمروا به ، ولها أوجب الله الإيمان بكل ما أتوه ، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتى به غيرهم .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين ﴾ . [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذّب نبياً معلوم النبوة فهو كافر مرتد . ومن سب نبياً وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم ، وأن لا يفرق بين أحد منهم ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونـكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الـكافرون حقا وأعتدنا للـكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ ،

١٥١]. وليس هذا لأحد غير الأنبياء ، ولو كان من رسل الأنبياء . وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين .

فصل

فضلال الضلال من هؤلاء مبنى على مقدمتين .

إحداهما : أن هذا له كرامة فيكون ولياً لله .

والثانية : أن ولى الله لايجوز أن يخطىء ، بل يجب تصديقه فى كل ماأخبر، وطاعته فى كل ما أمر ، وليس لأحد من البشر أن يصدّق فى كل ما أخبر به ، ويطاع فى كل أمر إلا أن يكون نبياً .

والمقدمتان المذكورتان ، قدتكون إحداهماباطلة ، وقديكون كلاهما باطلا، فالرجل المعين ، قد لايكون من أولياء الله ، وتكون خوارقه من الشياطين ، وقد يكون من أولياء الله ، ولكن ليس بمعصوم ، بل يجوز عليه الخطأ . وقد لايكون من أولياء الله ، ولا يكون له خوارق ، ولكن له محالات وأكاذيب .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين ، مسيح هدى من ولدداوود ، ومسيح ضلال. يقول أهل الكتاب : إنهمن ولد يوسف .ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتى كما يأتى مسيح الضلالة ، لكن المسلمون والنصارى يقولون : مسيح الهدى هو عيسى بن مريم ، و إن الله أرسله ثم يأتى مرة ثانية ، لكن المسلمون يقولون : إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولا يُبقِى ديناً إلا دين الإسلام ، ويؤمن به أهل الكتاب ، اليهود ، والنصارى . كما قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٩] .

والقول الصحيح الذى عليه الجمهور قبل موت المسيح وقال تعالى : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ [سورة الزخرف : ٦١] .

وأما النصارى فيظنون أنه الله ، وأنه يأتى يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم ، وهذا مما ضلوا فيه . واليهود تعترف بمجىء مسيح هدى يأتى . لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى ، لزعمهم أنه جاء بدين النصارى المبدل ، ومن جاء به فهو كاذب ، وهم ينتظرون المسيحين .

فصل

قالوا : وقال فى سورة آل عمران : ﴿ فإن كذَّبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] . فعنى أيضاً بالكتاب المنير ، الذى هو الإنجيل المقدس .

فيقال : قد تقدم أن الرسل يتناول قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله فى القرآن ، لاسيما أولو العزم كنوح و إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، فإن هؤلاء مع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين صلوات الله عليهم وسلامه ، خصهم الله وفضلهم بقوله تعالى : ﴿ و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٧ ، ٨] .

وفى قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] ، فالدين ، دين رسل الله ، دين واحد كما بينه الله فى كتابه ، وكما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » .

ويتناول أيضاً اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم فى القرآن . قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان

وآتينا داوود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ ، [سورة غافر : ٧٨] .

وأما الحواريون فإن الله تعالى ذكرهم فى القرآن ، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول والإيمان بالله ، كما أنزل فى قوله تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] . ولم يذكر الله تعالى فى القرآن أنه أرسلهم البتة . بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ لايدل على النبوة فإنه قال تعالى:﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ ، [سورة القصص : ٧] وأم موسى لم تكن نبية ، بل ليس فى النساء نبية كما تقوله عامة علماء النصارى والمسلمين . وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد ، مثل القاضيين أبى بكر بن الطيب وأبى يعلى ابن أبى الفرا ، والأستاذ أبى المعالى الجوينى وغيرهم . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٩] .

وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] . فجعل غاية مريم الصديقية كما جعل غاية المسيح الرسالة .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم » يعني من نساء الأمم قبلنا ، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية ؟ وقوله تعالى : ﴿ جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٤] . والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى . وقال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ ، [سورة الحج : ٨] . وقوله : ولا كتاب منير ، نكرة في سياق النفي ، تعم كل كتاب منير . ولو لم يكن إلا الإنجيل ؛ لقيل ولا الكتاب المنير . وأيضاً فالتوراة أعظم من الإنجيل وقد بين الله أنه لم ينزل كتاباً أهدى من التوراة والقرآن . فقال تعالى : ﴿ قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران = وقرىء « ساحران » = تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] . وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ ، [سورة يونس : ٣٨] . وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور ؟ وأيضاً فإن الله تعالى إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها ، فهي التي يقرنها بالقرآن كقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم

مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢] .

وقد وصف التوراة بأن فيها نوراً وهدى للناس ، فكيف يجعل النور فى الإنجيل دونها ؟ وقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٤ ـ ١٥٦] . فقد ذكر التوراة والقرآن ، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . فبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] .

فذكر الكتاب بلفظ المفرد ، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصاري كما قال : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ ، وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرده . وبيّنٌ أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده ، كما لم يرد بالرسل الحواريّينّ ، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل ، كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقاً كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح بن مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .

فصـــل

قالوا وقال أيضاً : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الـكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تـكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] ، فيقال لهم : من المعلوم بالاضطرار ، أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم ، بل اليهود يقرءون الـكتاب من قبلنا ، والنصارى يقرءون الـكتاب من قبلنا . والـكتاب اسم جنس كما تقدم نظائره فى قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ ، وقوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الـكتاب ﴾ : وقوله : ﴿ يا أهل الـكتاب ﴾ فى غير موضع وقوله ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الـكتاب والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١] .

وقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائـكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحـكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الـكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الـكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ — ٢٠] .

وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الـكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ ، [سورة النساء : ٤٧] .

وتناول لفظ أهل الـكتاب هنا لليهود ، وأظهر من تناوله للنصارى لذكره لعنة أصحاب السبت وكذلك قوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الـكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ ، [سوره آل عمران: ٧٢] . فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا ذلك وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الـكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٠٠] . وسبب نزولها ، أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين. فهم داخلون قطعاً ، وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين وأمره تعالى بسؤال الذين يقرؤن الكتاب من قبله على تقدير الشك ، لا يقتضى أن يكون الرسول شك ولا سأل ، إن قيل الخطاب له ، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى .

فإن تعليق الحكم بالشرط ، لايدل على تحقيق الشرط . بل قد يتعلق بشرط ممتنع لبيان حكمة . قال تعالى : ﴿ ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هُدَى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ — ٨٨] . فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا ، ولأن الأنبياء معصومون من الشرك . وقال تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمرونِّى أعبدُ أيها الجاهلون * ولقد أُوحِىَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشرَكْتَ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٦٤ — ٦٦] .

فهذا خطاب للجميع . وذكر هنا لفظ «إن» لأنه خطاب لموجود . وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل ﴾ ، لا يدل على وقوع الشك ، ولا السؤال . بل النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا ولا سأل أحداً منهم . بل روى عنه أنه قال: « والله لا أشك ولا أسأل» ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى

وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [سورة الرعد : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ أوَلَمْ يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ، سورة القصص : ٥٢ ، ٥٣] . الآية وقال : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يخِرُّون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعْدُ ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفونه أبناءهم ﴾ ، [سورة الأنعام : ٢٠] .

فالمقصود : بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه :

أحدها : أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله

وحده ونهوا عن الشرك فكان فى هذا حجة على من ظن أن الشرك دين .
ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

الوجه الثانى : أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشراً مثلهم ، لم يرسل ملكا . فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشراً معه ملك . ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩٤ ، ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر ﴾ الآية . [سورة القمر : ٢٣ ، ٢٤] وكذلك قال الذين من بعدهم : ﴿ ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون *

ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤] . وكذلك قال فرعون لموسى وهرون: ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ، سورة المؤمنون : ٤٧] . وقال فرعون : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٢ ، ٥٣] . وكذلك قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ ، [سورة يونس ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨ ، ٩] .

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقى عن الملك . فلو أنزلناه ملكا لجعلناه فى صورة بشر . وحينئذ كنتم تظنونه بشراً فيجعل اللبس عليكم . فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشراً أم كان ملكا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٧ — ٩] .

وأهل الذكر هم أهل الذكر الذى أنزله الله تعالى .

الوجه الثالث : أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم ، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم ، وعاقبة المكذبين لهم .

الوجه الرابع : يسألون أهل الكتاب عن الدين الذى بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل ، كالأمر بالتوحيد ، والصدق ، والعدل ،

وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والنهى عن الشرك ، والظلم والفواحش .

الوجه الخامس : يسألونه عما وصفت به الرسل ربهم ، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا ؟ وهذه الأمور المسئول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه ، وليس إذا كان مثل هذا معلوما لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوماً لهم بالتواتر . وأيضاً فإنهم يسألون أيضاً عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أخبر الله بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ ، [سورة الصف : ٦] .

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذى قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذى يأتى بعده وهو أحمد . قال تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ إلى قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٤ — ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لفى

زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٧] .

وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع بما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان * سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٠٥ ـ ١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة القصص : ٥١ ـ ٥٤] .

وقال تعالى فى سورة الأنعام آية ٢٠ : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكفرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٩] .

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فى الكتب المتقدمة متواترة عنهم وكان قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم تجرى حروب

وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول أهل الكتاب : قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذى يبعث بدين إبراهيم ، فإذا ظهر اتبعناه ،وقتلناكم معه شر قتلة فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، كان منهم من آمن به ، ومنهم من كفر به فقال تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون﴾ أى يستنصرون بمحمد صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم فى خطابه لأهل الكتاب يقول لهم «والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله » وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وكان يقول لغيره من أهل الكتاب « والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله » وهذا أمر معروف فى الأحاديث الصحاح والمخرجة فى الصحيحين وغيرهما فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم نظائر ذلك .

فصل

قالوا : فثبت بهذا ما معنا نعم ، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها : فيقال : كلامكم الذى تحتجون به فى هذا الموضع وغيره ، إما أن يكون باطلا محضاً وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل ، فإن قولكم بتصديقه إياها ، إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التى أنزلها الله على أنبيائه ، فهذا لاريب فيه ، فإن هذا مذكور فى القرآن فى غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وبكل نبى من الأنبياء ، مع أخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

قال تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل

الفرقان ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ — ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ ، [سورة النساء : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ الآية. وقال : ﴿والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ ، [سورة فاطر : ٣١] . وقال : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠١]. وقال: ﴿ آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ﴾ ، [سورة النساء: ٤٧].

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض ، فقال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥].

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا

بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ — ١٥٢] .

فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض ، فقال تعالى : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] . فبين أنه فضل بعضهم على بعض ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزل الله من الكتب ، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار ، وإن كان مرتداً استتيب فإن تاب وإلا قتل . ومن سب نبيا واحداً من الأنبياء قتل أيضا باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبيا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تخلف ، وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمداً أخبر به صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين ولكن يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق ، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد عليه السلام ، وبهذا أمرهم المسيح عليه السلام فقال : « الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه » .

فصل

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التي ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه مع شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالحلول والاتحاد

بين اللاهوت والناسوت ، وقولهم إن المسيح هو الله وابن الله وماهم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تحليل ماحرمه الله ورسله كالخنزير وغيره ، و بين أنهم لايدينون بدين الحق الذى أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم كما قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ [سورة التوبة : ٣١] . وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لعدى بن حاتم وكان نصرانياً لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدى وكان من خيار الصحابة فسمعه يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، قال عدى : قلت يا رسول الله ماعبدوهم قال : « إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال » فكانت تلك عبادتهم إياهم . فإن أرادوا بتصديقهم كتبهم فى هذه الأمور أو أن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذبا ظاهراً معلوماً بالاضطرار من دينه و إنما صدق ماجاءت به الأنبياء قبله .

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقه كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم علية من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلا بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه ، وأوجب مع خلودهم فى عذاب الآخرة جهادهم فى الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هى العليا وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عموماً ثم كلا من الطائفتين خصوصاً فى غير موضع مع دعائه الناس كلهم أهل الكتاب وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً

عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٨] .

وقال تعالى يخاطب النصارى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ — ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] . فى موضعين .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

أخبر سبحانه أن النصارى تركوا حظا مما ذكرهم به . وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . فعلم أنه سبحانه بين أنهم تركوا بعض

ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء ، واستحقوا لذلك أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

فنهاهم عن الغلو فى دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعا غيروا بها شرع المسيح ، فضلوا من قبل هؤلاء الاتباع وأضلوا كثيراً من هؤلاء الأتباع وغيرهم ، وضلوا عن سواء السبيل وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطاقه وأجمله .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين ولم يأذن لأحد من القادرين على الغزو فى التخلف . ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجباً كان كافراً ، وإن أظهر الإسلام كان منافقاً ملعوناً ، بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل فى ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه فى ترك الخروج معه لقتال النصارى . فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى

وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم * انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصدا لا اتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ ، [سورة التوبة : ٣٨-٤٨].

فصل

فتبين أن قولهم : فثبت بهذا ما معناه نعم ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

إن أراد به أنه ثبت ما جاءت به الأنبياء قبله عن الله ، فهذا حق .

وإن أرادوا أنه ثبت ماهم عليه بعد مبعثه من الشرع الذى خالف شرعه أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء عليهم السلام قبله فهذا باطل .

وإن أرادوا أنه صدق ألفاظ الكتب التى بأيدينا. أى التوراة ، والإنجيل فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين ، وينازعهم فيه أكثر المسلمين ، وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين .

فأما تحريف معانى الكتب بالتفسير ، والتأويل ، وتبديل أحكامها فجميع المسلمين ، واليهود ، والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها ، كما يشهدون

هم والمسلمون على اليهود ، بتحريف كثير من معانى التوراة ، وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود ، يقولون : إن التوراة لم تحرف ألفاظها .

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها . إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها ، بل جميع النبوات التى يقرون بها هى عند اليهود ، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها ، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفراً ، واستحقاقا لعذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء وشر منهم . فإن النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود ، وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خير من النصارى . بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خير من سائر الطوائف إلا أنفسهم، وشهادتهم لأنفسهم لا تقبل فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام .

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها ، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم .

وحينئذ فليس شهادة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته للمسيح عليه السلام ، ولما أنزل عليه من الإنجيل فى تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة للمسيح عليه السلام ، والحواريين ، وبسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة فى تثبيت ما عند اليهود ، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذى نسخه منها .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فَبُعِثَ بكتاب مستقل ، وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره ، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » فجزم بأن من

كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر فى أمته ، وإن كان هذا المعلق قد تحقق لأن أمته ، لا تحتاج بعده إلى نبى آخر ، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى .

وأما من كان قبله فإنهم كانو يحتاجون إلى نبى بعد نبى فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا أنزل المسيح بن مريم فى أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان مع هذا فشهادة المسيح والحواريين وكل من آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق ، ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة ، وكذبوا بالمسيح وبالإنجيل .

فكيف تكون شهادة محمد وأمته للإنجيل بأنه منزل من عند الله ، وللمسيح بأنه رسول الله مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وشرع القرآن ؟ !

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمداً رسول الله إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن . فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به ، بل من كذب بشىء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر . وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ : [سورة البقرة : ٨٥] .

وقد صرح بكفر النصارى فى غير موضع وأمر بجهادهم وقتالهم وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أو لا يرى ذلك عبادة لله وطاعة له كما تقدم

التنبيه على ذلك فإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة لله ، كافراً عند محمد صلى الله عليه وسلم فكيف حالهم هم عنده صلى الله عليه وسلم ؟ !

فصل

وإذا تبين للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن كفر به أنه كان مصدقا لما بين يديه من الكتب ، والأنبياء مصدقا للتوراة والإنجيل شاهدا بأن موسى عليه السلام ، ومن كان متبعا له على الحق . وأن المسيح عليه السلام ومن اتبعه على الحق ، وإن كان يكفر جميع اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ممن بلغته رسالته ، ولم يؤمن به ، وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيرا من معانى التوراة والإنجيل قبل نبوته . وأن أهل الكتاب كلهم من المسلمين يشهدون أيضاً بأن كثيرا من معانى التوراة ، والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب ، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد صلى الله عليه وسلم على صحة دينهم الذى شهد محمد صلى الله عليه وسلم بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه .

وإذا قالوا : نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها ، وهى تناقض بعض ما أخبر به أو لنبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحا فيما جاء به .

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق .

أحدها أن يقولوا : أما مناقضة بعض خبره لبعض كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة ، ويذمها أخرى . فهذا قد ظهر بطلانه .

فإنه إنما مدح من اتبع موسى ، والمسيح على الدين الذى لم يبدل ولم ينسخ.
وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره .

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدق للأنبياء فيما أخبروا به.

وأما ما يدل من ألفاظهم أو غيرها بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه.

ويقال أيضاً: إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثبتت بمثل ما ثبتت به نبوات الأنبياء قبله و بأعظم من ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وبين أن التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع التصديق بنبوة غيره فمن غاية التناقض والفساد ، وأنه ما من طريق يعلم بها نبوة غيره إلا ونبوته تعلم بمثل تلك الطريق ، وبأعظم منها . فلو لم تكن نبوته بطريق نبوتها إلا مثل نبوة غيره وطريق نبواتها لوجب التصديق بنبوته كما وجب التصديق بنبوة غيره ، ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل . فكيف إذا كان أعظم من وجوه متعددة .

وحينئذ فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون عن الله لا يجوز أن يثبت فى خبرهم عن الله خبر باطل ، لا عمداً ولا خطأ ، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره ، بل ولا يفترقون فى الدين الجامع كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١-٥٣].

وإنما يقع النسخ فى بعض الشرائع كما يقع النسخ فى شريعة الرسول الواحد وحينئذ فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما ينقض ما علم من أخبار محمد صلى الله عليه وسلم فهو باطل . سواء كان اللفظ نفسه باطلا لم يقله ذلك النبى أو قد قال لفظاً وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة ، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط فى معرفة مراد ذلك النبى بذلك الكلام .

فإن كل مايحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربية لا بد فى الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذى قاله و يعلم ترجمته و يعلم مراده بذلك اللفظ .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقع الغلط فى تفسير بعض الألفاظ و بيان مراد الأنبياء بها وفى ترجمة بعضها فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة و بينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم وكذلك فى الإنجيل وغيره فهذا الطريق فى الجواب طريق عام لكل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وشهد أنه رسول الله باطنا وظاهراً يخاطب به كل يهودى ونصرانى على وجه الأرض . وإن لم يكن عارفا بما عند أهل الكتاب فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض أن يقيم دليلا صحيحا على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا ممتنع لذاته . بل ولا يمكنه أن يقيم دليلا صحيحاً على نبوة أحدهما إلا و إقامة مثل ذلك الدليل أو أعظم منه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولى . وحينئذ فلا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يحتج بشىء من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لماثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقر بنبوته أوأنكرها ، بل إن احتج بشىء مما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم بين له بطلان احتجاجه به وأنه حجة عليه ، لا له .

و إن احتج بشىء من المنقول عن غيره من الأنبياء عليهم السلام طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم . وإلافبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التى تثبت بها النبوات خبران مناقضان لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبين مايدل على صدق هذا وكذب هذا ، وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر .

وهذا لا يرِدُ على المسلمين إذا ردوا مايحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفا لخبر محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسلمين لا يطعنون فى نبوة أحد من الأنبياء المعروفين ، وإنما يطعنون فى أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لا يثبت . أى لم يثبت اللفظ والترجمة ، وتفسير اللفظ . وهذه المقدمات تمتنع أن تقوم على شىء يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم لا جملة ولا تفصيلا .

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات .

أحدها : تقدير أن أولئك صادقون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كاذب .

والثانى : ثبوت ما أتوا به لفظاً .

والثالث : بمعرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيراً . وإن قال الكتابى للمسلم : أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين . أجابه المسلم بوجوه :

منها أن يقول : إنى لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين المسلمين كلهم ، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم بل قد يقول له أكثر المسلمين : نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد ، أنهم أنبياء . فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبوتهم لزم القدح فى نبوتهم ، والفرع إذا قدح فى أصله دل على فساده فى نفسه ، سواء قدر أصله صحيحاً أو فاسداً . فإنه إن كان أصله فاسداً فسد هو ، وإن كان أصله صحيحاً وهو يناقضه بطل هو ، فهو إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير ، وكذلك إذا قال له الكتابى : قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة ، أو المسيح والإنجيل : قال له المسلم : إنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله حيث قال الله تعالى: ﴿ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية ، [سورة الأعراف : ١٥٦، ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ [سورة الصف : ٦] . إلى أمثال ذلك .

فأما الإيمان بموسى ، الذى ذكر أن شريعته مؤيدة لا ينسخ منها شىء ، أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد به أو حلَّ فيه ، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب فى الرسولين ، والكتابين ، ويخالفهم فيه المسلمون ، فهذا من موارد النزاع ، لا من مواقع الإجماع ، فليس لأحد من أهل الكتاب أن يحتج على أحد من المسلمين بموافقته له على ذلك ، ومن تمام ذلك أن يقول المسلم : نعم أنا أقر بنبوة موسى والمسيح ، وإن التوراة والإنجيل كلام الله ، لكن يمتنع عقلا الإقرار بنبوة واحد من هؤلاء ، دون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن البراهين ، والآيات ، والأدلة الدالة على صدق موسى والمسيح تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى ، فلو انتقضت تلك الأدلة لزم فسادها ، وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء ، وإن كانت حقاً لزم تصديقهم كلهم فلزم ، إما أن أصدقهم كلهم ، وإما أن أكذبهم كلهم ، ولهذا كان من آمن ببعض ، وكذب ببعض كافراً ، ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا : نحن نصدق الأنبياء المتقدمين فى كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد له من مقدمتين ، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء ، والعلم بمعناه الذى يعلم أنه مناقض للمعنى الذى علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم عناه ، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربية ، أو رومية ، أو سريانية ، أو قبطية ، إلى أن يعرف أن هذا اللفظ الذى ترجم به لفظه مطابق للفظه ، ويمتنع ثبوت المقدمتين ، لأن فى ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية ، والأدلة العلمية لا تتناقض .

الطريق الثانى : أن يقول المسلمون : ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء،

مناقضة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم أمور لم تعلم صحتها ، ولا يجوز اعتقاد ثبوتها ، والجزم بها ، ولو لم يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، أخبر بخلافها فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها ؟ وذلك أن العلم بثبوتها مبنى على مقدمات :

أحدها : العلم بثبوتها وهذا ممتنع مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

والثانية : أنهم قالوا : هذه الألفاظ ، وهذا يحتاج إلى إثبات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء ، ولم يثبت أنها تواترت عنهم .

والثالثة : أن معناها ، هو المعنى المناقض لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلم ذلك .

وكل واحدة من هذه المقدمات يمنع العلم بثبوت هذه المعانى المناقضة لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا اجتمعت ؟ وهى تمنع العلم بصحتها ،ولو لم تناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا ناقضته ؟

الطريق الثالث:طريق من يتبين أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر ، ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة ، وبسط الأمر ، لما خرب بيت المقدس ، وانقطاع تواتر الإنجيل فى أول الأمر .

الطريق الرابع : طريق من يبين أن بعض ألفاظ الكتب حرفت ، ويقيم الأدلة الشرعية ، والعقلية على تبديل بعض ألفاظها .

الطريق الخامس : أن يبين أن الألفاظ التى بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم على تفسير تلك الألفاظ بأعيانها .

وهذه الطرق يسلكها من لا ينازع فى ثبوت الألفاظ من المسلمين .

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطرق ، ويسلكون أيضاً بيان عدم تواتر الألفاظ ، بل بيان التبديل فى ألفاظها .

فصل

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله ، لم يقع فيها تبديل ، ويقولون : إنه وقع التبديل فى بعض ألفاظها ، أو يقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله ، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ فى معارضة ما علم ثبوته ، أنهم قالوا : التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى ، وعيسى عليهما السلام ، أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا ، وأجلى منه بنوا إسرائيل ، ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عازر ، وزعموا أنه نبى .

ومن الناس من يقول:إنه لم يكن نبيا، وإنهاقوبلت بنسخة،وجدوها عتيقة .

وقيل : إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب ، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ، ولا يمنع وقوع الغلط فى بعضها كما يجرى مثل ذلك فى الكتب التى يلى نسخها ومقابلتها ، وحفظها القليل . الاثنان والثلاثة .

وأما الإنجيل الذى بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح « متى » و « يوحنا » وكانا قد صحبا المسيح ، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر ، ومرقس ، ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله ، وأفعاله .

ونقل اثنين ، وثلاثة ، وأربعة يجوز عليهم الغلط ، لاسيا ، وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب ، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى ابن مريم ، وموسى عليهما السلام ، وأنهم معصومون ، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل ، وأن لهم معجزات ، وقالوا لهم هذه التوراة ، وهذا الإنجيل ، ويقرون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء ، فإذا لم

يكونوا أنبياء ، فمن ليس بنبي ليس بمعصوم من الخطأ ، ولو كان من أعظم أولياء الله ، ولو كان له خوارق عادات. فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان، وعلى ، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين ، ولا معصوم عندهم إلا من كان نبياً ، ودعوى أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقض ، وكونهم رسل الله هو مبنى على كون المسيح هو الله ، فإنهم رسل المسيح ، وهذا الأصل باطل ولكن فى طرق المناظرة ، والمجادلة بالتى هى أحسن فنمنعهم فى هذا المقام ونطالبهم بالدليل على أنهم رسل الله ، وليس لهم على ذلك دليل فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله . وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع . والعقل لا يثبت ذلك ، بل يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل .

بل غاية مايدعون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبات وجوده مع أن ذلك أيضاً باطل وإنما يدعون ثبوت وجوده بالسمع ، وهو ماينقلونه عن الأنبياء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء ، ودلالتها على أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية . فإن عامة بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن . وكلا المقدمتين باطلة .

ولكن يقال لهم فى هذا المقام : أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب ، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريين رسل الله معصومون ، ولا يمكنهم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله ، فصار ذلك دوراً ممتنعاً .

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب ، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله ، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله ، فصار ثبوت الإلهية متوقفاً على ثبوت إلهيته ، وثبوت كونهم رسل الله متوقفاً على كونهم رسل الله ، فصار ذلك دوراً ممتنعاً .

وقد يدعون عصمة الحواريين ، وعصمة أهل المجامع بعد الحواريين، كأهل المجمع الأول الذى كان بحضرة قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمانية عشر ، ووضعوا لهم الأمانة التى هى عقيدة النصارى ، التى لا يصح لهم قربان إلا بها ، فيزعمون أن الحواريين أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق ، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الميت على يديه ، وهذا إذا كان صحيحاً - مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبي - لا يدل على عصمته

فإن أولياء الله من الصحابة ، والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات مايطول وصفه ، وليس فيهم معصوم، يجب قبول كل ما يقول ، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم ، وكل أحد يؤخذ من قوله ، ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا أوجب الله الإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء ، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولى لله .

قال تعالى: ﴿ قولوا : آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم﴾ [سورة البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم .

ومن كذب نبياً واحداً تعلم نبوته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن سبه وجب قتله كذلك . بخلاف من ليس بنبي فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ،ولا يقتل بمجرد سبه ، إلا أن يقترن بالسب ما يكون مبيحاً للدم ، والذى عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين ، وجماهير المسلمين ، أن أفضل هذه الأمة بعدنبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما ، وهذه الأمة أفضل

الأمم ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد كان قبلكم فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر ، والمحدث الملهم :المخاطب.

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، وما كان يقول لشىء : إنى لأراه كذا وكذا ، إلا كان كما يقول ، وكانت السكينة تنطق على لسانه ، ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبى معصوماً من الغلط ، ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا كان يجوز له العمل بما يلقى فى قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة ، فإن وافق ذلك قبله ، وإن خالف ذلك رده .

وعند المسلمين أنه ليس فى أتباع المسيح عليه السلام مثل أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما فإذا قالوا عن الحواريين : إنهم ليسوا معصومين ، فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين ، كما أنهم إذا قالوا عن المسيح : إنه عبد مخلوق ليس بإله . فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام .

وفى الملاحدة المنتسبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارى من يد الإلهية من الإسماعيلية كبنى عبيد القداح ، كالحاكم وغيره ، أو من يدعى الإلهية فى على بن أبى طالب أو غيره كدعوى النصيرية ، وهؤلاء كفار عند المسلمين .

وكذلك من يدعى الإلهية فى بعض المشايخ ، كغلاة العدوية ، والحلاجية ، واليونسية ، وغيرهم ، وكذلك من يدعى عصمة بنى عبيد أو عصمة الإثنى عشر أو عصمة بعض المشايخ .

فإن النصارى يدعون عصمة الحواريين الإثنى عشر ، وهؤلاء يدعون عصمة الأئمة الإثنى عشر .

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعصومين عندهم ويقولون

إنهم معصومون فى النقل عن المسيح وفى الفتيا ، وإن ما قالوه فقد قاله المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهؤلاء يقولون عن أولئك : إنهم معصومون فى النقل والفتيا ، وإن ما قالوه فقد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ولا نقل متواتر ولا آحاد ، بأكثر ماهم عليه من الشرائع . ولا عندهم ولا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن ، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة ، وهذا مثل الأمانة التى هى أصل دينهم ، وصلاتهم إلى المشرق ، وإحلال الخنزير ، وترك الختان ، وتعظيم الصليب ، واتخاذ الصور فى الكنائس ، وغير ذلك من شرائعهم ، ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر فى الأناجيل التى ينقلونها عنه . وهم متفقون على أن الأمانة التى جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم ، ليست ألفاظها موجودة فى الأناجيل ولا هى مأثورة عن الحواريين ، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمان عشر ، وخالفوا عبد الله بن أريوس الذى جعل المسيح عبد الله كما يقوله المسلمون ، ووضعوا هذه الأمانة .

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة ، وبسطه له موضع آخر ، وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ثبت ما معهم ، وأنه نفى عن إنجيلهم ، وكتبهم التى بأيديهم التهم ، والتبديل لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

وقد تبين أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يصدق شيئاً من دينهم المبدل ، والمنسوخ ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاءوا به ، وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبياً من الأنبياء . وإن كفر النصارى من جنس

كفر اليهود ، فإن اليهود بدلوا معانى الكتاب الأول ، وكذبوا بالكتاب الثانى ، وهو الإنجيل ، وكذلك النصاري بدلوا معانى الكتاب الأول التوراة ، والإنجيل ، وكذبوا بالكتاب الثانى، وهو القرآن ،وأنهم ادعواأن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق بجميع ألفاظ الكتب التى عندهم .

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون : إن بعض ألفاظها بدل كما قد بدل كثير من معانيها ومن المسلمين من يقول : التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها ، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى .

وعلى القولين فلا حجة لهم فى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لماهم عليه من الدين الباطل ، فإن الكتب الإلهية التى بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . مثل التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وتغيير شريعة المسيح ، وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى الكتب التى بأيديهم ما يدل لا نصاً ولا ظاهرا ، على الأمانة التى هى أصل دينهم ، وما فى ذلك من التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، ولا فيها يدل على أكثر شرائعهم كالصلاة إلى المشرق واستحلال المحرمات من الخنزير والميتة ونحو ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر[1] .

ويقال لهم : أين ما معكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، مما يدل على أن ألفاظ الكتب التى بأيديكم لم يغير منها شيء ؟ ومعلوم أن المسلمين ، وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر .

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا فى تبديل بعض ألفاظ الكتب الإلهية المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى ، ولا يجوز لأحد من المسلمين ، ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولا إلا بدليل .

---

(١) وسيأتى ما بدلوه من الشرائع وغيرها بنقل علمائهم فى آخر هذا الكتاب .

فأين فى القرآن والسنة الثابتة عن محمد صلى الله عليه وسلم أن جميع ما بأيدى أهل الكتاب من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، ونبوات الأنبياء لم تبدل بشىء من ألفاظها حتى يقولوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم نفى عن كتبهم ذلك ؟

وهؤلاء بنوا كلامهم على أن ألفاظ كتبهم تدل على صحة دينهم الذى هم عليه بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم و بعد تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يبدل شىء من ألفاظها .

وقد تبين فساد ذلك من وجوه متعددة . ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين ـ فيما أعلم ـ وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون قد أجابوا المسلمين .

فصل

فقال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إن قال قائل : إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول فقالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ـ على علمهم ، وذكائهم ، ومعرفتهم ـ كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ وذلك أنا أيضاً إذا احتججنا عليهم بمثل هذا القول ، وقلنا : إن الكتاب الذى فى أيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا . هل كانوا يجوزون كلامنا ؟ قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحداً أن يقوله ، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل ، وسيأتى بألفاظ بعد هذا .

والجواب أن هذا السائل النصرانى الذى ذكر عن المسلمين سؤالا لا يقولونه ، وعن علماء النصارى جوابه ، هو وهم بنوا كلامهم على أصلين فاسدين .

أحدهما : أن الرسول ثبت منا معهم ، ونفى عن كتبهم التى بين أيديهم التهم ، والتبديل ، والتغيير لها . ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها ، ومعناها ، وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينفه عنها بل النقل المتواتر عنه

بنقيض ذلك . وهم أيضاً ، وكل عاقل يعلم أن الكتب التى بأيديهم فى تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، و بين النصارى واليهود مايوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف ، وكذلك وقع فى تغيير شرائع هذه الكتب ، فإن الكتب تضمنت أصلين : الإخبار والأمر . والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت ، و إيجاب طاعتها فيما أوجبته .

وأهل الكتاب يكذبون بكثير مما أخبرت به ولا يوجبون طاعتها فى كثير مما أوجبته وأمرت به ، وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذلك .

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم، وهم فى كل مجمع يلعنون طائفة منهم كثيرة و يكفرونهم و يقولون عنهم : إنهم كذبوا ببعض ما فى تلك الكتب، ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها . وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها . ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية ، والملكية ، واليعقوبية ، كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة لبعض ما فى النبوات غير موجبة لطاعة بعض ما فيها . بل اختلافهم فى نفس التوحيد والرسالة ، فزعم كل فريق منهم أن المسيح جاء بما هم عليه . والمسيح عليه السلام وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وبريئون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله مالا يعلم . وبريئون من كل قول باطل يقال على الله عز وجل وإن كان قائله مخطئاً لم يتعمد الكذب .

وفى مقالات النصارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه . وقد بسط فى غير هذا الموضع .

وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى ، يشهدون أنه قد وقع فى هذه الكتب تحريف وتبديل فى معانيها وتفسيرها وشرائعها فهذا القدر كاف . وهم من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافرا ، بخلاف حال النصارى قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه كان فيهم

من هو متبع لدين المسيح . والمسلمون ـ وإن كان فيهم من حرّف الدين و بدله ـ فجمهورهم خالفوا هؤلاء ، فلا يزال فيهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ، وخذلهم حتى تقوم الساعة ، بخلاف النصارى ، فإنهم كفروا جميعهم ، كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح .

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معانى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وغيرهم من نبوات الأنبياء ، وابتدعوا شرعاً لم يأت به المسيح ، ولا غيره ، ولا يقوله عاقل ، مثل زعمهم أن جميع بنى آدم من الأنبياء ، والرسل ، وغيرهم كانوا فى الجحيم فى حبس الشيطان ، لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة ، وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح .

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم ، فكيف وهذا الكلام ليس منقولا عندهم من أحد من الأنبياء ؟ وإنما ينقلونه عمن ليس قوله حجة لازمة ، فإن كثيراً من دينهم مأخوذ عن رءوسهم الذين ليسوا بأنبياء .

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء . فكيف إذا لم ينقل عنهم ذلك ؟ فإن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته . لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع ، فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول ، وآدم عليه السلام ـ وإن كان أكل من الشجرة ـ فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه .

قال تعالى : ﴿ وعصى آدمُ ربَّهُ فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ، [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] .

وقال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ ، [سورة البقرة : ٣٧] .

وليس عند أهل الكتاب فى كتبهم ما ينفى توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه تاب أو ليس عندنا توبته ، وعدم العلم بشىء ليس علماً بعدمه ، وعدم وجود الشىء فى كتاب من كتب الله لا ينفى أن يكون فى كتاب آخر ، ففى التوراة

ما ليس فى الإنجيل . وفيهما ما ليس فى الزبور ، وفى الإنجيل والزبور ما ليس فى التوراة ، وفى سائر النبوات ما لا يوجد فى هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها . فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما فى التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما فى غير موضع ، كقوله تعالى: ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُ منه ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، [سورة يوسف : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين فى حبس الشيطان فى جهنم بذنبه ؟ و إبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله الله فى جهنم فى حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم ، مع أنه كان نبياً ؟ ونوح عليه السلام قد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان لأجل ذنب آدم ؟

وموسى بن عمران كلمه الله تكليما ، وأظهر على يديه من البراهين ، والآيات مالم يظهر مثله على يدى المسيح ، وقتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، فغفر الله له ذلك ، وله من المنزلة عند الله والكرامة ، مالا يقدر قدره ، فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان .

ثم أى مناسبة بين الصلب الذى هو من أعظم الذنوب ، سواء صلبوا المسيح، أو المشبه به ، و بين تخليص هؤلاء من الشيطان ؟ فإن الشيطان إن فعل ذلك

بالذرية كان ظالماً معتدياً والله عز وجل قادر على منعه من ظلمهم ، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم .

فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح ؟ وهو سبحانه ولى المؤمنين وناصرهم ، ومؤيدهم ، وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم ، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان . فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم ، ويجعل أرواحهم فى جهنم ؟ هذا إن قدر أن الشيطان كان قادراً على ذلك ، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه ، وأوليائه ، وسقوط التكاليف عنهم ، واستحقاقهم كرامته ، وإحسانه ، وجنته بحكم وعده ، ومقتضى حكمته ، وجعله مسلطاً على حبسهم فى جهنم ؟ !

وإن قالوا : الرب عز وجل ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان ، مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن منه كما يزعمون — فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، وجعل الرب سبحانه عاجزاً كما جعلوه أولا ظالماً — فيه من التناقض مايقتضى عظيم جهلهم الذى جعلوا به الرب جاهلا ، فإنهم يقولون : إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل ، كما احتال الشيطان على آدم بالحية ، فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله ، وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره .

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه فى جهنم كسائر من مضى ، وهو لم يعمل خطيئة . استحق الشيطان أن يأخذه الرب ، ويخلص الذرية من حبسه .

وهذا تجهيل منهم للرب سبحانه وتعالى عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه . فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بنى آدم كما يقولون . فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، إذ الجميع بنى آدم ، وأيضاً فإذا قدر أن الناسوت دفع الشيطان عن نفسه بحق ، فإنهم يقولون : إنه دخل الجحيم ، وأخرج منه ذرية آدم .

فيقال : إن كان تسلط الشيطان على حبسهم فى الجحيم بحق لأجل ذنوبهم

مع ذنب أبيهم ، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب ، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان ، وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس فى مجرد سلامة المسيح من الذنوب مايوجب سلامة غيره ، و إن قالوا إنه كان بدون تسلطهم على صلبه عاجزاً عن دفعه ، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز الأصل الثانى الفاسد ، الذى بنوا عليه سؤالهم الذى جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم ، ظنهم أن المسلمين يقولون : إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا مما لايقوله المسلمون ، ولكن قد يقول بعضهم : إنه حرف بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ألفاظ بعد النسخ .

فإن الجمهور الذين يقولون : إن بعض ألفاظها حرفت ، منهم من يقول : كان هذا قبل البعث .

ومنهم من يقول : كان بعده ، ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما ، ولكن لايقولون : إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما حكاه هذا الحاكى عنهم ، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف فى المعانى والتفسير .

و إن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا مشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه إنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به فى القرآن ، وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر ، فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح ،

أو تعمدوا الكذب ، ثم هؤلاء منهم الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

وفيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثير منهما . وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما ، لاسيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه فى التوراة .

ومن هؤلاء من يسرف حتى يقول : إنه لاحرمة لشىء منهما ، بل يجوز الاستنجاء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه قليل منهما ، وهذا أظهر .

والتبديل فى الإنجيل أظهر ، بل كثير من الناس يقول : هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل .

والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح أن هذه التوراة والإنجيل الذى بأيدى أهل الكتاب ، فيه ماهو حكم الله ، وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما لقوله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . إلى قوله : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ؟ ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٣] .

فعلم أن التوراة التى كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس ، بعد مجىء بختنصر ، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة فى العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو أيضاً متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لايوجد عند كثير من الناس إلا ماغير بعد ذلك ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة فى

الغالب ، إنما يختلف فى اليسير من ألفاظها ، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحدا أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسير فى ألفاظ هذه الكتب موجود فى الكثير من النسخ ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث ، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذى حفظت ألفاظه فى الصدور ، وبالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ فى كتاب كما قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، [سورة الحجر : ٩] . وذلك أن اليهود قبل النبى صلى الله عليه وسلم وعلى عهده ، وبعده منتشرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكنا لكان ذلك من الوقائع العظيمة التى تتوفر الدواعى على نقلها ، وكذلك فى الإنجيل قال تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٧] .

فعلم أن فى هذا الإنجيل حكما أنزله الله تعالى ، لكن الحكم هو من باب الأمر والنهى . وذلك لا يمنع أن يكون التغيير فى باب الإخبار ، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا . وأما الأحكام التى فى التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى ألفاظها . وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله تعالى فى الإنجيل : ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل ، لا الموجودين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ « وليحكم أهل الإنجيل » بكسر اللام كقراءة حمزة فإن هذه لام كى ، فإنه تعالى قال : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور

ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] . فإذا قرأ « وليحكم » ، كان المعنى وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل الحق ، ولا يدل على أن الإنجيل الموجود فى زمن الرسول هو ذلك الإنجيل .

وأما قراءة الجمهور « وليحكم أهل الإنجيل » فهو أمر بذلك . فمن العلماء من قال : هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : « وليحكم » أمر لهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آخرون : لا حاجة إلى هذا التكليف ، فإن القول فى الإنجيل كالقول فى التوراة .وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم عن مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف

بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون * وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١ — ٤٦] . فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ وهذه لام الأمر ، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد . وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع ، وإنما يكون الأمر أمراً لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر ، فعلم أنه أمر لمن كان موجودا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل ، والله أنزل فى الإنجيل الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر به فى التوراة ، فليحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل مما لم ينسخه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح . وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح ، وقد أمروا فى الإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم لمن حكم من أهل الكتاب — بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم — بما أنزله الله فى التوراة والإنجيل ولم يحكم بما يخالف حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانوا مأمورين فى التوراة والإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ ، [سورة المائدة :٤٨] .

فجعل القرآن مهيمناً . والمهيمن : الشاهد الحاكم المؤتمن ، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقد ثبت فى الصحاح والسنن والمسانيد هذا . فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم . قالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد . فأمر بهما النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجما .

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمر أنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى ويهودية قد زنيا ، فانطلق حتى جاء يهودى . فقال : ما تجدون فى التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسود وجوههما ، ويطاف بهما . قال : « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » قال : فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم . قالوا : صدق فيها آية الرجم ، ولكننا نتكاتمه بيننا ، وأن أحبارنا أحدثوا التحميم والتجبية . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما فرجما . وأخرج مسلم عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال : « مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعى رجلا من علمائهم ، فقال : أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ،

فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم » . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم = إلى قوله = فأولئك هم الكافرون إلى ـ الظالمون ـ إلى الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . قال هى فى الكفارة كلها .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال : « رجم النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود » . وأما السنن ففى سنن أبى داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف فأتاهم فى بيت المدارس . فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ثم قال : ائتونى بالتوراة فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . ثم قال : ائتونى بأعلمكم فأتى بشاب ، ثم ذكر قصة الرجم » .

وأخرج أيضاً أبو داود وغيره عن أبى هريرة أنه قال : « زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبى ، فإنه نبى بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا نبى من أنبيائك ، قالوا : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة ـ منهم ـ زنيا ، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ .

قالوا : نحمم ونجبيه ، ونجلده ـ والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار ، ويقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما ـ قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم ساكتاً ، أنشده . فقال : اللهم إذا نشدتنا فإنا نجد فى التوراة

الرجم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فما أول ماارتخصتم أمر الله ؟ قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه . وقالوا : لايرجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فإنى أحكم بما فى التوراة ، فأمر بهما فرجما».

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وأيضاً فقد تحاكموا إليه فى القود الذى كان بين بنى قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلا من الأخرى فيقتلونه ، ولم يضعفوا الدية ، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به ، وأضعفوا الدية .

قال أبو داود سليمان بن الأشعث فى سننه : حدثنا محمد بن العلا ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : «كان قريظة ، والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به و وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودى ماية وسق من تمر .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ : [سورة المائدة : ٤٢] .

والقسط : النفس بالنفس ، ثم نزلت ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ﴾ ، [سورة المائدة : ٥٠] قال أبو داود : قريظة والنضير من ولد هارون .

وبسط هذا له موضع آخر ، وعلى كل قول ، فقد أخبر الله عز وجل أن فى التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله ، وأن أهل الكتاب اليهود

تركوا حكم الله الذى فى التوراة مع كفرهم بالمسيح ، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذى جاء به الكتاب الأول ، ولم ينسخه الرسول الثانى .

وهذا من التبديل الثانى الذى ذموا عليه ، ودل ذلك على أن فى التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكما أنزله الله ، أمروا أن يحكموا به ، وهكذا يمكن أن يقال فى الإنجيل . ومعلوم أن الحكم الذى أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ، لم ينسخه الإنجيل ، ولا القرآن ، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن ، وذلك أن الدين الجامع أن يعبد الله وحده ، ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله فى أى كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به .

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة ، أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد شرعنا بخلافه . ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله ، كما أن الله أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يحكموا بما أنزل الله فى القرآن ، وفيه الناسخ ، والمنسوخ . فهكذا القول فى جنس الكتب المنزلة .

قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون * يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى

أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨ — ٥٦] .

فقد أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، أن يحكم بما أنزل الله إليه ، وحذره اتباع أهوائهم ، وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية ، حيث قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل ، والقرآن شرعة ومنهاجاً ، وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد فى وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله . والذى أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل ، وهم متفقون فى أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا فى الشرعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيه بتنوع حال الكتاب ، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفى كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل .

وكذلك موسى عليه السلام ، كان مأموراً بالسبت محرماً عليه ما حرمه الله فى التوراة ، وهو متبع ما أنزله الله عز وجل ، والمسيح صلى الله عليه وسلم أحل بعض ما حرمه الله ، فى التوراة ، وهو متبع ما أنزل الله عز وجل . فليس فى أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، كما أنه ليس فى أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، بل إذا كان ناسخ

فقد حكم ومنسوخ فالذى أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ . فمن حكم بالمنسوخ بغير ماأنزل الله . ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] . فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لأهل الكتاب الذى بعث إليهم : إنهم ليسوا على شىء ، حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم . فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله ، وإنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينسخه . ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبى ، ولم ينسخه النبى الثانى بل أقره كان الله آمرا به على لسان نبى بعد نبى ، ولم يكن فى بعثة الثانى ما ي‍ ‍ ‍ط وجوب اتباع ما أمر به النبى الأول ، وقرره النبى الثانى .

ولايجوز أن يقال : إن الله ينسخ بالكتاب الثانى جميع ماشرعه بالكتاب الأول ، وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب ، والشرائع .

وأيضاً ففى التوراة والإنجيل ما دل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما ، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أن فى التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله ، إذ لايؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ، ولا يعلمون ما أنزل الله ، والحكم إنمايكون فى الأمر والنهى . والعلم ببعض معانى الكتب لا ينافى عدم العلم ببعضها . وهذا متفق عليه فى المعانى . فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأنه أرسل إلى الخلق رسلا من البشر ، وأنه وجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك ، وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب ،

بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر ، وقد تنازعوا فى بعض معانيها ، واختلفوا فى تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات ، هل هو المسيح بن مريم عليه السلام أو مسيح آخر ينتظر ؟ والمسلمون يعلمون أن الصواب فى هذا مع النصارى ، لكن لا يوافقهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك .

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل ، لاسيما إذا كان فى نفس الكتاب ما يدل على المبدل . وقد يقال إن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل فنى نفس التوراة والإنجيل ما يدل على تبديله ، فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول : إنه لم يبدل شيء من ألفاظها ، فإنهم يقولون : إذا كان التبديل قد وقع فى ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلم الحق من الباطل ، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب ، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما . والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيها ، واستشهد بهما فى مواضع . وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل ، والذى لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة ، يصدق بعضها بعضا ، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة ، وسائر نصوص الكتب يناقضها ، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه إذا وقع فى سنن أبى داود والترمذى أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة ، كان فى الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يبين ضعف تلك ، بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط ، وفى نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها ، مثل ما روى أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات فى الأيام السبعة ، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى ابن معين ، وعبد الرحمن بن مهدى ، والبخارى وغيرهم أنه غلط ، وأنه ليس فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، بل صرح البخارى فى تاريخه الكبير أنه من

كلام كعب الأحبار ، كما قد بسط فى موضعه . والقرآن يدل على غلط هذا ، وبين أن الخلق فى ستة أيام ، وثبت فى الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة ، فيكون أول الخلق يوم الأحد . وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم ، صلى الكسوف بركوعين أوثلاثة . فإن الثابت المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الصحيحين ، وغيرهما من حديث عائشة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم أنه «صلى كل ركعة بركوعين» ولهذا لم يخرج البخارى إلا ذلك . وضعف الشافعى ، والبخارى ، وأحمد ، فى أخذ الروايتين عنه ، وغيرهم[1] حديث الثلاثة والأربع ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى الكسوف مرة واحدة ، وفى حديث الثلاث والأربع ، أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه ، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان فى نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط ، والبخارى إذا روى الحديث بطرق فى بعضها غلط فى بعض الألفاظ ، ذكر معه الطرق التى تبين ذلك الغلط ، كما قد بسطنا الكلام على ذلك فى موضعه .

فكذلك إذا قيل : إنه وقع تبديل فى بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان فى الكتب ما يبين ذلك الغلط ، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة فى العالم من زمن محمد صلى الله عليه وسلم بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها ، فإن هذا لا أعرف أحداً من السلف قاله . وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما فى بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما فى العالم من نسخ التوراة والإنجيل . فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال : يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هى التوراة التى أنزلها الله ، على موسى بن عمران فاقرأها ، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ، ولم يجزم عمر رضى الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها . والقرآن والسنة المتواترة

(١) أى ، وغيرهم ضعف حديث الثلاثة والأربع .

يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فيهما ما أنزله الله عزوجل ، والجزم بتبديل ذلك فى جميع النسخ التى فى العالم متعذر ، ولا حاجة بنا إلى ذكره ، ولا علم لنا بذلك ، ولا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يدعى أن كل نسخة فى العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد ، فإن هذا مما لا يمكن أحداً من البشر أن يعرفه باختياره ، وامتحانه ، وإنما يعلم مثل هذا بالوحى وإلا فلا يمكن أحداً من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة فى العالم بكل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين ، وقد رأيناها مختلفة فى الألفاظ اختلافاً بيناً . والتوراة هى أصح الكتب ، وأشهرها عند اليهود ، والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى ، حتى فى نفس الكلمات العشر ، ذكر فى نسخة السامرة منها ــ من أمر استقبال الطور ــ ماليس فى نسخه اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخاً متعددة ، وكذلك رأينا فى الزبور نسخاً متعددة تخالف بعضهما بعضاً ، مخالفة كثيرة فى كثير من الألفاظ والمعانى ، يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود عليه السلام . وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة . فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب عن ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع ، وإلا فالأخبار عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وغير ذلك فلم تنسخ .

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين ، من جهة تبديلهم الكتاب الأول ، وترك الإيمان ، والعمل ببعضه . ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثانى وهو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم

قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ ، [سورة البقرة : ٩١] .

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه ، وقال تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا : سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] .

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله فى التوراة والإنجيل وعلى ترك أتباع ما أنزله فى القرآن وبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثانى ، وليس فى شىء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ فى الكتاب الثانى .

فهرس الجزء الأول

من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

ص

الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الاسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

الجزء ٢

مطابع
المجد
التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فى بطلان قياس كتبهم على القرآن

فحينئذ فقولهم : إنا نعجب من هؤلاء القوم على علمهم وذكائهم ومعرفتهم، كيف يحتجُّون علينا بمثل هذا القول ؟ .

وذلك أنا أيضاً إذا قلنا واحتججنا عليهم بمثل هذا القول : إن الكتاب الذى بأيديهم — يومنا هذا — قد غيّروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا ، هل كانوا يجوّزون كلامنا ؟ قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : هذا مما لا يجوز ، ولا يمكن لأحد أن يقوله ، ولا يمكن تغييره ، ولا تبديل حرف واحد منه .

فقالوا : سبحان الله العظيم ! إذا كان الكتاب الذى لهم ، الذى هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله ، ولا تغيير حرف واحد منه ، فكيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لساناً ؟ وفى كل لسان منها كذا وكذا ألف نسخة ؟ وجاز عليها إلى مجىء محمد أكثر من ستمائة سنة ، وصارت فى أيدى الناس يقرءونها باختلاف ألسنتهم على تشاسع بلدانهم .

فمن الذى تكلم باثنين وسبعين لساناً ، ومن هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وغالبها حتى حكم على جميعها فى أقطار الأرض ، وجمعها فى أربع زوايا العالم حتى يغيرها ؟

وإن كان غيّر بعضها ، وترك بعضها ، فهذا لا يمكن أن يكون لأن كلها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، فهذا مما لا يجوز لقائل أن يقوله أبدا.

والجواب أن يقال أولا : هذا الكلام منهم يدل على غاية جهلهم بما تقوله المسلمون فى كتبهم ، وتبين أنهم — لفرط جهلهم — يظنون أن المسلمين يقولون

مقالة لا يخفى فسادها على من له أدنى عقل ومعرفة ، والمسلمون فلا يشك أحد من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولا وأفهاماً وأتمهم معرفة وبياناً ، وأحسن قصداً وديانة وتحرياً للصدق والعدل ، وأنهم لم يحصل فى النوع الإنسانى أمة أكمل منهم ، ولا ناموس أكمل من الناموس الذى جاء به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وحذاق الفلاسفة معترفون لهم بذلك ، وأنه لم يقرع العالم ناموس أكمل من هذا الناموس .

وقد جمع الله للمسلمين جميع طرق المعارف الإنسانية وأنواعها فإن الناس نوعان :

أهل كتاب ، وغير أهل كتاب كالفلاسفة والهنود .

والعلم ينال بالحس والعقل ، وما يحصل بهما ، وبوحى الله إلى أنبيائه الذى هو خارج عما يشترك فيه الناس من الحس والعقل .

ولهذا قيل : الطرق العلمية : البصر والنظر . والخبر : الحس ، والعقل . والوحى : الحس ، والقياس ، والنبوة .

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النبوة ، مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية ، والعقلية .

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم وامتازوا عنهم بما لا تعرفه الأمم ، وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذبوه لفظاً ومعنى ، حتى صار أحسن مما كان عندهم ، ونفوا عنه من الناموس ، وضموا إليه من الحق مما امتازوا به على من سواهم .

وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله منها ما لم يعطه أمة قبلهم ، وهذا ظاهر لمن تدبر القرآن ، مع تدبر التوراة والإنجيل ، فإنه يجد من فضل علم القرآن مالا يخفى إلا على العميان .

فكيف يظن مع هذا بالمسلمين أن يخفى عليهم فساد هذا الكلام الذى ظنه بهم هؤلاء الجهال .

ويقال ثانياً الجواب من وجوه :

أحدها : أن المسلمين لم يدعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها ، وكثرة النسخ بها ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير فى كثير من معانيها وكثير من أحكامها .

وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم فى التوراة والنبوات المتقدمة ، فإنهم يسلمون أن اليهود بدّلوا كثيراً من معانيها وأحكامها .

ومما تسلمه النصارى فى فرقهم ، أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة ، ومما تسلمه اليهود أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها ، وأنها بدلت أحكام التوراة ، فصار تبديل كثير من معانى الكتب المتقدمة متفقاً عليه بين المسلمين ، واليهود ، والنصارى .

وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاع بين المسلمين .

والصواب الذى عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها ، كما ذكر ذلك فى مواضعه .

الوجه الثانى : أن قياسهم كتبهم على القرآن ، وأنه كما لا تسمع دعوى التبديل فيه ، فكذلك فى كتبهم قياس باطل فى معناه ولفظه .

أما معناه : فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعاً ظاهراً معروفاً عندهم فهو منقول عن الرسول نقلاً متواتراً ، بل معلوماً بالاضطرار من دينه ، فإن الصلوات الخمس ، والزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق ، ووجوب العدل ، والصدق ، وتحريم الشرك ، والفواحش ، والظلم ، بل وتحريم

الخمر ، والميسر ، والربا ، وغير ذلك منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك .

ومن هذا الباب عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، وأنه مبعوث إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقلين : الإنس والجن ، وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه ، كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك ، وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم .

فالمسلمون عندهم ـ منقولا عن نبيهم نقلا متواتراً ـ ثلاثة أمور : لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها . والسنة المتواترة ، وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن .

كما قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥١] وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣١] . وقال تعالى : ﴿ واذكُرْن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] .

وبذلك دعى الخليل حيث قال لما بنى ـ هو وإسماعيل ـ الكعبة بأرض « فاران » المذكورة في الكتاب الأول ، قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل * ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا إني أوتيت الكتاب ، ومثله معه » .

فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن، ومعانيه المتفق عليها، وبالسنة المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعاً، وكون المغرب ثلاث ركعات ، وكون الصبح ركعتين ، ومثل الجهر فى العشائين والفجر ، والمخافتة فى الظهر والعصر ، ومثل كون الركعة فيها سجدتان ، وكون الطواف بالبيت ، وبين الصفا والمروة سبعا، ورمى الجمرات كل واحدة سبع حصيات، وأمثال ذلك.

وأيضاً فالمسلمون يحفظون القرآن فى صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت فى الصحيح الذى رواه مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن ربى قال لى : إنى منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظانا » .

يقول: ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب ، كالكتب المتقدمة فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلا متواتراً محفوظة فى الصدور .

والقرآن مازال محفوظاً فى الصدور نقلا متواتراً ، حتى لو أراد مريد أن يغير شيئاً من المصاحف ، وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غير المصحف لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف ، وأنكروا ذلك .

وأهل الكتاب يقدر الإنسان منهم أن يكتب نسخاً كثيرة من التوراة والإنجيل ، ويغيّر بعضها ويعرضها على كثير من علمائهم ، ولا يعرفون ما غير منها إن لم يعرضوه على النسخ التى عندهم .

ولهذا لما غير من نسخ التوراة راج ذلك على طوائف منهم ولم يعلموا التغيير .

وأيضاً فالمسلمون لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين ، كما نقل العامة جليله ، وليس هذا لأهل الكتاب .

وأيضاً فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبة باثنين وسبعين لسانا هو أقرب إلى التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة ، فإن هذا مما يحفظه الخلق الكثير ، فلا يقدر أحد أن يغيره

وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانا ، فإذا قدر أن بعض النسخ

الموجودة ببعض الألسنة غُيِّر بعض مافيها ، لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية، بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرى ، فالتغيير فيها ممكن ، كما يمكن فى نظائر ذلك .

ومالدعوه من تعذر جمع جميع النسخ ، هو حجة عليهم ، فإن ذلك إذا كان متعذراً لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحد حتى يشهد بأنها كلها متفقة لفظا ومعنى ، بل إمكان التغيير فيها أيسر من إمكان الشهادة باتفاقها .

ولهذا لايمكن أحداً تغيير القرآن مع كونه محفوظا فى القلوب منقولاً بالتواتر مع أنا لانشهد لجميع المصاحف بالاتفاق ، بل قد يقع فى بعض نسخ المصاحف ماهو غلط يعلمه حفاظ القرآن ، ولا يحتاجون إلى اعتبار ذلك بمصحف آخر .

وتلك الكتب لايحفظ كلا منها قوم من أهل التواتر حتى يعتبر النسخ بها ، ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام فيهم موجودين ، كانوا هم المرجع للناس فيما يعتمدون عليه إذا غير بعض الناس شيئاً من الكتب ، فلما انقطعت النبوة فيهم أسرع فيهم التغيير .

فلهذا بدل كثير من النصارى كثيراً من دين المسيح عليه السلام ، بعد رفعه بقليل من الزمان ، وصاروا يبدّلون شيئاً بعد شيء ، وتبقى فيهم طائفة متمسكة بدين الحق إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد بقى من أولئك الذين على الحق طائفة قليلة كما فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى صحيحه ، عن عياض بن حمار المشاجعى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا قبيل مبعثه صلى الله عليه وسلم » .

وقد أدرك سلمان الفارسى ـ وكان قد تنصر بعد أن كان مجوسياً ـ طائفة ممن كانوا متبعين لدين المسيح عليه السلام ، واحد بالموصل ، وآخر بنصيبين ، وآخر بعمورية.

وكل منهم يخبر بأنه لم يبق على دين المسيح عليه السلام إلا قليل ، إلى أن قال له آخرهم : لم يبق عليه أحد ، وأخبره أنه يبعث نبي بدين إبراهيم من جهة الحجاز ، فكان ذلك سبب هجرة سلمان إليه و إيمانه به .

فالدين الذى اجتمع عليه المسلمون اجتماعا ظاهرا معلوما ، هومنقول عن نبيهم نقلا متواتراً ، نقلوا القرآن ، ونقلوا سنته ، وسنته مفسرة للقرآن مبينة له كما قال تعالى له: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزِّل إليهم﴾ ، [سورة النحل ٤٤] . فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه فصار معانى القرآن التى اتفق عليها المسلمون اتفاقا ظاهراً مماتوارثته الأمة عن نبيها ، كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن - ولله الحمد - فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعانى ، فكيف بألفاظ تلك المعانى ؟

فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه فى الألفاظ فكان الدين الظاهر للمسلمين الذين اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم ، لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولا تبديل، لا للفظ ولا المعنى ، بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها ما بدل معانيه وأحكامه اليهود أو النصارى أو مجموعهما تبديلا ظاهراً مشهوراً فى عامتهم ، كما بدلت اليهود مافى الكتب المتقدمة من البشارة بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ومافى التوراة من الشرائع ، وأسره فى بعض الأخبار ، وكما بدلت النصارى كثيراً مما فى التوراة والنبوات من الأحبار ومن الشرائع التى لم يغيرها المسيح ، فإن ما نسخه الله على لسان المسيح من التوراة يجب اتباع المسيح فيه .

وأما مابدل بعد المسيح مثل استحلال لحم الخنزير ، وغيره مما حرمه الله ، ولم يبحه المسيح ، ومثل إسقاط الختان ، ومثل الصلاة إلى المشرق ، وزيادة الصوم ونقله من زمان إلى زمان ، واتخاذ الصور فى الكنائس ، وتعظيم الصليب ، واتباع الرهبانية ، فإن هذه كلها شرائع لم يشرعها نبي من الأنبياء لا المسيح ولا غيره ، خالفوا بها شرع الله الذى بعث به الأنبياء من غير أن يشرعها الله على لسان نبي.

الوجه الثالث : أن القرآن قدثبت بالنقل المتواتر ، المعلوم بالضرورة للموافق

والمخالف أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه كلام الله لا كلامه ، وأنه مبلغ له عن الله ، وكان يفرق بين القرآن ، وبين ما يتكلم به من السنة ، وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقاً وعملا .

فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعلم أمته الكتاب والحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكُمْ به ﴾ [سورة البقرة : ٢٣١] وقال تعالى : ﴿ وأنزل عليك الكتابَ والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] : وقال تعالى عن الخليل وابنه إسماعيل : ﴿ ربنا واجعلنا مُسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلُو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت الكتاب ، ومثله معه » فكان يعلم أمته الكتاب وهو القرآن العزيز الذى أخبرهم أنه كلام الله ، لا كلامه ، وهو الذى قال عنه ، قال : ﴿ لئن اجتمعتْ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] ، وهو الذى شرع لأمته أن تقرأه فى صلاتهم فلا تصح صلاة إلا به ، وعلمهم مع ذلك الحكمة التى أنزلها الله عليه وفرق بينها وبين القرآن من وجوه :

منها أن القرآن معجز .

ومنها أن القرآن هو الذى يقرأ فى الصلاة دونها .

ومنها أن ألفاظ القرآن العربية منزلة على ترتيب الآيات ، فليس لأحد أن يغيرها باللسان العربى باتفاق المسلمين ، ولكن جوز تفسيرها باللسان العربى ، وترجمتها بغير العربى .

وأما تلاوتها بالعربى بغير لفظها ، فلا يجوز باتفاق المسلمين، بخلاف ماعلمهم من الحكمة ، فإنه ليس حكم ألفاظها حكم ألفاظ القرآن .

ومنها أن القرآن ﴿ لايمسُّهُ إلاَّ المطهرون ﴾ ، [سورة الواقعة : ٧٩] . ولا يقرأه الجنب كما دلت عليه سنته عند جماهير أمته ، بخلاف ما ليس بقرآن .

والقرآن تلقته الأمة منه حفظاً فى حياته ، وحفظ القرآن جميعه فى حياته غير واحد من أصحابه ، وما من الصحابة إلا من حفظ بعضه ، وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر ، فهو جميعه منقول سماعا منه بالنقل المتواتر ، وهو يقول إنه مبلغ له عن الله ، وهو كلام الله لا كلامه .

وفى القرآن ـ ما يبين أنه كلام الله ـ نصوص كثيرة ، وكان الذين رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم ونقلوا ما عاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته وما سمعوه من القرآن وحديثه ألوفا مؤلفة أكثر من مائة ألف رأوه وآمنوا به .

وأما الأناجيل الذى بأيدى النصارى ، فهى أربعة أناجيل : إنجيل متّى ، ويوحنا ، ولوقا ، ومرقس . وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا ، وأن هذه المقالات الأربعة التى يسمونها الإنجيل ، وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته .

وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ماسمعوه منه ورأوه فكانت من جنس مايرويه أهل الحديث والسير والمغازى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من أقواله ، وأفعاله التى ليست قرآنا .

فالأناجيل التى بأيديهم شبه كتاب السيرة ، وكتب الحديث ، ومثل هذه الكتب ، وإن كان غالبها صحيحاً ، وما قاله المسيح عليه السلام فهو مبلغ له عن الله يجب فيه تصديق خبره ، وطاعة أمره ، كما قاله الرسول من السنة فهو يشبه ما قاله الرسول من السنة . فإن منها ما يذكر الرسول أنه قول الله كقوله يقول الله تعالى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ونحو ذلك .

ومنها ما يقول هو ، ولكن هو أيضاً مما أوحاه الله إليه، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، فهكذا ماينقل فى الإنجيل وهو من هذا النوع فإنه وإن كان أمراً من المسيح فأمر المسيح أمر الله ، ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله .

وما أخبر به المسيح عن الغيب فالله أخبره به ، فإنه معصوم أن يكذب فيما يخبر به ، وإذا كان الإنجيل يشبه السنة المنزلة ، فإنه قد يقع فى بعض ألفاظها غلط ، كما يقع فى كتاب السيرة ، وسنن أبى داود والترمذى ، وابن ماجه ، ثم هذه الكتب قد اشتهرت واستفاضت بين المسلمين ، فلا يمكن أحداً ـ بعد اشتهارها وكثرة النسخ بها ـ أن يبدلها كلها .

لكن فى بعض ألفاظها غلط وقع فيها قبل أن تشتهر ، فإن المحدث وإن كان عدلا فقد يغلط ، لكن ما تلقاه المسلمون بالقبول والتصديق والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جمهور المسلمين بصدقه عن نبيهم .

هذا مذهب السلف ، وعامة الطوائف ، كجمهور الطوائف الأربعة ،وجمهور أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية وغيرهم ، ولكن ظن بعض أهل الكلام أنه لايجزم بصدقها لكون الواحد قد يغلط أو يكذب ، وهذا الظن إنما يتوجه فى الواحد الذى لم يعرف صدقه وضبطه .

أما إذا عرف صدقه وضبطه ، إما بالمعجزات كالأنبياء ، وإما بتصديق النبى له فيما يقول ، وإما باتفاق الأمة المعصومة على صدقه ، واتفاقهم على العمل بخبره

أو اتفاقهم على قبول خبره وإقراره ، وذكره من غير نكير أو ظهور دلائل وشواهد وقرائن احتفت بخبره ، ونحو ذلك من الدلائل الدالة على صدق المخبر ، فهذه يجب معها الحكم بصدقه ، بأنه لم يكذب ولم يغلط وإن كان خبره لو تجرد عن تلك الدلائل أمكن كذبه ، أو غلطه كما أن الخبر المجرد لا يجزم بكذبه إلا بدليل يدل على ذلك .

أما قيام دليل عقلي قاطع أو سمعي قاطع على أنه بخلاف مخبره ، فيجزم ببطلان مخبره وحينئذ فالمخبر إما كاذبا أو غالط قد يعلم أحدهما بدليل .

فالمسلمون عندهم من الأخبار عن نبيهم ما هو متواتر وما اتفقت الأمة المعصومة على تصديقه ، وماقامت دلائل صدقه من غير هذه الجهة مثل أن يخبر، واحد أو اثنان أو ثلاثة بحضرة جمع كثير لا يجوز أن يتواطئوا على الكذب بخبر يقولون : إن أولئك عاينوه وشاهدوه ، فيقرونهم على هذا ولا يكذب به منهم أحد، فيعلم بالعادة المطردة أنه لوكان كاذبا لامتنع اتفاق أهل التواتر على السكوت عن تكذيبه ، كما يمتنع اتفاقهم على تعمد الكذب .

وإذا نقل الواحد والإثنان ماتوجب العادة اشتهاره وظهوره ولم يظهر ونقلوه مستحقين بنقله لم ينقلوه على رءوس الجمهور ، علم أنهم كذبوا فيه .

ودلائل صدق الخبر وكذبه كثيرة متنوعة ليس هذا موضع بسطها ،ولكن المقصود هنا أن المسلمين تواتر عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها، والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة ، كتصديق الأمة المعصومة ، ودلالة العادات ، وغير ذلك ، وهم يحفظون القرآن فى صدورهم ، لايحتاجون فى حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عدمت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه .

بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها ، إذ لايحفظها إلا قليل لا يوثق بحفظهم ، فلهذا كان أهل

الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب ، إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها ، وإما تبديل بعض ألفاظها مالم يقوموا بتقويمه .

ولهذا لايوجد فيهم الإسناد الذى للمسلمين ، ولا لهم كلام فى نقلة العلم ، وتعديلهم وجرحهم ، ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين ، ولا قام دليل سمعى ولا عقلى على أنهم لايجتمعون على خطأ ، بل قد علم أنهم اجتمعوا على الخطأ لما كذبوا المسيح ، ثم كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا كانت الكتب المنقولة عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمد ، ولم تكن متواترة عنهم ولم يكن تصديق غير المعصوم حجة ، لم يكن عندهم من العلم بالتمييز بين الصدق والكذب ماعند المسلمين ، فهذه الأناجيل التى بأيدى النصارى من هذا الجنس فيها شيء كثير من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته ، وفيها ما هو غلط عليه بلاشك ، والذى كتبها فى الأول إذا لم يكن ممن يتهم بتعمد الكذب ، فإن الواحد والإثنين والثلاثة والأربعة لايمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم .

لاسيما ماسمعه الإنسان ورآه ، ثم حدث به بعد سنين كثيرة ، فإن الغلط فى مثل هذا كثير ، ولم يكن هناك أمة معصومة يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجباً للعلم بها ، لئلا تجتمع الأمة المعصومة على الخطأ ، والحواريون كلهم اثنا عشر رجلا .

وقصة الصلب مما وقع فيها الاشتباه ، وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام ﴿ بل شبه ﴾ وهم ظنوا أنه المسيح ، والحواريون لم يرا أحد منهم المسيح مصلوباً ، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود .

فبعض الناس يقولون : إن أولئك تعمدوا الكذب ، وأكثر الناس يقول: اشتبه عليهم ، ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون فى قوله ﴿ ولكن شبه لهم ﴾عن أولئك ، ومن قال بالأول جعل الضمير فى ﴿شبه لهم﴾ عن السامعين لخبر أولئك، فإذا جاز أن يغلطوا فى هذا ، ولم يكونوا معصومين فى نقله ، جاز أن يغلطوا فى

بعض ما ينقلونه عنه ، وليس هذا مما يقدح فى رسالة المسيح ، ولا فيما تواتر نقله عنه بأنه رسول الله الذى يجب اتباعه ، سواء صلب أولم يصلب ، وما تواتر عنه ، فإنه يجب الإيمان به ، سواء صلب أو لم يصلب .

والحواريون مصدقون فيما ينقلونه عنه لايتهمون بتعمد الكذب عليه لكن إذا غلط بعضهم فى بعض ما ينقله لم يمنع ذلك أى يكون غيره معلوماً ، لاسيا إذا كان ذلك الذى غلط فيه مما تبين غلطه فيه فى مواضع أخر .

وقد اختلفت النصارى فى عامة ما وقع فيه الغلط ، حتى فى الصلب ، فمنهم من يقول المصلوب لم يكن المسيح ، بل الشبه كما يقول المسلمون ، ومنهم من يقر بعبوديته لله وينكر الحلول والاتحاد كالأريوسية ، ومنهم من ينكر الاتحاد وإن أقر بالحلول كالنسطورية .

وأما الشرائع التى هم عليها فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح عليه السلام ، فالمسيح لم يشرع لهم الصلاة إلى المشرق ولا الصيام الخمسين ، ولا جعله فى زمن الربيع ، ولا عيد الميلاد ، والغطاس ، وعيد الصليب ، وغير ذلك من أعيادهم ، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريين ، مثل عيد الصليب فإنه مما ابتدعته « هيلانة الحرانية » أم قسطنطين ، وفى زمن قسطنطين غيروا كثيراً من دين المسيح والعقائد ، والشرائع فابتدعوا « الأمانة » التى هى عقيدة إيمانهم ، وهى عقيدة لم ينطق بها شىء من كتب الأنبياء التى هى عندهم ، ولا هى منقولة عن أحد من الأنبياء ، ولا عن أحد من الحواريين الذين صحبوا المسيح ، بل ابتدعها لهم طائفة من أكابرهم قالوا : كانوا ثلاث مائة وثمانية عشر .

واستندوا فى ذلك إلى ألفاظ متشابهة فى الكتب ، وفى الكتب ألفاظ محكمة تناقض ما ذكروه ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وكذلك عامة شرائعهم التى وضعوها فى كتاب « القانون » بعضها منقول عن الأنبياء ، وبعضها منقول عن الحواريين ، وكثير منها مما ابتدعوه ليست منقولة عن أحد من الأنبياء ،

ولا عن الحواريين ، وهم يجوِّزون لأكابر أهل العلم والدين أن يغيروا ما رأوه من الشرائع ، ويضعوا شرعا جديداً ، فلهذا كان أكثر شرعهم مبتدعا ، لم ينزل به كتاب ، ولا شرعه نبي .

فصل فى أن الغلط إنما وقع فى الترجمة

وأما قولهم : كيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لسانا ، وفى كل لسان منها كذا كذا ألف مصحف ، ومضى عليها إلى مجيء محمد أكثر من ستمائة سنة ؟

فيقال : أما بعد انتشارها هذا الانتشار فلم يقل المسلمون ، بل ولا طائفة معروفة منهم أن ألفاظ جميع كل نسخة فى العالم غيرت ، لكن جمهور المسلمين الذين يقولون إن فى ألفاظها ما غير ، إنما يدعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث ، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث لا تغيير جميع النسخ ، فبعض الناس يقول : إن ذلك التغيير وقع فى أول الأمر ، ويقول بعضهم : إن منها ما غير بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يقولون: إنه غير كل نسخة فى العالم، بل يقولون : غير بعض النسخ دون البعض، وظهر عند كثير من الناس النسخ المبدلة دون التى لم تبدل .

والنسخ التى لم تبدل هى موجودة عند بعض الناس .

ومعلوم أن هذا لا يمكن نفيه فإنه لا يمكن أحداً أن يعلم أن كل نسخة فى العالم بكل لسان مطابق لفظها سائر النسخ لسائر الألسنة إلا من أحاط علما بذلك ، وهم قد سلموا أن أحداً لا يمكنه ذلك .

وأما من ذكر أن التغيير وقع فى أول الأمر فهم يقولون : إنما أخذت الأناجيل عن أربعة : اثنان منهم لم يريا المسيح ، بل إنما رآه اثنان من نقلة الإنجيل : متى ويوحنا .

ومعلوم إمكان التغيير فى مثل ذلك .

وأما قولهم : إنها مكتوبة باثنين وسبعين لسانا فمعلوم باتفاق النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية كسائر أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان مختونا ختن بعد السابع كما يختن بنو إسرائيل ، وأنه كان يصلى إلى قبلتهم لم يكن يصلى إلى الشرق ، ولا أمر بالصلاة إلى الشرق .

ومن قال : إن لسانه كان سريانياً ، كما يظنه بعض الناس فهو غالط ، فالكلام المنقول عنه فى الأناجيل إنما تكلم به عبريا ، ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها .

والترجمة يقع فيها الغلط كثيراً ، كما وجدنا فى زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ، ويظهر فى الترجمة من الغلط ما يشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين .

والنصارى يقولون : إنما كتبت بأربع لغات : بالعبرية ، والرومية ، واليونانية ، والسريانية .

وأما قولهم : إنها كتبت باثنين وسبعين لغة ، فهذا إن كان صحيحاً فإنما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة ، فإذا كان الغلط وقع فى مواضع من تلك الأربعة ، لم يرفعه بعد ذلك كتابتها باثنين وسبعين لغة ، فإن المسلمين لا يقولون: إنها كتبت باثنين وسبعين لغة غير لفظها فى جميع الألسن لإثنين وسبعين لغة فى كل نسخة من ذلك .

وإنما يقال التغيير وقع قبل ذلك كما يقال فى سائر ما ورد عن المسيح وموسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه من الحديث ، مثل سيرة ابن اسحاق ، وأحاديث السنن ، والمسانيد المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن فى العالم بكل كتاب منها نسخ كثيرة ، لا يمكن أن يغير منها فصل طويل ، ولكن فى نفس السيرة

وفهم غلط فى مواضع وأحاديث وقعت فى السنن هى غلط فى الأصل ، وهذه كتب التفسير والفقه والدقائق ، مامن كتاب إلا وبه نسخ كثيرة فى العالم لا يمكن تغيير فصل طويل منها ، وفيها أحاديث غلط فى الأصل .

والأناجيل التى بأيدى النصارى تشبه هذا ، ولهذا أمروا أن يحكموا فيها ، فإن فيها أحكام الله ، وعامة ما فيها من الأحكام لم يبدل لفظه وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات ، و بعض معانى الأمريات ، كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء اعتنوا بضبطها أكثر من اعتنائهم بضبط الخبريات ، كأحاديث الزهد والقصص والفضائل ، ونحو ذلك ، إذ حاجة الأمم إلى معرفة الأمر والنهى أكثر من حاجتهم إلى معرفة التفاصيل بالخبريات التى يكتفى بالإيمان المجمل بها .

وأما الأمر والنهى . فلابد من معرفته على وجه التفصيل ، إذ العمل بالمأمور لا يكون إلا مفصلا والمحظور الذى يجب اجتنابه ، لابد أن يميز بينه و بين غيره ، كما قال تعالى ﴿وما كانَ اللهُ ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبيِّنَ لهم ما يتَّقون﴾ ، [التوبة : ١١٥] .

والنصارى لا يحتاجون عند أنفسهم إلى هذا ، فإنه لا يجب عندهم أن يتمسكوا بشرع منقول عن المسيح عليه السلام ، وعندهم لأكابرهم أن يشرعوا ديناً لم يشرعه المسيح ، ويقولون : ما شرعه هؤلاء فقد شرعه المسيح فلم يكن لهم عناية ولا معرفة بشرع المسيح ، كما للمسلمين عناية ومعرفة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

فصل فيما حدث فى التوراة من تغيير

وأما التوراة ، فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنصارى أن بيت المقدس خرب الخراب الأول ، وخلا أهله منه وسُبُوا ، ولم يكن هناك من التوراة نسخ كثيرة ظاهرة ، بل إنما أخذت عن نفر قليل .

كما يقولون : إن عزيرا أملاها وأنهم وجدوا نسخة أخرى فقابلوها بها . والمقابلة تحصل باثنين ، وقد يغلط أحدهما ، وهم يذكرون أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبراً منهم بنقلها ، واعتبر بعض تلك النسخ ببعض ، وهذا إذا كان صدقا لا يمنع أن يكون الغلط وقع فى بعض ألفاظها قبل ذلك إلا أن يثبت أنها مأخوذة عن نبى معصوم ، أو أقر جميع ألفاظها نبى معصوم .

فما قاله المعصوم فهو حق ، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حق .

وهؤلاء القائلون إنه وقع التغيير فى بعض ألفاظها فى ذلك الزمان يقولون : لم تؤخذ عن نبى معصوم ، ولا نقلت بالتواتر .

ومن نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون : أخذت عن العزير ، وهو نبى معصوم هذا مما يحتاج المثبت فيه والنافى إلى تحقيقه .

وإذا قالت النصارى : فالمسيح عليه السلام أقرها ، قيل : المسيح عليه السلام لم يمكن أن يلزمهم بما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وطاعته ، فكيف كان يمكنه أن يغير نسخ التوراة التى عندهم مع كثرتها ، وهم قد طلبوا قتله وصلبه لعجزه وضعفه ، وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون أو صلبوا نفسه كما يقوله النصارى ، فكيف كان يمكنه أن يصلح ما غير منها ؟

وأما مَنْ بعد المسيح فليس معصوماً ، والمسيح غيّر بعض أحكامها وأقرّ أكثرها ، والأحكام إنما يدعى المسلمون فيها النسخ وتبديلها بالاعتقاد ، بخلاف موجبها والعمل بذلك لا يحتاجون إلى دعوى تبديل ألفاظها .

كما بدلوا شريعة الرجم بغيرها ، وهو مكتوب فى التوراة ، بخلاف الخبريات فإن هذه يقول أكثر المسلمين : إن التغيير وقع فى بعض ألفاظها .

وأما النبوات المنقولة عن الإثنين وعشرين نبياً ، فهذه لا تعلم منها نبوة واحدة تواترت جميع ألفاظها ، بل أحسن أحوالها أن تكون بمنزلة الإنجيل ، وهو بمنزلة ما ينقل من أقوال الأنبياء وسيرهم ، كسيرة ابن اسحق ، أو بعض

كتب المسانيد والسنن التي ينقل فيها ماينقله الناقلون من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وأكثره صدق ، وبعضه غلط .

ولكن هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا له لحَافظونَ ﴾ ، (سورة الحجر : ٩) : فما في تفسير القرآن ، أو نقل الحديث أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم لهمن الأمة من يبينه ، ويذكر الدليل على غلط الغالط ، وكذب الكاذب ، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة ، إذ كانوا آخر الأمم فلا نبي بعد نبيهم ، ولا كتاب بعد كتابهم .

وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغيروا بعث الله نبياً يبين لهم ويأمرهم وينهاهم ، ولم يكن بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي ، وقد ضمن الله أنه يحفظ ما أنزله من الذكر ، وأن هذه الأمه لا تجتمع على ضلالة ، بل أقام الله لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ به دينه من أهل العلم والقرآن ، وينفي به تحريف الغالين ، وانتحال المضلين ، وتأويل الجاهلين .

فصل فيما حدث في الإنجيل من تبديل

وأما من قال : إنه غيّر بعض ألفاظها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء يقولون : إنه كان في التوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظ صريحة بأمور منها اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه عمد بعض أهل الكتاب فغيروا بعض الألفاظ في النسخ التي كانت عندهم .

لا يقولون : إن هؤلاء غيروا كل نسخة كانت على وجه الأرض ، لكن غيروا بعض ألفاظ النسخ ، وكتب الناس من تلك النسخ المغيرة نسخاً كثيرة انتشرت فصار أكثر ما يوجد عند كثير من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيرة .

وفي العالم نسخ أخرى لم تغير ، فذكر كثير من الناس أنه رآها وقرأها ، وفي

تلك النسخ ماليس فى النسخ الأخرى ، ومما يدل على ذلك أنك فى هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود والنصارى والسامرة وجدت بينهما اختلافا فى مواضع متعددة .

وكذلك نسخ الإنجيل ، وكذلك نسخ الزبور مختلفة اختلافا متباينا بحيث لا يعلم العاقل أن جميع نسخ التوراة الموجودة متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الزبور متفقة على لفظ واحد ، فضلا عن سائر النبوات .

ومعلوم أنه لا يمكن أهل الكتاب إقامة حجة على أن جميع النسخ بجميع اللغات فى زوايا الأرض متفقة على لفظ واحد فى جميع ما هو موجود من جميع النبوات . والحجة التى احتجوا بها على تعذر تغييرها كلها تدل على تعذر العلم بتساويها كلها .

فإذا قالوا : فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لسانا ، ومن هو الذى حكم على الدنيا كلها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض حتى يغيرها ؟

قيل لهم : ومن الذى يعلم اثنين وسبعين لغة؟ ومن هو الذى حكم على الدنيا ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض ، وأحضر كل نسخة موجودة فى جميع الأرض ، وقابل كل نسخة موجودة فى جميع الأرض بجميع النسخ ، فوجد جميع ألفاظ جميع النسخ التى باثنين وسبعين لسانا من جميع أقطار الأرض لفظا متفقا ، لم يختلف ألفاظها ؟

فإن دعوى العلم بهذا ممتنع أعظم من امتناع دعوى تغييرها ، فإنه إن أمكن أحداً أن يجمع جميع النسخ كانت قدرته على تغيير بعض ألفاظها كلها أيسر عليه من مقابلة كل ما فى نسخة بجميع ما فى سائر النسخ .

فإنا إذا أحضرنا بكتاب من الكتب عشرة نسخ كان تغيير بعض ألفاظ

العشرة أيسر علينا من مقابلة كل واحدة من العشرة بالتسعة الباقية . إذ المقابله يُحتاج فيها إلى معرفة جميع ألفاظ كل نسخة ومساواتها للأخرى .

وأما التغيير فيكفى فيه أن يغير من كل نسخة ما يغيره من الأخرى ، فإن كان تغيير جميع النسخ ممتنعاً فى العادة فالعلم باتفاقها أشد امتناعا ؛ و إن كان العلم باتفاقها ممكنا ؛ فإمكان تغيير بعض ألفاظها أيسر وأيسر .

وأما قولهم إن قيل : إنه غيّر بعضها وترك بعضها ، فهذا لا يمكن أن يكون لأنها كلها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، فيقال : أما إمكان هذا فظاهر لا ينازع فيه عاقل ، وهو واقع فإنا قد رأينا التوراة التى عند السامرة ، تخالف توراة اليهود والنصارى ، حتى فى العشر الكلمات .

فذكر السامرة فيها من أمر استقبال الطور ما لا يوجد فى نسخ اليهود والنصارى، وكذلك بين نسخ اليهود والنصارى اختلاف معروف ونسخ الإنجيل مختلفة ، ونسخ الزبور مختلفة اختلافا أكثر من ذلك ، و بكل حال فلا يقدر عاقل أن يقول : يمتنع تغيير بعض النسخ ، ولكن إذا قالوا لم يغير شىء منها ، لأن جميعها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، كانت هذه الدعوى باطلة من وجهين :

أحدهما : أن دعوى العلم بتساوى جميع النسخ أبلغ من دعوى إمكان تغييرها فإن كان التغيير ممتنعاً على جميعها كان علم الواحد بما فى جميعها — وأنها مماثلة الألفاظ مع اختلاف الألسن — أولى بالامتناع .

الثانى : أن هذا دعوى خلاف الواقع ، فإن الاختلاف فى نسخ التوراة والإنجيل والزبور موجود قد رأيناه نحن بأعيننا ، ورآه غيرنا ، فرأيت عدة نسخ بالزبور يخالف بعضها بعضاً اختلافا كثيراً ، ورأينا بعض ألفاظ التوراة التى ينقلها هذه الطائفة ، وهى مكتوبة عندهم يدعون أنها هى التوراة الصحيحة المنقولة عندهم بالتواتر تخالف بعض ألفاظ توراة الطائفة الأخرى ، وكذلك الإنجيل .

و بالجملة قولهم : هذا لا يمكن أن يكون ، لأنها كلها قول واحد ، واللفظ واحد فى جميع الألسن تضمن شيئين :

تضمن دعوى كاذبة ، وحجة باطلة .

فإن قولهم « هذا لا يمكن » مكابرة ظاهرة ، فإن إمكان تغيير بعض النسخ مما لا ينازع عاقل فى إمكانه ، لكن قد يقول القائل : إذا غير بعض النسخ وأظهر ذلك ، شاع ذلك فرأى سائر أهل النسخ تلك النسخة مغايرة بنسخهم فأنكروه ، فإن الهمم والدواعى متوفرة على إنكار ذلك كما يوجد اليوم مثل ذلك لو أراد رجل أن يغير كتاباً مشهوراً عند الناس ، به نسخ متعددة ، فإذا غيّره فوصلت تلك النسخة إلى من يعرف ما فى تلك النسخ أنكروا ذلك .

فيقال : هذا يمكن إذا كانت تلك النسخة المغيرة وصلت إلى طائفة يمتنع عليهم مواطأتهم على الكذب ، فإنه كما يمتنع فى الأخبار المتواترة التواطؤ على الكذب . فيمتنع التواطؤ على كتمان ما يتعذر كتمانه فى العادة :

ومعلوم أنه لا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ . والنسخ إنما هى موجودة عند علماء أهل الكتاب وليس عامتهم يحفظ ألفاظها ، كما يحفظ عوام المسلمين ألفاظ القرآن ، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك ؛ ثم إذا تواطأت طائفة أخرى على أن لا يذكروا ذلك أمكن ذلك ، ولكن إذا كانت الطوائف ممن لا يمكن تواطؤها على الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم .

وقد رأينا عند أهل الكتاب كتباً يدعون أنها عندهم من النبى صلى الله عليه وسلم بخط على بن أبى طالب ، فيها أمور تتعلق بأغراضهم ، وقد التبس أمرها على كثير من المسلمين ، وعظموا ما فيها وأعطوا أهل الكتاب ما كتب لهم فيها معتقدين أنهم ممتثلين ما فيها ، فلما وصلت إلى من وصلت إليه من علماء المسلمين

بينوا كذبها بطرق معلومة بالتواتر ؛ مثل ذكرهم فيها : شهد بما فيها كعب ابن مالك الحبر على النبي صلى الله عليه وسلم ، يعنون كعب الأحبار .

وكعب الأحبار إنما أسلم على عهد عمر بن الخطاب لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه كعب بن مانع ، ولكن في الأنصار كعب بن مالك الشاعر الذي أنزل الله توبته في سورة براءة فظن هؤلاء الجهال أن هذا هو ذاك .

ومثل ذكرهم شهادة سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن ، ذكروا شهادته عام خيبر ، وقد اتفق أهل العلم أنه مات عقب غزوة الخندق قبل غزوة خيبر بمدة ، وأمثال ذلك .

وأما حجتهم الداحضة بقولهم : إن جميع كتب التوراة التي في العالم من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات موجودة باثنين وسبعين لسانا بلفظ واحد وقول واحد ، فهل يقول عاقل من العقلاء أنه علم ذلك ؟ وأنه علم أن كل نسخة من النبوات الأربعة وعشرين بأحد الألسنة الاثنين وسبعين موافقة لكل نسخة في سائر الألسنة ، ولو ادعى مدع أن كل نسخة من التوارة في العالم باللسان العربي ، أو كل نسخة من الإنجيل في العالم باللسان العربي أو كل نسخة في العالم من الزبور باللسان العربي موافقة لجميع النسخ العربية الموجودة في زوايا العالم لكان قد ادعى مالا يعلمه ولا يمكنه علمه ، فمن أين له ذلك ؟

وهل رأى كل نسخة عربية بهذه الكتب ، أو أخبره من يعلم صدقه أن جميع النسخ العربية الموجودة في العالم موافقة لهذه النسخة ؟ . وكذلك إذا ادعى ذلك في اللسان اليوناني ، والسرياني ، والرومي ، والعبراني ، والهندي ، فإن كان في العالم بكل كتاب من هذه اثنان وسبعون لسانا يدعون اتفاق نسخ كل لسان من جنس دعوى اتفاق النسخ العربية ؛ فكيف إذا ادعى اتفاق النسخ بجميع الألسنة ؟

وهب أنه يمكن أن يقال ذلك في نسخ لسان نقلها أهله ، والناطقون به ،

فكيف يمكن دعواه فى لسان كثر الناطقون به وانتشر أهله؟ وليس هذا كدعوى اتفاق مصاحف المسلمين بالقرآن ، فإن القرآن لا يتوقف نقله على المصاحف ، بل القرآن محفوظ فى قلوب ألوف مؤلفة من المسلمين ، لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل ، فلو عدم كل مصحف فى العالم لم يقدح ذلك فى نقل لفظ من ألفاظ القرآن ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه قلّ أن نجد من أهل الكتاب أحداً يحفظ كتابا من هذه الكتب ، فقلّ أن يوجد من اليهود من يحفظ التوراة .

وأما النصارى فلا يوجد فيهم من يحفظ التوارة والإنجيل والزبور والنبوات كلها فضلا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لسانا، وإن وجد ذلك فهو قليل لا يمتنع عليهم لا الكذب ولا الغلط ، فتبين أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوى الأمور فى عدم العلم بتماثل مافيها من الألفاظ ، وأن القرآن إذا كان منقولا بلغة واحدة ، وذلك اللسان يحفظه خلق كثير من المسلمين فكان ذلك مما يبين أن القرآن لا يمكن أحداً أن يغير شيئاً من ألفاظه ، وإن أمكن تغيير بعض ألفاظ التوراة والإنجيل ، عند كثير من أهل الكتاب .

والمسلمون لا يدعون أنه غيّر جميع ألفاظ جميع النسخ بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم كما ظنه بهم هؤلاء الجهال ، بل إنما ادعوا ما يسوغه العقل ، بل ويظهر دليل صدقه ، ولكن هؤلاء جهال ادعوا العلم ، بأن جميع النسخ بجميع الألسنة بجميع الكتب بلفظ واحد فادعوا ما لا يمكن أحداً علمه ، وادعوا ما يعلم بطلانه .

فصل فى كيفية التغيير الذى حدث فى الإنجيل

وقد ظهر الجواب عن قولهم فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لسانا ، أو من هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على الدنيا جميعها من أربع زوايا العالم حتى غيرها ، وإن كان مما أمكنه جمعها كلها أو بعضها .

فهذا مالا يمكن إذ جميعها قول واحد ونص واعتقاد واحد .

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوه :

أحدها : أنا لم ندع تغييرها بعد أن صارت بهذه الألسن ، وانتشرت بها النسخ ، بل لا ندعى التغيير بعد انتشار النسخ فيما ليس من كتب الأنبياء ، مثل كتب النحو والطب والحساب والأحاديث والسنن المنقولة عن الأنبياء مما نقل فى الأصل نقل أحاد ، ثم صارت النسخ به كثيرة منتشرة، فإن أحداً لا يدعى أنه بعد انتشار النسخ بكتاب فى مشارق الأرض ومغاربها حكم إنسان على جميع المعمورة ، وجمع النسخ به وغيرها .

ولا ادعى أحد مثل ذلك فى التوارة والإنجيل ، وإنما ادعى ذلك فيها ، لما كانت النسخ قليلة : إما نسخة وإما اثنتين وإما أربعة ونحو ذلك ، أو ادعى تغيير بعض ألفاظ النسخ ، فإن بعض النسخ يمكن تغييرها .

ونسخ التوراة والإنجيل والزبور موجودة اليوم وفى بعضها اختلاف ، لكنه اختلاف قليل والغالب عليها الاتفاق .

وذلك يظهر بالوجه الثانى أن قولهم : إن جميعها قول واحد ، ونص واحد، واعتقاد واحد ليس كما قالوه ، بل نسخ التوراة مختلفة فى مواضع .

وبين توراة اليهود والنصارى والسامرة اختلاف ، وبين نسخ الزبور اختلاف أكثر من ذلك ، وكذلك بين الأناجيل ، فكيف بنسخ النبوات ؟

وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم باسمه ، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أرَ ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون فى بعض النسخ من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس فى أخرى .

الوجه الثالث : أن التبديل فى التفسير أمر لاريب فيه ، وبه يحصل المقصود فى هذا المقام ، فإنا نعلم قطعاً أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيما كان موجودا فى زمنه من التوراة والإنجيل ، كما قال تعالى ﴿ الذى يجدونَهُ مكتوباً عندَهم فى التَّورَاةِ والإنجيلِ ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

ولا ريب أن نسخ التوراة والإنجيل على عهده كانت كثيرة منتشرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلابد من أحد الأمرين :

إما أن يكون غير اللفظ من بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة .

و إما أن يكون ذكره فى جميع النسخ ، كما استخرجه كثير من العلماء ممن كان من أحبار اليهود والنصارى ، وممن لم يكن من أحبارهم استخرجوا ذكره والبشارة به فى مواضع كثيرة متعددة من التوراة والإنجيل ونبوات الأنبياء ، كما هو مبسوط فى موضع آخر .

ومن قال : إن ذكره موجود فيها أكثر من هذا وأصرح فى بعض النسخ ، لايمكن هؤلاء دفعه بأن يقولوا : قد اطلعنا على كل نسخة فى العالم بالتوراة والإنجيل فى مشارق الأرض ومغاربها فوجدناها على لفظ واحد ، فإن هذا لايقوله إلا كذاب ، فإنه لايمكن بشراً أن يطَّلِع على كل نسخة فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما لايمكنه أن يغير كل نسخة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلو لم يعلم اختلاف النسخ لم يمكنه الجزم باتفاقها فى اللفظ ، فكيف وقد ذكر الناس المطلعون عليها من اختلاف لفظها ما يبين به كذب من ادعى اتفاق لفظها ؟

فصل فى قوله تعالى « لكم دينكم ولى دين »

قالوا : ثم وجدنا فى هذا الكتاب ، ما هو أعظم من هذا برهاناً ، قوله فى سورة الشورى ﴿ وقل آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ وأمرتُ لأعدِلَ بينكم الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم لا حجةَ بيننا وبينكم الله يجمعُ بيننا وإليهِ المصيرُ ﴾ .

وأما لغير أهل الكتاب فيقول : ﴿ قُل يا أيها الكافرونَ * لا أعبدُ ماتعبدون*ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ، [سورة الكافرون : ١-٣]السورة كلها.

والجواب : أما قوله ﴿ وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتابٍ وأمرتُ لأعدلَ بينكم الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حُجَّةَ بيننا وبينكم ﴾ .

فهذه الآية مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى بهِ نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصَّينا بهِ إبراهيم وموسى وعيسى أن أقِيمُوا الدين ولا تتفرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشركينَ ما تدعوهم إليهِ الله يجتبى إليه مَنْ يشاء ويهدى إليه مَنْ يُنيبُ * وما تفرَّقُوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمةٌ سبقت من ربك إلى أجلٍ مُسمًّى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مُريب * فلذلك فادعُ واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتابٍ وأمرت لأعدل بينكم الله ربُّنا وربكم ﴾ الآية ، [سورة الشورى ١٣ ـ ١٥] .

فقد أخبر أنه شرع لنا من الدين ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه، كما قال تعالى فى الآية الأخرى. ﴿فأقم وجهكَ للدين حنيفاً فطرةَ اللهُ التى فطر الناسَ عليها لا تبديل لخلقِ الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناسِ لا يعلمون * مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ

ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠ ـ ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإنَّ هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون * فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزبٍ بما لديهم فَرِحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ـ٥٣].

ثم أخبر عن تفرق الذين أوتوا الكتاب كتفرق اليهود والنصارى، وتفرق فرق اليهود ، وفرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية .

ثم قال : ﴿ وإن الذين أورِثوا الكتابَ مِنْ بعدهم ـ أولئك المفترقين ـ لفى شكٍّ منه مُريبٍ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤] .

وهكذا توجد عامة اليهود والنصارى فى شك من ذلك مريب، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِف فيهِ ولولا كلمةٌ سبقتْ مِنْ ربك لقضِى بينهم وإنهم لفى شكٍّ منه مُريبٍ ﴾ ، [سورة هود : ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّه لهم وإن الذينَ اختلفوا فيه لفى شكٍّ منه ما لهمَ به من علم إلا اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] . ثم قال تعالى : ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ﴾ [سورة الشورى : ١٥] . إلى الدين الذى شرعة الله لنا ﴿ واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] .

وهذا يتناول أهواء أهل الكتاب ، كما يتناول أهواء المشركين ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم قل إنَّ هُدى الله هو الهدى ولَئِنْ اتّبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالكَ منَ الله من ولىّ ولا نصيرٍ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تبعُوا قِبلتكَ

وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٥] .

كما صرح بنهيه عن اتباع أهواء المشركين فى قوله تعالى : ﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ ، [سوره الأنعام : ١٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ ﴾ حق ، فإن الله أمره وجميع الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله ، وكذلك قوله : ﴿ وأمرتُ لِأعدلَ بينكم ﴾ ، فإن الله أمره أن يعدل بين جميع الخلق ، وقوله : ﴿ الله ربُّنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ . هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين ، وأهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ وإن كذّبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئونَ مما أعملُ وأنا برىءٌ مما تعملونَ ﴾ ، [سورة يونس : ٤١] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجُّوننا فى الله وهو ربُّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ونحن له مخلصونَ ﴾ ، [سورة البقرة ١٣٩] .

وكذلك قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرونَ * لا أعبُدُ ما تعبدونَ * ولا أنتم عابدونَ ما أعبُدُ * ولا أنا عابدٌ ماعبدتمْ * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم وَلِيَ دِينِ ﴾ ، [سورة الكافرون : ١ ـ ٦] . فإن هذه الكلمة كقوله : ﴿ لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعملُ وأنا برىءٌ مما تعملونَ ﴾ هى كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله ، فإن حرف « اللام » فى لغة العرب يدل على الاختصاص ، فقوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ يدل على أنكم مختصون بدينكم ، لا أشرككم فيه ، وأنا مختص بدينى ، لا تشركونى فيه كما قال ﴿ لى عملى ولكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء ، مما تعملون ﴾ .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ هي براءة من الشرك ، وليس في هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة ، بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم .

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط ، ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى : ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال : هذه الآية منسوخة ، فيكون قد رضى بدين الكفار ، وهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، ما رضى قط بدين الكفار ، لا من المشركين ، ولا من أهل الكتاب .

وقوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ لا يدل على رضاه بدينهم ، بل ولا على إقرارهم عليه ، بل يدل على براءته من دينهم ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذه السورة براءة من الشرك » .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ .

وقد يظن بعض الناس أيضاً أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ الآية أنى

لا آمر بالقتال ، ولا أنهى عنه ، ولا أتعرض له بنفى ولا إثبات ، وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصون به ، وأنا برىء منه ودينى لى وأنا مختص به ، وأنتم برآء منه .

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال ، كما قال تعالى عن الخليل : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] . وقد قال تعالى : ﴿ وكل إنسانٍ ألزمناهُ طائرهُ فى عُنُقه ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٣] . وهو ما طار عنه من خير وشر .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكسبُ كل نفسٍ إلا عليها ، ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [سورة البقرة . ٢٨٦] . وقال تعالى : ﴿إن أحسنتُمْ أحسنتُمْ لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧] . بل قال تعالى لنبيه : ﴿ واخفض جناحك لِمَنِ اتبعك من المؤمنين ، فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىءٌ مما تعملون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٥ ، ٢١٦] . فإذا كان قد برّأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟

فصل فى أن دين الأنبياء كلهم واحد

وأما قوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون ، قد شهد عليهم بالكفر ، وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ، ويوجب جهادهم قال تعالى :

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهلِ الكتاب والمشركينَ منفكين حتى تأتيهم البينة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ ؛ ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢،٧٣] .وقال تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] . وحرف «من» فى هذه المواضع لبيان الجنس فتبين جنس المتقدم ، وإن كان ما قبلها يدخل فى جميع الجنس الذى بعدها ، بخلاف ما إذا كانت للتبعيض ، كقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١] . فإنه يدخل فى الذين كفروا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم جميع المشركين وأهل الكتاب .

وكذلك دخل فى الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته ، ولم يؤمنوا به ، وكذلك قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ ، [سورة النور : ٥٥] . وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم ، ولكن لم يبق فى الجنس إلا المذكورون ، كما يقول : هذا رجل من بنى عبد المطلب ، وإن لم يكن بقى منهم غيره .

وصفهم بالشرك، وبأنهم يعبدون غير الله ، كما قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١]. فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أرباباً ، واتخذوا المسيح ربا ، وما أُمروا إلا

ليعبدوا إلهاً واحداً ، وهؤلاء باتخاذهم غيره أرباباً عبدوهم فاشركوا بالله سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد أخبر أيضاً أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فإنه كافر ، وقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم ﴾ .

فقد وبخ أهل التثليث على أنهم يعبدون مالا يملك لهم ضراً ولا نفعاً،والله هو السميع العليم ، فدخلوا فى قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

كما دخل فى ذلك غيرهم من الكفار ، لاسيا وقد دخل فى ذلك اليهود ، وهم أولى بالدخول من غيرهم ، فإن قوله : ﴿ما تعبدون﴾ يتناول صفات المعبود ، والإله الذى يعبده المؤمنون هو الإله الذى أنزل التوراة والإنجيل والقرآن ، وأرسل موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه .

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى ، وهذا كقوله :

﴿ قالُوا نعبدُ إلهكَ وإله آبائكَ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٣] . فهذا الإله الذى يعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ليس هو إله المشركين الذى يعبدونه ، وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه ، فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو برىء منه فلا يخلصون له الدين ، فعبدوا معه آلهة أخرى ، إن لم يستكبروا عن عبادته . وإله العبد الذى يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذى يستحق أن يعبده ، وهو لا يعبده ، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته ، فهذا هو الذى فيه : ﴿ لا أعبد ماتعبدون ﴾ والشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود .

فصل فى قوله تعالى ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾

وأما قوله : ﴿ لا حجةَ بيننا وبينكمُ ﴾ الآية ، [سورة الشورى: ١٥] فهذا ليس خطاباً للنصارى خصوصاً ، بل هو خطاب للجميع ، وهؤلاء النصارى ظنوا أن معنى هذا لاتحاجوا أهل الكتاب، كاظنوا فى قوله تعالى : ﴿ ولاتجادلُوا أهلَ الكتابِ إلا بالتى هى أحسنُ إلا الذينَ ظلموا منهُمْ ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] إن معناه . لا تجادلوا أهل الكتاب ـ النصارى ـ إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا أى اليهود .

وهذا تحريف كلم الله عن مواضعه، وهو تشبيه بتحريفهم لما عندهم من التوراة والإنجيل والزبور ، وسائر النبوات ، فإنهم أعظم تسلطاً على تحريف معانيها منهم على تحريف معانى القرآن ، إذ كان القرآن له أمة تحفظه ، وتعرف معانيه وتذب عنه من يحرِّف لفظه أو معناه .

وأما تلك الكتب فليس لها من يذب عن لفظها ومعناها ، فلهذا عَظُم تحريفهم لها ، وكان أعظم من تحريفهم للقرآن .

ومما يبين أن هذا الخطاب ليس مختصاً بالنصارى أن هذه السورة مكية ،

والسورة المكية كانت تتناول من لا يقرأ الكتاب ، لا تختص بأهل الكتاب ، بل كانت تعم الأمم أو تختص بالمشركين .

والسور المدنية خطابها تارة لأهل الكتاب ، وتارة تختص بالمؤمنين ، وتارة تعم ، وقد قال تعالى : ﴿ كَبُرَ على المشركينَ ما تدعُوهم إليهِ ، اللهُ يَجتَبِي إليهِ من يشاء ويهدِي إليهِ من يُنيبُ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما تفرقُوا إلاّ من بعدِ ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ، ولَوْلاَ كلمةٌ سبقتْ من ربِّكَ إلى أجل مسمّى لقُضِي بينهم ، وإن الذينَ أُورثُوا الكتابَ من بعدِهم لفِي شَكٍّ منهُ مُريبٍ ﴾ .

فالخطاب إما أن يعم المشركين وأهل الكتاب ، أو يخص المشركين ، وأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، و بكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارى به .

وأما قوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ ، فهو نظير قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، وقوله : ﴿ فإن حاجُّوكَ فقُلْ أسلمتُ وَجْهِى لله ومن اتَّبعن ، وقُلْ للذين أوتُوا الكتاب والأميين : ءأسلمتم ؟ فإنْ أَسلَمُوا فقد اهتَدَوْا وإن تَوَلَّوا فإنما عليكَ البلاَغُ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] .

فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل ، كقوله . ﴿ لئلا يكون عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ [سورة البقرة : ١٥٠] . فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة ، كقول المشركين لما حوّلت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلتكم ، فسوف يعود إلى ملتكم ، فهذه حجة داحضة من الظالمين .

ومما يبين ذلك قوله بعد ذلك : ﴿ والذين يُحاجُّونَ فى اللهِ مِنْ بَعْدِ ما استُجيبَ لَهُ حُجَّتهم داحضَةٌ عِندَ ربهم وعليهم غَضَبٌ ولهم عذابٌ شَدِيدٌ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٦] .

فسماها حجة وجعلها داحضة وهؤلاء الذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب .

فهم يحاجُّون المؤمنين ليردوهم عن دينهم ، وقال عن النصارى : ﴿ فمَنْ حاجَّكَ فيه مِنْ بعد ما جاءكَ مِنَ العلمِ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكُمْ ونِساءَنا ونِساءَكُمْ وأنفُسَنا وأنفسكم ، ثمَّ نبتهل فَنَجْعل لعنتَ اللهِ عَلَى الكاذِبينَ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] .

فكان الكفار يحاجون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم ، كما كانوا يؤذونهم فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

ومحاجتهم للمؤمنين من باب الظلم لهم ، والعدوان عليهم ، وقول الباطل . فأمره تعالى أن يقول : ﴿ لاحجة بيننا وبينكم ﴾ ، أى ليس لكم أن تظلمونا ، وتعتدوا علينا بحجتكم الداحضة ، وليس المراد بذلك أنا نحن لا نحاجكم ، وندعوكم إلى الحق بالحجج الصحيحة .

فإنه تعالى قال : ﴿ ادع إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالَّتى هىَ أحسنُ ﴾ ، [سورة النحل : ١٢٥] .

فأمره تعالى أن يجادل أهل دعوته مطلقاً من المشركين ، وأهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تجادِلُوا أهلَ الكتابِ إلاّ بالتى هِيَ أحسنُ إلاّ الذين ظلمُوا مِنْهُم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] .

فإن الظالم باغ معتد مستحق للعقوبة ، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة ، لايجب الاقتصار معه على التى هى أحسن ، بخلاف من لم يظلم ، فإنه لايجادل إلا بالتى هى أحسن ، وأهل الكتاب اسم يتناول اليهود والنصارى ، كما فى نظائره من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وطعامُ الذينَ أوتوا الكتابَ ﴾ ، الآية

وقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ ، وأمثال ذلك .

والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل ، والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالماً .

وذلك مثل الألد فى الخصام قال تعالى: ﴿ ومنَ النَّاسِ من يُعجِبُكَ قولُهُ فى الحياة الدنيا ويُشهِدُ اللهَ على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصامِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤]. وقال : ﴿ يجادِلُونكَ فى الحقِّ بعدَ ما تبيَّنَ ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال : ﴿ها أنتم هؤلاء حاجَجْتم فيما لكم به علمٌ فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليسَ لكم به علمٌ ؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] .

فصل فى دعوى النصارى أن الإسلام دين عربى

وقولهم : إنه لم يقل : كونوا له مسلمين ، ولكن ونحن أى عنه وعن العرب التابعين له ، ولما أتى به وجاء فى كتابه .

فقال لهم : هذا ونظائره كلام من لم يفهم القرآن ، بل ولا يفهم كلام سائر الناس ، فإنه إذا عرف من صاحب كتاب ، يقول إنه منزل من الله ، أو يقول إنه صنفه هو أنه يدعو قوما بالأقوال الصريحة الكثيرة ، والأعمال البينة الظاهرة كان سكوته عن دعائهم فى بعض الألفاظ لا ينافى دعاءهم له .

لكن إن كان حكيما فى كلامه كان للسكوت عن دعائهم فى بعض المواضع حكمة تناسب ذلك ، وهذا كقوله تعالى ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، أفتراه لما أمر أمته أن يقولوا: ﴿ونحنُ لهُ مخلصُونَ ﴾ ، لم يكن أهل الكتاب مأمورين بالإخلاص لله ، وقد ذكر أمر أهل الكتاب بالإخلاص فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما تفرَّقَ الذينَ أوتُوا الكتابَ إلا مِنْ بعدِ ما جاءتْهم البيِّنةُ * وما أُمِرُوا إلاَّ ليعبدُوا اللهَ

مُخلصينَ لهُ الدِّينَ حُنفاء ويُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ وذلك دِينُ القيِّمةِ ﴾ ، [سورة البينة : ٤ ، ٥] .

وكذلك دعاهم إلى الإسلام ، وتوعدهم على التولى عنه فى مثل : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ والملائِكةُ وأُولُوا العِلْمِ قَائِمًا بالقِسْطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وما اختَلفَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ إلاّ مِنْ بعدِ ما جاءهم العِلمُ بغياً بينهمْ ومَنْ يكفر بآياتِ الله فإنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ * فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهى للهِ ومَنِ اتبعنِ وقل للذين أُوتوا الكتابَ والأميين : ءأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتَدَوا وإن تولّوا فإنما عليكَ البلاغُ والله بصيرٌ بالعبادِ ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ — ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يرغبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلا من سَفِهَ نفسَه ولقد اصطَفينا فى الدنيا وإنه فى الآخرةِ لمنَ الصالحينَ * إذ قال له ربه : أسلم ، قال أسْلَمتُ لربِّ العالمينَ * ووصَّى بها إبراهيمُ بَنيهِ ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكمُ الدِّين فلا تمُوتنَّ إلا وأنتم مسلمون * أم كُنتم شُهداء إذْ حَضَرَ يعقُوبَ الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدونَ من بعدِى ؟ قالوا نعبُد إلهك وإله ءابائك إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً وَاحداً ونحنُ له مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٠ — ١٣٣] .

فقد بين سبحانه أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، أى سفه نفساً أى كانت نفسه سفيهة جاهلة ، هذا أصح القولين فى ذلك ، وهو مذهب الكوفيين من النحاة : يجوِّزون أن يكون المنصوب على التمييز معرفة ، كما يكون نكرة . ثم أخبر عنه أنه : ﴿ قال له ربُّه : أسلمْ ، قال : أسْلمتُ لِربِّ العالمينَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣١] .

وذكر أن إبراهيم وصى بها بنيه ، ويعقوب وصى بها بنيه أيضاً كلاهما قال

لبنيه : يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٢] .

ثم ذكر أن يعقوب عند موته: ﴿قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ، فهولاء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب كلهم على الإسلام ، وهم يأمرون بالإسلام ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَقالُوا كونُوا هوداً أو نصارَى تهتدُوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، [سورة البقرة: ١٣٥] . ثم قال: ﴿ قولوا ءامنا بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهِيمَ وإسماعيلَ وإسحق ويعقوبَ والأسباطَ وما أُوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مُسلمُونَ ﴾ ، [سورة البقرة ١٣٦] .

ثم قال : ﴿ فإنْ آمنُوا بمثل ما آمنتُمْ بهِ فَقَدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوْا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكَهُمْ الله وهو السميعُ العليمُ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٧] .

فقد أخبر أنهم إن تولوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به المتضمن قولكم : ﴿ ونحنُ له مسلمونَ ﴾ فإنما هم شقاق ، أى مشاقون لله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذى أخرجَ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارِهم لأولِ الحشر ماظننتم أن يخرجُوا وظنوا أنهم مانعتُهم حُصونُهم من اللهِ فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسبوا وقذفَ فى قلوبهم الرُّعبَ يُخرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدِى المؤمنينَ فاعتبروا يا أُولى الأبصارِ ﴾ إلى قوله ﴿ ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسوله وَمَن يشاقِّ الله فإن الله شديدُ العقابِ ﴾ ، [سورة الحشر : ٢ ، ٤] .

وقوله تعالى ﴿ونحن له مسلمونَ ﴾ فى العنكبوت [٤٦] فهو مثل قوله ﴿ونحن له مسلمون﴾ فى البقرة [١٣٣] مع دعائهم إلى الإسلام ، وكذلك فى سورة آل عمران [٦٤] فى قوله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا

الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله،فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فقد دعاهم أولا إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده ، لا شريك له وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، كما قال تعالى ﴿ اتّخذُوا أحْبارَهُم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريمَ وما أُمروا إلا ليعبُدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سُبحانه عما يُشركونَ ﴾ ، [سورة التوبة . ٣١] .

ثم قال تعالى ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدُوا بأنا مسلمونَ ﴾ .

وهذه الآية التى كتب بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم لما دعاه إلى الإسلام .

وقال فى كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين ﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ » .

فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فى كتابه الذى أرسله إليه ، وقال أيضاً فى آل عمران ﴿ ما كانَ لبشرٍ أن يؤتيَه اللهُ الكتابَ والحُكمَ والنبوّةَ ثم يقولَ للناس كونوا عباداً لى مِنْ دونِ الله ولكنْ كونوا ربّانيينَ بما كُنتم تعلّمُونَ الكتابَ وبما كنتم تدرُسُون * ولا يأمركم أن تتّخذُوا الملائكةَ والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعدَ إذ أنتم مُسلمونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فذكر التوحيد فى هذه الآية ، وكفّر من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً ،

فكيف بمن اتخذ الأحبار والرهبان أربابًا ، ثم ذكر الإيمان بخاتم الرسل ، فقال :

﴿ وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّين لَمَا آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لِمَا معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصُرُنَّهُ قال : ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِي ، قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولّى بعدَ ذلكَ فأولئك هم الفاسقونَ * أفغيرَ دينِ اللهِ يبغونَ وله أسلمَ مَن في السمواتِ والأرضِ طوعًا وكَرْهًا وإليهِ يرجعونَ * قل ءامنا باللهِ وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسى وعيسى والنبيُّونَ مِن ربهم لا نُفرق بين أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمونَ * ومَن يبتغ غيرَ الإسلامِ دينًا فلن يقبلَ منه وهو في الآخرة مِن الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران ٨٨ — ٨٥] .

فقد ذكر أنه أخذ الميثاق على النبيين وأممهم ﴿ مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ .

وهذا يتناول الأمر لكل أهل كتاب إذا جاءهم رسول ثانى أن يؤمنوا به وينصروه ، وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة مهما كان .

ولا يقولون نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة ، لا نؤمن بالرسول الذى جاءنا ، وتخص الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه خاتم الرسل وهو آخر رسول جاء ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، فوجب على من جاءه أن يؤمن به وينصره ، وإن كان عنده من الكتاب والحكمة ما كان .

وهذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء ، وأخذوه على أممهم ، ثم قال ﴿ أفغير دينِ اللهِ يَبغُونَ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] وهذا هو دين الإسلام الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، فمن ابتغى غيره فقد ابتغى غير دين الله وهذا هو دين الإسلام الذى قال : ﴿ ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبل منه ، وهو في الآخرة مِن الخاسرين ﴾ .

فصل فى مجادلة أهل الكتاب

وأما فى قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ .

أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذى أوجبه لله عليهم ، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله ، وتقوم به الحجة على المخالفين ، فإن هذا من الجدال بالتى هى أحسن ، وهو أن يقول كلاماً حقاً يلزمك ، ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه .

كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، فإنا مشتركون فى أنه ربنا كلنا وأن عمل كل عامل له لا لغيره وامتزنا نحن بأنا مخلصون له ، وأنتم لستم مخلصين له . فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم ، وأن أعمالنا صالحة مقبولة وأعمالكم مردودة .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فأمره لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن إقامة الحجة عليهم ، كما كان المسيح عليه السلام يقول .

فصل فى وعيد الله لأهل الـكتاب

بسبب ماأحدثوه فى كتبهم من تبديل

ثم قالوا : فأما الذين ظلموا فما يشك أحد فى أنهم اليهود الذين سجدوا لرأس العجل ، وكفروا بالله مرارا كثيرة ليست واحدة ، وقتلوا أنبياءه ورسله وعبدوا الأصنام ، وذبحوا للشياطين ، ليس حيوانات غير ناطقة فقط ، بل بنيهم و بناتهم حسب ماشهد الله عليهم قائلا على لسان داود النبى عليه السلام فى كتاب الزبور فى مزمور مائة وخمسة يقول : [ذبحوا بنيهم و بناتهم للشياطين ، وأراقوا دماً زكيا ، دم بنيهم و بناتهم الذين ذبحوا للمنحوتات بكنعان ، وقد تنجست الأرض بالدماء ، وتنجست أعمالهم ، وزنوا بضغائنهم ، وسخط الرب عليهم ، ورذّل ميراثهم] .

وقال أيضاً على لسان أشعيا النبى عليه السلام يقول الله فى بنى إسرائيل : [لم يسمعوا وصاياى ، لم يحفظوا كل ما أوصيتهم به ، بل غيروا و نقضوا الميثاق الذى كنت جعلته لهم إلى الأبد ، فلذلك أجلستهم عليهم الحزَن والخراب وأهلـكتهم وانقطع ممن يبقى منهم الفرح والسرور] .

هكذا قال الله على سكان البيت المقدس من بنى إسرائيل : [سأبدّدهم بين الأمم ، وفى تلك الأيام يرفعون الأمم أصواتهم ، و يسبحون الله و يمجدونه بأصوات عالية ، و يجتمعون من أقطار الأرض ، ومن جزائر البحر ، ومن البلدان البعيدة و يقدسون اسم الله ، و يرجعون إلى الله إله إسرائيل ، و يكونون شعبه . وأما بنو إسرائيل فيـكونون مبددين فى الأرض] .

وقال أشعيا النبى عليه السلام يقول الله : [يابنى إسرائيل نجستم جبلى المقدس ، فإنى سأفنيكم بالحرب وتموتون ، وذلك لأنى دعوتكم فلم تجيبوا ، وكلمتكم فلم تسمعوا ، وعملتم الشىء بين يدى] .

قال أشعيا أيضاً : [إن الله قد بغض بنى إسرائيل ، وأخرجهم من بيوتهم ، ومن بيته ، ولا يغفر لهم لأنهم لعنة ، وجعلوا لعنة الناس ، فلذلك أهلكهم الله ، و بددهم بين الأمم ، ولا يعود يرحمهم ولا ينظر إليهم برحمة إلى أبد الآبدين ، ولا يقربون لله قربانا فى ذلك اليوم ، وذلك الزمان ، ولا يفرح بنو إسرائيل لأنهم قد ضلوا عن الله عز وجل] .

وقال أرميا النبى عليه السلام : [كما أن الحبشى لا يستطيع أن يكون أبيضا ، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركون عادتهم الخبيثة ، ولذلك إنى لا أرحم ، ولا أشفق ، ولا أرق على الأمة الخبيثة ولا أرثى لها] .

وقال حزقيل النبى عليه السلام قال الله : [إنما رفعت يدى عن بنى إسرائيل وبددتهم بين الأمم ، لأنهم لم يعملوا بوصاياى ، ولم يطيعوا أمرى ، وخالفونى فيها ، فيما قلت لهم ، ولم يسمعوا لى] .

ومثل هذا القول فى التوراة ، وكتب الأنبياء ، وزبور داود شىء كثير يقرأها اليهود فى كنائسهم ، ويقرأونها ، ولا ينكرون منها حرفاواحداً ، ومثل ماهو عندهم ، وكذلك عندنا فى جميع الألسن .

والجواب أن يقال : أما كون اليهود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقابه ، فهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم منقول بالتواتر ، كما علم بالاضطرار والنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أن النصارى أيضاً ظالمون معتدون كافرون مستحقون لعذاب الله وعقابه ، وفى اليهود من الكفر ماليس فى النصارى ، وفى النصارى ماليس فى اليهود ، فإن اليهود بدلوا شريعة التوراة ، قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم ، فلما آتاهم كفروا به ، وكذبوه ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فباءوا بغضب على غضب .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ أفتؤمنونَ ببعضِ الكتاب وتكفرونَ ببعضِ

فما جزاء مَن يفعلُ ذلكَ منكم إلا خِزىٌ فى الحياةِ الدنيا ويوم القيامةِ يُرَدُّونَ إلى أشدِّ العذابِ وما الله بغافلٍ عما تعملون * أولئكَ الذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ فلا يُخففَ عنهمُ العذابُ ولا هم ينصرون * ولقد آتينا موسى الكتابَ وقفّينا مِن بعدِهِ بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيناتِ وأيدناه بروح القدسِ أفكلما جاءكم رسولٌ بما لاتَهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلونَ * وقالوا قُلوبُنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايُؤمنون * ولما جاءهم كتابٌ مِن عند اللهِ مُصدِّق لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتَرَوْا به أنفسهُم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزِّلَ الله مِن فضله على مَن يشاء مِن عبادِهِ فباءوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذاب مُهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ ، قالوا : نُؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل : فَلِمَ تقتلون أنبياء اللهِ مِن قبلُ إن كنتم مؤمنين ؟ * ولقد جاءكم موسى بالبيناتِ ثم اتخذتم العجلَ مِن بعدِهِ وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خُذوا ماآتيناكم بقوةٍ واسمعوا ، قالوا : سمعنا وعصينا وأُشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾

[سورة البقرة : ٨٥ ـ ٩٣]

فغضب عليهم أولا بتكذيب للمسيح ، وثانياً بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى : ﴿ ضُربت عليهم الذِّلة أين ماثُقِفُوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ وباءوا بغضبٍ من الله ، وضُربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم

كانوا يكفُرُون بآياتِ اللهِ ويقتلون الأنبياء بغيرِ حقٍّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٢] . ﴿ كانوا لا يتناهَونَ عن منكرٍ فعلوه لَبئسَ ما كانوا يفعلون ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٩] .

وقال تعالى ﴿ قُل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عندَ الله مَن لعَنَه اللهُ وغضبَ عليهِ وجعلَ مِنهم القِرَدَةَ والخنازِيرَ وعبَدَ الطاغوتَ ﴾ ، [سورة المائدة ٦٠] .

فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه جعل منهم القردة والخنازير ، ومثل هذا فى القرآن كثير لكن قول القائل إنهم المرادون بقوله ﴿ إلاّ الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦]. فى قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا ﴾ غلط بيّن ، ولهذا كان باطلا باتفاق المسلمين.

فإن قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ نهى عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتى هى أحسن، وقوله ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ من الطائفتين جميعاً .

ولهذا كان الواجب على المسلمين ، إذا جادلهم اليهودى والنصرانى أن يجادلوه بالتى هى أحسن ، إلا من ظلم من الطائفتين ، فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد أخرى ، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء وهؤلاء ، فجاهد النبى صلى الله عليه وسلم اليهود الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها وقريباً منها ، كما جاهد بنى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، وأهل خيبر ، وأهل وادى القرى وغيرهم .

وكما جاهد النصارى عام تبوك غزاهم بالشام عربهم ورومهم ، وأغزاهم قبل ذلك نوابه : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وأمر بغزوهم فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون .

والنبي صلى الله عليه وسلم لما قدم وفد نجران جادلهم صلى الله عليه وسلم في مسجده بالتي هي أحسن ، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلى المباهلة فامتنعوا عن مباهلته ، وأقروا بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما تقدم ذكر ذلك مفصلا فجادل بعضهم بالتي هي أحسن ، والظالم منهم عاقبه وجاهده ، كما عاقب الظالم من اليهود .

ومن أعجب الأشياء قولهم : ﴿ وأما الذين ظلموا ﴾ فلا يشك أنهم اليهود، فإن هذا من جنس قولهم ، ثم وجدونا في الكتاب أعظم من هذا برهانا .

وهو قوله في سورة الشورى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ كما تقدم، وهي من جنس قولهم في قوله ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢و٣] .

إنه عنى بالكتاب : الإنجيل ، والذين يؤمنون بالغيب : النصارى ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك : هم المسلمون ، وزعمهم أن قولهم هذا بين ظاهر .

وتفاسير النصارى للكتب الإلهية فيها من التحريف لكلمات الله ، والإلحاد في أسماء الله وآياته ما يطول وصفه ، ولا ينقضي التعجب منه ، ولكن إقدامهم على تفسير القرآن بالإلحاد والتحريف أعجب وأعجب ، كقولهم: إن محمداً صلى الله عليه وسلم ذكر أنه لم يرسل إليهم ، وأنه أثنى على الدين الذي هم عليه بعد النسخ والتبديل بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم ، وأن قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . [سورة الفاتحة:٧] ، أراد به النصارى، وقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا﴾ [سورة الحديد : ٢٥] أراد به الحواريين ، وقوله « وأنزلنا معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس » أراد به الإنجيل ، فإن هذا من الكذب الظاهر ،

من الـكذب الظاهر ، والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه أراد هذه الأمور ، ما هو من جنس افترائهم على الأنبياء ، فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، وأن التوراة والزبور وغيرها من الـكتب أخبرت بذلك ، ثم يأتون إلى ما يعلم كل عاقل أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرده ، فيقولون : إنه لا يشك فيه واحد ، وأنه قول ظاهر بيّن ، وكل من عرف حال محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من القرآن والدين يعلم علماً يقينياً ضروريا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يجعل النصارى مؤمنين دون اليهود ، بل كان يكفر الطائفتين ، ويأمر بجهادهم ، ويكفر من لم ير جهادهم واجباً عليه .

وهذا مما اتفق عليه المسلمون ، وهو منقول عندهم عن نبيهم نقلا متواتراً ، بل هذا يعلمه من حاله للموافق والمخالف ، إلا من هو مفرط فى الجهل بحاله ، أو من هو معاند عناداً ظاهراً .

فصل فى كيفية الإيمان بما جاء به الأنبياء

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدل على كفر اليهود ، فهذا لا ننازعهم فيه ، ولا حاجة بنا إلى الاستدلال بما نقلوه ، وإن كان فيما يثبت عن الأنبياء ما يبين كفرهم لما بدلوا دين موسى عليه السلام ، كما كفر النصارى لما بدلوا دين المسيح .

فهذا حق موافق لما أخبر به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، فإنا قد علمنا كفرهم من جهة لا نشك فى صدقها ، وما أخبرونا به عن الأنبياء إن علمنا صدقهم فيه صدقناهم فيه ، وإن علمنا كذبهم فيه كذبناهم فيه ، وإن لم نعلم صدقه ولا كذبه لم نصدقه ولم نـكذبه ، بل نقول ﴿ آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليـكم وإلهنا وإلهـكم واحدٌ ونحن له مسلمونَ ﴾ .

فإن الإيمان بجميع ما أوتى النبيون حق واجب ، لـكن وجوب التصديق فى النبي المعين الذى لم نعلمه من غيرهم يقف على مقدمتين :

أن يكون اللفظ قد قاله النبي .

وأن يكون المعنى الذى فسروه به مراداً للنبي الذى تكلم بذلك القول ، فلابد من الإسناد ودلالة المتن .

وهاتان المقدمتان ، لابد منهما فى جميع المنقول عن الأنبياء .

وقد يحتاج إلى مقدمة ثالثة فى حق من لم يعرف اللغة العبرية ، فإن موسى وداود والمسيح وغيرهم إنما تكلموا باللغة العبرية ، فمن لم يعرف بها ، وإنما يعرف بالعربية أو الرومية ، لابد أن يعرف أن المترجم من تلك اللغة إلى هذه قد ترجم ترجمة مطابقة .

فصل فى غلو النصارى فى الدين

وأما قولهم : نحن النصارى فلم نعمل شيئاً مما عملته اليهود ، فيقال لهم : الكفر والفسوق والعصيان لم ينحصر فى ذنوب اليهود ، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم فلكم من الأقوال والأعمال ما بعضه أصعب من كفر اليهود ، وإن كنتم أنتم ألين من اليهود وأقرب مودة ، فأنتم أيضاً أجهل وأضل من اليهود .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكادُ السماوات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبالُ هدًّا * أن دَعَوا للرحمن ولداً * وماينبغى للرحمن أن يتّخذَ ولداً * إن كلُّ من فى السمواتِ والأرضِ إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتيهِ يوم القيامةِ فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتابَ ولم يجعل له عوَجاً * قيماً لينذرَ بأساً شديداً من لَّدُنه و يبشّر المؤمنينَ الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً * ماكثينَ فيهِ أبداً * و ينذر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، [سورة الكهف ١ ـ ٥]

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليوم ِ الآخرِ ولا يُحرِّمون

ـمة حرّم الله ورسوله ولا يَدِينون دينَ الحق من الذين أُوتوا الـكتاب حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا مِنْ قبل قاتلهم الله أنى يُؤفـكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الـكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبارِ والرهبانِ ليأكلون أموال الناس بالباطل و يصدُّون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة ٣٢ ـ ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حَظًّا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامةِ وسوف ينبِّئُهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقال تعالى لما قص قصة المسيح عليه السلام : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتّخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيـكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ * فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم * أسمع بهم وأبصر يومَ يأتوننا لـكنِ الظّالمون اليومَ فى ضلالٍ مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ـ ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهلَ الـكتابِ لا تغلوا فى دينـكم ولا تتّبعوا أهواء

قوم قد ضلوا مِن قبلُ وأضلوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة . ٧٧] .

فصل فى غلو اليهود فى الدين

ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين ، وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء فى طرف ضلال ، وهؤلاء فى طرف يقابله ، والمسلمون هم الوسط .

وذلك فى التوحيد ، والأنبياء ، والشرائع، والحلال ، والحرام ، والأخلاق ، وغير ذلك .

فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق فى صفات النقص المختصة بالمخلوق التى يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم : إنه فقير ، وإنه بخيل ، وإنه تعب لما خلق السموات والأرض ، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق فى صفات الكمال المختصة بالخالق التى ليس له فيها مثل ، كقولهم إن المسيح هو الله ، وابن الله .

وكل من القولين يستلزم الآخر .

والنصارى أيضاً يصفون اللاهوت بصفات النقص التى يجب تنزيه الرب عنها ، ويسبون الله سباً ما سبه إياه أحد من البشر ، كما كان معاذ بن جبل يقول : لا ترحموهم فإنهم قد سبُّوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر .

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ مما شرعه ، كما يمتنع مالا يدخل فى القدرة ، أو ما ينافى العلم والحكمة .

والنصارى يجوِّزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله الذى بعث به رسله ، فيحللوا ما حرم ، كما حللوا الخنزير ، وغيره من الخبائث ، بل لم يحرموا شيئاً ، ويحرمون ما حلل ، كما يحرمون فى رهبانيتهم التى ابتدعوها ، وحرموا فيها من الطيبات ما أحله الله ، ويسقطون ما أوجب ، كما أسقطوا الختان وغيره ، وأنواع الطهارة من الغسل ، وإزالة النجاسة وغير ذلك .

ويوجبون ما أسقط ، كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبياؤه ـ

والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقص ، وأن يكون له مثل ، فوصفوه بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقالوا : ﴿ ألا له الخلقُ والأمرُ ﴾ ، [الأعراف : ٥٤] . فكما لا يخلق غيره لا يأمره غيره ، بل الدين كله له ، وهو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولا طاعة لأحد إلا طاعته ، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه ، وليس لغيره أن ينسخ شرعه .

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات ، وتحريم الطيبات ، والنصارى استحلوا الخبائث ، وملابسة النجاسات .

والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافا لليهود ، وحرم عليهم الخبائث ، خلافا للنصارى ، واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم .

والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم ، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً .

والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ، ولا ذكاء . واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة .

والمسلمون جمعوا بين العلم النافع ، والعمل الصالح بين الزكا والذكاء ، فإن الله أرسل رسله بالهدى ودين الحق ، فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والظهور يكون بالعلم والاسان ليبين أنه حق وهدى ، ويكون باليد والسلاح ليكون منصوراً مؤيدا ، والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ الذين يعرفون الحق ، ولا يعملون به كاليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ الذين يعملون و يعبدون ويزهدون ، بلا علم كالنصارى واليهود، قتلوا النبيين ، والذين يأمرون بالقسط من الناس ، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم .

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فلم يكذبوا الأنبياء ولا سبُّوهم ، ولا غلوا فيهم ولا عبدوهم ، وكذلك فى أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ، ولا غلوا فيهم . واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون . والنصارى لا يغضبون لربهم ولا ينتقمون .

والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيهم ، يغضبون لربهم ويعفون عن حظوظهم كما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ، ولا امرأة ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شىء قط فانتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله » .

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه ، قال «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى : أف قط ، وما قال لى لشىء فعلته : لِمَ فعلته ، ولا شىء لم أفعله . لِمَ لم تفعله ؟ وكان بعض أهله إذا عتبنى على شىء يقول : دعوه فلو قضى شىء لكان » .

هذا فى حق نفسه ، وأما فى حدود الله ، ففى الصحيحين عن عائشة « أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فيها أسامة ، فقال : يا أسامة ، أتشفع فى حد من حدود الله ، إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدود ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وقد وصف الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم أنفع الأمم للخلق ، فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهون عنِ المنكرِ وتؤمنونَ بالله ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لكان خيراً لهم مِّنهم المؤمنونَ وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] .

ففي أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر الذي فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ما لم يوجد مثله في الأمتين .

فصل في بطلان الاستدلال بالمتشابه

ثم قالوا : وكذلك جاء في الكتاب يقول : ﴿ لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قِسِّيسِين ورُهباناً وأنهم لا يَستكبرونَ ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٢] .

فذكر القسيسين والرهبان ، لئلا يقال : إن هذا قيل عن غيرنا فدل هذا على أفعالنا وحسن نياتنا ، ونفى عنا اسم الشرك بقوله : اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة .

والجواب أن يقال : تمام الكلام ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسولِ ترى أعينهم تفيضُ مِنَ الدمع مما عرفوا مِنَ الحقِّ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءنا من الحق ونطمعُ أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣ ـ ٨٥] .

فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذين قال فيهم : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم

تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهم الشهداء الذين قال فيهم :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] .

ولهذا قال ابن عباس وغيره :

﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٣] .

قال : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين ، كما قال الحواريون :

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدُوا واعبدُوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تُفلحون * وجاهدوا فى اللهِ حقَّ جهاده هو اجْتَبَاكم وما جعل عليكم فى الدِّين مِنْ حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفى هذا لِيَكُون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناسِ ﴾ ، [سورة الحج : ٧٧، ٧٨] .

وأما قوله فى أول الآية : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ ، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى . والنصارى أقرب مودة لهم ، وهذا معروف من أخلاق اليهود ، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس فى النصارى .

وفى النصارى من الرحمة والمودة ماليس فى اليهود ، والعداوة أصلها البغض . فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم ، فكيف ببغضهم للمؤمنين ؟

وأما النصارى فليس فى الدين الذى يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله

الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا فى الأرض فساداً ، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل ؟

وليس فى هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب ، وإنما فيه أنهم أقرب مودة ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يَستكبرون ﴾ أى بسبب هؤلاء ، وسبب ترك الاستكبار يصيّر فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيراً من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا مِنَ الحق؛ فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة ، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد به جنس المتقدمين لا كل واحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿الذين قالَ لهم الناسُ إنّ الناسَ قد جَمعوا لكم فاخشَوهم فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٣] .

وكان جنس الناس ، قالوا لهم : إن جنس الناس ، قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس ، والمقول له من الناس ، والمقول عنه من الناس ، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس : إنه قد جمع لكم جميع الناس .

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهودُ عزيزٌ ابن اللهِ ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] . أى جنس اليهود قال هذا ، لم يقل هذا كل يهودى . ومن هذا أن فى النصارى من رقة القلوب التى توجب لهم الإيمان ما ليس فى اليهود ، وهذا حق ، وأما قولهم : ونفى عنا اسم الشرك ، فلا ريب أن الله فرق بين المشركين ، وأهل الكتاب فى عدة مواضع ، ووصف من أشرك منهم فى بعض المواضع ، بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين فى بعض المواضع ، وكلا الأمرين حق ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتابِ والمشركين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئين والنَّصارى والمجوسَ والذين أشركوا ﴾ ، [سورة الحج : ١٧] . وقال تعالى : ﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذينَ أشركوا ﴾ .

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله : ﴿ اتخذُوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشركون ﴾ فنزه نفسه عن شركهم ، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد ، والنهى عن الشرك ، كما قال تعالى ﴿ واسْئَلَ من أرسلنا مِنْ قبلك مِن رُّسلنا أجعلنا مِن دُون الرحمنِ آلهةً يُعبدونَ ؟ ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أُمةٍ رسولاً أَنِ اعْبدوا الله واجتَنِبوا الطاغوتَ) ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : (وما أرسلنا مِن قَبلكَ مِن رسولٍ إلاَّ نُوحِى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدُونِ) ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفى التوراة من ذلك مايعظم وصفه لم يأمر أحد من الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبى ولا كواكب ولا وثن ، ولا أن تسأل الشفاعة إلى الله من ميت ولا غائب ، ولا نبى ولا ملك فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ، ويقول: اشفعوا لنا إلى الله، ولا تصور تماثيلهم لا مجسدة ذات ظل ، ولا مصورة فى الحيطان ، ولا يجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل ، وتعظيمهم والاستشفاع بهم ، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى ، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها ، وقصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها ، كما فعله جهال المشركين ، وإن كان فى هذا جميعه إنما

يعبدون الشيطان ، و إن كانوا لا يقصدون عبادته ، فإنه قد يتصور لهم فى صورة ما يظنون أنها صورة الذى يعظمونه ، ويقول : أنا الخضر ، أنا المسيح ، أنا جرجس ، أنا الشيخ فلان .

كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى .وقد يدخل الشيطان فى بعض التماثيل فيخاطبهم ، وقد يقضى بعض حاجاتهم ، فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديماً وحديثاً ؛ وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك .

وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ،ولم يشرع أحد منهم شيئاً من ذلك ، فالنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة ، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة . فليسوا على التوحيد المحض ، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويكذبون الرسل ، فلهذا جعلهم الله نوعاً غير المشركين تارة ، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة .

وإذا أطلق لفظ الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب ، وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ فمن الناس من يجعل اللفظ عاما لجميع الكفار لا سيما النصارى ثم من هؤلاء من ينهى عن نكاح هؤلاء ، كما كان عبد الله ابن عمر ينهى عن نكاح هؤلاء ، ويقول لا أعظم شركا من أن يقول : عيسى ربنا .

وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم .

وأما جمهور السلف والخلف ، فيجوّزن نكاح الكتابيات ، و يبيحون ذبائحهم ، لكن إذا قالوا : لفظ المشركين عام ، قالوا : هذه الآية مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وطعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ المؤمنات والمحصناتُ مِنَ الذينَ أوتوا

الـكتابَ مِن قبلـكم إذا آتيتمُوهن أُجورهنَّ مُحصنين غير مسافحين ولامتّخذِي أخدانٍ ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] .

وطائفة أخرى تجعلوا لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الـكتاب، وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله ، فهذا متفق عليه بين المسلمين ، كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ لأن النصارى لم يدخلوا فى لفظ الذين أشركوا ، كما لم يدخلوا فى لفظ اليهود .

وكذلك قوله : ﴿ لم يكنِ الذين كفروا من أهلِ الـكتابِ والمشركينَ ﴾ ، ونحو ذلك ،وهذا لأن لفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد مالا يدخل فيه عند الاقتران ، كلفظ المعروف والمنـكر فى قوله تعالى : ﴿ يأمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنـكر ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] فإنه يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف ، وجميع ما نهى عنه فإنه منـكر .

وفى قوله : ﴿ لاخيرَ فى كثيرٍ مِنْ نجواهم إلا مَنْ أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ﴾ ، [سورة النساء : ١١٤]. فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس .

وكذلك المنـكر فى قوله : ﴿ إنَّ الصلاةَ تنهى عنِ الفحشاء والمنـكرِ ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٥] . قرن الفحشاء بالمنـكر ، وقوله ﴿إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذى القُربى وينهى عن الفحشاء والمنـكرِ والبغى يعظـكم لعلـكم تذكرون ﴾ قرن الفحشاء بالمنـكر والبغى .

وكذلك لفظ البر والإيمان ، وإذا أفرده دخل فيه الأعمال والتقوى، كقوله ﴿ ولـكنَّ البرَّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائـكةِ والـكتابِ والنّبيِّينَ ﴾ الآية [سورة البقرة : ١٧٧] .

وقال ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ ، [سورة الانفطار : ١٣] . وقوله : ﴿ إنّما المؤمنونَ ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] . ﴿ ليُدخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجرى ﴾ ، [سورة الفتح : ٥] . وقال ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهم وإذا تُلِيت عليهم آياتهِ زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] . وقد يقرنه بغيره كقوله ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقوى ﴾ ، [سورة المائدة : ٢] . وقوله ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ ﴾ ، [سورة البروج : ١١] . وكذلك لفظ الفقير ، والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه لفظ الآخر .

وقد يجمع بينهما فى قوله : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكينَ ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٠] . فيكونان هنا صنفين ، وفى تلك المواضع صنف واحد، فكذلك لفظ الشرك فى مثل قوله : ﴿ إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذا ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٨] يدخل فيه جميع الكفار أهل الكتاب ، وغيرهم عند عامة العلماء ، لأنه أفرده وجرده ، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين .

وفى صحيح مسلم عن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم : « كان إذا أرسل أميراً على سرية ، أو جيش أوصاه فى خاصه نفسه بتقوى الله ، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيراً ، وقال لهم : اغزوا بسم الله فى سبيل الله ، فى دعة قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ـ فإنهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ـ إلى الإسلام فإن أجابوك إلى ذلك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على

المسلمين وليس لهم فى الغنيمة والفىء نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم » .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية ، وهى إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم النصارى بالشام ، واليهود باليمن .

وهذا الحكم ثابت فى أهل الكتاب باتفاق المسلمين ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، ولكن تنازعوا فى الجزية : هل تؤخذ من غير أهل الكتاب ؟ وهذا مبسوط فى موضعه .

فصل فى ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان

قالوا فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٩] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهود والمسلمين وغيرهم .

والجواب أن يقال أولا : لا حجة لكم فى هذه الآية على مطلوبكم ، فإنه يسوى بينكم و بين اليهود والصابئين ، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من بعث المسيح إليهم فكذبوه .

وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه ، فهم كفار فإن كان فى الآية مدح لدينكم الذى أنتم عليه بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ففيها مدح دين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين .

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل .

وكذلك يقال لليهودى ، إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقاً لزم كفر اليهود ،

وإن كان باطلا لزم بطلان دينهم فلا بد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تـكون الآية مدحتهما ، وقد سوت بينهما .

فلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل ، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل . والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل .

والصابئون ، وهم الصابئون الحنفاء ، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذى بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة ، وهو عمرو بن لحى ، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك ، وتحريم ما لم يحرمه الله . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه — أى أمعاءه — فى النار » وهو أول من بحر البحيرة وسيب السوائب وغير دين إبراهيم .

وكذلك بنو اسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ، ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

فأهل الـكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ، ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد تقدم أنه كفّر أهل الكتاب الذين بدّلوا دين موسى والمسيح وكذّبوا بالمسيح أو بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع ، وتلك آيات صريحة ، ونصوص كثيرة ، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هؤلاء النصارى سلكوا فى القرآن ماسلكوه فى التوراة والإنجيل يدّعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التى لا تحتمل إلا معنى واحدا ويتمسكون بالمتشابه المحتمل ، وإنّ فيه ما يدل على خلاف مرادهم ، كما قال تعالى فيهم وفى أمثالهم : ﴿ هو الذى أنزلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأُخر متشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغَاء الفتنةِ وابتغاء تأويله وما يعلمُ تأويلهُ إلا الله والرّاسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ منْ عند ربنا وما يَذّكّر إلا أُولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

فصل فى إدعاء النصارى أن القرآن مدحهم

قالوا : ثم مدح قرابيننا وتواعدنا إن أهملنا مامعنا وكفرنا بما أنزل إلينا أن يعذبنا عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين بقوله ذلك فى سورة المائدة : ﴿ إذْ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّك أنْ يُنزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله إنْ كنتم مُؤمنين ـ إلى قوله ـ فمن يكفر بعدُ مِنكم فإنى أُعذّبه عذاباً لا أعذبه أحداً مِنَ العالمين ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٢ ـ ١١٥] .

فالمائدة هى القربان المقدس الذى يتقرب منه فى كل قداس .

والجواب أن يقال : هذا كذب ظاهر على القرآن فى هذا الموضع ، كما كذبت عليه فى غير هذا الموضع ، فإنه ليس فى الآيات ذكر قرابينكم ألبتة ، وإنما فيه ذكر المائدة التى أنزلها الله تعالى فى عهد المسيح عليه السلام ، وقولهم بالمائدة : هى القربان الذى يتقرب به فى كل قداس ، هو أولا : قول لادليل عليه . وثانياً : هو قول معلوم

الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ،فإنهم متفقون على أن المائدة ، مائدة أنزلها الله على عهد المسيح عليه السلام،وقصتها مشهورة فى عامة الـكتب تعرفها العامة والخاصة ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى ، وليس فى لفظ الآية ما يدل على ذلك ، بل يدل على خلاف ذلك ، فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء وقرابينهم هى عندهم فى الأرض لم تنزل من السماء .

وفى الآية أن عيسى قال: ﴿اللهم ربنا أنْزِل علينا مائدةً من السماء تـكونُ لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين ، قال الله : إنى منزِّلها عليكم فمن يكفُر بعدُ منكم فإنى أُعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً مِنَ العالمين﴾ ، وفى أول الـكلام : ﴿ إذْ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريمَ هل يستطيع ربُّك أن ينزلَ علينا مائدةً من السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ ، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونـكون عليها من الشاهدين، فأين هذا من قرابينهم الموجودة اليوم ؟ .

فصل فيما ادعاه النصارى من تأييد الـكتب السماوية لدينهم

قالوا : ولما تقدم به القول لأنه غير لائق عند ذوى الألباب أن نهمل روح القدس وكلمة الله الذى شهد لهما فى هذا الـكتاب بالعظائم ، فقال عن كلمة الله :

﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الـكتابِ إلاّ ليُؤْمِنَنَّ به قبلَ موته ويوم القيامة يكونُ عليهم شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٩] .

والجواب : إن الله تعالى لم يبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بإهمال ما يجب فى حق المسيح عليه السلام ، بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به ، كما أمر بالإيمان بموسى وبما جاء به ، وكما أمر المسيح بالإيمان بموسى وبما جاء به ، لـكنه أمر بإهمال ما ابتدع من الدين الذى لم يشرعه الله على لسان المسيح ،

عليه السلام ، وما نسخه الله من شرعه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فيهمل المبدل والمنسوخ ، كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين الذى لم يشرعه ، وما نسخه من شرع موسى .

فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام ، ولم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق التوراة وموسى عليه السلام ، فكذلك إذا أهمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل لم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق الإنجيل والمسيح بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن الإيمان بجميع الكتب والرسل ، وأن لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نُفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

والنصارى كاليهود ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فأيما هو اللائق عند أولى الألباب ، أن نؤمن بجميع كتب الله ورسله ، أو نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، وأيما هو اللائق عند أولى الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ونعبده بما شرعه على لسان رسوله ، أو نبتدع من الشرك والعبادات المبتدعة مالم ينزل به الله كتاباً ولا بعث به رسولا ونضاهى المشركين عباد الأوثان ؟

قال تعالى ﴿ وقالت اليهودُ : عُزيرٌ ابن اللهِ ، وقالتِ النصارى : المسيحُ ابن اللهِ ذلكَ قولهم بأفواههم يُضاهئونَ قولَ الذينَ كفروا من قبلُ - يعنى المشركين - قاتلهم الله أنَّى يُؤفكونَ ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] .

وقال تعالى ﴿ قلْ ياأهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتَّخِذ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دون اللهِ فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

فالمسلمون لم يهملوا روح القدس ، وكلمة الله ، وقد قال تعالى عن كلمة الله :

﴿ وإنّ مِنْ أهلِ الـكتابِ إلا ليؤمنن به قبل موتِهِ ﴾ ، بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله ، فإن دين الأنبياء عليهم السلام جميعهم واحد لِمَا ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » .

وقد قال تعالى ﴿ شرعَ لـكم مِنَ الدِّين ماوصَّى بهِ نُوحاً والذى أوحينا إليكَ وماوصَّينا بهِ إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أنْ أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

فدين المرسلين كلهم دين واحد ، ويتنوع شرعهم ومناهجهم كتنوع شريعة الرسول الواحد ، فإن دين المسيح هو دين موسى ، وهو دين الخليل قبلهما ، ودين محمد بعدهما ، مع أن المسيح كان على شريعة التوراة ، ثم نسخ الله على لسانه مانسخ منها وهو قبل النسخ وبعده دينه دين المسيح موسى ، ولم يهمل دين موسى .

كذلك المسلمون هم على دين المسيح وموسى وإبراهيم وسائر الرسل ، وهم الذين اتبعوا المسيح ، ولهذا جعلهم الله فوق النصارى إلى يوم القيامة .

والنصارى الذين بدّلوا دين المسيح وكذَّبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بريئون من دين المسيح والمسيح برىء منهم كبراءة موسى ممن بدل وغير دينه وكذَّب المسيح .

والمسلمون أشد تعظيما للمسيح عليه السلام ، واتباعاً له بالحق ممن بدل دينه وخالفه من النصارى فإن المسلمين يصدقونه فى كل ما أخبر به عن نفسه ، ولا يحرفون ما قاله عن مواضعه ، ولا يفسرون كلامه بغير مراده ، وكلام غيره من الأنبياء كما فعلت النصارى ، فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال: [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] وهذا إذا قاله المسيح فإنه يفسر بلغته وعادته فى خطابه وعادة سائر الأنبياء . وليس فى كلام المسيح ، ولا فى كلام سائر الأنبياء، ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابنا ، ولا روح

قدس ، ولا تسمى صفته القديمة ، ابنا ، ولا روح قدس، ولا يوجد قط فى كلام الأنبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق .

والمراد فى تلك اللغة أنه مصطفى محبوب لله ، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل : [إنه ابنه بكره] ولداود [أنت ابنى وحبيبى] وإن المسيح قال للحواريين : [أبى وأبيكم] فجعله أبا للجميع ، وهم كلهم مخلوقون فيكون اسم الإبن واقعا على المسيح الذى هو ناسوت مخلوق ، فعمد هؤلاء الضُّلال فجعلوا اسم الإبن واقعا على اللاهوت قديم أزلى مولود غير مخلوق .

وزعموا أن الإبن يراد به الإبن بالوضع، وهو المخلوق وهو الابن بالطبع وهو القديم الأزلى المولود غير المخلوق، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه ، ولا يوجد قط فى كلام المسيح ولا غيره أنه سمى القديم الأزلى ابنا ، ولا جعل له ابنا قديماً مولوداً غير مخلوق ، ولا سمى شيئاً من صفات الله قط ابنا .

وكذلك لفظ روح القدس موجود فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام لا يراد بهذا قط حياة الله ولا صفة قائمة .

وإنما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء ، ويجعله فى قلوبهم من هداه ونوره ووحيه وتأييده ، ومن ينزل بذلك من الملائكة ، وهذا الذى تسميه الأنبياء روح القدس لم يختص به المسيح ، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل قد أنزله على غيره من الأنبياء والصالحين كما هو موجود فى كتبهم : إن روح القدس كانت فى داود وغيره ، وكانت أيضاً عندهم فى الحواريين .

وهكذا خاتم الرسل كان يقول لحسان بن ثابت : « إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » ، ويقول : « اللهم أيده بروح القدس » .

وقد قال الله تعالى عن المؤمنين : ﴿ لا تجدُ قوما يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولهُ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهُم أو عَشِيرتهم أولئك كَتَبَ فى قلوبهم الإيمانُ وأيَّدهم بروح منهُ ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فروح القدس لا اختصاص للمسيح عليه السلام بها ، بل ما يفسر به اسم الإبن واسم روح القدس ، وغير ذلك مما وصف به المسيح ، فهو مشترك بينه وبين غيره من الرسل ، وإذا فسروا الحلول بظهور نور الله وعلمه وهداه فى الأنبياء فهذا حق وهو مشترك بين المسيح وغيره .

فأما نفس ذات الله فلم تحل فى أحد من البشر .

والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبد الله ورسوله يقولون إنه مؤيد منصور عصمه الله من أعدائه وطهره منهم ، ولم يسلطهم عليه .

والنصارى يدّعون أنه اسم المسيح اسم اللاهوت والناسوت وأنه إله تام وإنسان تام ، وهذا يمتنع شرعا وعقلا ثم يصفونه بالصفات المتناقضة ، يصفونه بأن طائفة من شرار اليهود وضعوا الشوك على رأسه و بصقوا فى وجهه ، وأهانوه وصلبوه وفعلوا به مالا يُفعل بأخس الناس ، ويقولون مع هذا إنه رب السموات والأرض وما بينهما .

فصل فى بطلان ما استدلوا به

قالوا : ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدسة مقبولة لدى الله من كتب اليهود التى فى أيديهم يومنا هذا المنزلة من الله على أفواه الأنبياء المرسلين .

قال أشعيا : [قال الله : إنى أعرف بنى إسرائيل وقلوبهم القاسية الخبيثة فإذا أنا ظهرت إلى الأمم فنظروا إلى كرامتى ، أقيم منهم أنبياء وأبعث منهم مخلصين يخلصون الأمم من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعى ، ولم يعرفوا من قبل كرامتى ، ويكون اسمى فيهم ، ويجلبون اخوتهم من الأمم كلها ، ويجيبون قرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدسى بيت المقدس ، فيقربون لى القرابين بالسميد ، كما كان بنو إسرائيل من قبل ، وكذلك باقى الأمم ويقرب القرابين بين يدى فهم وزرعهم إلى الأبد ، ويحجّون فى كل سنة ، وفى كل شهر ،

ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس ، بيت الله ، ويقربون لله ربهم فيه قرابين زكية نقية ، ينظرون إلى الأمة الخبيثة الماردة : بنى إسرائيل ، لا يبلى حرمها ولا ينقطع بلاؤها إلى الأبد] .

وقال دانيال عليه السلام : [وسيأتى على بيعتك وقرية قدسك سبعون سابوعا ، وتنقضى الذنوب ، وتفنى الخطايا وغفران الإثم ، ويؤتى بالحق الذى لم ينزل من قبل ، وتتم نبوات الأنبياء وكتب الرسل ، وتبيد قرية القدس وتخرب مع مجىء المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق من الناس ، ومن بعد أسبوع ونصف تبطل ذبائح اليهود وقرابينهم ، وتصير على كف النجاسة والفساد إلى انقضاء الدهر] .

وقال ميخا النبى عليه السلام : [قال الله : فى آخر الزمان إذا أتى المسيح يدعو الأمم المبددة ، ويضمهم شعباً واحداً ، ويبطل قتال بنى إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلى الأبد] .

وقال عاموص النبى : [لا يذبحوا العجول بعد ، فإن الرب سيأتى صهيون ويحدث وصية جديدة طاهرة من الخبز النقى والخمر الزكى ويصير بنو إسرائيل مطرودين] .

الجواب من وجوه :

أحدها : إن مايحتجون به من النقل عن الأنبياء صلوات الله عليهم يحتاجون فيه إلى أربع مقدمات :

١ — إلى أن تعلم نبوة المنقول عنه .

٢ — وإلى أن يعلم لفظه الذى تكلم به .

٣ — وإلى أن نعلم ما ذكروه ترجمة صحيحة عنه ، فإن أولئك الأنبياء

لم يتكلموا بالعربية ، بل ولا بالرومية والسريانية واليونانية ، وإنما تكلموا بالعبرية ، كالمسيح عليه السلام .

٤ — أن يعلم ما ذكروه من كلام الأنبياء دليل على ما ادعوه من قبول قرابينهم فى هذا الزمان . ونحن فى هذا المقام نقتصر على منازعتهم فى هذه المقدمة ، فليس فيما ذكروه دليل على مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التبديل والنسخ ، ولكن غايتها أن يدل على مدحها قبل النسخ والتبديل ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون .

الوجه الثانى : أن هذه النعوت المذكورة عن « أشعيا » وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارى ، فإن النصارى لا يقربون القرابين بالسميد ، كما كان بنو إسرائيل من قبل ، ولا يحجُّون فى كل شهر ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس بيت الله ، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقية زكية ، وإنما يحجُّون إلى قمامة الخارجة عن بيت الله الذى كانت الأنبياء تقصده وتصلى فيه ، فإن الأنبياء إنما كانوا يصلون فى بيت المقدس ، ويزورون بيت المقدس نفسه . وأما قمامة فليس لها ذكر فى كتب الأنبياء عليهم السلام ، بل إنما ظهرت قمامة فى زمن قسطنطين الملك ، لما أظهرتها أمه هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس ، واختارت من اليهود ثلاثة ، وسألتهم أن يدلوها على موضع الصلب فامتنعوا فعاقبتهم بالحبس والجوع فدلوها على موضعه فى مزبلة فاستخرجوه ، وجعلته فى غلاف من ذهب وحملته ، وبنت كنيسة القيامة فى موضعه ، كما ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه وغيره كما سيأتى ، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنة .

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب ، وجعلوا «عيد الصليب» فلم يشرع ذلك لا المسيح ولا الحواريين، وهذا مذكور فى كتبهم متفق عليه بين علمائهم ، كما قد ذكر فى موضع آخر ، ولاهم يأتون بقرابين لله على الدواب والمراكب إلى جبل قدس الله المقدس .

الوجه الثالث : أن ما ذكروه عن «دانيال» لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل ، وإنما يتضمن أن الله يبعث المسيح عليه السلام بالحق الذى نزل من قبل ، وهو الدين الذى بُعث به الرسل قبله ، وهو عبادة الله وحده ، وأن بيت المقدس يخرب مع مجىء المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق ، يعنى ما نسخ من شرع التوراة وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم .

وهذا كله إنما يدل على نسخ شرع التوراة ، وبطلان دولة اليهود ، ويدل على أن المسيح جاء بالحق ومن اتبع المسيح كان على الحق ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون فإنهم متفقون على أن من كان متمسكا بما أمر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين ، ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح ، أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ فهو بمنزلة اليهود الذى نسخ الله ما نسخه من شرعهم ، وأزال دولتهم ، وكذلك فعل بالنصارى لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها ، وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر والجزيرة والعراق وأرمينية وأزربيجان ، وأجلاهم إلى طرفى الأرض من جهة الشمال والجنوب ، وصار الذين فى وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يسلموا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وكذلك ما ذكروه عن «ميخا» و«عاموص» إنما يدل على مجىء المسيح عليه السلام وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شرع اليهود وملكهم لا يدل على صحة دين النصارى الذى لم يشرعه المسيح عليه السلام ؟ ولا على صحته بعد أن نسخ بشرع محمد صلى الله عليه وسلم نسخا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسى بشرع المسيح . هذا إذا سمى الشرع المؤقت بغاية مجهولة نسخا ، فإن الأول لم يبشر بالثانى.

وأما إذا كان الأول بشر الثانى ، وكانت شريعة الأول مؤقتة إلى مجىء الثانى لم يسم ذلك نسخا ، فالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم ينسخا شيئاً بل

كان شرع موسى إلى مجىء المسيح ، وشرع المسيح إلى مجىء محمد صلى الله عليهما وسلم .

وأما ما حكى عن أشعياء عن الله أنه قال : [فإذا ظهرتُ إلى الأمم فهذا قد يحتج به النصارى وبأمثاله من كلام الأنبياء عليهم السلام على الحلول الذى ابتدعوه ، وهو باطل فإن هذا اللفظ مذكور فى كتب أهل الكتاب فى غير موضع ولا يراد بشىء منها حلول ذات الله فى أحد من البشر ، كما ذكر فى التوراة أن الله عز وجل استعلن لإبراهيم وغيره وأن الله يأتى من طورسيناء ، ويشرف من ساعير ، ويستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم عند جميع أهل الملل أن الله سبحانه وتعالى لم يحل فى موسى ولا غيره لما كلمه ، ولا يحصل فى شىء من جبال فاران مع أخباره أنه استعلن منها .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسلَ رَسوله بالهدى ودِينِ الحقّ ليُظهرهُ على الدِّينِ كلِه ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٣] .

فأظهره بالعلم والحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان كما قال تعالى : ﴿ الله نُورُ السمواتِ والأرضِ ، مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقد مِن شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ ، لا شرقيةٍ ولا غربيّةٍ يكاد زيتها يُضىء ، وَلَو لم تمسَسْهُ نارٌ ، نورٌ على نورٍ يَهْدِى اللهُ لنورهِ مَنْ يشاء ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

قال أُبى بن كعب وغيره : مثل نوره فى قلب المؤمن .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا اتقّوا الله وآمنوا برسولِه يُؤتِكم كِفْلَيْنِ مِن رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨] .

وقال تعالى : « وكذلكَ أوحينا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به مَن نشاء مِنْ عبادنا » ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إنّ فى ذلك لآياتٍ للمُتوسِّمينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] » .

قال الترمذى : حديث حسن ، وقد جاء عن بعض السلف أن قلوب المؤمنين تضىء لأهل السموات كما تضىء الكواكب لأهل الأرض .

فالمخلوق الذى تظهر محبته وذكره وطاعته فى بعض البلاد ، يقال فلان قد ظهر فى هذه الأرض ، فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئة بظلمة الكفر والشرك ، كان ذلك مما أخبر به من ظهوره ، وهذا أعظم ما يكون فى بيوته التى يعبد فيها و يذكر فيها اسمه .

ولهذا ذكر تعالى آية النور وقال : ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء و يضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم ﴾ ، قال عقب ذلك : ﴿ فى بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرفع ويُذكرَ فيها اسمه يُسَبِّح له فيها بالغدُوِّ والأصالِ * رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافونَ يوماً تتقلّب فيه القلوبُ والأبصارُ * ليَجْزِيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهُم مِن فَضْله والله يرزُقُ من يشاء بغيرِ حساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٦ ـ ٣٨] .

وكذلك ما فى الكتب من ظهوره ببيت المقدس فهو كظهوره بطورسينا وبجبل فاران ، ومع هذا فلم يره موسى ولا غيره لا مجرداً ولا حالا فى غيره ، وقد أخبر المسيح أنه لم يره أحد ، كما أخبر غيره ، وذلك نفى علم يوجب أنه لا يرى لا مجرداً ، ولا حالا فى دار الدنيا كما قد بسط هذا فى موضع آخر .

ومعلوم أن ملابسة الشيء أبلغ من رؤيته ، فإذا كان الرب تعالى لا يراه ناسوت ، فإن لا يلابسه ناسوت بطريق الأولى والأحرى . والنصارى يزعمون أنه اتحد هو والناسوت ، وهذه أعظم من الرؤية .

فصل فيما بشر به القرآن مريم من ولادة المسيح

قالوا : فما يكون أعظم من هذا برهاناً ، وأقوى شهادة ، إذ هذه كتب أعدائنا المخالفين لديننا ، وهم يقرون بذلك ويقرأونه في كنائسهم ، ولم ينكروا منه كلمة واحدة ، ولا حرفا واحداً .

والجواب : أن الأمر إذا كان على ما قالوه من ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء فليس فيها مدح لدينهم بعد التبديل ، فكيف بعد النسخ والتبديل ؟ وإنما فيها إخبار بزوال ملك بنى إسرائيل ، ونسخ ما نسخ من شرعهم بمجىء المسيح عليه السلام ، وهذا دليل على نبوة المسيح وصدقه ، وهذا مما اتفق عليه المسلمون .

والمسيح عليه السلام عندهم كما أخبر الله عنه ، بقوله تعالى لمريم : ﴿إنّ الله يبشِّرك بكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرةِ ومن المقربينَ، ويكلمُ الناسَ فى المهدِ وكهلاً من الصالحين﴾ ، وأما قولهم إن هذا وغيره موجود فى كتب أعدائنا اليهود .

فيقال لهم : لا ريب أن اليهود يخالفونكم فى تفسير الكتب فأنتم تفسرونها بشيء ، وهم يفسرونها بشيء آخر ، وقد يكون كلا التفسيرين باطلا ، وحينئذ فيقال لكم : كما أن كتب الأنبياء شاهدة للمسيح ولدينه ، وإن خالفتكم اليهود فى تفسيرها ، فكذلك هى شاهدة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، وإن خالف أهل الكتاب فى تفسيرها ، كما قد بينَ الله فى كتب الأنبياء صفة محمد وأمته فى غير موضع .

والواجب فى الكتب إذا تنازعت الأمم فى تفسيرها أن يبين الحق الذى يقوم عليه الدليل الشرعى والعقلى ، وحينئذ تبين أنكم فسرتم كتب الله بأشياء تخالف مراد الله فى أمر التثليث والاتحاد وغيره كما فعلت اليهود بتفسير الكتب ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

فصل فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى للدخول فى الإسلام

قالوا : وأيضاً فى قول هذا الإنسان مما أتى فى كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتى به فى هذا الكتاب فى سورة سبأ حيث يقول : ﴿ وإنّا أوْ إيّاكم لَعَلى هُدًى أوْ فِي ضلالٍ مبينٍ ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٤] .

وأيضاً فى سورة الأحقاف يقول ﴿ وما أدرِى ما يُفعلُ بِى وَلا بكم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٩] .

والجواب أن نقلهم إنه قال : إنه لم يرسل إليهم كذب ظاهر عليه ، فإن كتابه مملوء بدعوتهم وأمره لهم بالإيمان به واتباعه ، بل وبعموم رسالته إلى جميع الناس بل وإلى الجن والإنس ، وليس فيه قط أنه لم يرسل إلى أهل الكتاب ، بل فيه التصريح بدعوة أهل الكتاب فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ قُل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا و بينكم أن لا نعبُدَ إلاّ الله ولا نُشرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِن دُون اللهِ فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مُسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وقد كتب النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الآية إلى قيصر ملك النصارى الذى اسمه « هرقل » بالشام ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وتقدم أيضاً أن قوله تعالى : ﴿ لتُنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] .

يقتضى أنه ينذر الأميين ، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم ، كما أن قوله :

﴿ وأنذرْ عشيرتكَ الأقربينَ ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] .

يقتضى إنذار قومه ولا ينافى أن ينذر غيرهم من العرب كما أن قوله فى قريش : ﴿ فليعبدوا ربَّ هذَا البيتِ * الذى أطعمهم مِن جُوعٍ وآمنهم من خوفٍ ﴾ ، [سورة قريش : ٣ ، ٤] .

لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت ، بل قد أمر الله جميع الثقلين : الجن والإنس ، أن يعبدوا رب هذا البيت .

فإن قيل : فقد سكت عن ما سوى الأميين فى هذا ، فيشعر بالنفى بدليل الخطاب الذى يسمى مفهوم المخالفة . قيل : ذاك إنما يدل إذا لم يكن فى التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم ، ولم يكن هنا صريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق ، وهنا لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولا ، ثم ينذر العرب الأميين ، ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم ، وقد تقدم بسط هذا .

فصل فى دعوى النصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما جاء به

وأما قولهم : مع تشككه فيما أتى به ، فمن الكذب البيّن فإنه تعالى قال : ﴿ قل ادعوا الَّذينَ زَعمتم مِن دُون اللهِ لا يملكونَ مثقالَ ذرَّةٍ فى السماوَاتِ ، ولا فى الأرضِ وما لهم فيهما مِن شركٍ وما له منهم من ظهيرٍ * ولا تنفعُ الشفاعة عِندهُ إلا لمن أذِن له حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قالَ ربكم ؟ قالوا الحقَّ وهو العلىُّ الكبير * قل مَن يرزقكم مِن السماواتِ والأرضِ ، قل اللهُ ، وإنّا أوْ إياكم لعلى هُدىً أو فى ضلالٍ مبين * قل لا تسألونَ عما أجْرَمْنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربُّنا ثم يَفتحُ بيننا بالحق وهو الفتاحُ العليم ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٢ ـ ٢٦] .

فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وبيّن أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا هو شريك ولا هو ظهير ولا ينفع شفيع إلا بإذنه نفى بذلك جميع وجوه الشرك ، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك أو شريك فى الملك أو يكون معيناً ، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التى هى دعاء لك ومسألة ، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له .

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله دلّ بهذا وهذا على التوحيد ، كما فى قوله : ﴿ وما بكم مِن نعمةٍ فمنَ اللهِ ثم إذا مسَّكم الضُّرُّ فإليه تجئرونَ * ثم إذا كشفَ الضُّرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربِّهم يُشركونَ * ليكفرُوا بما آتيناهم فتمتَّعوا فسوفَ تعلمونَ ﴾ ، [سورة النحل ٥٣ ـ ٥٥] .

فلما ذكر ما دل على وجوب توحيده ، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى ، وأن أهل الشرك على الضلال قال: ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ ، يقول : إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الحق ، وأهل الشرك لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

وهذا من الإنصاف فى الخطاب الذى كل من سمعه من ولىّ وعدو قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، كما قال العادل الذى ظهر عدله للظالم الذى ظهر ظلمه : الظالم إما أنا وإما أنت ، لا للشك فى الأمر الظاهر ، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم ، وهو أنت لا أنا .

فإنه إذا قيل : أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى ، أو فى ضلال مبين ، وأهل الشرك الذين يعبدون مالا يضر ولا ينفع على هدى أو فى ضلال

تبين أن أهل التوحيد على الهدى ، وأهل الشرك على الضلال ، وهذا مما يعلمه جميع الملل ، ومن المسلمين واليهود والنصارى ، يعلمون أن أهل التوحيد على الهدى وأهل الشرك على الضلال .

وفى القرآن فى بيان مثل هذا مالا يحصى إلا بكلفة ، بل قطب القرآن وسائر الكتب مدارها على عبادة الله وحده ، فكيف يقال إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك ؟ وهل يقول هذا إلا من هو فى غاية الجهل والعناد .

ثم الآية خطاب للمشركين ليست خطابا للنصارى خصوصاً .

فصل فى أن الرسول لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً

وأما قوله تعالى : ﴿ قلْ ما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ﴾ فلفظ الآية : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ ، وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراهُ قل إن افتريته فلا تملكونَ لِى مِن الله شيئاً هو أعلم بما تُفيضونَ فيهِ كفى بهِ شَهيداً بينى وبينكم ، وهو الغفور الرّحيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٨] .

ونظير هذا قوله : ﴿ قلْ لا أقولُ لكم عندِى خزائنُ اللهِ ، ولا أعلم الغيب ولا أقولُ لكم إنى ملكٌ إن أتّبِع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ﴾ .

وهذا قاله نوح عليه السلام أول الرسل ، وأمر محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الرسل أن يقوله ، ومثل قوله : ﴿ قل إنى لا أملكُ لكم ضَراً ولا رَشَداً * قل إنى لَنْ يجيرُنى من الله أحدٌ ولن أَجِدَ من دونه مُلتحدا * إلا بلاغا مِن الله ورسالاتِهِ ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسوله فإن له نار جَهنَّم خالدينَ فيها أبداً ﴾ ، [سورة الجن : ٢١ - ٢٣] .

وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة ولا يدعى المشاركة فى الألوهية ، كما ادعته النصارى فى المسيح ، ولهذا قال

تعالى: ﴿ما المسيح ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خلتْ مِن قبله الرُّسل وأمُّه صدِّيقة كانا يأكلانِ الطعامَ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] .

فتبين أنه لا يتعدى حدّ الرسالة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل أفإنْ ماتَ أو قُتلَ انقلبتم على أعقابِكم ؟ ﴾ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسلِ وما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ﴾ ، يقول لست أول من أرسل ، وادعى الرسالة ، بل قد تقدم قبلى رسل ، ﴿ وما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ يقول لا أدعى علم الغيب ، إن اتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين أنذركم بما أمرنى الله أن أنذركم به ، لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، وهذا من كمال صدقه وعدله وعبوديته لله وطاعته وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد ، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه ، فلا يعلمه ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل .

وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ نفىٌ لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم ، وهذا لا يعلمه إلا الله تبارك ، وهذا لا ينفى أن يكون عالماً بأنه سعيد من أهل الجنة فإن لم يدر تفاصيل ما يجرى له فى الدنيا من المحن والاعمال ، وما يتجدد له من الشرائع ، وما يكرم به فى الآخرة من أصناف النعيم ، فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وأيضاً هذا مأثور عن غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ولا من شرط النبى أن يعلم حال المخاطبين : من يؤمن به ،

ومن يكفر ، وتفصيل ما يصيرون إليه هذا إن قيل إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نفي فيها ، وإن قيل إنه أعلم بذلك فمعلوم أن الله لم يعلمه بكل شيء جملة بل أعلمه بالأمور شيئاً بعد شيء .

وقد قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، [سورة الفتح : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] .

وفى القرآن والأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم من الأخبار بما سيكون فى الدنيا وفى الآخرة أضعاف أضعاف ما يوجد عن الأنبياء قبله حتى أنه ينبيء على الشيء الذى يكون بعد ما يبين من السنين خبراً أكمل من خبر من عاين ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، دلف الأنوف ، حمر الخدود ، ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة » فمن رأى هؤلاء الترك الذين قاتلهم المسلمون من حين خرج جنكزخان ملكهم الأكبر وأولاده وأولاد أولاده ، مثل هلاكو وغيره من الترك الكفار الذى قاتلهم المسلمون لم يحسن أن يصفهم بأحسن من هذه الصفة .

وقد أخبر بهذا قبل ظهوره بأكثر من ستمائة سنة وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » . وهذه النار ظهرت سنة خمس وخمسين وستمائة بأرض الحجاز ، فكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم ورأى أهل بصرى أعناق الجمال من ضوء تلك النار ، وكانت منذرة بما يكون بعدها ففى سنة ست وخمسين وستمائة دخل هلاكو ملك الكفار بغداد وقتل فيها مقتلة عظيمة مشهورة ، وسيأتى ـ إن شاء الله ـ بعض أخبار أنه شاهد الناس وقوعها ، كما أخبر عند ذكرنا معجزاته.

فصل فى دعوى النصارى أنهم هم المعنيُّون

بقوله : « صراط الذين أنعمت عليهم »

ثم قالوا : مع الأمر له فى فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلى الصراط المستقيم،صراط الذين أنعم الله عليهم، غيرالمغضوب عليهم ولاالضالين ، فإنه عنى بقوله المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين الثلاث أمم الذين كانوا فى عصره ، وهم النصارى واليهود وعباد الأصنام ، ولم يكن فى زمانه غير هؤلاء الثلاث أمم .

فالمنعم عليهم نحن النصارى والمغضوب عليهم — فلا يشك — أنهم اليهود والذين غضب الله عليهم فى كتب التوراة والأنبياء وهذا الكتاب ، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله ، فهذا أمر واضح بيّن ظاهر عند كل أحد ، ولاسيما عند ذوى العقول والمعرفة . والصراط :هو المذهب ،أى الطريق ، وهذه اللفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطاً .

والجواب . أما قولهم : المنعم عليهم نحن النصارى ، فمن العجائب التى تدل على فرط جهل صاحبها ، وأعجب من ذلك قولهم إن هذا شىء بين واضح عند كل أحد ، لاسيما عند ذوى العقل والمعرفة ، فيا سبحان الله ! ألم يعرف العام والخاص علماً لا تمكن المنازعة فيه من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودين أمته الذى تلقوه عنه من تكفير النصارى وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فى كل صلاة يقولون : اللهم اهدنا صراط النصارى ، وهل ينسب محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إلى أنهم فى كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارى إلا من هو من أكذب الكذابين وأعظم الخلق افتراء

ووقاحة وجهلا وضلالا ؟ ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارى لدخلوا فى دين النصارى ، ولم يكفروهم ويقاتلوهم ، ويضعوا عليهم الجزية التى يؤدونها عن يدوهم صاغرون ، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار ؛ وأمته أخذوا ذلك جميعه عنه منقولا عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم لم يبتدعوا ذلك ، كما ابتدعت النصارى من العقائد والشرائع ما لم يأذن به الله ، فلا يلام المسلمون فى اتباعهم لرسول الله الذى جاء بالبينات والهدى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم إن كان رسولاً صادقاً ، فقد كفر النصارى ، وأمر بجهادهم ، وتبرأ منهم ومن دينهم ، وإن كان كاذباً لم يقبل شىء مما نقله عن الله عز وجل .

وقد تقدم غير مرة قوله تعالى : ﴿ لقد كفرَ الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة ﴾، ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ [سورة المائدة ٧٢ ، ٧٣]

﴿ وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

فمن يقول عن النصارى مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته فى كل صلاة أن يقولوا : اهدنا طريقهم ؟ ثم يقال : أى شىء فى الآية مما يدل على أن قوله صراط الذين أنعمت عليهم هم النصارى .

وإنما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ ، [سورة النساء : ٦٩] .

فهؤلاء الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم .

وأما النصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من

المنعم عليهم ، كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم ، وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين ، لا من المنعم عليهم عبد الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكنِ الظالمون اليوم فى ضلالٍ مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] .

وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » رواه الإمام أحمد والترمذى عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الترمذى هذا حديث صحيح ، وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به والنصارى يعبدون بلا علم ، وقد وصف الله اليهود بأعمال ، والنصارى بأعمال ، فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك الغى وهو سبيل الشهوات والعدوان . وذكر عن النصارى الغلو والبدع فى العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولدٌ له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً ۞ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ۞ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

أى لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله لم نكتب عليهم الرهبانية بل هم ابتدعوها مع ابتداعهم وإياها فما رعوها حق رعايتها ، وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها .

فأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه الله لهم من واجب ومستحب فإن ذلك هو الذى يرضاه ، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه . ويحصل رضوان الله أيضاً بمجرد فعل الواجبات ، وهذا هو الذى كتب على العباد ، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجباً ، فما ليس بواجب لا يشترط فى حصول ما كتب عليهم .

ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروى: « أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله » ، فإن من صلى فى آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب و بذلك يرضى الله عنه ، و إن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ فى إرضاء الله عنه و يحصل له بذلك من رضوان الله ومحبته مالا يحصل بمجرد الواجبات .

كما قال موسى عليه السلام : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى من عادى إلى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىّ عبد بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، فلئن سألنى لأعطينّه ولئن استعاذ بى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » . فقوله حتى أحبه . يريد المحبة المطلقة الكاملة .

وأما أصل المحبة : فهى حاصلة بفعل الواجبات ، فإن الله يحب المتقين والمقسطين .

وقال تعالى فيهم : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

وهو سبحانه خاطَبَ النصارى بهذا لأن النصارى يعتمدون فى دينهم على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم القوانين والنواميس ويسوغون لأكابرهم الذين صار عندهم عظماء فى الدين أن يضعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله بحيث لا يمكنون أحداً من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل وعن اتباع ما جاء به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، بل ما وضعه لهم أكابرهم من القوانين الدينية والنواميس الشرعية بعضها ينقلونه عن الأنبياء ، وبعضها عن الحواريين ، وكثير من ذلك ليس منقولا ، لا عن الأنبياء ، ولا عن الحواريين ، بل من وضع أكابرهم وابتداعهم . كما ابتدعوا لهم الأمانة التى هى أصل عقيدتهم ، وابتدعوا لهم الصلاة إلى الشرق ، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير ، وسائر المحرمات ، وابتدعوا لهم الصوم وقت الربيع ، وجعلوه خمسين يوماً ، وابتدعوا لهم أعيادهم كعيد الصليب وغيره من الأعياد .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم لما سمعه يقرأ هذه الآية :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ فقال : لم يعبدوهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم » .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلُّوا مِنْ قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

فإنهم يتبعون أهواء أكابرهم الذين مضوا من قبلهم، وأولئك ضلوا من قبل هؤلاء وأضلوا أتباعهم ، وهم كثيرون ، وضلوا عن سواء السبيل ، وهو وسط السبيل ، وهو الصراط المستقيم ، فإذا كانوا هم وأتباعهم ضالين عن الصراط المستقيم ، فكيف يجوز أن يأمر الله عباده أن يهديهم الصراط المستقيم ، ويعنى به صراط هؤلاء الضالين المضلين ، الضالين عن سواء السبيل ، وهو الصراط المستقيم .

وقد قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا أهواء ﴾ هؤلاء لأن أصل ابتداعهم هذه البدعة كان عن هوى من أنفسهم مع ظن كاذب ، فكانوا ممن قيل فيهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوَى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، [سورة النجم : ٢٣] . وممن قيل فيه : ﴿ ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله ﴾ ، [سورة القصص : ٥٠]

وسبب ذلك أن المسيح صلى الله عليه وسلم لما رفع إلى السماء وعاداه اليهود وعادوا أتباعه عداوة شديدة ، وبالغوا فى أذاهم وإذلالهم ، وطلب قتلهم ونفيهم صار فى قلوبهم من بغض اليهود ، وطلب الانتقام منهم ما لا يوصف ، فلما صار لهم دولة وملك مثل ما صار لهم فى دولة قسطنطين ، صاروا يريدون مقابلة اليهود ، كما جرت العادة فى مثل ذلك بين الطوائف المتقابلة المتنازعين فى الملك ، والمتنازعين فى البدع كالخوارج والروافض والجبرية مع القدرية والمعطلة مع المشبهة ، وكالدولتين المتنازعتين على الملك والأهواء بمنزلة قيس ويمن ، وأمثال ذلك إذا

ظهرت طائفة على الأخرى بعد ما آذتها الأخرى وانتقمت منها تريد أن تأخذ بثأرها، ولا تقف عند حد العدل، بل تعتدى على تلك كما اعتدت تلك عليها، فصار النصارى يريدون مناقضة اليهود فأحلوا ما يحرمه اليهود كالخنزير وغيره، وصاروا يمتحنون من دخل فى دينهم بأكل الخنزير فإن أكله وإلا لم يجعلوه نصرانياً.

وتركوا الختان وقالوا: إن المعمودية عوض عنه وصلوا إلى قبلة غير قبلة اليهود، وكان اليهود قد أسرفوا فى المسيح وزعموا أنه ولد زنا، وأنه كذاب ساحر فغلوا هؤلاء فى تعظيم المسيح، وقالوا: إنه الله وابن الله وأمثال ذلك، وصار من يطالب أن يقول فيه القول العدل مثل كثير من علمائهم وعبادهم، يجمعون لهم مجمعاً ويلعنونه فيه على وجه التعصب، واتباع الهوى، والغلو فيمن يعظمونه كما يجرى مثل ذلك لأهل الأهواء كالغلاة فى بعض المشايخ، وبعض أهل البيت، وبعض العلماء، وبعض الملوك، وبعض القبائل، وبعض المذاهب، وبعض الطرائق، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم، قال تعالى للنصارى الذين كانوا فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غيرَ الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾. وأما قولهم إن الصراط هو المذهب، أى الطريق، وهذه لفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطاً.

فيقال لهم: الصراط فى لغة العرب: هو الطريق. يقال: هو الطريق الواضح، ويقال: هو الطريق المحدود بجانبين الذى لا يخرج عنه، ومنه الصراط المنصوب على جهنم، وهو الجسر الذى يعبُر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا فى جهنم، ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذى يوجب سرعة العبور عليه، وفيه ثلاث لغات، هى ثلاث قراءات: الصراط، والسراط،

والزراط ، وهى لغة عربية عرباء ليست من المعرب ، ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا .

ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجرى بسرعة فى مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلوا فتسترط ولا مراً فتعفى ، من قولهم الشيء ، إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكى يعقوب بن السكيت ، الأخذ : سريط ، والقضا : ضريط ، والسرطاط : الفالوذج ، لأنه يسترط استراطا وسيف سراطى أى قاطع فإنه ماض سريع المذهب فى مضربه .

فالصراط : هو الطريق المحدود المعتدل الذى يصل سالكه إلى مطلوبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط فى كتابه فى غير موضع ولم يسم الله سبل الشيطان صراطاً بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٣] .

وفى السنن عن عبد الله بن مسعود قال : « خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، من أجابه قذفه فى النار ، ثم قرأ ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ » .

فسمى سبحانه طريقه صراطاً ، وسمى تلك سبلا ، ولم يسمها صراطاً كما سماها سبيلا وطريقه يسميه سبيلا ، كما يسميه صراطاً .

وقال تعالى عن موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ ، [سورة الصافات : ١١٧ ، ١١٨] . وقال تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر

ويتم نعمته عليك ويهديَكَ صراطاً مستقيما * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ .
[سورة الفتح : ١ ـ ٣] . وهذه الهداية الخاصة التي أعطاها إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ، ويزيده الله هدى بعد هدى ، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ﴾ .
[سورة الإسراء : ٩] .

فصل في القول في بطلان التثليث

قال الحاكي عنهم : فقلت : إنهم ينكرون علينا في قولنا ، أب وابن ، وروح قدس ، وأيضاً في قولنا إنهم ثلاث أقانيم ، وأيضاً في قولنا : إن المسيح رب وإله وخالق ، وأيضاً يطلبون منا إيضاح تجسد تجسم كلمة الله الخالق بإنسان مخلوق ، أجابوا قائلين : لو علموا قولنا هذا إنما نريد به القول الذي يعني أن الله شيء حي ناطق لما أنكروا علينا ذلك لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيه من التضاد والتلقب فقلنا : إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء ، وذلك لننفي عنه العدم ، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شيء حي ، وشيء غير حي ، فوصفناه بأجلهما ، فقلنا : هو شيء حي لننفي الموت عنه ، ورأينا الحي ينقسم قسمين : حي ناطق وحي غير ناطق ؛ فوصفناه بأفضلهما ، فقلنا : هو شيء حي ناطق ، لننفي الجهل عنه والثلاثة أسماء وهي إله واحد مسمى واحد ، ورب واحد ، خالق واحد شيء حي ناطق ، أي الذات والنطق والحياة ، والذات عندنا الأب الذي هو ابتداء الإثنين ، والنطق الإبن الذي هو مولود منه لولادة النطق من العقل ، والحياة روح القدس وهذه أسماء لم نسم نحن بها .

والجواب من وجوه : أحدها : قولهم : أما قولنا أب ، وابن ، وروح قدس ،

فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حى ناطق لما أنكروا ذلك علينا، فيقال : ليس الأمر كما ادعوه فإن النصارى يقولون : إن هذا القول تلقوه عن الإنجيل ، وإن فى الإنجيل عن المسيح صلوات الله عليه أنه قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والإبن ، وروح القدس] ، فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه تلقى من الشرع المنزل لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بعقولهم ، ثم عبروا عنها بهذه العبارات ، كما ادعوه فى مناظرتهم .

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلى هذه العبارة ، ولا إلى جعل الأقانيم ثلاثة ، بل معلوم عندهم ، وعند سائر أهل الملل أن الله موجود حى عليم ، قدير متكلم لا تختص صفاته بثلاثة ، ولا يعبر عن ثلاثة منها بعبارة لا تدل على ذلك ، وهو لفظ : الأب ، والإبن ، وروح القدس ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على ما فسروها به فى لغة أحد من الأمم ولا يوجد فى كلام أحد من الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعانى بل إثبات ما ادعوه من التثليث والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه لم يدل عليه شرع ولا عقل .

وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع ، وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة لا من جهة العقل ، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك ، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتب طريقاً عقلية ، فسروه بها تفسيراً ظنوه جائزاً فى العقل . ولهذا نجد النصارى لا يلجأون فى التثليث والاتحاد إلا إلى الشرع والكتب ، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول فإن فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وما جعله الله فى قلوب الناس من المعارف العقلية التى قد يسمونها ناموساً عقلياً طبيعياً يدفع ذلك وينفيه وينفر عنه ، لكن يزعمون أن الكتب الإلهية جاءت بذلك وأن ذلك أمر فوق العقل ، وأن هذا الكلام من طور وراء طور العقل فيتقلونه لظنهم أن الكتب الإلهية أخبرت به ، لا لأن العقول دلت عليه مع أنه ليس فى الكتب الإلهية

ما يدل على ذلك ، بل فيها ما يدل على نقيضه ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، ولا يميزون ما يحيله العقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه بنفى ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثانى : ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول ، وقد ضاهوا فى ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكا .

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ، وقد ضاهاهم فى ذلك أهل البدع والضلال ، المشبهون لهم من المنتسبين إلى الإسلام الذين يقولون بنحو قولهم من الغلو فى الأنبياء وأهل الكتب والمشايخ وغيرهم ، ومن يدعى الوحدة والحلول أو الاتحاد الخاص المعين كدعوى النصارى ودعوى الغالية من الشيعة فى علىّ وطائفة فى أهل البيت كالنصيرية ونحوهم ممن يدعى إلهية علىّ ، وكدعوى بعض الإسماعيلية الإلهية فى الحاكم وغيره من بنى عبد الله ابن ميمون القداح المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر .

ودعوى كثير من الناس نحو ذلك فى بعض الشيوخ إما المعروفين بالصلاح وإما من يظن به الصلاح وليس من أهله فإن لهم أقوالا من جنس أقوال النصارى ، وبعضها شر من أقوال النصارى .

وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم قالوا من جنس قول النصارى هذا أمر فوق العقل ، ويقول بعضهم ما كان يقوله التلمسانى لشيخ أهل الوحدة يقول : ثبت عندنا فى الكشف ما يناقض صريح العقل ، ويقولون لمن أراد أن يسلك سبيلهم : دع العقل والنقل ، أو أخرج عن العقل والنقل .

وينشدون فيهم :

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أقدامه يسجد العقل
هم معشر حلوا النظام وحرفوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نقل

وهؤلاء مقلدون لمشايخهم متبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتخاذ البدع عبادات واستحلال المحرمات كتقليد بعض النصارى لشيوخهم فإذا اعترضوا على أحد منهم يقولون : الشيخ يسلم له ، ولا يعترض عليه كما يقوله النصارى لشيوخهم ، ومن هؤلاء من يقول نحن أولاد الله ، ويقول الشيخ هو ولد الله ، وينطق بلفظ الشهوة فيقول إنهم أولاد شهوة ، ويقول إنه زوج مريم كما يقول ذلك من يقوله من النصارى .

وغاية ما عندهم أنهم يحكون عن شيوخهم نوعا من خرق العادات قد يكون كذبا ، وقد يكون صدقا ، وإذا كانت صدقا فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسحرة والكهان وقد تكون من أحوال أولياء الرحمن وحينئذ لم يكن فى ذلك ما يوجب تقليد الولى فى كل ما يقوله إذ الولى لا يجب أن يكون معصوما ، ولا يجب اتباعه فى كل ما يقوله ، ولا الإيمان بكل ما يقوله .

وإنما هذا من خصائص الأنبياء الذين يجب الإيمان بكل ما يقولونه ، فيجب تصديقهم فى كل ما يخبرون به من الغيب ، وطاعتهم فيما أوجبوه على الأمم ومن كفر بشىء مما جاءوا به فهو كافر ، ومن سب نبياً واحداً منهم وجب قتله، وليس هذا لغير الأنبياء من الصالحين .

فهؤلاء المبتدعة الغلاة المشركون القائلون بنوع من الحلول هم يضاهئون النصارى بما شابهوهم فيه ، وخالفوا فيه دين المسلمين ، ومنهم من تكون موافقته لدين المسلمين أكثر ، وأما الغلاة منهم فموافقتهم للنصارى أكثر ، ومنهم من هو أكفر من النصارى ، ولما كان مستند النصارى هو ما ينقلونه إما عن الأنبياء ، وإما عن غيرهم ممن يوجبون اتباعه ، كانوا إذا أوردوا على علمائهم ما يقتضى امتناع ذلك ، قالوا هكذا فى الكتاب ، وبهذا نطق الكتاب ، وهذه الكتب جاءت بها الرسل ، يعنون المؤيدين بالمعجزات ، ويعنون بالرسل الحواريين

فاعتصامهم بهم إنما هو لما ظنوه مذكوراً فى الكتب الإلهية وإن رأوه مخالفاً لصريح المعقول .

ولهذا ينهون جمهورهم عن البحث والمناظرة فى ذلك لعلمهم بأن العقل الصريح متى تصور دينهم علم أنه باطل . فدعوى المدعين أنا إنما قلنا أب وابن وروح قدس لتصحيح القول بأن الله حى ناطق كذب ظاهر ، وهم يعلمون أنه كذب ، وتصحيح القول بأن الله حى متكلم ، لا يقف على هذه العبارة ، بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة الشرعية والسمعية والعقلية ، والتعبير عنه بالعبارات المبينة كما يقوله المسلمون وغيرهم بدون قولنا أب وابن وروح قدس .

ومما يبين ذلك الوجه الثانى وهو أن النصارى المقرون بأن هذه العبارة فى الإنجيل المأخوذ عن المسيح مختلفون فى تفسير هذا الكلام ، فكثير منهم يقول الأب هو الوجود ، والابن هو الكلمة ، وروح القدس هو الحياة .

ومنهم من يقول : بل الأب هو الوجود ، والإبن هو الكلمة ، وروح القدس هو القدرة .

وبعضهم يقول : إن الاقانيم الثلاثة : جواد حكيم قادر ، فيجعل الأب هو الجواد ، والإبن هو الحكيم ، وروح القدس هو القادر ، ويزعمون أن جميع الصفات تدخل تحت هذه الثلاثة ، ويقولون : إنا استدللنا على وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلى الوجود ، وذلك من جوده .

وقد رأيت فى كتب النصارى هذا وهذا وهذا . ومنهم من يعبر عن الكلمة بالعلم ، فيقولون موجود حى عالم أو موجود عالم قادر ، كما يقول بعضهم ناطق. ومنهم من يقول موجود حى حكيم . ومنهم من يقول قائم بنفسه حى حكيم. وهم متفوقون على أن المتحد بالمسيح والحال فيه هو أقنوم الكلمة ، وهو الذى يسمونه الإبن دون الأب ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول: إن المسيح عليه السلام عبد مرسل ، كسائر الرسل صلوات الله عليهم وسلامه،

فوافقهم على لفظ : الأب ، والإبن ، وروح القدس ، ولا يفسر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد .

كما أن النسطورية يوافقونهم أيضاً على هذا اللفظ وينازعونهم فى الاتحاد الذى يقوله اليعقوبية والملكية فإذا كانوا متفقين على اللفظ متنازعين فى معناه علم أنهم صدقوا أولا باللفظ لأجل اعتقادهم مجىء الشرع به ، ثم تنازعوا بعد ذلك فى تفسير الكتاب ، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل فى تفسير بعض الكلام الذى يعتقدون أنه منقول عن الأنبياء عليهم السلام ، وعلم بذلك أن أصل قولهم الأب ، والابن ، وروح القدس ، لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجود حى ناطق الذى علموه أولا بالعقل .

يوضح هذا الوجه الثالث ، وهو قولهم إنا لما رأينا حدوث الأشياء وعلمنا أن شيئاً غيرها أحدثها ، إن كان المتكلم بها طائفة معينة من النصارى فيقال لهؤلاء : القول بالأب ، والإبن ، وروح القدس ، موجود عند النصارى قبل وجودكم ، وقبل نظركم هذا واستدلالكم فلا يجوز أن يكون نظركم هو الموجب لقول النصارى هذا ، وإن كان المراد به أن جميع النصارى من حين قالوا هذا الكلام نظروا واستدلوا حتى قالوا ذلك فهذا كذب بيّن ، فإن هذا الكلام يقول النصارى إنهم تلقوه عن الإنجيل ، وأن المسيح عليه السلام قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح القدس] .

والمسيح والحواريون لم يأمروهم بهذا النظر الموجب لهذا القول ولا جعل المسيح هذا القول موقوفاً عندهم على هذا البحث فمن أن جعلهم هذا القول ناشئاً عن هذا البحث قول باطل يعلمون هم ببطلانه .

الوجه الرابع : إن هذا القول : إن كان المسيح لم يقله فلا يجوز أن يقال ، ولو عنى به الإنسان معنى صحيحاً فإن هذه العبارة إنما يفهم منها عند الإطلاق

المعانى الباطلة ، ولهذا يوجد كثير من عوام النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله البنوة المعروفة فى المخلوقات ، ويقولون : إن مريم زوجة الله وهذا لازم لعامة النصارى وإن لم يقولوه فإن الذى يلد لا بد له من زوجة .

ولهذا قال تعالى : ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠١] .

وجعل الرب والد المولود أنكر فى المعقول من إثبات صاحبة له سواء فسرت الولادة بالولادة المعروفة أو بالولادة العقلية التى يقولها علماء النصارى ، فإن من أثبت صاحبة له يمكنه تأويل ذلك كما تأولوا هم الولد ، ويقولون : إن الأب ولدت منه الكلمة ، ومريم ولد منها الناسوت ، واتحد الناسوت باللاهوت ، فكما أن الأب أب باللاهوت لا بالناسوت ومريم أم للناسوت لا اللاهوت ، فكذلك هى صاحبة للأب بالناسوت ، واللاهوت زوج مريم بلاهوته ، كما أنه أب للمسيح بلاهوته وإذا اتحد اللاهوت بناسوت المسيح مدة طويلة فلماذا يمتنع أن يجتمع اللاهوت بناسوت مريم مدة قصيرة . وإذا جعل الناسوت الذى ولدته ابناً اللاهوت فلأى شىء لا تجعل هى صاحبة وزوجة للاهوت فإن المسيح عندهم اسم لمجموع اللاهوت والناسوت ، وهو عندهم إله تام وإنسان تام . فلاهوته من الله وناسوته من مريم ، فهو من أصلين : لاهوت وناسوت ، فإذا كان أحد الأصلين أباه والآخر أمه فلماذا لا تكون أمه زوجة أبيه بهذا الاعتبار ، مع أن المصاحبة قبل النبوة ؟ فكيف يثبت الفرع الملزوم بدون ثبوت الأصل اللازم ؟

وليس فى ذلك من المحال على أصلهم إلا ما هو من جنس إثبات نبوة المسيح وأقل امتناعاً وإن كان المسيح عليه السلام قال هذا الكلام ، فقد علمنا أن المسيح عليه السلام وغيره من الأنبياء معصومون لا يقولون إلا الحق ، وإذا قالوا قولاً فلا بد له من معنى صحيح .

ويمتنع أن يريدوا بقولهم ما يمتنع بطلانه بسمع أو عقل فإذا كانت المعقول ،

ونصوص الكتب المتقدمة مع نصوص القرآن تناقض ما ابتدعته النصارى فى المسيح عُلِمَ أن المسيح لم يُرِدْ معنى باطلا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

بل نقول فى الوجه الخامس : إن صحت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عليه الصلاة والسلام فإنه أراد بذلك ما يناسب سائر كلامه ، وفى الموجود فى كتبهم تسمية الرب أباً وتسمية عباده أبناء ، كما يذكرون أنه قال فى التوراة ليعقوب إسرائيل : [أنت ابنى بكرى]، وقال لداود فى الزبور : [أنت ابنى وحبيبى] ، وفى الإنجيل فى غير موضع يقول المسيح : [أبى وأبيكم] كقوله : [إنى أذهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم] فيسميه أباً لهم كما يسميهم أبناء له فإن كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربى الرحيم ، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والإبن هو المربّى المرحوم ، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها ، فيكون المراد بالأب الرّب ، والمراد بالإبن عنده المسيح الذى رباه .

وأما روح القدس: فهى لفظة موجودة فى غير موضع من الكتب التى عندهم ، وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحلّ فى إبراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين .

والقرآن قد شهد أن الله أيد المسيح بروح القدس ، كما قال الله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناهُ بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] . فى موضعين [(١)] من البقرة .

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتكَ إذ أيدتُّك بروح القدس ﴾، [سورة المائدة : ١١٠] . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: « إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » وقال « اللهم أيده بروح القدس » كما تقدم عن ذكر هذا كله مبسوطاً .

وروح القدس: قد يراد بها الملك المقدس كجبريل ، ويراد بها الوحى ، والهدى

---

(١) الموضع الثانى فى : ٢٥٣ .

والتأييد الذى ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطته ، وقد يكونان متلازمين فإن الملك ينزل بالوحى ، والوحى ينزل به الملك ، والله يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى كما قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فأنزلَ اللهُ سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها ﴾ فى موضعين من سورة براءة ، [٤٠] (١) .

وقال الله تعالى :﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ ،[سورة الأحزاب: ٩] وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، [سورة الأنفال: ١٢] . الآية ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ،أولئك كتبَ فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ،[سورة المجادلة ٢٢]. وقال الله تعالى : ﴿ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ ، [سورة النحل : ٢] وقال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر : ١٥] وقال . « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » ، [سورة الشورى : ٥٢] . وإذا كان روح القدس معروفاً فى كلام الأنبياء المتقدمين والمتأخرين أنها أمر ينزله الله على أنبيائه وصالحى عباده سواء كان ملائكة تنزل بالوحى والنصر أو وحياً وتأييداً مع الملك ، وبدون الملك ليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به كان قال : [عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] مراده مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذى أرسله وبالملك الذى أنزل عليه الوحى الذى جاء به ، فيكون ذلك أمراً لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا هو الحق الذى يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول .

---

(١) هذا هو الموضع الثانى ، وأما الموضع الأول فهو فى [٢٦] وهو (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) .

فتفسير كلام المعصوم بهذا التفسير الذى يوافق سائر ألفاظ الكتب التى عندهم و يوافق القرآن والعقل أولى من تفسيره بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف ، ولا هو من التأويل الذى هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، بل هو تفسير له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة والعبارة المألوفة فى خطاب المسيح وخطاب سائر الأنبياء .

وأما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلى هو العلم أو كلمة الله فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه لا فى كلام أحد من الأنبياء ، ولا لغة أحد من الأنبياء ، وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله ، فالذى فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح وعادته فى كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف فى لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، و بذلك فسره أكابر علماء النصارى .

وأما ضلال النصارى المحرفون لمعانى كتب الله عز وجل ، فسروه بما يخالف معناه الظاهر وينكره العقل والشرع .

وتمام هذا بالوجه السادس ، وهو أن النصارى لما كان عندهم فى الكتب تسمية المسيح عليه السلام ابناً ، وتسمية غيره من الأنبياء ابناً ، كقوله ليعقوب: [أنت ابنى بكرى] وتسمية الحواريين أبناء قالوا هو ابنه بالطبع ، وغيره ابنه بالوضع ، فجعلوا لفظ الأب مشتركاً بين معنيين وأثبتوا لله طبعاً ، جعلوا المسيح ابنه باعتبار ذلك الطبع ، وهذا يقرره قول من يفهم منهم أنه ابنه البنوة المعروفة فى المخلوقين ، وأن مريم زوجة الله ، وكذلك جعلوا روح القدس مشتركة بين حياة الله و بين روح القدس التى تنزل على الأنبياء والصالحين .

ومعلوم أن الاشتراك على خلاف الأصل ، وأن اللفظ إذا استعمل فى عدة

مواضع كان جعله حقيقة متواطئاً فى القدر المشترك أولى من جعله مشتركاً اشتراكاً لفظياً بحيث يكون حقيقة فى خصوص هذا ، وخصوص هذا ، أو يكون مجازاً فى إحداهما فإن المجاز والاشتراك على خلاف الأصل ، هذا إن قدر أن لفظ الابن وروح القدس استعمل فى نطق الله وحياته كما يزعم النصارى ، فكيف إذا لم يوجد فى كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ الإبن، ولفظ روح القدس وأرادوا به شيئاً من صفات الله لا كلامه ولا حياته ولا علمه ولا غير ذلك ، بل لم يوجد استعمال لفظ الابن فى كلام الأنبياء إلا فى شىء مخلوق ولم يوجد استعمال روح القدس بما هو فى صفات الله القائمة به ، ونحن إذا فسرنا الأب وروح القدس ببنوة التربية وروح القدس بما ينزل على الأنبياء . كنا قد جعلنا اللفظ مفرداً متواطئاً وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركاً أو مجازاً فى أحد المعنيين ، فكان تفسيرهم مخالفاً لظاهر اللغة التى خوطبوا بها ، ولظاهر الكتب التى بأيديهم وتفسيرنا موافقاً لظاهر لغتهم ، وظاهر الكتب التى بأيديهم ، وحينئذ فقد تبين أنه ليس معهم بالتثليث لا حجة سمعية ولا عقلية ، بل هو باطل شرعاً وعقلا .

ويؤيد هذا الوجه السابع : وهو أنهم فى أمانتهم أثبتوا من المعانى ، ولفظ الأقانيم وغير ذلك ما لا تدل عليه الكتب التى بأيديهم ألبتة ، بل فهموا منها معنى باطلا، وضموا إليه معانى باطلة من عند أنفسهم فكانوا محرفين لكتب الله فى ذلك ، مفترين على الله الكذب ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

الوجه الثامن : أن قولهم بالأقانيم مع بطلانه فى العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب ، ولم يوجد هذا اللفظ فى شىء من كتب الأنبياء التى بأيديهم ولا فى كلام الحواريين، بل هى لفظة ابتدعوها ، ويقال : إنها رومية ، وقد قيل : الأقنوم فى لغتهم معناه الأصل ، ولهذا يضطرون فى تفسير الأقانيم تارة يقولون أشخاص ، وتارة خواص، وتارة صفات ، وتارة جواهر ، وتارة يجعلون الأقنوم اسماً للذات والصفة معاً ، وهذا تفسير حذاقهم .

الوجه التاسع : قولهم فى المسيح عليه السلام إنه خالق قول مع بطلانه فى الشرع والعقل لم ينطق به شىء من النبوات التى عندهم ، ولكن يستدلون على ذلك بما لا يدل عليه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

الوجه العاشر : قولهم فى تجسد اللاهوت أيضاً هو قول مع بطلانه فى العقل والشرع ، لا يدل عليه شىء من كلام المعصوم من النبيين والمرسلين .

الوجه الحادى عشر : أنا نقول : لا ريب أن الله حىّ عالم قادر متكلم ، وللمسلمين على ذلك من الدلائل العقلية التى دل الرسول عليها ، وأرشد إليها فصارت معروفة بالعقل مدلولا عليها بالشرع ما هو مبسوط فى موضعه وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل ، لم تذكروا على ذلك دليلا عقلياً .

فقولكم لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب كلام قاصر لوجوه :

أحدها : أنكم لم تروا حدوث جميع المخلوقات ، وإنما رأيتم حدوث مايشهد حدوثه كالسحاب والمطر والحيوان والنبات ونحو ذلك ، فأين دليلكم على حدوث سائر الأشياء ؟

الثانى : أنه كان ينبغى أن تقولوا لما علم حدوث المحدثات ، أو حدوث المخلوقات أو حدوث ما سوى الله ونحو ذلك مما يبين المحدث ما سوى الله . فأما إطلاق حدوث جميع الأشياء فباطل ، فإن الله يسمى عندكم وعند جمهور المسلمين شيئاً من الأشياء . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ الله خالقُ كل شىء ﴾ ، [سورة الرعد : ١٦] . فإن هذا التركيب يبين أن الخالق غير المخلوق خلاف قول القائل حدوث الأشياء .

الثالث : أن العلم بالمحدث لابد له من محدث ، علم فطرى ضرورى ، ولهذا قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾ ، [سورة الطور : ٣٥] . قال جبير بن مطعم : « لما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم

يقرأ بها فى صلاة المغرب أحسست بفؤادى قد انصدع بقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير خالقٍ أم هم الخالقون ؟ ﴾ .

ومعلوم بالفطرة التى فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه .

وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل ، وهذا أمر مركوز فى بنى آدم حتى الصبيان ، لو ضرب الصبى ضربة فقال : من ضربنى ؟ فقيل : ما ضربك أحد ، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل .

ولهذا لو جوّز مجوز أن يحدث كتابة أو نساجة أو غراساً ونحو ذلك من غير محدث لذلك ، لكان عند العقلاء إما مجنوناً ، وإما مُسَفْسطاً كالمنكر للعلوم والمعارف الضرورية ، وكذلك معلوم أنه لم يحدث نفسه ، فإن كان معدوماً قبل حدوثه لم يكن شيئاً فيمتنع أن يحدث غيره فضلا عن أن يحدث نفسه .

فقولكم لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب تعليل باطل فإن علمنا حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل ما فيها من التضاد والتقلب بل سواء كانت متماثلة أو مختلفة أو متضادة ، نحن نعلم بصريح العقل أن المحدث لا يحدث نفسه ، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل ، كما تعلم أن العدم لا يخلق موجوداً ، وأن المحدث للحوادث الموجودة لا يكون معدوماً .

الوجه الرابع : أنكم ذكرتم حجة على أنها لم تحدث نفسها ، وهى حجة ضعيفة ولم تذكر حجة على أنها حدثت بلا محدث ، لا أنفسها ولا غيرها ، فإن كان امتناع كونها أحدثت نفسها محتاجاً إلى دليل ، فكذلك امتناع حدوثها بلا محدث ، وإن كان معلوماً ببديهة العقل ، وهو من العلوم الضرورية فكذلك الآخر فذكر الدليل على أحدهما دون الآخر خطأ لو كنتم ذكرتم دليلا صحيحاً ، فكيف إذا كان الدليل باطلا ؟ ومن يكون مبلغهم من العلم بالأدلة العقلية التى يثبتون بها العلم بالصانع وصفاته هذا المبلغ ؟ ثم يريدون مع ذلك أن يثبتوا معانى

عقلية ، ويزعمون أنها موافقة لفهمهم الباطل من الكتب الإلهية . فهم ممن قال الله فيه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات فى بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ : ٤٠] .

الوجه الثانى عشر : قولكم : فقلنا إنه شىء لا كالأشياء المخلوقة ، إذ هو الخالق لكل شىء ، لننفى عنه العدم . فيقال لهم : لا ريب أن الله كما وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ ، [سورة الشورى:١١] . وقوله : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ ، [سورة مريم : ٦٥] . أى مثلا يستحق أن يسمى بأسمائه .

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وقد دل على ذلك العقل فإن المثلين اللذين يسد أحدهما مسد الآخر يجب لأحدهما ما يجب للآخر ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، ويجوز عليه ما يجوز عليه ، فلو كان للخالق مثلٌ للزم أن يشتركا فيما يجب ، ويجوز ، ويمتنع .

والخالق يجب له الوجود والقدم ويمتنع عليه العدم فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديماً أزلياً لم يعدم قط ، وكونه محدثاً مخلوقاً يستلزم أن يكون كان معدوماً ، فيلزم أن يكون موجوداً معدوماً قديماً محدثاً ، وهو جمع بين النقيضين يمتنع فى بداية العقول وأيضاً فالمخلوق يمتنع عليه القدم ، ويجب له مسابقة العدم ، فلو وجب للخالق القديم ما يجب له لوجب كون الواجب القدم واجب الحدوث بعدم العدم ، وهذا جمع بين النقيضين ، فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شىء ، والكلام على هذا مبسوط فى موضع آخر لكن أنتم لم تذكروا على هذا حجة على أنه خالق كل شىء ، إذ كان عمدتكم على ما شهدتم حدوثه ، وليس ذلك كل

شيء ، ولم تذكروا حجة مع كونه خالق كل شيء على أنه ليس كمثله شيء ، بل قلتم لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها لما فيها من التضاد والتقلب فقلنا إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء ، وذلك لننفي العدم عنه . ودليلكم لو دل على العلم بالصانع لم يدل إلا على أنه خالق ، فكيف إذا لم يدل ؟

ولا ريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجوداً لا معدوماً وهذا معلوم بالضرورة ، لا يحتاج إلى دليل عند جمهور العقلاء والنظار وإن كان بعضهم أثبت وجوده بالدليل النظرى لكن ليس فى دليلكم ما يدل على أنه ليس كالأشياء المخلوقة ، وقولكم إذ هو الخالق لكل شيء يتضمن أنه خالق لكل ما سواه ليس فيه بيان نفى المماثلة عنه ، ولكن بينتم بهذا الكلام جهلكم بالدلائل العقلية كجهلكم بالكتب المنزلة ، وكذلك أخبر تعالى عن أهل النار أنهم يقولون : ﴿ لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ، ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [الملك : ١٠] .

فصل فى تقسيم الأشياء

وأما قولكم : ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شيء حى ، وشيء غير حى ، فوصفناه بأجل القسمين فقلنا إنه حى لننفى الموت عنه ، فيقال : لا ريب أن الله حيّ كما نطقت بذلك كتبه المنزلة التى هى آياته القولية ، ودلت على ذلك آياته كمخلوقاته ، التى هى آياته الفعلية ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقُّ ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣] أى القرآن حق ، وقد تقدم ذكر القرآن ، فى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن كنا من عند الله ثم كفرتم به من أضلُّ ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ [فصلت : ٥٢] . فالله تعالى يرى عباده من آياته المشاهدة المعاينة الفعلية ، مايبين صدق آياته المنزلة المسموعة القولية ، قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥]

وقال تعالى : ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾ ، [سورة الفرقان : ٥٨] .

والدلائل على حياته كثيرة منها أنه قد ثبت أنه عالم والعلم لا يقوم إلا بحى ، وثبت أنه قادر مختار يفعل بمشيئته ، والقادر المختار لا يكون إلا حياً .

ومنها أنه خالق الأحياء وغيرهم ، والخالق أكمل من المخلوق ، فكل كمال ثبت للمخلوق فهو من الخالق ، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من خالقه ، وكماله أكمل منه .

والمتفلسفة القائلون بالموجب بالذات يسلمون هذا ، ويقولون كمال المعلول مستفاد من علته ، فإذا كان خالقاً للأحياء كان حياً بطريق الأولى والأحرى .

ومنها أن الحى أكمل من غير الحى ، كما قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأمواتُ ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٢] .

فلو كان الخالق غير حى لزم أن يكون المحدث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخالق ، فيكون أنقص الموجودين أكمل من أكملهما .

وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدليل ، وإن كانوا لم يبينوا بياناً تاماً ، لكن قولهم : قلنا إنه حى لننفى الموت عنه كلام مستدرك ، فإن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة ، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص ، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعانى الثبوتية ، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال ، إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض والعدم نفى محض لا كمال فيه ، وإنما الكمال الموجود .

ولهذا جاء كتاب الله على هذا الوجه فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت ، كقوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ فنفى أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيوميته إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون مع كمال الراحة ، كما لا يموتون .

والقيوم : القائم المقيم لما سواه فلو جماءت له سنة أو نوم لنقصت حياته وقيوميته ، فلم يكن قائماً ولا قيوماً ، كما ضرب الله المثل لبنى إسرائيل ، لما سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فأرقه ثلاثة ، ثم أعطاه قوارير فأخذه النوم فتكسرت .

بيّن بهذا المثل أن خالق العالم لو نام لفسد العالم ، ثم قال تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] .

فإنكاره ونفيه أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه يتضمن كمال ملكه لما فى السموات وما فى الأرض وأنه ليس له شريك ، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه وقبل شفاعته كان مشاركاً له ، إذ صارت شفاعته سبباً لتحريك المشفوع إليه ، بخلاف من لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإنه منفرد بالملك ليس له شريك بوجه من الوجوه .

ثم قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] . فنفى أن يعلم أحد شيئاً من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم ، فهو العالم بالمعلومات ، ولا يعلم أحد شيئاً إلا بتعليمه ، كما قالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٢] . ثم قال تعالى : ﴿ وَسِع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] .

أى لا يكرثه ولا يثقل عليه فبين بذلك كمال قدرته ، وأنه لا يلحقه أدنى مشقة ، ولا أيسر كلفة فى حفظ المخلوقات ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى .

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسّنا من لُغوبٍ ﴾ ،[سورة ق : ٣٨]

بين بذلك كمال قدرته وأنه لا يلحقه اللغوب فى الأعمال العظيمة مثل خلقه

السموات والأرض ، كما يلحق المخلوق اللغوب إذا عمل عملا عظيما ، واللغوب : الانقطاع والإعياء ، وهذا باب واسع مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه موصوف بصفات الكمال التى يستحقها بذاته ويمتنع اتصافه بنقائضها وإذا وصف باللغوب ، فالمقصود هو إثبات الكمال . وهؤلاء قالوا : قد وصفناه بالحياة لننفى عنه بالموت ، كما قالوا : هو شيء لننفى العدم عنه ، والحياة صفة كمال يستحقها بذاته ، والموت مناقض لها ، فلم يوصف بالحياة لأجل نفى الموت ، بل وصفه بالحياة يستلزم نفى الموت فينفى عنه الموت ، لأنه حى لا يثبت له الحياة لنفى الموت ، وكذلك لتثبت له أنه شيء موجود .

وذلك يستلزم نفى العدم عنه ، لا أن إثبات وجوده لأجل نفى العدم ، بل نفى العدم عنه لأجل وجوده ، كما أن الموت نفى الموت عنه لأجل حياته ، وكذلك قولهم : قولنا : إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة وذلك لننفى العدم عنه ، لكن كان مرادهم ، والله أعلم ، وإن كانت عبارتهم قاصرة إثبات الوجود ، ونفى العدم ، وإثبات الحياة ونفى الموت .

فصل فى رد دعوى النصارى أن الحىّ قسمين

ثم قالوا : ورأينا الحى ينقسم قسمين : حياً ناطقاً ، وحياً غير ناطق فوصفناه بأفضل الوصفين فقلنا : إنه ناطق لننفى الجهل عنه . فيقال لهم : لا ريب أن الربّ سبحانه موصوف بأنه حى عليم قدير متكلم مختار ، لكن قولهم : فقلنا إنه ناطق لننفى الجهل عنه يقتضى أنكم أردتم النطق المناقض للجهل . وهذا هو العلم ، فإن العلم يناقض الجهل لم تريدوا بذلك النطق الذى هو العبارة والبيان ، ولم يريدوا بذلك ما جعله بعض النظار كلاماً ، وهى معانى قائمة بالنفس ليست من جنس العلوم ، ولا من جنس الإرادات ، وحينئذ فيقال لكم : ليس فى الأحياء إلا ما هو شاعر ، فكل حىّ فله شعور بحسبه .

وكلما قويت الحياة قوى شعورها ، وشعور الحيوان قد يعبر عنه بلفظ العلم، كما يقول الناس : علم الفهد والبازى والـكلب ، ويقال : كلب معلم وغير معلم وبازى معلم .

وقال تعالى : ﴿ وما علّمتم من الجوارح مـكلبين تعلمونهن مما علمـكم الله ﴾ ، [سورة المائدة : ٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فقتل فـكل » . لاريب أن العلم صفة كمال ، فالعالم أكمل من الجاهل والدلائل الدالة على علم الله كثيرة مثل إنه سبحانه خالق كل شيء بإرادته .

والارادة تستلزم تصور المراد فلابد أن يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها .

وكلما وجد فى الخارج فهو موجود وجوداً معيناً يمتاز به عن غيره فإذا خلقها كذلك فلابد أن يعلمها علماً مفصلا يمتاز به كل معلوم عما سواه ، ولو قدر أنه علمها على وجه كلى فقط ، لم يكن علم منها شيئاً لأن الكلى إنما يكون كلياً فى الأذهان. وأما ما هو موجودٌ فى الخارج فهو معين مختص بعينه ليس بكلى .

وكل واحد من الأفلاك معين فلو لم يعلم إلا الـكليات لم يكن عالماً بشيء من الموجودات وقد بسط فى غير هذا الموضوع تمام الكلام على هذا ، وبين فساد شبه نفاق ذلك بما ادعوه من لزوم التغير أو التـكثر وبين أنه لا يلزم من ثبوت علم الله بالأشياء كلها على وجه التفصيل محذور ينفيه دليل صحيح .

فإن التـكثر فيما يقوم به من المعانى هو مدلول الأدلة العقلية والسمعية فإنه عالم قادر حىّ ، وليس العلم هو القدرة ، ولا القدرة هى الحياة ولا الصفة هى الموصوف ، ومن جعل كل صفة هى الأخرى ، وجعل الصفات هو الموصوف ، فهو قول فى غاية السفسطة .

وأيضاً فإنه خالق العالمين من الملائـكة والجن والإنس ، وجاعلهم علماء فيمتنع أن يجعل غيره عالماً من ليس هو فى نفسه بعالم ، فان العلم صفة كمال،

ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، وكل كال للمخلوق فهو من الخالق فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق،وأيضاً فإن فى الممكنات المحدثة المخلوقة ماهو عالم والواجب القديم الخالق أكمل من الممكن المحدث فيمتنع أن يتصف بالكمال الموجود الناقص الخسيس دون الموجود الكامل الشريف . وهذا يتناول معنى حجتهم .

وأيضاً فإنه حيّ ، والحياة مستلزمة لجنس العلم ، وإذا كانت حياته أكمل من كل حياة فعلمه أكمل من كل علم ، لكن ، يقال لكم : كما أنه حى عالم فهو أيضا قادر ، فيما ذكرتم بأن الموجودات أو الأحياء تنقسم إلى قادر وغيرقادر فيجب أن يوصف بأجل القسمين ، وهو القدرة .

لاسيما ودلائل كونه قادرا أظهر من دلائل كونه عالماً ، فإن نفس كونه خالقاً فاعلا يستلزم كونه قادرا ، فإن الفعل بدون القدرة ممتنع حتى إذا قيل : إن الجماد يفعل فإنما يفعل بقوة فيه كالقوى الطبيعية التى فى الأجسام الطبيعية فيمتنع فى خالق العالم أن لا يكون له قوة ، ولا قدرة ، قال تعالى : ﴿ إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدُّ منهم قوة ﴾ .

[سورة فصلت : ١٥].

وفى صحيح البخارى حديث الاستخارة : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب » .

وكثير من نظار المسلمين المصنفين فى أصول الدين الذين يقيمون الدليل على كونه قادراً قبل كونه عالماً وحياً .

ويقول العلم بذلك أسبق فى السلوك الاستدلالى النظرى لدلالة الأحداث والفعل على قدرة المحدث الفاعل فيجب أن يثبتوا له صفة القدرة مع العلم .

وكذلك يقولون : إن الحى لما كان ينقسم إلى سميع ، وغير سميع ،

وبصير ، وغير بصير وصفناه بأشرف القسمين ، وهو السميع والبصير .

وكذلك فى النطق إذا أريد به البيان والعبارة ، ولم يرد به مجرد العلم ، أو معنى من جنس العلم فإن الحى ينقسم إلى متكلم ، ومبين معبر عما فى نفسه ، وإلى ماليس كذلك ، فيجب أن تصفوه بأشرف القسمين ، وهو الكلام المبين المعبر عما فى النفس من المعانى .

ومما يستدل به على ثبوت جميع صفات الكمال أنه لو لم يوصف بكونه حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً متكلماً لوصف بضد ذلك كالموت والجهل والعجز والصمم، والبكم والخرس. ومعلوم وجوب تقدسه عن هذه النقائص، بل هذا معلوم بالضرورة العقلية ، فإنه أكمل الموجودات وأجلُّها وأعظمها ، وربّ كل ماسواه وخالقه ومالكه ، وجاعل كل ماسواه حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً متكلماً فيمتنع أن يكون هو شيئاً عاجزاً جاهلا أصم أبكم أخرس ، بل من المعلوم بضرورة العقل أن المتصف بهذه النقائص يمتنع أن يكون فاعلا فضلا عن أن يكون خالقاً لكل شىء .

ولبعض الملاحدة من المتفلسفة اتبعهم هنا سؤال مشهور وهو أنه إنما يلزم إذا لم يتصف الكمال أن يوصف بأضدادها ، فأما إذا لم يكن قابلا لها لم يلزم .

وقالوا : وهذه الصفات متقابلة العدم والملكة ، وهو عدم الشىء عما من شأنه أن يكون قابلا له كعدم الحياة والسمع والبصر .

والكلام عن الحيوان الذى هو القابل له فإذا لم يكن قابلا له كالجماد . فلا يسمى مع عدم الحياة والسمع والبصر والكلام ميتاً ولا أصم ولا أعمى ولا أخرس .

وجواب ذلك من أوجه :

أحدها : أنه أن يكون قابلا للاتصاف بصفات الكمال ، وإما أن لايكون ،

فإن لم يكن قابلا لزم أن يكون أنقص ممن قبلها ، ولم يتصف بها ، فالجماد أنقص من الحيوان الذى لم يتصف بعد بصفات كماله . و إن كان قابلا لها لزم ـ إذا عدمها ـ أن يتصف بأضدادها .

وهؤلاء قد يقولون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان . فيقال لهم : وفى نفيها تشبيه له بالجماد الذى هو أنقص من الحيوان ، فإذا لم يكن فى نفيها تشبيه له بالجماد ، فكذلك لا يكون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان ، وإن كان فى ذلك تشبيه بالحيوان فهو محذور ، فالمحذور فى تشبيهه بالجماد أعظم ، و إن لم يكن مثل هذا التشبيه محذوراً فى ذلك ، فأن لا يكون محذوراً فى هذا بطريق الأولى .

الوجه الثانى : أن جعلهم سلب الموت والصمم والبكم على الجماد ، ولزعمهم إنه غير قابل لها اصطلاح محض ، فإنه موجود فى كلام الله تسمية الجماد ميتاً ، كما قال تعالى فى الأصنام : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ .

الوجه الثالث : أنه يكفى عدم هذه الصفات ، فإن مجرد عدم الحياة والعلم والقدرة صفة نقص سواء قدر الموصوف قابلا لها أو غير قابل ، بل إذا قدر أنه غير قابل لها كان ذلك أبلغ فى النقص .

فعلم أن نفى هذه الصفات عنه ، ونفى قبولها يوجب أن يكون أنقص من الحيوان الأعمى الأصم الذى يقبلها ، وإن لم يتصف بها .

الوجه الرابع : أن الكمال فى الوجود ، والنقص فى العدم ، فنفس ثبوت هذه الصفات كمال . ونفس نفيها نقص وإن لم يتصف بها لزم نقصه ، وأن يكون المفعول أكمل من الفاعل ، وأن يكون المحدث الممكن أكمل من القديم الأزلى الواجب الوجود الخالق ، وهذا ممتنع فى بداية العقول ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع ، ولكن نبهنا عليها هنا لبيان بعض الطرق التى بها تعرف صفات الرب ، وبيان أن هؤلاء القوم من أجهل أهل الملل بالرب .

والطرق التى يعرف بها كماله فى العقلية والسمعية وأن القوم عندهم من ألفاظ

الأنبياء مالم يفهموا كثيراً منه وما حرفوه كثيراً منه، وعندهم من المعقول فى ذلك ما يفضلهم اليهود فيه ، ولـكن اليهود، وإن كانوا أعظم منهم ، فهم أعظم عناداً وكبراً وجحداً للحق والنصارى أجهل وأضل من اليهود ، ولـكن هم أعبد وأزهد وأحسن أخلاقاً ، ولهذا كانوا أقرب مودة للذين آمنوا من والمشركين .

فصل فى بطلان كون الثلاثة إله واحد

قالوا : والثلاثة أسماء فهى إله واحد ورب واحد ، وخالق واحد ، ومسمى واحد لم يزل ولا يزال شيئاً حياً ناطقاً ، أى الذات ، والنطق ، والحياة .

فالذات ، عندنا : الأب الذى هو ابتداء الإثنين .

والنطق : الابن الذى هو مولود منه كولادة النطق من العقل .

والحياة : هى الروح القدس .

والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن أسماء الله تعالى متعددة كثيرة ، فإنه ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الحشر : ٢٢ ، ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٨٠] .

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة الإسراء : ١١٠]

وقال تعالى : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة

لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى * الرحمنُ على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة طه : ١ ــ ٨] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

وهذا معناه فى أشهر قولى العلماء وأصحهما أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة وإلا فأسماؤه تبارك وتعالى أكثر من ذلك ، كما فى الحديث الآخر الذى رواه أحمد فى مسنده ، وأبو حاتم فى صحيحه ، عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أصاب عبداً قط همٌّ ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكانه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتعلمهن ؟ قال : بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

وإذا كانت أسماء الله كثيرة كالعزيز والقدير وغيرها ، فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل ، وأى شىء زعم الزاعم فى اختصاص هذه الأسماء دون غيرها ، فهو باطل ، كما قد بسط فى موضع آخر .

الوجه الثانى : قولهم الأب الذى هو ابتداء الاثنين ، والابن : النطق الذى هو مولود منه ، كولادة النطق من العقل كلام باطل ، فإن صفات الكمال لازمة لذات الرب عز وجل أولاً وآخراً ، لم يزل ولا يزال حياً عالماً قادراً ، لم يصر حياً بعد أن لم يكن حيا ولا عالماً ، بعد أن لم يكن عالماً .

فإذا قالوا : إن الأب الذى هو الذات ، هو ابتداء الحياة والنطق ، اقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق ، فإن ما كان ابتداء لغيره يكون متقدماً عليه أو فاعلا له

وهذا فى حق الله باطل .

وكذلك قولهم : إن النطق مولود منه كولادة النطق من العقل ، فإن المولود من غيره متولد منه ، فيحدث بعد أن لم يكن ، كما يحدث النطق شيئاً فشيئاً ، سواء أريد بالنطق العلم أو البيان فكلاهما لم يكن لازماً للنفس الناطقة ، بل حدث فيها واتصفت به بعد أن لم يكن ، وإن كانت قابلة له ناطقة له بالقوة فإذا مثلوا قوله النطق من الرب كتولده عن العقل لزم أن يكون الرب كان ناطقاً بالقوة، ثم صار ناطقاً بالفعل فيلزم أنه صار عالماً بعد أن لم يكن عالما ، وهذا من أعظم الكفر وأشده استحالة ، أنه لا شىء غيره ، لجعله متصفاً بصفات الكمال بعد أن لم يكن متصفا بها ، إذ كل ما سواه فهو مخلوق له وكماله منه، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرب سبحانه وتعالى كاملا .

وذلك دور ممتنع فى صريح العقل ، إذ كان الشىء لا يجعل غيره متصفا بصفات الكمال ، حتى يكون هو متصفا بها ، فإذا لم يتصف بها حتى جعله غيره متصفا بها ، لزم الدور الممتنع مثل كون كل من الشيئين فاعلا للآخر وعلة له ، أو لبعض صفاته المشروطة فى الفعل فتبين بطلان كون نطقه متولداً منه ؛ كتولد النطق من العقل ، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأ لها متقدم عليها أو فاعل لها .

الوجه الثالث : أن قولهم فى الإبن أنه مولود من الله إن أرادوا به أنه صفة لازمة له، فكذلك الحياة صفة لازمة لله ، فيكون روح القدس أيضاً ابناً ثانياً ، وإن أرادوا به أنه حصل منه ، بعد أن لم يكن ؛ لزم أن يكون عالماً بعد أن

لم يكن عالما ، وهذا مع كونه باطلا وكفراً فيلزم مثله فى الحياة وهو أنه صار حيا بعد أن لم يكن حيا .

الوجه الرابع : أن تسميته حياة الله روح القدس أمر لم ينطق به شىء من كتب الله المنزلة ، فإطلاق روح القدس على حياة الله من تبديلهم وتحريفهم .

الوجه الخامس : أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذى هو العلم ، وهذا إن أرادوا به نفس الذات العالمة الناطقة كان المسيح هو الأب ؛ وكان المسيح نفسه هو الأب ، وهو الابن ، وهو روح القدس ، وهذا عندهم وعند جميع الناس باطل وكفر .

وإن قالوا : المتحد به هو العلم ، فالعلم صفة لا تفارق العالم ، ولا تفارق الصفة الأخرى التى هى حياة ، فيمتنع أن يتحد به العلم دون الذات ، ودون الحياة .

الوجه السادس : أن العلم أيضاً صفة والصفة لا تخلق ولا ترزق ، والمسيح نفسه ليس هو صفة قائمة بغيرها باتفاق العقلاء وأيضاً فهو عندهم خالق السموات والأرض فامتنع أن يكون المتحد به صفة ، فإن الإله المعبود هو الإله الحى العالم القادر ، وليس هو نفس الحياة ، ولا نفس العلم والكلام .

فلو قال قائل : ياحياة الله ، أو يا علم الله ، أو يا كلام الله ، اغفر لى ، وارحمنى واهدنى كان هذا باطلا فى صريح العقل ، ولهذا لم يجوز أحد من أهل الملل أن يقال للتوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله اغفر لى وارحمنى ، وإنما يقال للإله المتكلم بهذا الكلام : اغفر لى وارحمنى .

والمسيح عليه السلام عندكم هو الإله الخالق الذى يقال له اغفر لنا وارحمنا فلو كان هو نفس علم الله ، وكلامه لم يجز أن يكون إلها معبوداً فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه ، بل هو مخلوق بكلامه ، حيث قال له : كن فيكون ؟

فتبين من ذلك أن كلمات لله كثيرة لا نهاية لها وفى الكتب الإلهية كالتوراة أنه خلق الأشياء بكلامه ، وكان فى أول التوراة أنه قال : ليكن كذا ليكن كذا .

ومعلوم أن المسيح ليس هو كلمات كثيرة بل غايته أن يكون كلمة واحدة إذ هو الخلوق بكلمة من كلمات الله عز وجل .

الوجه السابع : أن أمانتكم التى وضعها أكابركم بحضرة « قسطنطين » ، وهى عقيدة إيمانكم التى جعلتموها أصل دينكم تناقض ماتدعونه من أن الإله واحد ، وتبين أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ما تعتقدونه .

وهذان أمران معروفان فى دينكم تناقضكم وإظهاركم فى المناظرة خلاف ما تقولونه من أصل إيمانكم ، فإن « الأمانة » التى اتفق عليها جماهير النصارى يقولون فيها : [نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ـ نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب المقدسة ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب .

وأيضاً سيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه وبروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى هو مع الأب والابن المسجود له ، وبمجد ناطق من الأنبياء ، كنيسة واحدة جامعة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وابن جاء لقيامة الموتى ، وحياة الدهر العتيد ، كونه أمين] .

ففى هذه الأمانة التى جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء : بإله واحد خالق السموات والأرض ، خالق ما يرى وما لا يرى ، فهذا هو رب العالمين الذى لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين ، وهو الذى دعت جميع الرسل إلى عبادته وحده لا شريك له ونهوا أن يعبد غيره ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك رسول

إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ،[سورة الأنبياء : ٢٥]؛وقال تعالى ﴿ واسأل مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

ثم قلتم : [وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر] فصرحتم بالإيمان مع خالق السموات والأرض برب واحد مخلوق ، مساوٍ الأب ابن الله الوحيد، وقلتم [هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه] .

وهذا تصريح بالإيمان بإلهين أحدهما من الآخر وعلم الله القائم به أو كلامه أو حكمته القائمة به الذى سميتموه ابناً ، ولم يسم أحد من الرسل لصفة الله ابناً ليس هو إله حق من إله حق، بل إله واحد، وهذا صفة الإله ، وصفة الإله ليست بإله كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته ليست بآلهة ، ولأن الإله واحد ، وصفاته متعددة . والإله:ذات متصفة بالصفات قائمة بنفسها ، والصفة قائمة بالموصوف ، ولأنكم سميتم الإله جوهراً ، وقلتم : هو القائم بنفسه .

والصفة ليست جوهراً قائماً بنفسه ، وهم فى هذه الأمانة قد جعلوا الله والداً وهو الأب ، ومولوداً وهو الابن ، وجعلوه مساويا له فى الجوهر ، وقد نزه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة ، فقالوا : مولود غير مخلوق مساوٍ الأب فى الجوهر ، فصرحوا بأنه مساوٍ له فى الجوهر ، والمساوى ليس هو المساوَى .

ولا يساوى الأب فى الجوهر إلا جوهر ، فوجب أن يكون الأب جوهراً ثانياً ، وروح القدس جوهراً ثالثاً كما سيأتى .

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر،وثلاثة آلهة،ويقولون مع ذلك:إنما نثبت جوهراً واحداً وإلهاً واحداً،وهذا جمع بين النقيضين ، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحداً ، وإثبات ثلاثة آلهة وبين إثبات جوهر واحد ، وبين

إثبات ثلاثة جواهر ، وقد نزّه الله نفسه عن ذلك بقوله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ فنزه نفسه أن يلد كما يقولون هو الأب وأن يولد كما يقولون هو الابن وأن يكن [١] له كفواً أحد .

كما يقولون : إن له من يساويه فى الجوهر ، وإذا قلتم نحن نقول : أَحَدِيُّ الذاتِ ، ثلاثِيُّ الصفات ، قيل لـكم : قدصرحتم بإثبات إله الحق ، من إله حق وأنه مساو للأب فى الجوهر ، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثانى لا بصفة، فجمعتم بين القولين ، بين إثبات ثلاثة جواهر ، وبين دعوى إثبات جوهر واحد ، ولا ينجيكم عن هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيى بن عدى ونحوه ، حيث قالوا هذا بمنزلة قولك : زيد الطبيب الحاسب الـكاتب ، ثم تقول : زيد الطبيبُ وزيد الحاسب وزيد الـكاتب .

فهو مع كل صفة له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى ، وقد يفسرون الأقنوم بهذا، فيقولون الأقنوم هو الذات مع الصفة ، فالذات مع كل صفة أقنوم، فصار الأقانيم ثلاثة لأن هذا المثال لا يطابق قولـكم ، فإن زيداً هنا هو جوهر واحد له صفات : الطب ، والحساب ، والـكتابة ، وليس هنا ثلاثة جواهر ، ولـكن لـكل صفة حكم ليس للأخرى .

ولا يقول عاقل : إن الصفة مساوية للموصوف فى الجوهر ، ولا إن الذات مع هذه الصفة تساوى الذات مع الصفة الأخرى فى الجوهر ، لأن الذات واحدة ، والمساوِى ليس هو للمساوَى ، ولأن الذات مع الصفة هى الأب فإن كان هذا هو الذى اتحد بالمسيح فالمتحد به هو الأب ، ولأنـكم قلتم عن هذا الذى قلتم : [إنه إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذى هو مساوٍ الأب فى الجوهر الذى نزل ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب وتألم] اقتضى ذلك أن

(١) قوله : أن يكن له كفوا احد ، الصحيح : وأن يكون . . . الخ .

يكون الإله الحق المساوى الأب فى الجوهر صاب وتألم ، فيـكون اللاهوت مصلوباً متألماً ، وهذا تقرّ به طوائف منـكم ، وطوائف تنـكره ، لـكن مقتضى أمانتـكم هو الأول .

وأيضاً فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم ، فإذا كان روح القدس هو حياة الله ، كما زعمتم فيـكون المسيح كلمة الله وحياته فيـكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة ، وعندهم إنما هو أقنوم الـكلمة فقط ، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس فإنه حياة الله .

وقيل لـكم : لا يجب أن يكون روح القدس صفة الله ولا أقنوماً ، ثم ذكرتم فى عقيدة أمانتكم أنـكم تؤمنون بروح القدس الرب الحيى ، فأثبتم رباً ثالثاً قلتم : المنبثق من الأب . والانبثاق : الانفجار ، كالاندفاق والانصباب ، ونحو ذلك . يقال : بثق السيل موضع كذا ، يبثقه بثقاً أى خرقه وشقه فانبثق أى انفجر ، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب الحيى انفجر من الأب واندفق منه .

ثم قلتم [هو الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] فجعلتموه مع الأب مسجوداً له فأثبتم إلهاً ثالثاً يسجد له

ومعلوم أن حياة الله هى التى صفته ليست منبثقة منه ، بل هى قائمة به لا تخرج عنه ألبتة ، وهى صفة لازمة له لا تتعلق بغيره ، فإن العلم يتعلق بالمعلومات ، والقدرة بالمقدورات والتـكليم بالمخاطبين بخلاف التكلم فإنه صفة لازمة ، يقال علم الله كذا ، وقدر الله على كل شىء ، وكلم الله موسى .

وأما الحياة : فاللفظ الدال عليها لازم لا يتعلق بغير الحى ، يقال حيا يحيا حياة ، ولا يقال حيا كذا ولا بكذا ، وإنما يقال : أحيا كذا . والإحياء فعل غير كونه حياً ، كما أن التعليم غير العلم ، والأقدار غير القدرة والتـكليم غير التـكلم ، ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقاً فى الأنبياء عليهم السلام ، وحياة الله صفة قائمة به لا تحل فى غيره ، وروح القدس الذى تـكون فى الأنبياء والصالحين ليس هو

حياة الله القائمة به ، ولو كان روح القدس الذى فى الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلهاً معبوداً قد اتحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم ، فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتا ولاهوتاً ، فإذا كان روح القدس الذى هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقاً فى الأنبياء كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح ، وأنتم لا تقرون بالحلول والاتحاد إلا للمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ما ثبت له .

وهم تارة يشبهون الأقنومين ـ العلم والحياة التى يسمونها : الكلمة وروح القدس ـ بالضياء والحرارة التى للشمس مع الشمس ويشبهون ذلك بالحياة والنطق الذى للنفس مع الشمس ، وهذا تشبيه فاسد ، فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات النفس ، فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها ولم تتحد بغيرها ، كما أن صفة الشمس كذلك . هذا إن قيل : إن الشمس تقوم بها حرارة ، وإلا فهذا ممنوع .

والمقصود هنا : بيان فساد كلامهم وقياسهم ، وإن أرادوا ما هو بائن عن الشمس قائم بغيرها ، كالشعاع القائم بالهواء والأرض والحرارة القائمة بذلك كان هذا دليلا على فساد قولهم من وجوه :

منها إن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها لا بها ، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحى الذى أنذروا به ، وعلى هذا التقدير فليس فى الناسوت شيئاً من اللاهوت ، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته .

ومنها أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس . والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران .

ومنها أن هذا ليس هو الشمس ، ولا صفة من صفات الشمس ، وإنما هو أثر حاصل فى غير الشمس بسبب الشمس ، ومثل هذا لا ينكر قيامه بالأنبياء والصالحين ، ولكن ليس للمسيح عليه السلام بذلك اختصاص ، فما حلّ بالمسيح

حلّ بغيره من المرسلين، ومالم يحل بغيره لم يحل به فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلهاً دون غيره من الرسل ، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت ، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء ، والأرض التي حصل بها الشعاع الحرارة .

فصل في معنى روح القدس

قالوا : وهذه الأسماء لم نسمه نحن معشر النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها ، وذلك أنه قال على لسان موسى النبي في التوراة مخاطباً بني إسرائيل قائلا [1] [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك ؟] وعلى لسانه أيضاً قائلا :[وكان روح الله ترف على الماء] وقوله على لسان داود النبي : [روحك القدس لا تنزع منى] وأيضاً على لسانه : [بكلمة الله تشددت السموات والأرض وبروح فاه جميع قواهن] .

وقوله على لسان أشعيا : [ييبس القتاد ويجف العشب، وكلمة الله باقية إلى الأبد] ، وعلى لسان أيوب الصديق : [روح الله خلقنى وهو يعلمنى]

وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار : [اذهبوا إلى جميع العالم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به] ، وقد قال في هذا الكتاب : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ [سورة الصافات : ١٧١] .

وقال أيضاً : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القُدُس ﴾ : [سورة المائدة : ١١٠] .

وقال أيضاً : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ .

وقال في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها

(١) قوله : قائلا ، لا داعى لها بعد قوله : قال .

فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكُتُبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله ، ولا يكون كلام إلا لحيّ ناطق ، وهذه صفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى والإله واحد لا يتبعض ولا يتجزأ .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن نقول أولا : إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يكون إلا حقاً وصدقا ، ولا يكون فيه شيء يعلم بطلانه بصريح العقل ، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء ، ولا يكون كلام النبي الذى يخبر به مناقضاً لكلامه فى موضع آخر ولا لكلام سائر الأنبياء ، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حق وصدق يصدّق بعضه بعضاً .

وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكل ما أخبروا به . وأخبروا بكفر من آمن ببعض ذلك ، وكفر ببعضه ، فما علم بصريح العقل لايناقض ما علم بالنقل الصحيح عن غيره ، ولكن قد يختلف بعض الشرع والمناهج فى الأمر والنهى .

فأما ما يخبرون به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وغير ذلك ، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضاً ، وإذا كان كذلك مما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجة به إذ علم إسناده ومتنه فيعلم أنه منقول عنهم نقلا صحيحا، ونعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر ، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة، ويُعلم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنى ، وليس مع النصارى حجة عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث ، ونحن فى هذا المقام يكفينا المنع ، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات ، فإنهم ادعوا أن التثليث أخذوه عن الأنبياء فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات .

والجواب الثانى : أنا نبين تفسير ما ذكروه من الكلمات. أما قوله على لسان

موسى عليه السلام مخاطباً بنى إسرائيل قائلا : [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك؟] فهذا فيه أنه سماه أبا لغير المسيح عليه السلام ،وهذا نظير قوله لإسرائيل [أنت ابنى بكرى] ولداود [ابنى وحبيبى] وقول المسيح [أبى وأبيكم] وهم يسلمون أن المراد بهذا فى حق غير المسيح بمعنى الرب لا معنى التولد الذى يخصون به المسيح .

الثالث : أن هذا حجة عليهم ، فإذا كان فى الكتب المتقدمة تسميته أباً لغير المسيح وليس المراد بذلك إلا معنى الرب علم أن هذا اللفظ فى لغة الكتب يراد به الرب فيجب حمله فى حق المسيح على هذا المعنى ، لأن الأصل عدم الاشتراك فى الكلام .

الرابع : أن استعماله فى المعنى الذى خصوا به المسيح إنما يثبت إذا علم أنه أريد المعنى الذى ادعوه فى المسيح ، فلو أثبت ذلك المعنى بمجرد إطلاق لفظ الأب لزم الدور ، فإنه يعلم أنه أريد به ذلك المعنى من حيث يثبت أنه كان يراد به فى حق الله هذا المعنى ولا يثبت ذلك ، حتى يعلم أنه أريد به ذلك المعنى فى حق المسيح ، فإذا توقف العلم بكل منهما على الآخر لم يعلم واحد منهما ، فتبين أنه لا علم عندهم بأنه أريد فى حق المسيح بلفظ الأب ما خصوه به فى محل النزاع .

الوجه الخامس : أنه لا يوجد فى كتب الأنبياء وكلامهم اطلاق اسم الأب ، والمراد به أب اللاهوت ،ولا اطلاق اسم الابن والمراد به شىء من اللاهوت ولا كلمته ولا حياته بل لا يوجد لفظ الابن إلا والمراد به المخلوق ، فلا يكون لفظ الابن إلا لابن مخلوق .

وحينئذ فيلزم من ذلك أن يكون مسمى الابن فى حق المسيح هو الناسوت ، وهذا يبطل قولهم : إن الابن وروح القدس إنهما صفتان لله ، وأن المسيح اسم للاهوت والناسوت ، فتبين أن نصوص كتب الأنبياء تبطل مذهب النصارى ، وتناقض أمانتهم ، فهم بين أمرين :

١ — بين الإيمان بكلام الأنبياء وبطلان دينهم .
٢ — وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء ، وهذا هو المطلوب .

فصل في معنى الروح

قالوا : وعلى لسانه أيضا قائلا : [وكان روح الله ترف على الماء] فيقال هذا في السفر الأول « سفر الخليقة » في أوله ، لما ذكر أنه في البدء خلق السموات والأرض ، وأنه كانت الأرض مغمورة بالماء وكانت روح الله ترف على الماء أخبر أنه كان الماء فوق التراب والهواء فوق الماء . وروح الله : هي الريح التي كانت فوق الماء .

هذا تفسير جميع الأمم من المسلمين واليهود وعقلاء النصارى ولفظ الكلمة بالعبرية «رُوّح» بضم الراء وتشديد الواو ، وهي الروح . والريح تسمى «روحا» وجمعها : أرواح ، ولم يرد بذلك أن حياة الله كانت ترف على الماء .

فإن هذا لا يقوله عاقل ، فإن حياة الله صفة قائمة به لا تفارقه ولا تقوم بغيره فيمتنع أن تقوم بماء أو غيره فضلا عن أن ترف على الماء ، والذي يرف على الماء جسم قائم بنفسه ، وهذا إخبار عن الريح التي كانت تتحرك فوق الماء .

ومثل هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله ، تأتي بالرحمة ، وتأتي بالعذاب ، فلا تسبوها ولكن تعوّذوا بالله من شرها ، وسلوا الله خيرها » ، وقوله : « إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » .

فصل في عدم خصوصية روح القدس بالمسيح

قالوا : وقوله على لسان داود النبي صلى الله عليه وسلم : [روحك القدس لا تنزع مني] .

فيقال : هذا دليل على أن روح القدس التي كانت في المسيح من هذا

الجنس ، فعلم بذلك أن روح القدس لا تختص بالمسيح . وهم يسلمون ذلك ، فإن ما فى الكتب التى بأيديهم فى غير موضع أن روح القدس حلت فى غير المسيح ، فى داود ، وفى الحواريين ، وفى غيرهم .

وحينئذ فإن كان روح القدس هو حياة الله ، ومن حلت فيه يكون لاهوتاً ، لزم أن يكون إلها ، لزم أن يكون كل هؤلاء فيهم لاهوت وناسوت كالمسيح ، وهذا خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود .

ويلزم من ذلك أيضاً أن يكون المسيح فيه لاهوتان : الكلمة ، وروح القدس ، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين : أقنوم الكلمة ، وأقنوم روح القدس . وأيضاً فإن هذه ليست صفة لله قائمة به ، فإن صفة الله القائمة به ، بل وصفة كل موصوف لا تفارقه ، وتقوم بغيره ، وليس فى هذا أن الله اسمه روح القدس ، ولو أن حياته اسمها روح القدس ، ولا أن روح القدس الذى تجسد منه المسيح ، ومن مريم هو حياة الله سبحانه وتعالى ، وأنتم قلتم : إنا معاشر النصارى لم نسمه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا ، ولكن الله سمى لاهوته بها ، وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمى نفسه ، ولا شيئاً من صفاته روح القدس ، ولا سمى نفسه ولا شيئاً من صفاته ابنا فبطل تسميتكم لصفته التى هى الحياة بروح القدس ولصفته التى هى العلم بالابن .

وأيضاً فأنتم تزعمون أن المسيح مختص بالكلمة والروح فإذا كانت روح القدس فى داود عليه السلام والحواريين وغيرهم بطل ما خصصتم به المسيح ، وقد علم بالاتفاق أن داود عبد لله عز وجل ، وإن كانت روح القدس فيه . وكذلك المسيح عبد الله وإن كانت روح القدس فيه ، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجة عليكم لأهل الإسلام ، ولا حجة لكم .

فصل فى تحريف روح القدس فى الإنجيل

قالوا : وأيضاً على لسان داود النبى عليه السلام : [بكلمة الله تشددت

السموات والأرض ، وبروحِ فاه جميع قواهن] .

فيقال : أما قوله « بكلمة الله تشددت السموات والأرض » فهو أيضاً حجة عليكم لوجوه : أحدها : أن الله خلق الأشياء بكلمته التي هي « كن » ، كما قال في التوراة : [ليكن كذا ، ليكن كذا ، ليكن كذا] وكذلك في الزبور [لأنه قال فكانوا ، وأمر فخلقوا] فجعل كونهم عن قوله .

ومثله في الزبور : [الكل بحكمه صنعت] ، وفي القرآن : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ، [يس : ٨٢] وليس المسيح هو هذه الكلمات .

الثاني : أن كلمة الله اسم جنس ، فإن كلمات الله لا نهاية لها ، قال تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلماتِ ربي لنفِدَ البحر قبل أن تنفَد كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩] .

والتوراة تدل على تعدد الكلمات ، وإذا كان كذلك ، فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات ، بل خلق بكلمة منها .

الثالث : أن المسيح عندكم هو الخالق وأنتم مع قولكم : إنه الإبن والكلمة تقولون : إنه الإله الخالق ، وتقولون : [إنه إله حق من إله حق] وتقولون : [إله واحد] فتجمعون بين النقيضين ، وإذا كان هو الخالق فهو الذي يشدد السموات والأرض ، لا يقال به تشددت السموات والأرض ، وإنما يقال به فيما كان صفة للموصوف ، فيقال : خلق الله الأشياء بكن ، وخلق الأشياء بقدرته .

وقوله : [بكلمته تشددت السموات والأرض] يقتضي أن الكلمة صفة فعل بها ، لأنها هي الخالقة والمسيح عندكم هو الخالق ليس هو صفة خالق بها .

والرابع : أن كلمة الله يراد بها جنس كلماته قال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ : [سورة التوبة : ٤٠] .

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وحينئذ فالمراد أن الله أقام السموات والأرض بكلمته كقوله « كن » وليس فى هذا تعرّض للمسيح عليه السلام .

وأما نقلكم أنه قال : [وبروح فاه جميع قواهن] فهذه الكلمة سواء كانت حقا أو باطلا لا حجة لكم فيها لأنه إن أريد بهذه الكلمة حياة الله فإثبات حياة الله حق ، وهو لم يسم حياة الله روح القدس ، كما زعمتم وإن أراد شيئاً غير حياة الله لم تنفعكم فأنتم ادعيتم حياة روح القدس ، حتى قلتم مراده فى الإنجيل بقوله : [عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس] هو حياة الله ، وادعيتم أن الأنبياء سموه بذلك ، ولم تذكروا نقلا عن الأنبياء أنهم سموا حياته روح القدس ، بل ذكرتم عنهم ما يوافق ما فى القرآن أن روح القدس ليس المراد بها حياة الله ، ولو قدر أن هذا اللفظ استعمل فى هذا وهذا لم يتعين أن المسيح أراد بقوله : [روح القدس] حياة الله ، فكيف إذا لم يستعمل فى كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى حياة الله قط .

فصل فى إبطال دعوى أن حياة الله تسمى روحا

قالوا : وقوله على لسان أيوب الصديق [روح الله خلقنى وهو يعلمنى] .

فيقال : هذا لا حجة فيه لأنكم ادعيتم أن الأنبياء سمت حياة الله روح القدس ، وهذا لم يقل روح القدس ، بل قال روح الله .

وروح الله يراد بها الملك الذى هو روح اصطفاها الله فأحبها ، كما قال فى القرآن : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ ، [سورة مريم ١٧ : ١٩] .

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثّل لها بشراً سويا ، وتبين أنه رسوله ،

فعلم أن المراد بالروح ملك هو روح اصطفاها فأضافها إليه كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بخصائص يحبها ، كقوله : ﴿ناقةَ الله وسقياها﴾ ، [سورة الشمس : ١٣] . وقوله : ﴿ وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ ، [سورة الحج : ٢٦] وقوله: ﴿ عيناً يشربُ بها عباد الله ﴾ ، [سورة الإنسان : ٦] . والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة كان صفة له ، وإن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة لغيره كالبيت والناقة والعبد والروح كان مخلوقاً مملوكا مضافاً إلى خالقه ومالكه ، لكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة ، كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم ﴿ بيت الله ﴾ ﴿ وناقة الله ﴾ ﴿ وعباد الله ﴾ كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها ﴿ روح الله ﴾ بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنهـا مخلوقة لله ، ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة ، كما لا تضاف إليه الجمادات ، كما تضاف الكعبة ، ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته .

كما قال : ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آية ﴾ ، [سورة الأعراف : ٧٣] ، وإذا كان كذلك فهذا اللفظ إن كان ثابتاً عن النبي وترجم ترجمة صحيحة فقد يكون معناه أن الملك صورني في بطن أمي ، وهو يعلمني ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب ، أجله ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك . ثم يقول : يا رب ، رزقه ، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزاد على أمر ولا ينقص » رواه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري .

وقد يقال : من هذا قوله فى الزبور فى مزمور الخليقة [ترسل روحك فيخلقون] وفى المزمور أيضا [هو قال فكانوا وَأمر نخلقوا] فقد يضاف الخلق إلى الملك .

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٩] .

فأخبر أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله ، وكذلك الملك يخلق النطفة فى الرحم بإذن الله .

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقتنى ، وتعلمنى فإن الصفة لا تخلق ولا تعلم ، وإنما يخلق ويعلم الرب الموصوف الذى خلق الإنسان من علق ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة ، فإن الملائكة رسل الله فى الخلق فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة ، وإلى الرب أخرى ، وهذا موجود فى الكتب الإلهية فى غير موضع كما فى القرآن :

﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ ، [سورة الزمر : ٤٢] .

وفى موضع آخر : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦١] .

وفى موضع ثالث : ﴿ قل يتوفاكُّم ملك الموتِ الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ : [سورة السجدة : ١١] .

والجميع حق فإذا وجد لفظ له معنى فى كلام بعض الأنبياء ، ولم يوجد له معنى يخالف ذلك من كلامهم كان حمله على ذلك المعنى أولى من حمله على معنى يخالف كلامهم ولا يوجد فى كلامهم أن حياة الله تسمى روحا ، ولا أن صفات الله تخلق المخلوقات .

فصل فى قوله [وكلمته باقية إلى الأبد]

قالوا : وقوله : على لسان أشعيا النبي [ييبس القتاد ، ويجف العشب وكلمته باقية إلى الأبد] .

فيقال : إما أن يريد بكلمة الله علمه أو كلمة معينة أو يكون كلمة الله اسم جنس ، وعلى التقديرات فلا حجة لكم فى ذلك ، فإنه إن كان كلمة الله اسم جنس لكل ما تكلم به — كما قال : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولهذا جمعها فى قوله تعالى : ﴿ وتمت كلماتُ ربك صدقا وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] .

وفى قوله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩] .

فالمراد بذلك أن ما قاله الله فهو حق ثابت لا يبطل .

كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمات ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٣٧] .

يعنى بتمامها نفاد ما وعدهم به من النصر على فرعون ، وإهلاكه ، وإخراجهم إلى الشام .

وقال تعالى : ﴿ وتمت كلماتُ ربك صدقاً وعدلا ﴾ ، ومنه قوله : ﴿ واتل ما أُوحى إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ﴾ .

وقوله : ﴿ سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذَرُونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ ، [سورة الفتح : ١٥] .

ومن هذا الباب قول المسيح [السماء والأرض يزولان، وكلامى هذا لا يتغير]

فإن أراد علم الله فعلم الله باق ، سواء أراد به علمه القائم بذاته أومعلومه الذى أخبر ببقائه فلاحجة لكم فيه، وكذلك إن أراد كلمة معينة ،فإن المسيح عندكم ليس كلمة معينة من كلامه ، بل هو عندكم هو الكلمة ، وهو الله الخالق ، وليس فى هذا اللفظ مايدل على أنه أراد بالكلمة المسيح ، والمسيح عندكم أزلى أبدى لا يوصف بالبقاء دون القدم ، ولو قدر أنه أراد بالكلمة المسيح فنحن لا ننكر أنه تسمى بالكلمة ، لأنه قال له : كن فكان كما سيأتى بيان ذلك ، ويريد بذلك إما بقاؤه إلى أن ينزل إلى الأرض ، وإما أن يريد بقاء ذكره والثناء عليه ولسان الصدق له إلى آخر الزمان : ومما يوضح هذا أنه ليس المراد به ما يدعونه[١] أنه قال :

[وكلمة الله باقية إلى الأبد] فوصفها بالبقاء دون القدم .

وعندهم أن الكلمة المولودة من الأب قديمة أزلية لم تزل ولا تزال،مثل هذا لايحتاج أن يوصف بالدوام والبقاء بخلاف ماوعد به من النعيم والرحمة والثواب، فإنه يوصف بالبقاء والدوام كما فى القرآن : ﴿ أُكلها دائم ﴾ ، [سورة الرعد:٣٥].

وقوله : ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفادٍ ﴾ ، [سورة ص : ٥٤] .

وفى الزبور [اعترفوا للرب ، فإنه صالح ، وإنه إلى الأبد رحمته] .

فصل فى معنى التعميد باسم الأب والابن

قالوا : وقال السيد المسيح فى الإنجيل المقدس لتلاميذه الأطهار [اذهبوا إلى جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والإبن وروح القدس الإله الواحد ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به] فيقال لهم : هذا عمدتكم على ما تدعونه من الأقانيم الثلاثة وليس فيه شيء يدل على ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، فإن لفظ الإبن لم يستعمل قط فى الكتب الإلهية فى معنى صفة من صفات الله ، ولم يسم أحد من الأنبياء علم الله ابنه ، ولا سموا كلامه ابنه ، ولكن عندكم أنهم سموا عبده أو عباده ابنه أو بنيه وإذا كان كذلك فدعوا كم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله،

---

(١) قوله : يدعونه أنه. الصحيح : مايدعون أنه...

وكلامه دعوى فى غاية الكذب على المسيح ، وهو حمل للفظ على ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه لا حقيقة ولا مجازاً فأى كذب وتحريف لكلام الأنبياء أعظم من هذا ، ولو كان لفظ الإبن يستعمل فى صفة الله لسميت حياته ابناً ، وقدرته ابناً فتخصيص العلم بلفظ الإبن دون الحياة خطأ ثانى لو كان لفظ الإبن يستعمل فى صفة الله ، فكيف إذا لم يكن كذلك ، وكذلك روح القدس لم يستعملوها فى حياة الله ، ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة الله هى صفته ، وإنما أرادوا بذلك ما ينزله على الصديقين والأنبياء ، ويؤيدهم به كما فى قول داود : [روحك القدس لا تنزع منى] وعندهم أن روح القدس حلت فى الحواريين ، وقد قدمنا أن روح القدس يراد به الملك ، ويراد به ما يجعله فى القلوب من الهدى والقوة ، ومنه قوله فى بعض النبوات ، وفى تلك الأيام [أسكب من روحى على كل قديس] وفى زابور داود : [روحك الصالح يهدينى فى أرض مستقيمة] .

يوضح هذا أنهم قالوا فى أمانتهم [الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء] وذكروا أن ذلك فى الكتب المقدسة والذى فى الكتب المقدسة لا يكون إلا حقاً ، ولا ريب أن فيها مثل ما فى القرآن ، وفى القرآن أن الله أرسل روحه إلى مريم فنفخ فيها فحملت بالمسيح عليه السلام قال تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علىّ هيّن ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ــ ٢٢] . إلى آخر القصة ، وقال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنتَ عمران التى أحصنت

فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ [سورة التحريم : ١٢] وهذا الروح : هو الرسول ، كما قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ .

ونفخ فيها من هذا الروح المسيح مخلوقا من هذا الروح ، ومن أمه مريم كما قالوا فى الأمانة : [إنه تجسد من مريم ، ومن روح القدس] لكن اعتقدوا أن روح القدس التى خلق المسيح منها ومن مريم هى حياة الله ، وهذا ليس فى الكتب مايدل عليه ، بل الكتب كلها صريحة فى نقيض هذا ، وهو أيضاً مناقض لقولهم إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة ، وهو العلم ، فإن كان قد تجسد من مريم ، وأقنوم الكلمة لم يكن تجسد من روح القدس لم يكن من الكلمة وإن كان منهما جميعاً كان المسيح أقنومين : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

والنصارى بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون : إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة ، فتبين تناقضهم فى أمانتهم ، وتبين خطأهم فيما فسروا به كلام الأنبياء .

وتبين أن ماثبت عن الأنبياء فهو حق موافق لما أخبر به محمد خاتم النبيين لايتناقض مع شيء من كلام الأنبياء ، كما أنه لايناقض شيء من كلامهم صريح المعقول ، وتبين أنهم حملوا كلام الأنبياء فى لفظ الإبن وروح القدس وغيره على مالم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه ، وتركوا حمله على المعنى الموجود فى كلامهم ، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس على معنى لم يستعمله فيه الأنبياء ، ولا أرادوه به ، و يترك حمله على المعنى المعروف الذى يستعملونه فيه دائماً .

وهل هذا إلامن فعل من يحرّف كلام الأنبياء ، و يفترى الكذب عليهم ؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الأب الذى يريدون به فى لغتهم الرب ، والإبن الذى يريدون به فى لغتهم المربّى ، وهو هنا المسيح وهو الروح القدس

الذى أيد الله به المسيح من الملك والوحى وغير ذلك ، وبهذا فسر هذا الكلام من فسره من أكابر علمائهم .

فصل فى عدم حجية ما ادعوه من الأقانيم

فهذا ما ذكروه فى كتابهم يحتجون بها على مايعتقدونه من الأقانيم الثلاثة قائلين : إن تسمية الله أنه أب وابن وروح القدس أسماء لم نسمه نحن النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها .

وقد تبين أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء مايدل لانصاً ولا ظاهراً على أن أحداً من الأنبياء سمى الله ، ولا شيئاً من صفاته ابنا ولا روح قدس .

وتبين أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنا ، وتسميتهم لحياته روح القدس أسماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ، وأنه ليس معهم على ما ادعوه من الأقانيم حجة أصلا لا سمعية ولا عقلية ، وأنه ليس لقولهم بالتثليث وحصرهم لصفات الله فى ثلاثة مستند شرعى .

كما تبين أنه ليس له مستند عقلى ، وأن القوم ممن قيل فيهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] . وممن قيل فيهم : ﴿ أمْ تحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤٤] .

فصل فى بطلان دعوى تأييد القرآن لهم

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حجة لهم على الأقانيم التى ادعوها ، وهم ابتدعوا القول بالأقانيم والتثليث قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

ذلك معروف عندهم من حين ابتدعوا الأمانة التى لهم التى وضعها الثلاثة

مائة وثمانية عشر منهم بحضرة قسطنطين الملك فإذا لم يكن لهم مستند عقلى ، ولا سمعى عن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف يكون لهم مستند فيما جاء به صلى الله عليه وسلم بعد ابتداعهم الأمانة .

لاسيما مع العلم الظاهر المتواتر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كفّرهم فى الكتاب الذى أنزل عليه وضللهم ، ،جاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ، وقال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ ، وقال: ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ونحو ذلك من الآيات ، وقالوا : وقد قال فى هذا الكتاب أيضاً : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين ﴾ فيقال لهم : حرفتم لفظ الآية ، ومعناها فإن لفظها :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ — ١٧٣] . فالكلمة التى سبقت لعباده المرسلين قوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ .

أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنّهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٩] ، وقوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضِى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة هود : ١١٠] . وقوله : ﴿ وكذلك حقّت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ ، [سورة غافر : ٦] . وقوله : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم • ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم﴾ ، [سورة الشورى:١٤] وقوله : ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حقّ القول منى لأملئن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين ﴾ ، [سورة السجدة : ١٣] .

والكلمة فى لغة العرب : هى الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية وهى القول التام ، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة .

قال سيبويه : واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاما ولا يحكون به ما كان قولا ، ولكن النحاة اصطلحوا على أن يسموا ماتسميه العرب حرفا يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو ، ومثل قعد وذهب وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل مثل إن وثم ، وهل ولعل .

قال تعالى : ﴿ و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ فسمى هذه الجملة كلمة .

وقال تعالى : ﴿ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٢٤] . وهو قول لا إله إلا الله

وقال تعالى : ﴿ إليه يصعدُ الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، [سورة فاطر : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلَها ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٦] . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله و بحمده ، سبحان الله العظيم » وقال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ماخلا الله باطل[1] *

وقال النبى صلى الله عليه وسلم «اتقو النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » ، ولما شاع عند المشتغلين بالنحو استعمال لفظ الكلمة فى الاسم أو الفعل

---

(١) هذا صدر بيت عجزه :

وكل نعيم لا محالة زائل

وحرّف المعنى صاروا يظنون أن هذا هو كلام العرب ، ثم لما وجد بعضهم ماسمعه من كلام العرب أنه يراد بالـكلمة الجملة التامة صار يقول :

وكلمة بها كلام قد يؤم

فيجعل ذلك من القليل ، ومنهم من يجعل ذلك مجاز وليس الأمر كذلك بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة ، فإن العرب لم يعرفوا عنهم أنهم استعملوا لفظ الـكلمة ، والـكلام إلا من الجملة التامة ، وهكذا نقل عنهم أئمة النحو كسيبويه وغيره ، فكيف يقال : إن هذا هو المجاز ، وإن هذا قليل وكثير .

كما أن لفظ القديم فى لغة العرب هو المتقدم على غيره كما قال تعالى : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ ، [سورة يس : ٣٩] . وقوله تعالى : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١١] . وقوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ ، [سورة الشعراء: ٧٥، ٧٦] ثم إن من أهل الـكلام من خص لفظ القديم بما لم يسبقه عدم أو لم يسبقه غيره وصار هذا عندهم هو حقيقة اللفظ حتى صار كثير منهم يظن أن استعمال القديم فى المتقدم على غيره مطلقاً مجاز .

فتبين أن مراده تعالى بقوله ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ من جنس قوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاماً ﴾ فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين ، وملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ونحو ذلك ، فحرف هؤلاء الضلاّل لفظ الآية فقالوا « لعبادنا الصالحين » وجعلوا « الـكلمة » هى المسيح وليس فى اللفظ مايدل على ذلك بوجه من الوجوه ، ولا فى كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين فى معنى صحيح ، وقد قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم منصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

فصل فى محاولتهم تحريف القرآن

قالوا : وقال أيضاً : ﴿ ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] .

فيقال : هذا مما لاريب فيه ، ولا حجة لكم فيه ، بل هو حجة عليكم ، فإن الله أيد المسيح عليه السلام بروح القدس ، كما ذكر ذلك فى هذه الآية ، وقال تعالى فى البقرة : [٨٧] ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وهذا ليس مختصاً بالمسيح ، بل قد أيد غيره بذلك ، وقد ذكروا هم أنه قال لداود [روحك القدس لاتنزع منى] ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم لحسان ابن ثابت « اللهم أيده بروح القدس » .

وفى لفظ « روح القدس معك مادمت تنافح عن نبيه » .

وكلا اللفظين فى الصحيح .

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس ، وكذلك عندهم روح القدس حلت فى جميع الأنبياء .

وقد قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه ، والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزِّل قالوا : إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك

بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ٩٨-١٠٢]

وقد قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ نزلَ به الروح الأمين على قلبك ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٤] .

وقال : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] .

فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ، [سورة النحل : ٢] .

وقال : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر : ١٥] .

فهذه الروح التى أوحاها ، والتى تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير الروح الأمين التى تنزل بالكتاب ، وكلاهما يتسمى روحا ، وهما متلازمان ، فالروح التى ينزل بها الملك مع الروح الأمين التى ينزل بها روح القدس ، يراد بها هذا وهذا .

وبكلا القولين فسر المفسرون قوله فى المسيح : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] .

ولم يقل أحد إن المراد بذلك حياة الله ، ولا اللفظ يدل على ذلك ،

ولا استعمل فيه ، وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله ، فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة ، فلو استعمل فى حياة الله أيضاً لم يتعين أن يراد بها ذلك فى حق المسيح ، فكيف ولم يستعمل فى حياة الله فى حق المسيح ، وأما أن يدعوا أن المراد بها حياة الله فى حق الأنبياء والحواريين فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالا فى جميع الأنبياء والحواريين ، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح .

ويلزمهم أيضاً أن يكون فى المسيح لاهوتان : لاهوت الكلمة ، ولاهوت الروح ، فيكون قد اتحد به أقنومان ، ثم فى قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ يمتنع أن يراد بها حياة الله ، فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره ، ولا تختص ببعض الموجودات غيره . وأما عندهم فالمسيح ، هو الله الخالق ، فكيف يؤيد بغيره وأيضاً فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة ، فلا يصح تأييده بها .

فتبين أنهم يريدون أن يحرّفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة ، وأن كلامهم فى تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس واحد .

فصل فى معنى كلمة الله

قالوا : وقال أيضاً ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ فيقال لهم : وأى حجة لكم فى هذا ، وإنما هو حجة عليكم ، فإنه قد ثبت أن الله كلم موسى تكليما ، وكلام الله الذى سمعه منه موسى عليه السلام ، ليس هو المسيح فعلم أن المسيح ليس هو كلام الله ، وعندهم هو كلمة الله ، وهو علم الله ، وهو الله .

ومعلوم أن كلام الله كثير كالتوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من كلامه وليس المسيح شيئاً من ذلك ، والمسيح عندهم خالق ولو كان المسيح نفس كلام لم يكن خالقاً ولا معبوداً فإن كلام الله ليس هو الإله المعبود ، بل كلامه كسائر

صفاته مثل حياته وقدرته ولا يقول أحد : يا علم الله اغفر لى ، ولا يا كلام الله اغفر لى ، وإنما يعبد ويدعى الإله الموصوف بالعلم والقدرة والـكلام الذى كلم الله موسى تـكليما .

فصل فى معنى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾

قالوا : وقال أيضاً فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنتَ عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

فيقال : أما قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ . وقوله فى سورة الأنبياء : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [٩١] . فهذا قد فسره قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ - ١٩] .

وفى القراءة : ﴿ لأهب لك غُلاماً زكياً ﴾ .

فأخبر أنه رسوله وروحه ، وأنه تمثل لها بشراً ، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها ، فعلم أن روحه مخلوق مملوك له ، ليس المراد حياته التى هى صفته سبحانه وتعالى .

وكذلك قوله ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وهو مثل قوله فى آدم عليه السلام ﴿ فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحى ﴾ ، [سورة الحجر : ٢٩] . وقد شبه المسيح بآدم فى قوله : ﴿ إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقَهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيـكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] .

والشبهة فى هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال : روحى ، فروحه فى هذا الباب هى الروح التى فى البدن ، وهى عين قائمة بنفسها ، وإن

كان من الناس من يعنى بها الحياة ، والإنسان مؤلف من بدن وروح ، وهى عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم .

والرب تعالى منزه عن هذا ، وإنه ليس مركباً من بدن وروح ، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله : روحى ، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحى والهدى والتأييد ، ونحو ذلك .

فصل فى معنى القرآن كلام الله

قالوا : وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله ، ولا يكون كلامٌ إلا لحيٍّ ناطق ، وهذه صفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى ، فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد لا يتجزأ .

فيقال لهم : إن الكتاب ، أى القرآنَ كلام الله ، فهذا حق ، والكلام لا يكون إلا لمتكلم .

والمسلمون يقولون : إن الله حى متكلم ، وإنه تكلم بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وغير ذلك من كلامه ، والقرآن قد أخبر بكلام الله فى مواضع كثيرة ، وهل يسمى ناطقاً وكلامه نطقاً ؟

فيه نزاع فبعض المسلمين يجيزه ، وبعضهم يمنع منه لكونه لم يرد به الشرع ، وليس فى التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقاً ، بخلاف لفظ القول والكلام وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم ، كما تنازع أهل الكتاب فى كلام الله ، هو قائم به أو مخلوق منفصل عنه ؟ والذى عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها أن كلام الله قائم به ، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة وغير ذلك .

وأحدث قوم منهم ـ بعد انقراض الصحابة وأكابر التابعين ، بعد أكثر من مائة سنة من موت النبى صلى الله عليه وسلم ـ أنه مخلوق خلقه فى غيره ،

وشاركهم فى هذه البدعة كثير من اليهود والنصارى .

وظهرت هذه المقالة بعد المئة الثانية ، وانتصر لها قوم من الولاة ، وغيرهم ، ثم أطفأها الله بمن أقامه الله من أئمة الإسلام والسنة ، الذين بينوا فسادها وبينوا مااتفق عليه السلف من أن كلام الله منزل منه غير مخلوق ، بل منه بد ، لم يبتد من شيء من المخلوقات ، ومع هذا فلم يقل أحد من المسلمين : إن كلام الله يكون إلهاً ولا رباً .

وكذلك حياته لم يقل أحد منهم إن حياته تكون إلهاً ولا ربا ، ولا أنه مساوٍ للرب تعالى فى الجوهر .

فصل فى الصفات الجوهرية وهل تجرى مجرى الأسماء ؟

وأما قولهم : هذه صفات جوهرية تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بقولهم : جوهرية أن كل صفة جوهر ، فهذا كلام ظاهر الفساد ، فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهراً قائماً بنفسه ، ومن ظن أن حرارة النار القائمة بها جوهر قائم بنفسه كالنار ، فهو إما مصاب فى عقله ، وإما مسفسط معاند .

والأول : يستحق علاج المجانين .

والثانى : يستحق العقوبة التى تردعه عن العناد ، ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهراً كانت القدرة أيضاً جوهراً ، وإن أرادوا بقوله جوهرية أنها صفات ذاتية ، وغيرها صفات فعلية كالخالق والرازق ، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة وغيرها لم تنحصر فى هذه .

وأيضا فالكلام ، وإن كان قائماً بذاته ، فقيل : هو متعلق بمشيئته وقدرته ، وهو قول السلف والأكثرين ، وقيل :ليس كذلك ، والمتكلم قيل : هو من فعل الكلام ولو كان منفصلا عنه ، وقيل هو من قام به الكلام ، وإن لم يكن بمشيئته وقدرته وقيل : المتكلم من قام به الكلام بمشيئته وقدرته .

وهذا قول السلف والأكثرين ، فبطل قولهم على كل تقدير ، وإن أرادوا بالجوهرية أنها ذاتية مقومة ، وباقى الصفات عرضية على رأى أهل المنطق اليونان الذين يفرقون فى الصفات اللازمة للموصوف بين هذا وهذا كان هذا فاسداً من وجوه :

منها أن تفريق هؤلاء فى الصفات اللازمة للموصوف بين صفة وصفة ، وجعل بعضها ذاتياً مقوماً داخلا فى الماهية ، وبعضها عرضياً لاحقاً خارجاً عن الماهية ، كلام باطل عند جماهير نظار الأمم من أهل الملل ، وغيرهم ، كما قد بسط الكلام عليه فى الرد على هؤلاء المتفلسفة ، وبين أن ما يدعونه من تركب الأنواع من الأجناس والفصول إنما هو تركب فى الأذهان لاحقيقة له فى الأعيان ، وأن ما يقوم بالأذهان يختلف باختلاف تصور الأذهان .

فتارة يتصور الشيء مجملا ، وتارة يتصوره متصلا ، وما سموه تمام الماهية ، والداخل فى الماهية ، والخارج عنها اللازم لها يعود عند التحقيق إلى ما يدل عليه اللفظ بالمطابقة والتضمن والالتزام .

ومدلول اللفظ هو بحسب ما يعنيه المتكلم ويقصده ويتصوره ، وهذا يختلف باختلاف إرادات الناس لا يرجع ذلك إلى حقيقة عقلية ولا صفة ذاتية للموجودات .

ولهذا لما كان كلامهم باطلا لم يمكنهم ذكر فرق صحيح بين الذاتى والعرضى اللازم إذ كان كلاهما لازما للموصوف ، بل ذكروا ثلاثة فروق والثلاثة باطلة ، واعترف حذاقهم ببطلانها ، كقولهم : إن الذاتى يثبت للموصوف بلا وسط ، والعرضى اللازم إنما يثبت بوسط ، ثم حذاقهم يفسرون الوسط بالدليل ، كما فسره ابن سينا .

ومنهم من يفسر الوسط بصفة قائمة بالموصوف كما يفسره الرازى وغيره ، وهؤلاء لم يفهموا مراد أولئك فزاد غلطهم ، وأولئك أرادوا بالوسط الدليل ،

كما يريدون بالحد الأوسط ما يعرف باللام فى قولك (لأنه) فصار العرضى اللازم عندهم ما يعلم ثبوته للموصوف بدليل ، وهذا لا يرجع إلى حقيقة ثابتة فى نفس الأمر ، بل هذا أمر يتعلق بالعالم بالصفات .

فنهم من يكون تام التصور فيعلم لزوم الصفة للموصوف بلا دليل .

ومنهم من لا يكون تام التصور فلا يعلم ذلك إلا بدليل ، ثم كل ما كان مستلزما لشيء ، فإنه يمكن الاستدلال به عليه ، إذ كان الدليل هو الذى يلزم من تحققه تحقق المدلول ، فيكون الوسط كل ما كان مستلزماً للعرض ، فيكون العرض لازم اللازم .

وهم معترفون بأن من العرضيات مايلزم بلا وسط ، وقد مثلوا ذلك بالزوجية والفردية فى العدد ، فإن العلم بأن الأربعة زوج ، والثلاثة فرد وإن كان ظاهرا لكن العلم بأن خمسمائة وثلاثة وأربعين نصف ألف وستة وثمانين قد يفتقر إلى دليل ، وقد يفتقر إلى تأمل ، وفكر .

وهم يقولون ما يقول ابن سينا ـ أفضل متأخريهم ـ وغيره من أن العرض المنقسم إلى الكيف والكم وغير ذلك هو ذاتى لموصوفاته .

واللون المنقسم إلى السواد والبياض هو ذاتى للمتلون .

والسوادية والبياضية صفتان ذاتيتان ، بخلاف الزوجية والفردية .

قالوا : لأن كون هذا أسود وأبيض وعرضاً قائماً بغيره ، لا يفتقر إلى استدلال ونظر بخلاف كون هذا العدد زوجا أو فردا ، فإن قد يفتقر إلى نظر واستدلال ، فإنه ينقسم إلى قسمين متساويين أو لا ينقسم .

ومعلوم أن هذا فرق يعود إلى علم العالم بهذه الصفات ، هل هو جلى أو خفى وهل يفتقر إلى نظر واستدلال أو لا يفتقر ، أو ليس هو فرقا يعود إلى الصفة فى نفسها ولا إلى موصوفها ، فعلم أنه ليس بين ماجعلوه ذاتيا مقوماً داخلا

فى الماهية ، وما جعلوه عرضياً لازماً خارجاً عن الماهية ، فرق يعود إلى نفس الماهية التى هى الذات الموصوفة الموجودة فى الخارج ، ولا إلى صفاتها ، بل جميع صفاتها اللازمة لها ، سواء فى ذلك ليست الماهية مركبة من هذا دون هذا ، ولا فيها شىء يتقدم على الماهية فى الوجود الخارجى .

كما يقولون : إن الذاتى يتقدم على الماهية فى الوجود والذهن ، ولا هى الصفات جواهر موجودة فى الخارج أجزاء لها كأجزاء الأجسام المركبة ، وإنما هى صفات قائمة بالموصوف يمتنع تقدم شىء منها على الموصوف .

ولكن إذا قيل فى الإنسان : هو جسم حساس تام متحرك بالإرادة ناطق ، فهنا قد يتصور الذهن هذه الأمور ، ويعبر عنها فكل واحد منهما جزء من الجملة التى فى ذهنه ، ولسانه .

والجملة التى فى ذهنه ولسانه مركبة من هذه الأجزاء لا أن الإنسان الموجود فى الخارج مركب من هذه الأجزاء ، وأنها متقدمة عليه أو أنها جواهر ، فإن هذا كله مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، لكن هؤلاء المتفلسفة اليونان ، ومن اتبعهم كثيراً ما يشتبه عليهم ما يتصورونه فى الأذهان بما يوجد فى الأعيان ، كما أثبت من أثبت قدمائهم مثل «فيثاغورث» وأتباعه أعداداً مجردة موجودة فى الخارج .

وقد رد ذلك عليهم سائر العقلاء ، كما رده من بعده منهم .

وقالوا : إن العدد المجرد ، والمقدار المجرد إنما يوجد فى الذهن ، لا فى الخارج ، وإنما يوجد فى الخارج المعدودات والمقدورات ، مثل الأجسام المتفرقة التى تعد كالكواكب ، أو المتصلة التى تقدر كالأفلاك ، وذلك هو المتصف بالكم المتصل والكم المنفصل الموجود فى الخارج .

وأثبت أصحاب أفلاطون الكليات العقلية فى الخارج التى يسمونها « المثل الأفلاطونية » ، وزعموا أنها قديمة أزلية ، وأثبتوا بعداً موجوداً جوهراً : هو

الخلاء ، وجوهراً قائماً بنفسه : هو الدهر ، وجوهراً مجرداً قائماً بنفسه : هو المادة والهيولى الأزلية .

وهذه كلها إنما تتصور فى الأذهان لا فى الأعيان ، بل وما أثبتوه من العقول المجردة العشرة هى أيضاً عند التحقيق ترجع إلى مايجرده الذهن ، ويقدره فيه لا إلى موجود فى الخارج .

وأصل قولهم : المجردات والمفارقات هو مأخوذ من مفارقة النفس الناطقة للبدن بالموت ، وهذا حق ، فإن الذى عليه الأنبياء وأتباعهم ، وجمهور العقلاء أن الروح تفارق البدن ، وتبقى بعد فراق البدن ، ومن قال من متكلمة أهل الملل أنه لا يبقى بعد البدن روح تفارقه ، وأن الروح جزء من البدن أو عرض من أعراض البدن فقوله مع أنه خطأ فى العقل الصريح هو أيضاً مخالف لكتب الله المنزلة ولرسله ، ولمن اتبعهم من جميع أهل الملل ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على أن تفريق هؤلاء اليونانيين فى الصفات اللازمة للموصوف بين الصفات الذاتية والعرضية اللازمة ، وجعلهم اللازمة : منها ما هو لازم للماهية ، ومنها ما هو لازم لوجودها ، هو مبنى على أصلين فاسدين لهم خالفهم فيها جمهور عقلاء الأمم من نظار أهل الملل وغيرهم .

أحد الأصلين : هو ما تقدم من جعلهم الصفات اللازمة للموصوف هى فى الخارج منقسمة إلى ذاتى جزء من الماهية داخل فيها ، وإلى عرضى خارج عنها لازم لها .

والثانى : زعمهم أن كل موجود ممكن ، وله فى الخارج ماهية هى ذاته ، وحقيقته غير الموجود المعلوم المعين الثابت فى الخارج ، وهذا أيضاً مما اشتبه عليهم فيه ما فى الذهن بما فى الخارج .

فإنه إذا أريد بالماهية ما يتصور فى الذهن ، وهو القول فى جواب ما هو ،

وبالوجود ما هو ثابت متحقق فى الخارج ، فمعلوم أن هذا غير هذا ، كما يقولون : إنا نتصور المثلث قبل أن نعلم وجوده فى الخارج ، فعلم أن ماهية المثلث غير المثلث الموجود فى الخارج . فإنه يقال لهم إن أردتم أن ما يتصور فى الذهن من المثلث غير الوجود فى الخارج .

وهذا حق ، لكن ليس فى هذا ما يدل على أنه فى الخارج عن الذهن شيئين :

أحدهما : ماهية المثلث التى هى حقيقته وذاته .

والثانى : المثلث الموجود الذى هو زاوية الحائط ، وإن أردتم أن فى الخارج شيئين ، فهذا غلط ، وهذا الموضع مما اشتبه على كثير من النظار حتى صار بعض أكابرهم حائراً متوقفاً .

وبعضهم يختلف قوله ويتناقض ، وسبب ذلك عدم تمييزهم بين ما يتصور فى الأذهان وبين ما يوجد فى الأعيان ثم هذا الموضوع نقلوه إلى الكلام فى صفات الله اللازمة له كحياته وعلمه وقدرته هل هى ذاتية أو عرضية ؟

فإن قيل : ذاتية لزم أن تكون له أجزاء متقدمة عليه تركب منها ، وإن كانت عرضية لازمة لزم أن يكون قابلاً وفاعلاً . فإن كونه فاعلا غير كونه قابلاً فلزم أن يكون فيه جهتان ، وهذا من التركيب الذى زعموه منتفياً ، وذلك يستلزم التركيب ، وهو التركيب من الذاتيات ، وقد بُيِّن فساد هذا من وجوه متعددة :

منها : أن التركيب المعقول هو تركيب الحيوان والنبات والمعادن من أبعاضه وأخلاطه ، وتركيب المبنيات والملبوسات والأطعمة والأشربة من أبعاضها وأخلاطها .

أما تركيب الأجسام من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، فهذا مما تنازع فيه جمهور العقلاء ، وكذلك تركيب الشىء من الموجود ، والماهية سواء

كان واجباً أو ممكناً هو مما تنازع فيه جمهور العقلاء ، و لذلك تركيبه من الصفات الذاتية المشتركة ، والمميزة التي يسمونها : الجنس ، والفصل .

وأما اتصاف الذات بصفات تقوم بها ، فهذا هو الذي يعرفه عامة العقلاء ، ولكن لا يسمون هذا تركيباً فمن سماه تركيباً لم يكن نزاعه اللفظي قادحاً فيما علم بالأدلة السمعية والعقلية .

ثم هم يقولون : المركب يفتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه غيره ، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره ، وهذه كلها ألفاظ مجملة ، فإن لفظ الافتقار هنا لم يعنوا به افتقار المفعول إلى فاعله ، ولا المعلول إلى علته الفاعلية ، فإن جزء الشيء لا يكون فاعله ولا علته الموجبة له ، بل يريدون به التلازم والاشتراط ، فإن وجود المجموع مستلزم لوجود أجزائه ، وهو مشروط بذلك .

ومنها : أن لفظ الجزء ليس مرادهم جزءاً مبايناً للجملة ، فإن جزء الجملة ليس مبايناً لها . ومنها لفظ الغير ، فإنه يراد بالغيرين ما يجوز مباينة أحدهما لصاحبه ، أو مفارقته له بزمان أو مكان أو وجود ، ويراد بهما ما يجوز العلم بأحدهما دون الآخر ، و بعض المجموع وصفة الموصوف لا يجب أن تفارقه وتباينه بل قد يجوز أن تباينه ويجوز أن لا تباينه .

فصفات الرب عزَّ وجل اللازمة له لا يجوز أن تفارقه وتباينه ، وحينئذ فمن الناس من لا يسميها غيراً له ، ومن سماها غيراً له فذاته مستلزمة لها ليست الصفات فاعلة للذات ، ولا علة موجبة لها .

ولفظ واجب الوجود يراد به الموجود بنفسه الذي لا فاعل له ، ولا علة فاعلة . وذات الرب عز وجل وصفاته واجبة الوجود بهذا الاعتبار ، ويراد به مع ذلك المستغنى عن محل يقوم به ، والذات بهذا المعنى واجبة دون الصفات ، ويراد به ما لا تعلق له بغيره ، وهذا لا حقيقة له ، فإن الرب تعالى له تعلق بمخلوقاته لا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الدهرية الذين يقولون : إنه موجب بذاته للأفلاك

مستلزم لها ، فيجعلونه ملزوماً لمفعولاته ، فكيف ينكرون أن تكون ذاته ملزومة لصفاته ؟

وهؤلاء المتفلسفة اليونانيون الذين يسمون «المشائين» أتباع أرسطو صاحب التعاليم : المنطق ، والطبيعى ، والرياضى ، والإلهى ، يقولون : إن موضوع العلم الطبيعى متعلق بالمادة فى الذهن ، والخارج وهو الجسم وأحكامه .

والثانى الرياضى : وهو متعلق بالمادة فى الخارج لا فى الذهن ، فإنه لا يوجد عدداً ولا مقدار فى الخارج إلا فى جسم فى الخارج أو عرض معدود ، أو مقدر منفصل بخلاف الذهن ، فإنه يجرد إعداداً ومقادير مجردة عن المعدودات والمقدورات .

والثالث : الذى يسمونه علم مابعد الطبيعة باعتبار السلوك العلمى ، وهو علم ماقبلها باعتبار الوجود العينى ، ويسمونه أيضا « العلم الإلهى » وموضوعه عندهم : المجرد عن المادة فى الذهن والخارج ، وهو الموجود من حيث هو موجود وانقسامه إلى جوهر وعرض ، وانقسام الجوهر إلى جسم وغير جسم ، وانقسام غير الجسم إلى المادة والصورة والعقول والنفوس .

والعلة الأولى يسميها أرسطو وأتباعه جوهراً ، ولا يسميها واجب الوجود . وأما متأخروهم كابن سينا وأتباعه يسمونها واجب الوجود ولا يسمونها جوهراً ، والكلام على هؤلاء مبسوط فى موضع آخر ، إذ المقصود هنا أن هذه الأمور التى يقولون هى موضوع العلم الإلهى ، هى المجردة عندهم عن المادة فى الذهن والخارج هى عند التحقيق وجودها فى الأذهان ، لا فى الأعيان .

فإن الوجود العام الكلى لا يوجد عاماً كلياً إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، كما أن الإنسان العام الكلى ، والحيوان العام الكلى لا يوجد عاماً كلياً إلا فى الذهن ، لا فى الأعيان .

وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع ، وبين أن اليهود

والنصارى بعد النسخ والتبديل ، أقرب إلى الحق فى الأمور الإلهية منهم .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولـكن نبهنا عليها لتعلقها هنا بقول هؤلاء النصارى إن صفات الرب الثلاث هى جوهرية دون غيرها ، وإنهم إن عنوا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتية ، فقولهم باطل مبنى على أصل باطل .

فإن تفريق هؤلاء اليونان فى الصفات اللازمة بين الذاتى والعرضى اللازم للوجود ، والعرضى اللازم للماهية ، والعرضى اللازم للموصوف فرق باطل ، وقد ذكروا ثلاث فروق كلها باطلة ، كما تقدم :

الأول : الوسط .

والفرق الثانى : تقدم الذاتى ذهناً ، ووجوداً بخلاف اللازم العرضى .

والثالث : توقف الحقيقة على الذاتى .

وقد تبين بطلان هذا فى غير هذا الموضع . والنصارى ليس مرادهم بالجوهرية ما يريده هؤلاء بالذاتية ، فلهذا لم نبسط الـكلام عليه ، بل يقولون : إن الثلاثة جواهر ، وهؤلاء المنطقيون يفرقون بين اللازم للماهية ، واللازم لوجودها بناء على أن فى الخارج شيئين : الوجود ، وماهية أخرى غير الوجود .

والـكلام على هذا كله مبسوط فى موضع آخر .

ومنها : أنه لو قدر أن صفات الموصوفات اللازمة لها تنقسم إلى ذاتى مقوم ، وعرضى لازم ، وأن صفات الرب سبحانه كذلك ، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتى أولى من القدرة ، فليس ذكر القائم بنفسه الحى العالم بأولى من ذكر القائم بنفسه الحى القادر .

والنصارى لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة ، وزعموا أن الشرع المنزل دلّ على ذلك ، وكانوا فى ذلك مخالفين للشرع المنزل إليهم ، كما قد بسط فى موضعه ، صار طائفة منهم يقولون : موجود حى عالم ، وطائفة يقولون : موجود عالم قادر ، فيجعلون القادر مكان الحى ، ويجعلون روح القدس هو القدرة .

وهذا القول وإن كان أحسن فى المعنى لـكن تفسير روح القدس بالقدرة فى غاية البعد الذى يظهر فساده لـكل أحد ، ولابد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذى يقولون تارة : هى العلم ، وتارة : هى الحـكمة ، ويسمونها تارة : النطق ، كما سموها فى كتابهم هذا ، لأن الذى اتحد بالمسيح عندهم هى أقنوم الـكلمة فصاروا تارة يضمون إليها الحياة ، وتارة يضمون إليها القدرة . والأب تارة يقولون : هو الوجود ، وتارة يقولون : القائم بنفسه ، وتارة يقولون : الذات ، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية : الـكيان ، وتارة يقولون : الجود .

وكل هذا من الحيرة والضلال ، لأنهم لايجدون ثلاث معانى هى المستحقة لأن تـكون جوهرية دون غيرها من الصفات سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر ، أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك .

ومنها قولهم: تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة ، وسائرها صفات ، فاسم الحى والعالم اسم مشتق يدل على معنى العلم والحياة ، كما يدل القدير على القدرة ، وإن أرادوا أنه يسمى بها ، فلله تعالى أسماء كثيرة ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى .

ومن أسمائه القدير ، والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات مالا يدل عليه العلم ، وخلقه للمخلوقات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه ، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم ، حتى إن طائفة من النظار كأبى الحسن الأشعرى، وغيره يقول : أخص وصفه القدرة على الاختراع ، فلا يوصف بذلك غيره .

والجهم بن صفوان قبله يقول : ليس فى الوجود قادر غيره ، ولا لغيره قدرة . والأشعرى وإن أثبت للمخلوق قدرة ، لـكن يثبت قدرة لا تؤثر فى المقدور ، ولم يقل أحد من العقلاء إن أخص وصفه الحياة والعلم ، ولا أن غيره ليس بحىّ ، ولا عالم فـكان جعل القدير اسما وغيره صفة إن كان الفرق حقا أولى من العكس ، فـكيف إذا كان الفرق باطلا فإن أسماءه تعالى التى يعرفها الناس هى أسماء

وهى صفات فى اصطلاح أهل العربية تدل على معانى ، هى صفاته القائمة به .

فالحى يدل على الحياة والعليم يدل على العلم والقدير يدل على القدرة ، هذا مذهب سلف الأمة وجماهيرها وجماهير الأمم . ومن الناس فرقة شاذة تزعم أن هذه الأسماء لا تدل على معانى كأسماء الأعلام ، وقد تنازع الناس فيما يسمى به سبحانه ، ويسمى به غيره كالحى والعليم والقدير .

فالجمهور على أنه حقيقة فيهما . وقالت طائفة كأبى العباس الناشى : إنها حقيقة فى الرب عز وجل مجاز فى المخلوق . وقالت طائفة عكس هؤلاء من الجهمية والملاحدة والمتفلسفة إنها مجاز فى الرب عز وجل حقيقة فى المخلوق ، والأولون هى عندهم متواطئة ، وقد يسمونها مشككة لما فيها من التفاضل . وبعضهم يقول : هى مشتركة اشتراكا لفظيا .

فصل فى قولهم فى تباين الصفات وتوافقها

وأما قولهم : كل صفة منها غير الأخرى ، فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سبحانه وتعالى قد تباينه وتنفصل عنه ، وهو حقيقة قولهم ، ويقولون مع ذلك إنها متصلة به فهو جمع بين النقيضين ، وتمثيلهم بشعاع الشمس تمثيل باطل ، وهو حجة عليهم لا لهم .

فإن الشعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان ، ليس هو قائم بذات الشمس .

والقائم بذات الشمس ، ليس هو قائماً بالهواء والأرض . فإن قالوا : ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم ، كما يفيض الشعاع من الشمس . قيل لهم : لا اختصاص للمسيح بهذا ، بل هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، وليس فى هذا حلول ذات الرب ولا صفته القائمة به بشىء من مخلوقاته ، ولا أن العبد بما حل فيه من العلم

والإيمان يصير إلهاً معبوداً ، وإن أرادوا أنها قائمة به ، وتسمى كل واحدة غير الأخرى .

فهنا نزاع لفظى ، هل تسمى غيراً أو لا تسمى غيراً ؟ فإن من الناس من يقول: كل صفة للرب عز وجل فهى غير الأخرى ، ويقول: الغيران ماجاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر . ومنهم من يقول ليست هى الأخرى ، ولا هى هى لأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر ، بزمان أو مكان أو وجود . والذى عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم علم الله وكلام الله ، هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفى ولا الإثبات ، فإنه إذا قيل لهم غيره أَوْهَمَ أنه مباين لهم .

وإذا قال ليس غيره أَوْهَمَ أنه هو ، بل يستفصل السائل ، فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه ، وإن كان مخلوقاً ، فكيف بصفات الخالق ؟ وإن أراد بالغير أنها ليست هى هو ، فليست الصفة هى الموصوف ، فهى غيره بهذا الاعتبار ، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عَرِيَّةً عن صفات الكمال .

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى ، بل هى داخلة فى المسمى ، ولكنها زائدة على الذات المجردة التى تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات .

وأما فى نفس الأمر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال ، وصفاته داخلة فى مسمى أسمائه سبحانه وتعالى .

فصل فيما قالوه فى التثليث

وقولهم : فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد . هو حق فى نفسه ، لكن قد نقضوه بقولهم فى عقيدة إيمانهم : [نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساوٍ الأب فى الجوهر] فأثبتوا هنا إلهين ، ثم أثبتوا روح القدس إلهاً ثالثاً ، وقالوا إنه مسجود له ، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ، و يقولون : إنما نثبت إلهاً واحداً ، وهو تناقض ظاهر ، وجمع بين النقيضين : بين الإثبات والنفى .

ولهذا قال طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل ، وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا . وقال آخر : لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا ، وامرأته قولا آخر ، وابنه قولا ثالثاً .

فصل فى تناقض ما قالوه مع ما فى الأمانة

وقولهم : [لا يتبعض ولا يتجزأ] مناقض لما ذكروه فى أمانتهم ، ولما يمثلونه به ، فإنهم يمثلونه بشعاع الشمس ، والشعاع يتبعض ويتجزأ ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه ، و يمكن زوال بعضه مع بقاء بعض ، فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شىء فصل ما بين جانبيه ، وصار الشعاع الذى كان بينهما على ذلك الفوقانى فاصلا بين الشعاعين السافلين .

يبين ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء ، وكل منهما متجزىء متبعض ، وما قام بالمتبعض فهو متبعض ، فإن الحال يتبع المحل ، وذلك يستلزم التبعيض والتجزىء فيما قام به .

ويقولون أيضاً : إنه اتحد بالمسيح وإنه صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه ، بل لما صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذى هو ناسوت ولاهوت إله تام ، وإنسان تام ، فهم لا يقولون : إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط ، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت ، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا ؟ وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال : إن له معنى لا نفهمه ، بل هو من كلام أكابرهم الذى وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم ، فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه ، فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا ، وإن كانوا لا يعقلون ما قالوه فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد ، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين للاهوت المتحد ، وليس هو متصلا به ، بل غايته أن يكون مماساً له ، بل يجب أن يكون الذى يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به ، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر .

وأيضاً فيقال لهم : المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين ، أم صفة من صفاته ؟ فإن كان هو ذات الأب فهو الأب نفسه ، ويكون المسيح هو الأب نفسه ، وهذا مما اتفق النصارى على بطلانه فإنهم يقولون : هو الله ، وهو ابن الله ، كما حكى الله عنهم ، ولا يقولون هو الأب والابن .

والأب عندهم هو الله ، وهذا من تناقضهم . وإن قالوا المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الرب لا تفارقه ، ولا يمكن اتحادها ولا حلولها فى شىء دون الذات .

وأيضاً فالصفة نفسها ليست هى الإله الخالق رب العالمين ، بل هى صفة ، ولا يقول عاقل : إن كلام الله ، أو علم الله أو حياة الله هى رب العالمين الذى خلق السموات والأرض ، فلو قدّر أن المسيح هو صفة الله نفسها لم يكن هو الله ، ولم يكن هو رب العالمين ، ولا خالق السموات والأرض .

والنصارى يقولون : إن المسيح رب العالمين خالق كل شيء ، وهو خالق آدم ، ومريم وإن كان ابن آدم ومريم ، فإنه خالق ذلك بلاهوته ، وهو ابن آدم ومريم بناسوته ، فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب لم تكن الصفة هي الخالق ، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها ، بل هو مخلوق بكلمة الله ، وسمي كلمة الله ، لأن الله كونه « بكن » ؟

وقال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وسماه روحه ، لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمه لم يخلقه ، كما خلق غيره من أب آدمي .

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين، قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وإن قالوا : المتحد به بعض ذلك دون بعض ، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة فهم بين أمرين : إما بطلان مذهبهم ، وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه ، وأيضاً فقولهم : [إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب في الجوهر ، ابن الله الوحيد ، المولود قبل كل الدهور] .

يقال لهم : هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر ، الذي هو إله حق من إله حق هو صفة قائمة بغيرها أو عين قائمة بنفسها، فإن كان الأول فالصفة ليست إلها ولا هي خالقة ، ولا يقال لها : مولودة من الله ولا أنها مساوية لله في الجوهر ، ولم يسم قط أحد من الأنبياء ، ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابناً له ولا ولداً ، ولا قال : إن صفة الله تولدت منه ، ولا قال عاقل : إن الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة .

وهم يقولون : إن المسيح إله خلق السموات والأرض لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور ، المساوى الأب فى الجوهر .

وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها ، كالجواهر القائمة بنفسها ، لا نعت صفات قائمة بغيرها ، وإذا كان كذلك التبعيض والتجزئة لازمة لقولهم ، فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزم لأن يكون خرج منه جزء ، قال تعالى :

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفورٌ مبينٌ * أم اتخذ مما يخلُق بناتٍ وأصفاكم بالبنين * وإذا بُشر أحدهم بما ضربَ للرحمن مثلا ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم * أو من ينشئوا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عبد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم ويُسئلون ﴾ ، [سورة الزخرف : ١٥ - ١٩] .

وأما هذا المعنى الذى يثبته من يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادة وبنوة ، فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنا ، ويسمونها تارة : النطق بالكلمة ، وتارة : العلم ، وتارة : الحكمة .

ويقولون : هذا مولود من الله ، وابن الله ، فهذا لم يقله أحد من الأنبياء وأتباعهم ، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى ، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى .

والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا على مخلوق ، وهم يقولون : هو أب للمسيح بالطبع ، ولغيره بالوضع فلا يعقل جمهور العقلاء وغيرهما من هذا إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الولد ، وهذا ينكره من ينكره من علمائهم ، لكنهم لم يتبعوا الأنبياء ، ولم يقولوا ما تعقله العقلاء ، فضلوا فيما نقلوه عن الأنبياء وأضلوا أتباعهم فيما قالوه وعوامهم وإن كانوا لا يقولون : إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شيء يوجد ، فيقولون : ولادة لاهوتية بانفصال جزء من اللاهوت حلّ فى الناسوت لا يعقل من الولادة غير هذا .

وأيضاً فقولهم : [ونؤمن بروح القدس الرب الحيي المنبثق من الأب الذى هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] ، فقولهم المنبثق من الأب الذى هو مسجود وممجد يمتنع أن يقال هذا فى حياة الرب القائمة به ، فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات ، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقاً لكان علمه وقدرته ، وسائر صفاته منبثقة منه ، بل الانبثاق فى الكلام أظهر منه فى الحياة ، فإن الكلام يخرج من المتكلم ، وأما الحياة فلا تخرج من الحىّ ، فلو كان فى الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التى يسمونها الإبن،ويقولون:هى العلم والكلام أو النطق والحكمة أولى بأن تكون من الحياة التى هى أبعد عن ذلك من الكلام ، وقد قالوا أيضا : إنه مع الأب مسجود له وممجد ، والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجوداً لها ، وقالوا:هو ناطق فى الأنبياء وصفة الرب القائمة به لا تنطق فى الأنبياء ، بل هذا كله صفة روح القدس الذى يجعله الله فى قلوب الأنبياء ، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل ، فإذا كان هذا منبثقاً من الأب،والانبثاق الخروج، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا .

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلا من وجوه منها :

أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض ، وليس جوهراً قائما بنفسه ، وهذا عندهم حىّ مسجود له ، وهو جوهر .

ومنها : أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس، ولا قائماً بها وحياة الرب صفة قائمة به .

ومنها : أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا فى الكلمة إنها منبثقة.

والانبثاق لو كان حقاً لكلام الكلام أشبه منه بالحياة ، وكلما تدبر أجهل العاقل كلامهم فى الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفى إلا على العباد ووجد فيه من مناقضة التوراة والإنجيل ، وسائر كتب الله ما لا يخفى على من تدبر هذا ، وهذا .

ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول ، فقولهم متناقض فى نفسه مخالف لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .

فصل فيما قالوه من التجسيم والحلول

قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا ، أى الكلمة مع الناسوت ، فإنه لم يخاطب البارى أحداً من الأنبياء إلا وحياً أو من وراء حجاب ، حسب ما جاء فى هذا الكتاب بقوله : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ ، [سورة الشورى : ٥١] .

وإذا كانت اللطائف لاتظهر إلا فى الكثائف مثل روح القدس وغيرها، فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف والكثائف تظهر فى غير كثف كلا !

ولذلك ظهر عيسى ابن مريم ، إذ الإنسان أجلّ ماخلقه الله ، ولهذا خاطب الخلق ، وشاهدوا منه ما شاهدوا .

والجواب من طرق :

أحدها : أنه يقال : هذا الذى ذكروه ، وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق ، وولادتهما معاً أى الكلمة مع الناسوت ، وهو الذى يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت ، هو أمر ممتنع فى صريح العقل ، وما علم أنه ممتنع فى صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسول ، فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع ، فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع ، فالرسل منزهون عن الإخبار عنه .

الطريق الثانى : أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بخالق العالم . والنصارى يقولون : هو إله تام وإنسان تام .

الطريق الثالث : فيما ذكروه ، فأما الطريق الأول فمن وجوه :

أحدها : أن يقال : المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط ، وإن شئت قلت : المتحد به ، إما الكلام مع الذات ، وإما الكلام بدون الذات ، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الإبن وهو روح القدس ، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة .

وهذا باطل باتفاق النصارى ، وسائر أهل الملل ، وباتفاق الكتب الإلهية ، وباطل بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله .

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط فالكلمة صفة ، والصفة لا تقوم بغير موصوفها ، والصفة ليست إلهاً خالقاً ، والمسيح عندهم إله خالق ، فبطل قولهم على التقديرين ، وإن قالوا : المتحد به الموصوف بالصفة فالموصوف هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الاب . وإن قالوا : الصفة فقط ، فالصفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف ، والصفة لا تخلق ولا ترزق ، وليست الإله . والصفة عن يمين الموصوف ، والمسيح عندهم صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأما كونه هو الأب فقط ، وهو الذات المجردة عن الصفات ، فهذا أشد استحالة ، وليس فيهم من يقول بهذا الوجه .

الثاني : أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين ، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد ، فليس ذلك باتحاد .

وإن قيل : صار جوهراً واحداً ، كما يقول من يقول منهم : إنهما صارا كالنار مع الحديدة ، أو اللبن مع الماء : فهذا يستلزم استحالة كل منهما ، وانقلاب صفة كل منهما بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا والنار مع الحديدة ، وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدلت صفته وحقيقته . والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيء ووجود آخر ، فيلزم عدم شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه . وما وجب قدمه استحال عدمه ، وما وجب وجوده امتنع عدمه ، فإن القديم لا يكون قديماً إلا لوجوبه بنفسه ، أو لكونه لازما للواجب بنفسه ، إذ لو لم يكن

لازما له ـ بل كان غير لازم له ـ لم يكن قديماً بقدمه والواجب بنفسه يمتنع عدمه ، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه ، فإنه يلزم انتفاء اللازم انتفاء الملزوم .

الوجه الثالث : أن يقال : الناس لهم فى كلام الله عز وجل عدة أقوال ، وقول النصارى باطل على جميع الأقوال التى قالها الناس فى كلام الله فثبت بطلانه على كل تقدير ، وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفة له قائماً به ، وإما أن يكون مخلوقا له بائنا عنه ؛ وإما أن يكون لا هذا ولا هذا ، بل هو مايوجد فى النفوس ، وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء ، وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة : إن الرب لا تقوم به الصفات وليس هو خالقاً باختياره.

ويقولون مع ذلك : إنه ليس عالماً بالجزئيات ، ولا قادراً على تغيير الأفلاك ، بل كلامه عندهم مايفيض على النفوس ، وربما سموه كلاما بلسان الحال ، وهؤلاء ينفون الكلام عن الله ، ويقولون : ليس بمتكلم ، وقد يقولون : متكلم مجازا ، لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل فى الملل منهم ، ثم فسره بمثل هذا ، وهذا أحد قولى الجهمية .

والقول الثانى : أنه متكلم حقيقة لكن كلامه مخلوق خلقه فى غيره وهو قول المعتزلة وغيرهم ، والقول الآخر للجهمية وعلى هذين القولين ، فليس لله كلام قائم به حتى يتحد بالمسيح ، أو يحلّ به ، والمخلوق عرض من الأعراض ليس بإله خالق ، وكثير من أهل الكتاب : اليهود ، والنصارى من يقول بهذا وهذا .

وأما القول الأول :ـ وهو قول سلف الأمة وأئمتها ، وجمهورها ، وقول كثير من سلف أهل الكتاب ، وجمهورهم ـ فإما أن يقال الكلام قديم النوع ، بمعنى أنه لم يزل متكلما بمشيئة أو قديم العين ، وإما أن يقال ليس بقديم ، بل هو حادث والأول هو القول المعروف عن أئمة السنة والحديث .

وأما القائلون بقدم العين ، فهم يقولون الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته

لاعتقادهم أنه لا تحله الحوادث ، وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثا ، ولهم قولان : منهم من قال القديم معنى واحد ، أو خمسة معان ، وذلك المعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ، وهذه صفات له لا أقسام له ، و إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً و إن عبر عنه بالعبرية كان توراة . ومنهم من قال : هو حروف ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان .

والقول الثالث : إنه متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته ، قالوا : وهو حادث ، ويمتنع أن يكون قديماً ، لامتناع كون المقدور المراد قديماً ، وهذه الطوائف بنوا أقوالهم على أن ما لم يَخْلُ عن الحوادث ، فهو حادث ، لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم ، وإذا امتنع ذلك تعين أن يكون لنوع الحوادث ابتداء ، كما للحادث المعنى ابتداء ولم يسبق الحوادث كان معه أو بعده فيكون حادثاً ، فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لا نهاية لها فى الأزل ، وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها فى الأبد .

وأما القول بأن كلمات الله لانهاية لها مع أنها قائمة بذاته ، فهو القول المأثور عن أئمة السلف ، وهو قول أكثر أهل الحديث ، وكثير من أهل الكلام ، ومن الفلاسفة . وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها فى غير موضع ، والمقصود هنا أن قول النصارى باطل فى كل قول من هذه الأقوال الأربعة كما تقدم بيان بطلانه على ذينك القولين،فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل ، و إما كلمات لها ابتداء ، وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التى لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة ، بل إنما خُلقَ بكلمة من كلمات الله فى الكتب الإلهية : القرآن والتوراة .

إنه يخلق الأشياء بكلماته .

قال تعالى فى قصة بشارة مريم بالمسيح : ﴿ قالت ربِّ أنَّى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما

يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٧] .

وقال أيضاً : ﴿ إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] .

وقال : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

وقد أخبر الله فى القرآن بخلقه للأشياء بكلماته فى غير موضع ، بقوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وفى التوراة : [ليكن يوم الأحد ، ليكن كذا ، ليكن كذا] .

وأيضاً فعلى قول هؤلاء وعلى قول من يجعل كلامه إما معنى واحدا وإما خمسة معانى ، وإما حروف وأصوات هى شىء واحد فكلهم يقولون : إن الكلام صفة قائمة بالموصوف لا يتصور أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ، ولا يتصور أن يكون خالقاً ، ولا للكلام مشيئة ، ولا جوهر آخر غير جوهر المتكلم ، ولا يتحد بغير المتكلم ، بل جمهورهم يقولون : إنه لا يحلّ أيضاً بغير المتكلم .

ومن قال بالحلول منهم فلا يقول : إن الحال جوهر ، ولا إله خالق ، فتبين أن ما قاله النصارى باطل على جميع الأقوال التى قالها الناس كلام الله مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ ، ولما كان قول النصارى فساده أظهر للعقلاء كان الخطأ الذى فى أكثر هذه الأقوال قد خفى على العقلاء الذين قالوها ، ولم يخف عليهم فساد قول النصارى .

وأيضاً فالذين قالوا بالحلول من الغلاة الذين يكفرهم المسلمون ، كالذين يقولون بحلوله فى بعض أهل البيت أو بعض المشايخ ، هم وإن كانوا كفاراً شاركوا النصارى فى الحلول ، ولكن لم يقولوا إن الكلمة التى حلت هى الإله الخالق ، فيتناقضون تناقضاً ظاهراً مثل ما فى قول النصارى .

ومن التناقض البين ماليس فى قول هؤلاء ، وإن كان فى بعض الوجوه قولهم شرّ من قول النصارى .

والوجه الرابع : أن يقال لو كان المسيح نفس كلمة الله فكلمة الله ليست هى الإله الخالق للسموات والأرض ، ولا هى تغفر الذنوب ، وتجزى الناس بأعمالهم ، سواء كانت كلمة صفة له أم مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته ، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم ، ولا يقول أحد : ياعلم الله اغفر لى ، وياقدرة الله توبى علىّ ، وياكلام الله ارحمنى ، ولا يقول يا توراته أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفرلى وارحمنى ، وإنما يدعو الله سبحانه ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال ، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام ؟

فإن المسيح جوهر قائم بنفسه ، والكلام صفة قائمة المتكلم ، وليس هو نفس الرب المتكلم ، فإن الرب المتكلم هو الذى يسمونه الأب ، والمسيح ليس هو الأب عندهم ، بل الإبن ، فضلوا فى قولهم من جهات منها جعل الأقانيم ثلاثة . وصفات الله لاتختص بثلاثة .

ومنها : جعل الصفة خالقة ، والصفة لاتخلق .

ومنها : جعلهم المسيح نفس الكلمة ، والمسيح خُلِقَ بالكلمة ، فقيل له : كن فكان ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى تفسير ذلك ، وإنما خُصّ المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد فى المخلوقات بخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وخلقوا من ماء الأبوين : الأب والأم .

والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل ، بل لما نفخ روح القدس فى أمه حبلت به ، وقال الله له : كن فكان ، ولهذا شبهه الله بآدم فى قوله : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ . فإن

آدم عليه السلام خلق من تراب وماء ، فصار طيناً ثم أيبس الطين ، ثم قال له : كن فكان ، وهو حين نفخ الروح فيه صار بشراً تاماً ، لم يحتج بعد ذلك إلى مااحتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح ، فإن الجنين بعد نفخ الروح يَكمُلُ خلق جسده فى بطن أمه ، فيبقى فى بطنها نحو خمسة أشهر ، ثم يخرج طفلا يرتضع ، ثم يكبر شيئاً بعد شيء ، وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشراً تاماً ينفخ الروح فيه ، ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء ، وبقى مدة طويلة ـ يقال : أربعين سنة ـ فلم يكن خلق جسده إبداعياً فى وقت واحد ، بل خلق شيئاً فشيئاً ، وخَلْقُ الحيوان من الطين معتاد فى الجملة .

وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقاً إبداعياً بنفس نفخ روح القدس فى أمه ، قيل له : كن فكان ، فكان له من الاختصاص ـ بكونه خلق بكلمة الله ـ مالم يكن لغيره من البشر ، ومن الأمر المعتاد فى لغة العرب وغيرهم أن الاسم العام إذا كان له نوعان خَصّت أحد النوعين باسم وأبقت الاسم العام مختصاً بالنوع كلفظ الدابة والحيوان ، فإنه عام فى كل مايدب ، وكل حيوان ، ثم لما كان للآدمى اسم يخصه بقى كلفظ الحيوان يختص به البهيم .

ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هى والبغال والحمير ونحو ذلك وكذلك لفظ الجائز والممكن ، وذوى الأرحام ، وأمثال ذلك ، فلما كان لغير المسيح مايختص به ، أبقى اسم الكلمة العامة مختصاً بالمسيح .

الطريق الثانى : أن ماذكروه حجة عليهم ، فإن الله إذا لم يكلم أحداً من الأنبياء إلا وحياً أو من وراء حجاب . فالمسيح عيسى ابن مريم يجب أن لا يكلمه إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل إليه رسولا .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ .

يعم كل بشر : المسيح وغيره ، وإذا امتنع أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب فامتناع أن يتحد به ، أو يحل فيه أولى وأحرى فإن ما اتحد به ، وحل فيه كلمة من غير حجاب بين اللاهوت والناسوت ، وهم قد سلموا أن الله لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب .

الوجه الثالث : أن قوله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ يقتضى أن يكون الحجاب حجاباً يحجب البشر كما حجب موسى ، فيقتضى ذلك أنهم لا يرونه فى الدنيا ، وإن كلمهم كما أنه كلم موسى ولم يره موسى ، بل سأل الرؤية فقال : ﴿ رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكا وخر موسى صَعِقاً فلما أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٤٣] .

قيل :[إنا أول من آمن أنه لا يراك أحد فى الدنيا]، وعندهم فى التوراة أن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله فى الدنيا فيعيش ، وكذلك قال عيسى لما سألوه عن رؤية الله فقال : [إن الله لم يره أحد قط] . وهذا معروف عندهم ، وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر ، وهذا يبطل قول النصارى فإنهم يقولون : إن الرب احتجب بحجاب بشرى ، وهو الجسد الذى ولدته مريم فاتخذه حجاباً ، وكلم الناس من ورائه .

والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر .

يبين هذا الوجه الرابع: وهو أن ذلك الجسد الذى ولدته مريم هو من جنس أجسام بنى آدم ، فإن جاز أن يتحد به ، ويحل فيه، ويطيق الجسد البشرى ذلك فى الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة جاز أن يتحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيه من القوة ، وإذا جاز أن يتحد به جاز أن يكلمها بغير حجاب بينه وبينها بطريق الأولى والأحرى .

وهذا خلاف ما ذكروه وخلاف القرآن، فتبين أن نفي الأنبياء لأن يراه المرء في الدنيا هو نفي لماسته ببشر بطريق الأولى والأحرى . والناسوت المسيحي هو بشر فإذا لم يمكنه أن يرى الله ، فكيف يمكنه أن يتحد به ، ويماسه ويصير هو وإياه كاللبن والماء ، والنار والحديد ، أو كالروح والبدن ؟

والوجه الخامس : أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسر من اتحاده به ، وحلوله فيه ، وأولى بالإمكان فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله ، ومنعها على ألسن رسله موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به .

الوجه السادس : أنه لو كان حلوله في البشر مما هو ممكن وواقع لم يكن لاختصاص واحد من البشر بذلك دون من قبله و بعده ، فإن القدوة شاملة والمقتضي-وهو وجود الله وحاجة الخلق - موجود، ولهذا لما كانت الرسالة ممكنة أرسل من البشر غير واحد ، ولما كان سماع كلامه للبشر ممكناً سمع كلامه غير واحد . ورؤيته في الدنيا بالأبصار لم تقع لأحد باتفاق علماء المسلمين ، لكن لهم في النبي صلى الله عليه وسلم قولان ، والذي عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعينه ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

والخلة لما كانت ممكنة اتخذ إبراهيم خليلا ، واتخذ محمداً أيضاً خليلا كما في الصحيحين من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذاً - من أهل الأرض - خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه .

الوجه السابع ، قولهم : وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا في الكثائف مثل الروح وغيرها ، فكلمة الله التي بها خلقت الكثائف تظهر في غير كثيف كلا ؟

فيقال : لم ظهور اللطائف فى الكثائف كلام مجمل ، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر فى جسده ، أو الجنى يتكلم على لسان المصروع ونحو ذلك فليس هذا مما نحن فيه ؛ وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحل فى البشر، فهذا محل النزاع فأين الدليل عليه ؟ وأنتم لم تذكروا إلا مايدل على نقيض ذلك .

والوجه الثامن : أن هذا أمر لم يدل عليه عقل ولا نقل ، ولا نطق نبى من الأنبياء بأن الله يحل فى بشر ، ولا ادعى صادق قط حلول الرب فيه، وإنما يدعى الكذابون كالمسيح الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، ويدعى الإلهية فيُنزل الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم مسيح الهدى فيقتل مسيحُ الهدى ـ الذى ادعيت فيه الإلهية بالباطل ـ المسيح الدجال الذى ادعى الإلهية بالباطل ، ويبين أن البشر لا يحل فيه رب العالمين .

ولهذا لما أنذر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسيح الدجال ، وقال « ما من نبى إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به » .

وذكر النبى صلى الله عليه وسلم له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم تبيِّن كذبَه .

أحدها : قوله مكتوب بين عينيه كافر « ك ف ر » ويقرأه كل مؤمن : قارىء وغير قارىء .

الثانى قوله : واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت . فبين أن الله لا يراه أحد فى الدنيا بعينه ، وكل بشر فإنه يرى فى الدنيا بالعين ، فعلم أن الله لا يتجسد ببشر .

الثالث : قوله : إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . ودلائل نفى الربوبية عنه كثيرة ، ولكن لما كان حلول اللاهوت فى البشر واتحاده به مذهباً ضل به طوائف كثيرون من بنى آدم النصارى وغيرهم ، وكان المسيح الدجال يأتى بخوارق عظيمة ، والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أموراً ظاهرة لا يحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التي ضل فيها خلق كثير من الآدميين ، فإن كثيراً من الناس ، بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه ، وإذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى إلهية المسيح ، وصدقوا أيضاً من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ ، أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الإفك والفجور .

وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا : دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة ، فكيف يحتج النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال ، وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة ، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، وظنوا أن موسى نسيه.

والنصارى مع كثرتهم يقولون: ان المسيح هو الله ، وفي المنتسبين الى القبلة خلق كثير يقولون : ذلك كثير في المشايخ ، أو أهل البيت حتى إن كثيراً من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد ، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد وينشدون :

ما وحَّد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته   عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده   ونعت من ينعته لاحد

فكيف يستبعد مع إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله ، وهو يقول : أنا الله ، وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين ، وفيمن لم يقل : أنا الله كالمسيح ، وسائر الأنبياء والصالحين .

الوجه العاشر : قولهم فكلمة الله التي بها خلقت الخلائق تظهر في غير

كثيف كلاً . فيقال لهم : كلمة الله التي يدّعون ظهورها في المسيح ، أهي كلام الله الذي هو صفته أو ذات الله المتكلمة أو مجموعهما ؟ فإن قلتم : الظاهر فيه نفس الكلام فهذا يراد به شيئان :

إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح ، كما أنزله على غيره من الرسل ، فهذا حق اتفق عليه أهل الإيمان ، ونطق به القرآن .

وإن أريد به أن كلام الله فارق ذاته وحلّ في المسيح أو غيره ، فهو باطل مع أن هذا لا ينفع النصارى ، فإن المسيح عندهم إله خالق السموات والأرض ، وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم ، وابن مريم وخالق مريم ، ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته . وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهور ذات الله أو ظهور ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان ، فهذا أيضاً يراد به ظهور نوره في قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ كوكب درىٌّ ﴾ الآية .

وكما ظهر الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ، وكما تجلى لابراهيم ، كما ذكره في التوراة ، فهذا لا يختص بالمسيح ، بل هو كغيره كما هو له .

وإن أرادوا أن ذات الرب حلّت في المسيح ، أو في غيره فهذا محل النزاع ، فأين دليلهم على إمكان ذلك ، ثم وقوعه ؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون : هذا غير واقع ، بل هو ممتنع .

الوجه الحادي عشر : قولهم : فكلمة الله التي بها خلقت اللطائف تظهر في غير كثيف كلاً ، كلام باطل . فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهية إذا أمكن ظهوره فظهوره في اللطيف أولى من ظهوره في الكثيف ، فإن الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء عليهم السلام ، وتتلقى كلام الله من الله ، وتنزل به على الأنبياء عليهم السلام ، فيكون وصول كلام الله إلى الملائكة قبل وصوله

إلى البشر ، وهم الوسائط كما قال تعالى : ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ . والله تعالى أيد رسله من البشر حتى أطاقوا التلقى عن الملائكة ، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانا فى غير الصورة البشرية ، وأحيانا فى الصورة البشرية ، فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف ووصولها إليهم أولى منه بالكثائف ، ولو جاز أن يتحد الرب سبحانه بحىّ من الأحياء ، ويحل فيه ، لكان حلوله فى ملك من الملائكة واتحاده به أولى من حلوله واتحاده بواحد من البشر .

الوجه الثانى عشر : أن الناسوت المسيحى عندهم الذى اتحد به هو البدن والروح معاً ، فإن المسيح كان له بدن وروح ، كما لسائر البشر ، واتحد به عندهم اللاهوت ، فهو عندهم اسم يقع على بدن وروح آدميين وعلى اللاهوت ، وحينئذ فاللاهوت على رأيهم إنما اتحد فى لطيف وهو الروح ، وكثيف وهو البدن لم يظهر فى كثيف فقط ، ولولا اللطيف الذى كان مع الكثيف ، وهو الروح لم يكن للكثيف فضيلة ولا شرف .

الوجه الثالث عشر : أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن كما شبهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح فى البدن ، وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح ، وما تتألم به الروح يتألم به البدن ، فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضاً متألماً متوجعاً . وقد خاطبت بهذا بعض النصارى فقال لى : الروح بسيطة ، أى لا يلحقها ألم ، فقلت له : فما تقول فى أرواح الكفار بعد الموت أمنعّمة أو معذّبة ؟ فقال : هى فى العذاب فقلت : فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب ، فإذا شبهتم اللاهوت فى الناسوت بالروح فى البدن لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت كما تتألم الروح إذا تألم البدن ، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك .

الوجه الرابع عشر : أن قولهم : وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا فى

الكثائف فكلمة الله لا تظهر إلا فى كثيف كلاً تركيب فاسد لا دلالة فيه ، وإنما يدل إذا بينوا أن كل لطيف يظهر فى كثيف ، ولا يظهر فى غيره حتى يقال : فلهذا ظهر الله فى كثيف ، ولم يظهر فى لطيف ، وإلا فإذا قيل : إنه لا يحل فى لطيف ، ولا كثيف ، أو قيل إنه يحل فيهما بطل قولهم بوجوب حلوله فى المسيح الكثيف ، دون اللطيف ، وهم لم يؤلفوا الحجة تأليفاً منتجاً ، ولا دلوا على مقدماتها بدليل ، فلا أتوا بصورة الدليل ، ولا مادته ، بل مغاليط لا تروج إلا على جاهل يقلدهم .

ولا يلزم من حلول الروح فى البدن أن يحل كل شىء فى البدن ، بل هذه دعوى مجردة وأرواح بنى آدم تظهر فى أبدانهم ، ولا تظهر فى أبدان البهائم ، بل ولا فى الجن . والملائكة تتصور فى صورة الآدميين ، وكذلك الجن والإنسان لا يظهر فى غير صورة الإنسان فأى دليل من كلامهم على أن الرب يحل فى الإنسان الكثيف ، ولا يحل فى اللطيف ؟

والقوم شرعوا يحتجون على تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا : وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا ، أى الكلمة مع الناسوت فإن الله لم يكلم أحداً من الأنبياء إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، وليس فيما ذكروه قط دلالة لا قطعية ولا ظنية على تجسيم كلمة الله الخالقة ، وولادتها مع الناسوت .

الوجه الخامس عشر : أنهم قالوا : وأما تجسيم كلمة الله الخالقة ، ثم قالوا : فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف فتارة يجعلونها خالقة ، وتارة يجعلونها مخلوقا بها ، ومعلوم أن الخالق ليس هو المخلوق به والمخلوق به ليس هو الخالق فإن كانت الكلمة خالقة ، فهى خلقت الأشياء ، ولم تخلق الأشياء بها ، وإن كانت الأشياء خلقت بها ، فلم تخلق الأشياء ، بل خلقت الأشياء بها ، ولو قالوا : إن الأشياء خلقت بها بمعنى أن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن فيكون ، لكان هذا حقا لكنهم يجعلونها خالقة ، مع قولهم بما يناقض ذلك .

الوجه السادس عشر : أن يقال لهم : إذا كان الله لم يخاطب بشراً إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، فتكليمه للبشر بالوحى ومن وراء حجاب ، كما كلم موسى ، وبإرسال ملك كما أرسل الملائكة ، إما أن يكون كافيا فى حصول مراد الرب من الرسالة إلى عباده ، أو ليس كافيا ، بل لابد من حلوله نفسه فى بشر ، فإن كان ذلك كافيا أمكن أن يكون المسيح مثل غيره فيوحى الله إليه أو يرسل إليه ملكا فيوحى بإذن الله ما يشاء ، أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى ، وحينئذ فلا حاجة به إلى اتحاده ببشر مخلوق . وإن كان المتكلم ليس كافيا وجب أن يتحد بسائر الأنبياء ، كما اتحد بالمسيح فيتحد بنوح و إبراهيم وموسى وداود وغيرهم ، يبين هذا :

الوجه السابع عشر : وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح ، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح ، فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده فى المسيح حتى كلم عباده بنفسه فيتحد بالمسيح محتجبا ببدنه الكثيف ، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى ، وسائر من كلمه المسيح فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى مثل من يتحد بإبراهيم الخليل ، فيكلم إسحق و يعقوب ولوطا محتجبا ببدن الخليل ، أو يتحد بيعقوب فيكلم أولاده أو غيرهم محتجبا ببدن يعقوب ، أو يتحد بموسى بن عمران فيكلم هارون ويوشع بن نون وغيرهما محتجبا ببدن موسى ، فإذا هو كان سبحانه لم يفعل ذلك ، إما لامتناع ذلك ، وإما لأن عزته وحكمته أعلى من ذلك مع عدم الحاجة إلى ذلك ، علم أنه لا يفعل ذلك فى المسيح بطريق الأولى والأحرى .

الوجه الثامن عشر : أنه إذا أمكنه أن يتحد ببشر فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذى أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود ، وعوام النصارى .

فصل فيما ادعوه من ظهوره فى عيسى ابن مريم

قالوا : ولذلك ظهر فى عيسى ابن مريم ، إذ الإنسان أجلّ ما خلقه الله ، ولهذا خاطب الخلق ، وشهدوا منه ما شاهدوا .

فيقال : إن ادعيتم ظهوره فى عيسى كما ظهر فى إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وكما يظهر فى بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وذلك بظهور نوره ومعرفته ، وذكر أسمائه وعبادته ، ونحو ذلك من حلول ذاته فى البشر ولا اتحاده به ، فهذا أمر مشترك بين المسيح وغيره ، فلا اختصاص للمسيح بهذا ، وهذا أيضاً قد يسمى حلولا ، وعندهم أن الله يحل فى الصالحين ، وهذا مذكور عندهم فى بعض الكتب الإلهية ، كما فى كتبهم فى المزمور الرابع من الزبور .

يقول داود عليه السلام فى مناجاته لربه : [وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد ، ويبتهجون ، وتحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل فى الصالحين المذكورين ، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به ، وليس المراد بهذا باتفاقهم ، واتفاق المسلمين أن ذات الله نفسه تتحد بالبشر ، ويصير اللاهوت والناسوت كالنار والحديد ، والماء واللبن ، ونحو ذلك مما يمثلون به الاتحاد ، بل هذا يراد به حلول الإيمان به ومعرفته ، ومحبته وذكره وعبادته ، ونوره وهداه .

وقد يعبر عن ذلك بحلول المثال العلمى ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣] . ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] .

فهو سبحانه له المثل الأعلى فى قلوب أهل السموات وأهل الأرض .

ومن هذا الباب ما يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه قال : « يقول الله : أنا مع عبدى ما ذكرنى ، وتحركت بى شفتاه » فأخبر أن شفتيه تتحرك به أى

باسمه ، وكذلك قوله فى الحديث الصحيح : « عبدى مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده » .

فقال : « لوجدتنى عنده » ولم يقل : لوجدتنى إياه ، وهو عنده أى فى قلبه ، والذى فى قلبه المثال العلمى .

وقال تعالى : « عبدى جعت فلم تطعمنى ، فيقول : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلانًا جاع ، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » ، ولم يقل : لوجدتنى قد أكلته .

وكذلك قوله فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى « من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلى عبدى بمثل أداء ما أفترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وفى رواية « فبى يسمع ، و بى يبصر ، وبى يبطش ، و بى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته » .

وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام ، أو الاتحاد العام ، أو وحدة الوجود ، وقد يحتج به من يقول : بالخاص من ذلك ، كأشباه النصارى .

والحديث حجة على الفريقين ، فإنه قال : « من عادى وليا فقد آذنته بالحرب » فأثبت ثلاثة : وليا له ، وعدوا يعادى وليا له ، وميّز بين نفسه و بين وليه ، وعدو وليه ، فقال « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ولكن دل ذلك على أن وليه الذى والاه فصار يحب مايحب ، و يبغض مايبغض ، و يوالى من يوالى ، و يعادى من يعادى ، فيكون الرب مؤذنًا بالحرب لمن عاداه ، بأنه معادٍ لله .

ثم قال تعالى : « وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه » ففرق بين العبد المتقرب ، والرب المتقرب إليه ، ثم قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض .

ثم قال : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره و بطنه وظهره ورأسه وشعره ، وهو كل شىء ، أو فى كل شىء قبل التقرب و بعده ، وعند الخاص صار هو ، وهو كالنار والحديد ، والماء واللبن لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل .

ثم قال تعالى : « فبى يسمع ، و بى يبصر ، و بى يبطش ، و بى يمشى » وعلى قول هؤلاء ، الرب هو الذى يسمع و يبصر و يبطش و يمشى ، والرسول إنما قال : « فبى » ثم قال « ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » فجعل العبد سائلا مستعيذاً ، والرب مسئولا مستعاذا به ، وهذا يناقض الاتحاد ، وقوله « فبى يسمع » مثل قوله « ما تحركت به شفتاه » يريد به المثال العلمى .

وقول الله : « فيكون الله فى قلبه » أى معرفته ومحبته وهداه وموالاته ، وهو المثال العلمى ، فبذاك الذى فى قلبه يسمع و يبصر و يبطش و يمشى .

والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا ، فيقول : أنت فى قلبى وفى فؤادى ، وما زلت بين عينى ، ومنه قول القائل :

مثالك فى عينى وذكراك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟

وقول الآخر :

ومن عجبى أنى أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ويطلبهم قلبى وهم بين أضلعى

ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو فى نفسه ليست ذاته فى عين محبه ولا فى قلبه ، ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتى يظن الغالطون أن

نفس المحبوب المعبود فى ذات المحب العابد .

ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل ، فجعلوا المعقول والعقل والعاقل شيئاً واحداً ، ولم يميزوا بين حلول مثال المعلول ، و بين حلول ذاته ، وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة ، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته وبمحبوبه عن محبته و بمشهوده عن شهادته ، و بمعروفه عن معرفته فيفنى من لم يكن عن شهود العبد لا أنه نفسه يعدم و يفنى من لم يزل فى شهوده ، ومن هذا المقام إذا غلط قد يقول مسلما مثل ما يحكى عن أبى يزيد البسطامى : سبحانى سبحانى ، أو مافى الجبة إلا الله . وفى هذا يذكر حكاية ، وهو أن شخصاً كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه فى ماء فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ فقال : غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى . فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقا فى محبوبه ، لا يشهد قلبه غير مافى قلبه وغاب عن شهود نفسه وأفعاله فظن أنه هو نفس المحبوب ، وهذا أهون من أن يظن أن ذات المحبوب نفسه .

فهذا الظن لاتحاد الذات أو حلولها ظن غالط وقع فيه كثير من الناس ، فالذين قالوا : إن المسيح أو غيره من البشر هو الله ، أو أن الله حالٌّ فيه قد يكون غلطتهم من هذا الجنس لما سمعوا كلاما يقتضى أن الله فى ذات الشخص ، وجعلوا فعل هذا فعل هذا ، ظنوا ذاك اتحاد الذات وحلولها .

و إنما المراد أن معرفة الله فيه ، واتحاد المأمور به ، والمنهى عنه ، والموالى والمعادى كقوله تعالى : ﴿إنَّ الذين يُبايعونكَ إنما يُبايعون الله﴾ [سورة الفتح : ١٠] . وقوله : ﴿مَّن يُطع الرسولَ فقد أطاعَ الله﴾ ، [سورة النساء : ٨٠] .

وليس ذلك لأن الرسول هو الله ولا لأن الله نفسه حال فى الرسول ، بل لأن الرسول أمر بما يأمر الله به ، و ينهى عما ينهى الله عنه ، ويحب ما يحبه الله ، و يبغض ما يبغضه الله ، و يوالى أولياء الله ، و يعادى أعداء الله .

فمن بايعه على السمع والطاعة ، فإنما بايع الله على السمع والطاعة ، ومن أطاعه فإنما أطاع الله .

وكذلك المسيح ، وسائر الرسل إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ويوالون أولياء الله ، ويعادون أعداء الله ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن صدقهم فقبل منهم ما أخبروا به ، فقد قبل عن الله ، ومن والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادى الله وحارب الله ، ومن تصور هذه الأمور تبين له أن لفظ الحلول قد يعبر بها عن معنى صحيح ، وقد يعبر بها عن معنى فاسد .

وكذلك حلول كلامه فى القلوب ، ولذلك كره أحمد بن حنبل الكلام فى لفظ حلول القرآن فى القلوب ، كما ذكر فى غير هذا الموضع .

ومما يوضح هذا أن الشيء له وجود فى نفسه هو ، وله وجود فى المعلوم والأذهان ووجود فى اللفظ واللسان ووجود فى الخط والبيان : ووجود عينى شخصى ، وعلمى ولفظى ، ورسمى ، وذلك كالشمس مثلا فلها تحقق فى نفسها ، وهى الشمس التى فى السماء ، ثم يتصور بالقلب الشمس ، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس ، ويكتب بالقلم الشمس .

والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ ، وباللفظ مطابقة العلم ، وبالعلم مطابقة المعلوم ، فإذا رأى الإنسان فى كتاب خط الشمس أو سمع قائلا يذكر قال : هذه الشمس قد جعلها الله سراجاً وهاجاً ، وهذه الشمس تطلع من المشرق وتغرب فى المغرب ، فهو يشير إلى ما سمعه من اللفظ ورآه من الخط ، وليس مراده نفس اللفظ والخط ، فإن ذلك ليس هو الشمس التى تطلع وتغرب وإنما مراده ما يقصد بالخط واللفظ ويراد بهما ، وهو المدلول المطابق لهما ، وكذلك قد يرى اسم الله مكتوبا فى كتاب ، ومعه اسم صنم ، فيقول : آمنت بهذا ، وكفرت بهذا ، ومراده أنه مؤمن بالله كافر بالصنم ، فيشير إلى اسمه المكتوب ومراده المسمى بهذا الاسم ، وكذلك إذا سمع من يذكر أسماء الله الحسنى قال : هذا رب العالمين ، ومراده المسمى بتلك

الأسماء ، ومن هذا قول أنس بن مالك : كان نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ومراده بهذه الأسماء الخط لهذا وهذا ، وهذا لا اللفظ ولا المسمى ، ومما يشبه هذا ما يرى فى المرآة أو الماء ، مثل أن يرى الشمس أو غيرها فى ماء أو مرآة فيشار إلى المرئى ، فيقال : هذا الشمس ، وهذا وجهى أو وجه فلان ، وليس مراده أن نفس الشمس أو وجهه أو وجه فلان حلّ فى الماء أو المرآة ، ولكن لما كان المقصود بتلك الرؤية هو الشمس وهو الوجه ذكره ، ثم قد يقال : رآه رؤية مقيدة فى الماء ، أو المرآة ، وقد يقال : رآه بواسطة الماء والمرآة ، وقد يقال : رأى مثاله وخياله الحاكى له .

ولكن المقصود بالرؤية هو نفسه ، ومثل هذا كثير .

ومعلوم أن مافى القلوب من المثال العلمى المطابق للمعلوم أقرب إليه من اللفظ ، واللفظ أقرب من الخط ، فإذا كان يشار إلى اللفظ والخط ، والمراد هو نفسه ، وإن لم يكن الخط واللفظ هو ذاته ، بل به ظهر وعرف فلأن يشار إلى مافى القلب ، ويراد به المعروف الذى ظهر للقلب وتجلى للقلب ، وصار نوره فى القلب بطريق الأولى .

والعقلاء إنما تتوجه قلوبهم إلى المقصود المراد دون الوسائل ، ويعبرون بعبارات تدل على ذلك لظهور مرادهم بها ، كما يقولون لمن يعرف علم غيره ، أو لمن يأمر بأمره ، ويخبر بخبره ، هذا فلان ، فإذا كان مطلوبهم علم عالم أو طاعة أمير فجاء نائبه القائم مقامه فى ذلك ، قالوا هذا فلان ، أى المطلوب منه هو مع هذا ، فلاتحاد المقصود بهما يعبرون عن أحدهما بلفظ الآخر .

كما يقال: عكرمة : هو ابن عباس، وأبو يوسف: هو أبو حنيفة، ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال: [أنا وأبي واحد من رآنى ، فقد رأى أبى] .

وقوله تعالى فيما حكاه عنه رسوله : « عبدى مرضت فلم تعدنى ، عبدى جعت فلم تطعمنى » ، ويشبهه قوله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ ،

[سورة الفتح : ١٠] . فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام ، فإنه تنحل به إشكالات كثيرة ، فإن هذا موجود في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين ، في عامة الطوائف ، مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر .

بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ، ويراد به معنى صحيح ، كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد ، إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان ، ويواليان ويعاديان ، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان ، وبينهما اتحاد ، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر ، كاتحاد النار والحديد ، والماء واللبن ، أو النفس والبدن ، وكذلك لفظ الحلول ، والسكنى ، والتخلل وغير ذلك كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني * وبذا سمي الخليل خليلا

والمتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به ، ونحو ذلك لا نفس ذاته ، وكذلك قول الآخر :

ساكن في القلب يعمره * لست أنساه فأذكره

والساكن في القلب هو مثاله العلمي ومحبته ومعرفته ، فتسكن في القلب معرفته ومحبته لا عين ذاته ، وكذلك الآخر :

إذا سكن الغدير على صفاء * وجنب أن يحركه النسيم

بدت فيه السماء بلا امتراء * كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلي * يرى في صفوها الله العظيم

وقد يقال : فلان ما في قلبه إلا الله ، وما عنده إلا الله ، يراد بذلك : إلا ذكره ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته ، وما يشبه ذلك أي ليس في قلبه ما في قلب غيره من المخلوقين ، بل ما في قلبه إلا الله وحده ، ويقال : فلان ما عنده إلا فلان إذا كان يلهج بذكره ، ويفضله على غيره .

وهذا باب واسع مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحل فى هذا ، فضلا عن أن تتحد به ، وهذا كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس : ما فيها إلا الشمس ، أى لم يظهر فيها غير الشمس .

وأيضاً فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشيء تارة ، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمى تارة كما تقدم ذكره ، وعندهم فى النبوات أن الله حلّ فى غير المسيح من الصالحين ، وليس المراد به أن ذات الرب حلت فيه ، بل يقال : فلان ساكن فى قلبى ، وحالٌّ فى قلبى ، وهو فى سرى ، وسويداء قلبى ، ونحو ذلك ، وإنما حلّ فيه مثاله العلمى ، وإذا كان كذلك فمعلوم أن المكان إذا خلا ممن يعرف الله ويعبده لم يكن هناك ذكر الله ، ولا حلت فيه عبادته ومعرفته ، فإذا صار فى المكان من يعرف الله ويعبده ويذكره ظهر فيه ذكره ، والإيمان به وحل فيه الإيمان بالله وعبادته وذكره ، وهو بيت الله عزّ وجل ، فيقال : إن الله فيه ، وهو حالٌّ فيه .

كما يقال : إن الله فى قلوب العارفين ، وحالّ فيهم ، والمراد به حلول معرفته والإيمان به ومحبته ، ونحو ذلك . وقد تقدم شواهد ذلك ، فإذا كان الربُّ فى قلوب عباده المؤمنين ، أى نوره ومعرفته ، وعبر عن هذا بأنه حال فيهم ، وهم حالون فى المسجد قيل : إن الله فى المسجد ، وحال فيه بهذا المعنى ، كما يقال : الله فى قلب فلان ، وفلان ماعنده إلا الله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده » .

ومما يزيد ذلك إيضاحا ما يراه النائم من بعض الأشخاص فى منامه ، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمور كثيرة ، وهو يقول : رأيت فلاناً فى منامى فقال لى : كذا ، وقلت له : كذا ، وفعل كذا ، وفعلت كذا . ويذكر أنواعاً من الأقوال والأفعال .

وقد يكون فيها علوم وحكم وآداب ينتفع بها غاية المنفعة ، وقد يكون ذلك

الشخص الذى رأى فى المنام حياً ، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه فى منامه فضلا عن أن يكون شاعراً بأنه قال أو فعل ، وقد يقص الرائى عليه رؤياه ، و يقول له الرائى : ياسيدى رأيتك فى المنام فقلت لى : كذا ، وأمرتنى بكذا ، ونهيتنى عن كذا ، والمرئى لا يعرف ذلك ، ولا يشعر به ، لأن المرئى الذى حل فى قلب الرائى هو المثال العلمى المطابق للعينى ، كما يرى الرائى فى المرآة أو الماء الشخص الموجود فى الخارج ، فهو المقصود ، و بعض المرئيين فى المنام قد يدرى بأنه رؤى فى المنام و يكاشف بذلك الرائى كما قد يكاشفه بأمور أخرى ، لا لأنه نفسه حل فيه .

والرؤيا إذا كانت صادقة كان ذلك القول والعمل مناسباً لحال المرئى ، مما هو عادته بقوله و بفعله بنفسه ، فمثل للرائى مثاله قائلا له وفاعلا ليعلم أنه نفسه بقوله و بفعله فينتفع بذلك الرائى ، كما يحكى للإنسان قول غيره وعمله ليعرف بذلك نفس القول والعمل المحكى ، فإن كثيراً من الأشياء لا تعرفه الناس أو أكثرهم إلا بالمثل المضروب له .

إما فى اليقظة وإما فى المنام ، مع العلم بأن عين هذا ليس عين هذا ، ومن توهم أنه إذا رأى شخصاً فى منامه بأن ذاته نفسها حلت فيه دل على جهله ، فإن المرئى كثيراً ما يكون حياً وهو لا يشعر بما رآه ، ذلك لاروحه تشعر ولاجسمه ، فلايتوهم أن ذات روحه تمثلت فى صورته الجسيمة للنائم ، بل الممثل فى نفس الرائى مثال مطابق له وجسمه وروحه حيث هما .

ثم الرؤيا قد تكون من الله ، فتكون حقاً وقد تكون من الشيطان ، كما ثبت تقسيمها إلى هذين فى الأحاديث الصحيحة ، والشيطان كما قد يتمثل فى المنام بصورة شخص يراه كثير من الناس يضل بذلك من لم يكن من أهل العلم والإيمان ، كما يجرى لكثير من مشركى الهند وغيرهم إذا مات ميتهم يرونه قد جاء بعد ذلك وقضى ديوناً ، ورد ودائع وأخبرهم بأمور عن موتاهم ، وإنما

هو شيطان تصور فى صورته وقد يأتيهم فى صورة من يعظمونه من الصالحين ، ويقول : أنا فلانا ، وإنما هو شيطان .

وقد يقوم شيخ من الشيوخ ، ويخلف موضعه شخصاً فى صورته يسمونه روحانية الشيخ ورفيقه ، وهوجنى تصورفى صورته ، وهذايقع لكثيرمن الرهبان وغير الرهبان من المنتسبين إلى الإسلام ، وقد يرى أحدهم فى اليقظة من يقول له : أنا الخليل ، أوأنا موسى أوأنا المسيح ، أومحمد ، أوأنا فلان لبعض الصحابة، أوالحواريين ويراه طائراً فى الهواء وإنما يكون ذلك من الشياطين ، ولا تكون تلك الصورة مثل صورة ذلك الشخص .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لايتمثل فى صورتى » فرؤيته فى المنام حق ، وأما فى اليقظة فلا يرى بالعين هو ، ولا أحد من الموتى ، مع أن كثيراً من الناس قد يرى فى اليقظة من يظنه نبياً من الأنبياء إما عند قبره ، وإما عند غير قبره .

وقد يرى القبر انشق ، وخرج منه صورة إنسان فيظن أن الميت نفسه خرج من قبره ، أوأن روحه تجسدت وخرجت من القبر ، وإنما ذلك جنىٌّ تصور فى صورته ليضل ذلك الرائى ، فإن الروح ليست مما تكون تحت التراب وينشق عنها التراب ، فإنها وإن كانت قد تتصل بالبدن ، فلا يحتاج فى ذلك إلى شق التراب ، والبدن لم ينشق عنه التراب ، وإنماذلك تخييل من الشيطان ، وقدجرى مثل هذا لكثير من المنتسبين إلى المسلمين ، وأهل الكتاب ، والمشركين .

ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين ، ويكون من إضلال الشياطين ، كماقد بسط الكلام فى هذا الباب فى غيرهذا الكتاب ، مثل (الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان) وغير ذلك .

فصل فى أنه لادليل على حلول ذاته واتحاده بالمسيح

وإن أردتم بقولكم ظهر فى عيسى حلول ذاته واتحاده بالمسيح أو غيره . فهذه دعوى مجردة من غير دليل متقدم ولا متأخر، وكون الإنسان أجلّ ما خلقه الله لو كان مناسباً لحلوله فيه أمر لا يختص به المسيح ، بل قد قام الدليل على أن غير عيسى عليه السلام أفضل منه مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذان اتخذهما الله خليلين ، وليس فوق الخلة مرتبة ، فلو كان يحل فى أجلّ ما خلقه الله من الإنسان لكونه أجلّ مخلوقاته لحلّ فى أجل هذا النوع ، وهو الخليل ، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وليس معهم قط حجة على أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لم يتحد باللاهوت على أصلهم أنه أفضل من الخليل وموسى .

وإذا قالوا : إنه لم يعمل خطيئة ، فيحيى بن زكريا لم يعمل خطيئة ، ومن عمل خطيئة وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل الخطيئة ، وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة ، والخليل وموسى أفضل من يحيى الذى يسمونه « يوحنا المعمدانى » .

وأما قولهم : ولهذا خاطب الخلق ، فالذى خاطب الخلق هو عيسى ابن مريم ، وإنما سمع الناس صوته لم يسمعوا غير صوته ، والجنى إذا حلّ فى الإنسان وتكلم على لسانه يظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمى ، ويتكلم بكلام ، يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمى .

والمسيح عليه السلام لم يكن يسمع منه إلا ما يسمع من مثله من الرسل ، ولو كان المتكلم على لسان الناسوت هو جنياً أو ملكا لظهر ذلك ، وعرف أنه ليس هو البشر ، فكيف إذا كان المتكلم هو رب العالمين ؟ فإن هذا لو كان حقاً لظهر ظهوراً أعظم من ظهور كلام الملك والجنى على لسان البشر بكثير كثير .

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام فقد شاهدوا من

غيره ما هو مثلها وأعظم منها ، وقد أحيا غيره الميت وأخبر بالغيوب أكثر منه ، ومعجزات موسى أعظم من معجزاته وأكثر ، وظهور المعجزات على يديه يدل على نبوته ورسالته ، كما دلت المعجزات على نبوة غيره ، ورسالتهم لا تدل على الإلهية. والدجال لما ادعى الإلهية لم يكن ما يظهر على يديه من الخوارق دليلا عليها ، لأن دعوى الإلهية ممتنعة ، فلا يكون فى ظهور العجائب ما يدل على الأمر الممتنع .

فصل فيما تأوّله اليهود فى البشارة بالمسيح

قالوا : قد قال الله على أفواه الأنبياء المرسلين ، الذين تنبوا على ولادته من العذراء الطاهرة مريم ، وعلى جميع أفعاله التى فعلها فى الأرض ، وصعوده إلى السماء ، وهذه النبوات جميعها عند اليهود مقرين ومعترفين بها ويقرونها فى كنائسهم ، ولم ينكروا منها كلمة واحدة .

فيقال : هذا كل مما لا ينازع فيه المسلمون ، فإنه لا ريب أنه ولد من مريم العذراء البتول التى لم يمسها بشر قط ، وأن الله أظهر على يديه الآيات ، وأنه صعد إلى السماء ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه ، كما تقدم ذكره ، فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبياء فى النبوات التى عند اليهود لم ينكروا ذلك ، وإن كان اليهود يتأوّلون ذلك على غير المسيح ، كما فى النبوات من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو حق ، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأولون ذلك على غيره.

فصل فى الفرق بين المسيح والمسيخ

قالوا : وسئلنا أن نذكر من بعض قول الأنبياء الذين تنبوا على السيد المسيح ، ونزوله إلى الأرض ، قال « عزرا » الكاهن حيث سباهم « بختنصر الفريدى » إلى أرض بابل إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة : [يأتى المسيح ويخلص الشعوب والأمم] ، وفى كمال هذه المدة أتى السيد المسيح ، فيقال : أما قول عزرا الكاهن فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتى المسيح ويخلص الشعوب

والأمم ، وهذا مما لا يتنازع فيه المسلمون ، فإنهم يقرون بما أخبر الله به فى كتابه من إتيان المسيح عليه السلام ، وتخليص الله به كل من آمن به من الشعوب والأمم إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فكل من كان مؤمناً بالمسيح ، متبعاً لما أنزل عليه من غير تحريف ولا تبديل ، فإن الله خلصه بالمسيح من شر الدنيا والآخرة ، كما خلص الله تعالى بموسى من أتبعه من بنى إسرائيل ، ومن حرّف وبدل فلم يتبع المسيح ، ومن كذّب محمدا صلى الله عليه وسلم فهو كمن كذّب المسيح بعد أن كان مقراً بموسى عليه السلام.

ولكن هذا النص وأمثاله حجة على اليهود الذين يتأولون ذلك على أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم ، وإنما هو مسيح ينتظر ، وإنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة ، فإن اليهود يتبعونه ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله . وهكذا قال فى النبوة الثانية التى ذكروها عن « أرميا » النبى عليه السلام .

فصل فى أن عيسى ليس بدعاً من الرسل

قالوا : وقال « أرميا » النبى عن ولادته فى ذلك الزمان : [يقوم لداود ابن ، وهو ضوء النور يملك الملك ، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل فى الأرض ، ويخلص من آمن به من اليهود ، ومن بنى إسرائيل وغيرهم ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل ، ويسمى الإله] ، وأما قوله [ابن لداود] لأن مريم كانت من نسل داود ، ولأجل ذلك قال [ويقوم لداود ابن] .

والجواب أن يقال : قد قال فيه : [ويخلص من آمن به اليهود ، ومن بنى اسرائيل] وهو كما فسرنا به التخليص الذى نقلوه عن عذرا الكاهن .

وأما قوله [واسمه الإله] فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين ، وإنما لفظ الإله اسم سمى به كما يسمى موسى إلها لفرعون عندهم فى التوراة ، إذا لوكان هو الله ربُّ العالمين لكان أجل من أن يقال ويسمى الإله ، فإن الله تبارك وتعالى

لا يعرف بمثل هذا ، ولا يقال فيه : إن الله يسمى الإله ولقال : يأتى الله بنفسه فيظهر ، ويقال : يملك الملك ورب العالمين مازال ولايزال مالكا للملك سبحانه.

وأيضاً فإنه قال : [يقوم لداود ابن هو ضوء النور] ومعلوم أن الإبن الذى من نسل داود الذى اسم أمه مريم هو الناسوت فقط ، فإن اللاهوت ليس من نسل بشر ، وقد تبين أن هذا الناسوت الذى هو ابن داود ، ويسمى الإله فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا للإله الخالق .

وأيضاً فإنه قال: وهو ضوء النور لم يجعله النور نفسه ، بل جعله ضوء النور والله تعالى منوِّر كل نور ، فكيف يكون هو ضوء النور ، والله تعالى قد سمى محمداً صلى الله عليه وسلم سراجاً منيرا ، ولم يكن بذلك خالقا ، فكيف إذا سمى ضوء النور؟

وأيضاً فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود ، وابن داود مخلوق ، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق ، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشرى لبيَّن « أرميا » وغيره من الأنبياء ذلك بيانا قاطعاً للعذر ، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التى هى إما صريحة أو ظاهرة فى نقيض ذلك ، أو مجملة لاتدل على ذلك فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نبى من الأنبياء أمر معتاد ممكن ، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة .

وأما الإخبار بمجيء الرب نفسه وحلوله ، أو اتحاده بناسوت بشرى فهو :

إما ممتنع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بنى آدم ، ويقولون : يعلم بصريح العقل أن هذا ممتنع .

وإما ممكن كما يقوله بعض الناس ، وحينئذ فإمكانه خفى على أكثر العقلاء وهو أمر غير معتاد ، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسول ونبى ، لاسيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية ، بل لم يظهر على يديه إلا ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه ، والله تعالى لما كان يكلم موسى ولم يكن موسى يراه ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره ، ومع هذا

فقد أظهر من الآيات على ذلك ، وعلى نبوة موسى ما لم يظهر مثله ولا قريب منه على يد المسيح .

فلو كان هو بذاته متحدا بناسوت بشرى لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخبارا صريحا بينا لا يحتمل التأويلات ، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات ما لم يظهر على يد رسول ولا نبي ، فكيف والأنبياء لم ينطلقوا فى ذلك بلفظ صريح ، بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك ، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح .

فصل فى أن ما جاء فى الإنجيل نظير ما فى التوراة

قالوا : وقال « أشعيا » النبي : [قل لصهيون هنا تفرح وتتهلل ، فإن الله يأتى ويخلص الشعوب ، ويخلص من آمن به ويشبهه ويخلص مدينة بيت المقدس ، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المبددين ويجعلهم أمة واحدة ، ويبصّرون جميع أهل الأرض من خلاص الله ، لأنه يمشى معهم وبين يديهم ويجمعهم إله إسرائيل] .

فيقال : هذا يحتاج أولا أن يعلم أن فى هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلا تحريف للفظه ، ولا غلط فى الترجمة ولم يثبت ذلك ، وإذا ثبت ذلك فحينئذ هو نظير ما فى التوراة من قوله : [جاء الرب من طورسيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم أنه ليس فى هذا ما يدل على أن الله حال فى موسى بن عمران ، ولا متحد به ، ولا أنه حال فى جبال فاران ، ولا أنه متحد بشيء من طورسيناء ، ولا ساعير .

وكذلك هذا اللفظ لا يدل على أنه حال فى المسيح ومتحد به ، إذ كلاهما سواء وإذا قيل : المراد بذلك قربه ودنوه كتكليم موسى ، وظهور نوره وهداه وكتابه

ودينه ، ونحو ذلك من الأمور التى وقعت ، قيل : وهكذا فى المسيح عليه السلام.

وقوله : [ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المبددين] ، قد قال فى التوراة مثل هذا فى غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى عليه السلام ، كقوله : وأما قوله عن الأمم المبددين فيجعلهم أمة واحدة ، فهم الذين اتبعوا المسيح ، فإنهم كانوا متفرقين مبددين فجعلهم أمة واحدة .

وأما قوله : ويبصرون جميع أهل الأرض خلاص الله ، لأنه يمشى معهم وبين يديهم ، ويجمعهم إله إسرائيل ، فمثل هذا فى التوراة فى غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى ولا حلوله فيه ، كقوله فى السفر الخامس من التوراة يقول موسى لبنى إسرائيل : [لا تهابوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم سائر بين أيديكم هو محارب عنكم] .

وفى موضع قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفى السفر الرابع من الفصل الثالث عشر : [ربى اصعدن هؤلاء من بينهم بقدرتك ، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين ، وغمامك يقيم عليهم ، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ، وبعمود نار ليلا] .

وفى التوراة أيضاً :

يقول الله لموسى : [إنى آتيك فى غلظ الغمام لكى يسمع القوم مخاطبتى لك] .

ثم قوله :

[اجمع سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم] .

فصل فى معنى حلول الله

قالوا : وقال « زكريا » النبى :

[افرحى يا بيت صهيون ، لأنى آتيك وأحل فيك وأترايا ، قال الله : ويؤمن بالله فى ذلك اليوم الأمم الكثيرة ، ويكونون له شعباً واحداً ، ويحل هو وهم فيك ، وتعرفين أنى أنا الله القوى الساكن فيك ، ويأخذ الله فى ذلك اليوم الملك من يهودا ، ويملك عليهم إلى الأبد] .

فيقال مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم وغيره من الأنبياء أن الله تجلى له ، واستعلن له ، وتريا له ، ونحو هذه العبارات ، ولم يدل ذلك على حلوله فيه .

وكذلك إتيانه ، وهو لم يقل إنى أحل فى المسيح وأتحد به ، وإنما قال عن بيت صهيون : [آتيك وأحل فيك] كما قال مثل ذلك عندهم فى غير هذا ولم يدل على حلوله فى بشر ، وكذلك قوله : [وتعرفين أنى أنا الله القوى الساكن فيك] ، ولم يُرد بهذا اللفظ حلوله فى المسيح ، فإن المسيح لم يسكن بيت المقدس ، وهو قوى بل كان يدخلها وهو مغلوب مقهور حتى أخذ وصلب أو شبهه ، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به فى القلوب اطمأنت وسكنت .

وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عليه السلام بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك .

وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشىء يقتضى اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه ، كما يقوله النصارى ، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

فكتب الأنبياء المتقدمة ، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد صلى الله

عليه وسلم يصدق بعضها بعضاً ، وسائر ماتستدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات فى حق غير المسيح ، فتخصيص المسيح بالإلهية ودون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الإبن والمسيح ، ومثل حلول روح القدس فيه ، ومثل تسميته إلهاً ، ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو فى مكانه .

فهذه الكلمات وما أشبهها موجودة فى حق غير المسيح وعندهم ، ولم يكونوا بذلك آلهة ، ولكن القائلون بالحلول والاتحاد فى حق جميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات .

وهذا المذهب باطل باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، وهو باطل فى نفسه عقلاً ونقلاً ، وإن كان طوائف من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلى المسلمين واليهود والنصارى تقول به ، فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحل فى قلوب العارفين به من أهل الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه ، وما يعبر عنه بالمثل الأعلى ، والمثال العلمى .

وظنوا أن ذلك ذات الرب ، كمن يظن أن نفس اللفظ بالإسم هو المعنى الذى فى القلب ، أو نفس الخط هو نفس اللفظ ، ومن يظن أن ذات المحبوب حلت فى ذات المحب واتحدت به أو نفس المعروف المعلوم حل فى ذات العالم العارف به واتحد به مع العلم اليقينى أن نفس المحبوب المعلوم باين عن ذات المحب روحه وبدنه لم يحل واحد منهما فى ذات المحب .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ ، [سورة الزخرف : ٨٤] . وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣] .

فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ويقال هو فى قلوبهم ، والمراد معرفته ومحبته وعبادته ، وهو المثل العلمى ليس المراد نفس ذاته ، كما يقول

الإنسان لغيره : أنت فى قلبى ، وما زلت فى قلبى وبين عينى ، ويقال :

ساكن فى القلب يعمره   لست أنساه فاذكره

وقال :

إن بيتاً أنت ساكنه   غير محتاج إلى السرُجِ

ومن قول القائل :

ومن عجبى أنى أحن إليهم   وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها   ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

وقال :

مثالك فى عينى وذكرك فى فمى   ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟

والمساجد : هى بيوت الله التى فيها يظهر ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ .

قال أُبى بن كعب : مثل نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم قال : ﴿ نور على نور ﴾ ، ثم قال : ﴿ فى بيوت أَذِنَ الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ ، [سورة النور : ٣٦] . فذكر سبحانه نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم ذكر ذلك فى بيوته كذلك ما ذكر فى الكتب الأولى .

وأما الإتيان والمجىء والتجلى فعندهم فى التوراة يقول الله لموسى : [إنى آتى إليك فى غلظ الغمام لكى يسمع القوم مخاطبتى لك] ثم قوله : [اجمع سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم] .

وفى السفر الرابع لما تكلم مريم وهارون فى موسى : [حينئذ تجلى الله بعمود الغمام قائما على باب الخبأ ونادى ياهارون ويا مريم ، فخرجا كلاهما فقال اسمعا كلامى إنى أنا الله فيما بينكم] .

وفى الفصل الثالث عشر : [إن أصعدت هؤلاء من بينهم بقدرتك فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين ، وغمامك يقيم عليهم ، و بعمود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ، وبعمود نار ليلا] .

وفى السفر الخامس قول موسى لبنى إسرائيل : [لا تهابوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم ، وهو يحارب عنكم] .

وفى موضع آخر قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : يا موسى أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفى المزمور الرابع من الز بور عندهم يقول : [وليفرح المتكلون عليك إلى الأبد ويبتهجون ويحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل فى جميع الصديقين أى معرفته ومحبته فإنهم متفقون على أن ذات الله لم تحل فى الصديقين ، وكذلك فى رسائل يوحنا الإنجيلى : [إذا أحبنا بعضنا بعضاً نعلم أن الله يلبث فينا] ، أى محبته ونظائره كثيرة .

فصل فيما يوافق فيه المسلمون النصارى

قالوا : وقال « عاموص » النبى : [ستشرق الشمس على الأرض ، ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، قالوا : فالشمس هو السيد المسيح ، والضالون الذين اهتدوا به هم النصارى المختلفة ألسنتهم ، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام وضالين عن معرفة الله ، فلما أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السيد المسيح فتركوا عبادة الأصنام واهتدوا باتباعهم السيد المسيح .

فيقال : هذا مما لا ينازع فيه المسلمون وإنما ينازع فى مثل هذا وأمثاله اليهود المكذبون للمسيح عليه السلام ، كما ينازع كفار أهل الكتاب فى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله ، وأن المسيح عليه الصلاة

السلام أشرق نوره على الأرض ا كما أشرق قبله نور موسى عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ﴾ ، [سورة الأحزاب :٤٥،٤٦].

فسماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجا وهاجاً ، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج فإن الوهاج له حرارة تؤذى ، والمنير يهتدى بنوره من غير أذى بوهجه .

وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة الأعراف: ١٥٧] . وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصيرُ الأمور ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

والمسلمون مقرّون بأن كل من كان متبعاً لدين المسيح عليه السلام الذى لم يغير ولم يبدل فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة ومن كفر به من بنى إسرائيل ، فإنه ضال ، بل كافر كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾،[سورة آل عمران:٥٥ـ٥٧]

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصارى إلى الله قال الحواريون : نحن أنصار الله فآمنت طائفة

من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقوله : [ستشرق الشمس على الأرض ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، يناسب قوله فى التوراة : [جاء الرب من طورسينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران] ، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح ، كما أن مجيئه من طورسينا : هو ظهور نوره بموسى ، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله فى القرآن بقوله : ﴿ والتين والزيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين ﴾ ، [سورة التين : ١-٣] . فبلد التين والزيتون هى الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح ، وكان بها أنبياء بنى إسرائيل ، وأسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إليها وظهرت بها نبوته ، وطور سينين المكان الذى كلم الله فيه موسى بن عمران ، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التى بعث الله منه محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن .

فصل فى شهادة الرب

قالوا : وقال فى السفر الثالث من أسفار الملوك : [والآن يارب إله إسرائيل لتحقق كلامك لداود ، لأنه حق أن يكون ، إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض ، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم ، ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً من بيته القدوس ، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض فى شأن خطيئة بنى يعقوب هذا كله] .

فيقال هذا السفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذى تكلم به نبى ، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربية ترجمة مطابقة، ثم بعد ذلك يقال فيه مايقال فى أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم ، وليس فيهاما يدل على اتحاده بالمسيح فإن قوله : [إن

الله سيسكن مع الناس فى الأرض] لايدل على المسيح ، إذ كان المسيح لم يسكن مع الناس فى الأرض ، بل لما أظهر الدعوة لم يبق فى الأرض إلا مدة قليلة ، ولم يكن ساكنا فى موضع معين ، وقبل ذلك لم يظهر عنه شيء من دعوى النبوة فضلا عن الإلهية ، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس فى الأرض، وأيضا فإذا قالوا سكونه هو ظهوره فى المسيح عليه السلام قيل لهم : أما الظهور الممكن المعقول ، كظهور معرفته ومحبته ونوره ، وذكره وعبادته ، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره .

وحينئذ فليس فى هذا اللفظ ما يدل على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيره ، وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عليه السلام ، وليس فى ظهوره فيه أو حلوله معرفته ومحبته ومثاله العلمى ما يوجب اتحاد ذاته به .

وأما قوله : [فيكون الرب عليها شاهداً] ، فيقال أولا شهود الله على عباده لا يستلزم حلوله ، أو اتحاده ببعض مخلوقاته ، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما قال : ﴿ ثمَّ الله شهيد على ما يفعلون ﴾ ، [سورة يونس : ٤٦] .

ولفظ النص : [ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً] ، وهذا كما فى التوراة : إن موسى لما خاطب بنى إسرائيل أشهد عليهم، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان يقول لأمته لما بلَّغ الناس يقول « ألا هل بلغت ؟ فيقولون : نعم ، فيقول اللهم اشهد » .

وحينئذ فليس فى هذا تعرض لكون المسيح هو الله ، وقد يقال أيضاً : ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله ، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع ، وقد غاير بين اللفظين ، فقال : هناك إنه سيسكن الله مع الناس ، فقال : فيكون الرب عليها شاهداً ، والأنبياء يشهدون على أممهم ، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفَّيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ ، [سورة : النحل ٨٩] .

وحينئذ فيكون الرب الشهيد هو المسيح ، الذى هو الناسوت ، وهو الذى جاء من بيت المقدس ، وخرج من موضعه ، ونزل ووطىء على الأرض من أجل خطيئة بنى يعقوب فإنهم لما أخطأوا وبدلوا أرسل الله إليهم المسيح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته ، فمن آمن به كان سعيداً مستحقاً للثواب ، ومن كفر به كان شقياً مستحقاً للعذاب .

فصل فى أن كل ما ذكروه حجة عليهم

قالوا . وقال « ميخا » النبى : [وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفرانا منك يخرج لى رئيس الذى يرعى شعبى إسرائيل ، وهو من قبل أن تكون الدنيا ، لكنه لا يظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة وسلطانه من أقاصى الأرض إلى أقاصيها] .

والجواب : أن عامة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجة عليهم ، لا لهم كما ذكروه عن المسيح عليه السلام فى أمر التثليث ، فإنه حجة عليهم لا لهم ، وهكذا تأملنا عامة ما يحتج به أهل البدع والضلالة من كلام الأنبياء فإنه إذا تدبر حق التدبر وجد حجة عليهم لا لهم ، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدى و بيان ، وهم معصومون لا يتكلمون بباطل .

فمن احتج بكلامهم على باطل فلا بد أن يكون فى كلامهم مايبين به أنهم أرادوا الحق لا الباطل ، وهذا مثل قوله فى هذه النبوة : [منك يخرج لى رئيس] ، فهذا صريح فى أن هذا الذى يخرج هو رئيس لله ليس هو الله ، بل هو رئيس له كسائر الرؤساء الذين لله وهم الرسل والأنبياء المطاعون مثل : داود ، وموسى ، وغيرهما .

ولهذا قال : [الذى يرعى شعبى إسرائيل] ، ولو كان هو ، لكان هو راعى شعب نفسه ، وأما قوله : [وهو من قبل أن تكون الدنيا] ، فهذا مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ميسرة الفجر .

وقد قيل له : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى لفظ : متى كتبت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول أمرى دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان نبياً ، وكتب نبياً وآدم بين الروح والجسد ، وأنه مكتوب عند الله خاتم النبيين وآدم منجدل فى طينته .

ومراده صلى الله عليه وسلم أن الله كتب نبوته ، وأظهرها وذكر أسمه ، ولهذا جعل ذلك فى ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه ، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله ، وشقىٌّ هو أو سعيد بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه .

وكذلك قول القائل فى المسيح عليه السلام وهو من قبل أن تكون الدنيا ، فإنه مكتوب مذكور من قبل أن تكون الدنيا .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » .

وهو قد قال قبل أن تكون الدنيا ، ولم يقل إنه كان قديماً أزلياً مع الله لم يزل كما يقول النصارى : إنه صفة الله الأزلية ، بل وقت ذلك بقوله : « قبل أن تكون الدنيا » ولا يحسن أن يقال فى رب العالمين كان قبل أن تكون الدنيا ، فإنه سبحانه قديم أزلى ، ولا ابتداء لوجوده فلا يوقت بهذا المبدأ ، لاسيما إن أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته ، فإن الدنيا قد لاتدخل فيها السموات والأرض ، بل يجعل من الآخرة وأرواح المؤمنين فى الجنة فى السموات ، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا أو الدار الدنيا .

ولهذا قال : لكنه لايظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة كما يظهر غيره من الأنبياء بعد أن تلده أمه .

والوالدة إنما ولدت الناسوت ، وأما اللاهوت فهو عندهم مولود من الله القديم الأزلى ، وإذا قالوا فهى ولدت اللاهوت مع الناسوت كان هذا معلوم الفساد من وجوه كثيرة ، وإذا قيل : لمَ خصّ عيسى المسيح عليه السلام بالذكر ؟ قيل : كما خص محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر ، لأن أمر المسيح كان أظهر وأعظم ممن قبله من الأنبياء بعد موسى .

وكذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان أظهر وأعظم من جميع الأنبياء قبله ، وإذا عظم الشىء كان ظهوره فى الكتاب أعظم .

وظنَّ بعض النصارى أن المراد بذلك وجود ذات المسيح يضاهى ظن طائفة

من غلاة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم الذين يقولون إن ذات النبي صلى الله عليه وسلم كانت موجودة قبل خلق آدم .

ويقولون : إنه خلق من نور رب العالمين ، ووجد قبل خلق آدم ، وأن الأشياء خلقت منه حتى قد يقولون فى محمد صلى الله عليه وسلم من جنس قول النصارى فى المسيح حتى قد يجعلون مدد العالم منه ، ويرون فى ذلك أحاديث وكلها كذب مع أن هؤلاء لا يقولون إن المتقدم هو اللاهوت ، بل يدعون تقدم حقيقته وذاته ، ويشيرون إلى شيء لا حقيقة له ، كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له .

ومن هؤلاء الغلاة من يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال إنى كلىٌّ بشر فقد كفر . ومن قال لست ببشر فقد كفر » ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٤٠] . فيجعلون فيه شيئاً من اللاهوت مضاهاة للنصارى .

وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى فى الصحيحين ، أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله » .

وقد قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنتَ إلاَّ بشراً رسولاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩٣] . وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون : إن الرب يحل فى الصالحين ، ويتكلم على ألسنتهم ، وأن الناطق فى أحدهم هو الله لا نفسه ، وقول هؤلاء من جنس قول النصارى فى المسيح ، ويقول أحدهم إن الموحِد هو الموحَد ، وينشدون :

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته   عارية أبطلها الواحد
توحيدُه إياه توحيدَه   ونعت من ينعته لاحد

وهو من جنس قول الذين يجعلون روح الإنسان قديمة أزلية ، و يقولون : هى صفة لله فيجعلون نصف الإنسان لاهوتاً ، ونصفه ناسوتاً لكن اللاهوت عندهم هو روحه لا لاهوت واحد كما يقوله النصارى وعلى قول هؤلاء مع قول النصارى يكون فى المسيح ، وأمثاله ممن ادعى فيه اتحاد اللاهوت به لاهوتان : روحه لاهوت ، والكلمة لاهوت ثان . ومن جنس هؤلاء من ينشد ما يحكى عن الحلاج أنه أنشد :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب للحاجب

ولو قدر أن نفسه هى التى كانت قبل أن تكون الدنيا ، فهذا لا يدل على أنه الله أو صفة الله ، بل إذا قال من يدعى أن روحه كانت موجودة حينئذ المراد روحه كان هذا أقرب من قول النصارى ، وفى الجملة ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بمنزلة ماعند أهل الكتاب . عن سليمان أنه قال : [كنت قبل أن تكون الدنيا] ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لم يكن اللاهوت متحداً به ، فعلم أن مثل هذا الكلام لايوجب اتحاد اللاهوت به ، بل المسلمون يعدلون فى القول ، و يفسرون كلام الله فى كتبه بعضه ببعض ، و يجعلون كلامه يصدق بعضه بعضاً لا يناقض بعضه بعضاً .

وأما أهل الضلال من النصارى وغيرهم فيفضلون المفضول على من هو أفضل منه ، و ينقصون الفاضل حقه ، و يغلون فى المفضول و يبخسون الأنبياء حقوقهم مثل تنقصهم لسليمان ، فإن كثيراً من اليهود والنصارى يطعنون فيه .

منهم من يقول : كان ساحراً ، وأنه سحر الجن بسحره .

ومنهم من يقول: سقط عن درجة النبوة فيجعلونه حكيما لا نبيا ، ولهذا ذكر الله فى القرآن تبرئة سليمان عن ذلك . وذلك أن سليمان سأل الله ملكا لاينبغى

لأحد من بعده ، فسخّر لسليمان الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، فسخر له الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، ولما طلب من الملأ أن يأتوه بعرش « بلقيس » ملكة اليمن ، وكان هو بالشام . ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عِفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوىٌّ أمين * قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طَرْفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلُوَنى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ ، [سورة النمل : ٣٨ ــ ٤٠] .

فلما مات عمدت الشياطين إلى أنواع من الشرك فكتبوها ووضعوها تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يسخر الجن بهذا ، فصار هذا فتنة لمن صدق بذلك وصاروا طائفتين طائفة علمت أن هذا من الشرك والسحر ، وأنه لا يجوز فطعنت فى سليمان كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب اليهود والنصارى .

وطائفة قالت : سليمان نبى ، وإذا كان قد سخر الجن بهذا دل على أن هذ جائز ، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال التى فيها الشرك والتعزيم والإقسام بالشرك والشياطين ما تحبه الشياطين وتختاره ويساعدونهم لأجل ذلك على بعض مطالب الإنس إما إخبارا بأمور غائبة يخلطون فيها كذبا كثيرا ، وإما تصرف فى بعض الناس ، كما يقتل الرجل أو يمرض بالسحر أو تسرق الشياطين له بعض الأموال ونحو ذلك مما فيه إعانة الشياطين للإنس على أمور تريدها الإنس لأجل مطاوعة الإنس وموافقتهم للشياطين على ما تريده الشياطين من الكفر والفسوق والعصيان .

وكثير منهم يضيف ذلك إلى سليمان وإلى « آصف بن برخيا » ويصورون خاتم سليمان ، وقد يأخذون الرجل الذى صار من إخوانهم إلى مواضع فيرونه

شخصاً ، و يقولون : هذا سليمان بن داود ، كما قد جرى مثل ذلك لمن نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترن بهم الشياطين ، وكان لهم خوارق شيطانية من جنس خوارق السحرة والكهان .

فنزه الله تعالى سليمان من كذب هؤلاء وهؤلاء الذين جعلوه يسخّر الشياطين بنوع من الشرك والسحر ، هؤلاء جرّحوه ، وهؤلاء زعموا أنهم يتبعونه ، فقال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تَتْلُوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢ ، ١٠٣] .

ومثل هذا كثير يحكى عن بعض الأنبياء ، أو بعض أهل العلم والدين ، من أمور ليست من شرع الله فيصدق بها بعض الناس ، وتصير فتنة لطائفتين مصدقتين بها :

طائفة تقدح فى ذلك النبي والرجل الصالح بما هو منه برىء .

وطائفة تقول إنها تتبعه فيم يقول ، وهذا موجود فى كثير مما يحكيه أهل الكتاب عن الأنبياء ، فإن اليهود يذكر عنهم ما يقدح من نبوتهم .

والنصارى تجعل ذلك قدوة لهم فيما يبتدعونه وهذا مبسوط فى موضع آخر ، فالمقصود هنا أن الكلام الذى وُصف به المسيح إما وصفه به الأنبياء قبله ، أو أخبر به عن نفسه ، موجود مثله فى حق غيره ، ولم يكن أحدهم بذلك لاهوتا وناسوتا ، ولا اتحد اللاهوت بالناسوت ، ولا استحق أحدهم بذلك أن يُعْبَدَ

ويصلى له ويسجد ويدعا كما يدعا الله ، ويضاف إليه ما يضاف إلى الله من الخلق والبعث والثواب والعقاب ، وليس للمسيح صلوات الله عليه آية خارقة إلا ولغيره مثلها وأعظم منها ، ولا قيل فيه كلمة ، إلا قيل فى غيره مثلها ، وأعظم منها إلا ما خصه فيه القرآن .

فصل فى الموهم التشبيه من آيات الكتب النبوية

قالوا : وقال « حيقوق » النبى : [إن الله فى الأرض يترآى ، ويختلط مع الناس ويمشى معهم] .

وقال « أرميا » النبى : [الله بعد هذا فى الأرض يظهر وينقلب مع البشر، فيقول : أنا الله رب الأرباب] .

والجواب : أن هذا يحتاج إلى تثبيت نبوة هذين ، وإلى ثبوت النقل عنهما ، وثبوت الترجمة الصحيحة المطابقة ، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره ، ففى التوراة ما هو من هذا الجنس ، ولم يدل ذلك باتفاق المسلمين واليهود والنصارى على أن الله حلّ فى موسى ، ولا فى غيره من أنبياء بنى إسرائيل ، بل قوله يترآى هو بمنزلة يتجلى ويظهر ، وقد ذكر فى التوراة أنه تجلى وترآى لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلت بأحد منهم ، وما فى القلوب من المثال العلمى وبمعرفته ومحبته وذكره يطلق عليه ما يطلق على المعروف بنفسه ، لعلم الناس أن المراد به المثال العلمى .

وما فى القلوب من معرفته المعروف ومحبته ليس المراد به نفس المعروف المحبوب ، فإذا قال القائل : أنت والله فى قلبى أو فى سويداء قلبى ، أو قال له : والله مازلت فى قلبى ، ومازلت فى عينى ، ونحو ذلك علم جميع الناس أنه لم يرد ذاته ، فإذا رأوا من يذكر عالماً مشهوراً أو شيخاً مشهوراً ، فيذكر علمه وعمله ،

ويحيى ذلك بين الناس ، قالوا : قد صار فلان ، يعني المعروف المذكور عندنا وبين أظهرنا لعلم المخاطبين بالمراد .

ويقول أحدهم لمن مات والده : أنا والدك أي قائم مقامه ، ويقولون للولد القائم مقام أبيه : من خلّف مثلك ما مات . وإذا رأوا عكرمة مولى ابن عباس الذي معه علمه يقولون : جاء ابن عباس ، وابن عباس بين الناس ، لأن مولاه نائب عنه ، وقام مقامه وإذا بعث الملك نائباً قائماً مقامه يقولون : جاء الملك الفلاني لأن هذا النائب قائم مقامه مظهر لأمره ونهيه وأحواله .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله : «عبدي مرضت فلم تعدني، فيقول العبد: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتني عنده . عبدي ، جعت فلم تطعمني، فيقول : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي . عبدي ، عطشت فلم تسقني ، فيقول : رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي استسقاك فلم تسقه ، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

فجعل جوع عبده جوعه ، ومرضه مرضه ، لأن العبد موافق لله فيما يحبه ويرضاه ويأمر به وينهى عنه ، وقد عرف أن الرب نفسه لايجوع ولايمرض .

ومعلوم أن وصفه بالجوع والمرض أبعد من وصفه بالمشي بين الناس والاختلاط بهم ، ولهذا نظائر كثيرة موجودة في كلام الأنبياء وغير الأنبياء من الخاصة والعامة ، ولا يفهم عاقل من ذلك أن ذات المذكور اتحدت بالآخر ، أو حلت فيه إلا من هو جاهل كالنصارى .

والناس يرون الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك في الماء الصافي ، وفي المرآة المجلوة ، ونحو ذلك .

ويقول أحدهم : رأيت وجه فلانا في هذه المرآة ، ورأيت الشمس والقمر

فى المرآة أو فى الماء ، مع علم كل عاقل أن نفس الشمس والقمر وغيرهما لم تحلا لا فى المرآة ولا فى الماء ، ولـكن هذه رؤية مقيدة رآها بواسطة المثال الذى تمثل فى المرآة أو الماء ، سواء كان ذلك شعاعاً منعكساً أو غير ذلك ، ومن هذا الباب قول القائل :

إذا ظهر الغدير على صفاء وجُنِّب أن يحركه النسيم
ترى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

فقد أخبر أن الله يرى فى قلوب العارفين ، كما ترى الشمس والنجوم فى الماء الصافى بل يتصور لأحدهم صورة من يعرفه بحمرة أو خضرة أو سواد ، فيقول : والله هذا هو فلان بعينه مع علمه ، وعلم كل من سمعه أنه مثاله المطابق لصورته لا عينه ، وذلك لمماثلة تلك الصورة لصورته يريد أن هذا تمثيل مطابق له لا يخالف .

ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » لم يرد أنه رأى جسدى الذى فى القبر ، وروحى التى فى الجنة حالة فى ذاته ، فإن هذا ممتنع لوجوه كثيرة ، فلهذا قال : « فإن الشيطان لا يتمثّل فى صورتى » .

ولما دخل جماعة من الصحابة على المقوقس ملك النصارى بمصر ، واستخبرهم عن دينهم فأخبروه بذلك ، فإذا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا فاستخرج منه خرقة حرير سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل طوال أكثر الناس شعراً ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قالوا : قلنا : لا ، فقال : هذا آدم .

ثم أعاد وفتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذ رجل ضخم الرأس عظيم شعر كشعر القبط أحمر العين ، فقال : أتعرفون هذا ؟ فقلنا : لا ، فقال : هذا نوح .

ثم أعاد وفتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل أبيض الرأس واللحية ، كأنه يتبسم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، فقال هذا إبراهيم .

ثم أعاده وفتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء فيهاصورة بيضاء ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : هذا والله محمد رسول الله .

قال : والله يعلم أنه قام ثم قعد ثم قال : الله بدينكم إنه نبيكم ! قلنا : الله بديننا إنه نبينا كأنما ننظر إليه .

ثم قال : أما إنه كان آخر الأبواب ، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم .

ثم أعاد وفتح باباً باباً وهو يقول : هذا موسى ، هذا هارون ، هذا داود ، هذا سليمان ، هذا عيسى

وهذا كله لظهور المراد ومعرفة الناس بمقصود المتكلم ، كما يقال لمن كتب اسمه في كتاب : هذا فلان .

ومعلوم أن الموجود في الكتاب اسمه المكتوب ، لا ذاته الموجودة في الخارج ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزُّبُر ﴾ ، [سورة القمر: ٥٢] .

وإنما في الزبر ذكر أعمالهم وكتابة ذلك ، ويقال في كتابة الوثائق : هذا ما أصدق فلان ، وهذا ما يقاضي عليه فلان وفلان ، ويقال : هذا ذكر ما أصدق فلان أو يقاضي عليه فلان وفلان فيشار إلى الموجود تارة ، وإلى ذكره تارة .

ومعلوم أن الموجود في الكتاب ذكره لا عينه ، بل ذلك وجود الخط في الأذهان المطابق لذكره باللفظ .

والشيء له وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان ، ووجود عيني وعلمي ورسمي ولفظي ، وفي كل من الأربعة يذكر ، ويشار إليه مع القرائن والضمائر التي تبين تارة أن المشار إليه هو الخط المطابق للفظ ، وتارة تكون الإشارة إلى اللفظ المطابق للمعنى .

ومعلوم أن المعنى الذى فى القلب أقرب إلى الموجود فى الخارج من اللفظ والخط ، فإذا أشير إلى ما فى قلب العارف بعين المحب له الذاكر له ، فإنه المعروف المحبوب ، كان أقرب لاسيما وقد يغلب الذكر والمعرفة والمحبة على القلب حتى يغيب بموجوده عن وجوده ، و بمعروفه عن معروفه ، و بمذكوره عن ذكره ، حتى يقول أحدهم فى هذه الحال : سبحانى ، أو ما فى هذه الجبة إلا الله .

ومعلوم أن ذات الله تبارك وتعالى ليست الذى فى قلبه ، بل فى قلبه مثاله العلمى ومعرفته ومحبته ، فغاب بذلك عن نفسه ، هذا وإن كان يقوله الغالط ، فيقول من ليس بغالط : الله فى قلب فلان ، وفلان ما عنده إلا الله ، ومن أراد الله فليذهب إلى فلان ، وليس مرادهم أن ذات الله فى قلبه ، بل مثاله العلمى ومعرفته وذكره ومحبته ، وأنه لا يعبد إلا الله ، ولا يرجو إلا إياه ولا يخاف إلا إياه ، ولا يعمل إلا بالله ، ولا يأمر إلا بطاعته فيغنى بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه .

فما قيل فى المسيح عليه السلام وأمثاله من هذا فهو حق لكن لا اختصاص للمسيح بهذا .

وإذا كان مثل هذا الكلام كثيراً موجوداً فى كلام الأنبياء وغيرهم ، بل هو المعروف فى كلامهم ولا يوجد قط عن أحد من الأنبياء أنه جعل ذات الله فى قلب أحد من البشر علم أن النصارى تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام ، وتمسكوا بالمتشابه كأمثالهم من الضلال ، فاشتبه عليهم المعلوم بالقلوب المذكور بالألسن بالموجود فى نفسه ، فظنوا أن نفس المثال العلمى هو الوجود العينى ، كما يظن ذلك كثير من الغالطين ، وهؤلاء يقولون بالحلول تارة ، وبالاتحاد أخرى ، ولا يفرقون بين حلول الإيمان والمعرفة والمثال العلمى فى القلب وبين حلول الذات المعلومة المحبوبة .

ولهذا يعتقد كثير من هؤلاء أنهم يكلمون الله ويكلمهم ، ويقول أحدهم :

أوقفنى ، وقال لى ، وقلت له . وتكون مخاطبته ومناجاته مع هذا المثال العلمى بحسب ما عندهم من الاعتقاد فى الله تعالى ، وكثير منهم يتمثل له الشيطان ويقول : أنا ربك فيخاطبه بظنه ربه ، وإنما هو الشيطان .

ومنهم : من يرى عرشاً عليه نور ، أو يرى ما يظنه الملائكة وهم شياطين ، وذلك شيطان .

وكثير من هؤلاء يظن أنه أفضل من الأنبياء ، وأنه يدخل إلى الله بلا إذن خلاف الأنبياء ويكون ذلك الإله الذى يعتقده هو الشيطان ، والذين لا يتمثل لهم الشيطان يخاطب أحدهم من فى قلبه فتخاطبه تلك الصورة العلمية ويقدر أنها تخاطبه ، ويظن ذلك مخاطبة الحق له .

وهذا كالرجل يذكر بعض أصحابه فيمثله فى قلبه ويخاطبه مخاطبة من يعاتبه أو يعتذر إليه ، ويقدر خطاب تلك الصورة ، ويقول قلت لك : كذا ، وقلت لى : كذا .

ونفس الشخص لا يكلمه ولا يسمع كلامه ، وإنما هو المثال كما قد يصور صورة الإنسان يخاطبها الإنسان ويقدر ذلك مخاطبة لصاحب الصورة والنصارى ادخل فى هذا من غيرهم ، فإنهم يخاطبون الصور الممثلة فى الكنائس كصورة مريم والمسيح والقديسين ، ويقولون : إنما نقصد خطاب أصحاب تلك الصورة نستشفع بهم .

وهذا مما حرمه الله على ألسن جميع النبيين ولم يشرع لأحد أن يدعو الملائكة ولا الأنبياء والصالحين الأموات ، فكيف بالصور الممثلة لهم كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن كثيراً ما يوجد فى كلام الناس الأنبياء وغيرهم من ذكر ظهور الله عز وجل ، والمراد به ظهوره فى قلوب عباده بالمعرفة والمحبة والذكر .

ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار يقول من يقول : إن الاسم

هو المسمى أى أن المراد المقصود من الاسم هو المسمى لا أن نفس اللفظ هو المسمى . فإن هذا لا يقوله عاقل وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له .

كما قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى﴾ [سورة الأعلى: ١، ٢] وقال : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الواقعة : ٩٦] . وقال : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ ، [سورة الرحمن : ٧٨] .

وجاء فى حديث : «لا تقوم القيامة حتى لا يعبد الله اسم » أى لا يعبد الله باسم من أسمائه ، فإنه إذا قيل : دعوت الله وعبدته ، فإنما فى اللفظ الاسم والمقصود هو المسمى .

وهذا الذى ذكرناه من تفسير ظهور اللاهوت فى المسيح وغيره بأن المراد ظهور ما فى القلوب من توحيد الله ومعرفته ومحبته وذكره ونوره وهداه وروحه ، هو مما يفسر به ذلك كثير من علماء النصارى ، فإنهم يفسرون اتحاد اللاهوت بالناسوت بظهور اللاهوت فيه كظهور نقش الخاتم فى الشمع والطين .

ومعلوم أن الحال فى الشمع والطين هو مثال نقش الخاتم لا أن فى الشمع والطين شيئاً من الخاتم ، بل ظهر فيه نقش الخاتم .

وكذلك يظهر نور الله وروحه فى الأنبياء والصالحين ، وهذا المعنى لا يختص به المسيح عليه السلام ، بل يشترك فيه وسائر الرسل ، بل وكل مؤمن له من هذا نصيب بحسب إيمانه .

فصل فى معنى « عمانويل »

قالوا : وقال « أشعيا » النبى : [ها هى العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعى اسمه عمانويل] .

وعمانويل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربى « إلهنا معنا » فقد شهد النبى أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت كلاهما .

فيقال : ليس فى هذا الكلام أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت ، وأنها ولدت خالق السموات والأرض ، بل هذا الكلام يدل على أن المولود ليس هو خالق السموات والأرض ، فإنه قال : تلد ابناً .

وهذا نكرة فى الإثبات كما يقال فى سائر النساء : إن فلانة ولدت ابناً ، وهذا دليل على أنه ابن من البنين ليس هو خالق السموات والأرضين . ثم قال : ويدعى اسمه « عمانويل » فدل بذلك على أن هذا اسم يوضع له ، ويسمى به كما يسمى الناس أبناءهم بأسماء الأعلام ، أو الصفات التى يسمونهم بها .

ومن تلك الأسماء ما يكون مرتجلاً ارتجلوه .

ومنها ما يكون جملة يحكونها ، ولهذا كثير من أهل الكتاب يسمى ابنه عمانويل ، ثم منهم من يقول العذراء المراد بها غير مريم ، ويذكرون فى ذلك قصة جرت .

ومنهم من يقول : بل المراد بها مريم ، وعلى هذا التقدير فيكون المراد أحد معنيين :

إما أنه يريد أن إلهنا معنا بالنصر والإعانة ، فإن بنى إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم، فلما بعث المسيح عليه السلام بالحق كان الله مع من اتبع المسيح والمسيح نفسه لم يبق معهم ، بل رفع إلى السماء ولكن الله كان مع من اتبعه بالنصر والإعانة .

كما قال تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وجاعلُ الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] . وهذا أظهر .

وإما أن يكون يسمى المسيح إلها ، كما يقولون : إنه يسمى موسى إله فرعون أى هو الآمر الناهى له المسلط عليه ، وقد حرّف بعضهم معنى هذه الكلمة ،

فقال : معناها الله معنا ، فقال من رد عليهم علمائهم يقال لهم : أهذا هو القائل أنا الرب ولا إله غيرى وأنا أميت وأنا أحيى ، أم هو القائل لله : إنك أنت الإله الحق وحدك الذى أرسلت يسوع المسيح؟ وإذا كان الأول باطلا والثانى هو الذى شهد به الإنجيل وجب تصديق الإنجيل وتكذيب من كتب فى الإنجيل أن «عمانو يل» تأويله « الله معنا » بل تأويل عمانويل « معنا إله » وليس المسيح مخصوصاً بهذا الاسم ، بل عمانو يل اسم يُسَمَّى به النصارى واليهود من قبل النصارى .

وهذا موجود فى عصرنا هذا فى أهل الكتاب من سماه أبوه عمانو يل بمعنى « شريف القدر » ، قال : وكذلك السريان أكثرهم يسمون أولادهم عمانو يل ، قلت : ومعلوم أن الله مع المتقين والمحسنين والمقسطين بالهداية والنصر والإعانة ، ويقال للرجل فى الدعاء : الله معك فإذا سمى الرجل بقوله : «الله معك» كان هذا تبركا بمعنى هذا الاسم ، وإذا قيل إن المسيح سمى الله معنا ، أو إلهنا معنا ونحو ذلك كان ذلك دليلا على أن الله مع من اتبع المسيح وآمن به فيكون الله هاديه وناصره ومعينه .

فصل فى التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم

وقالوا : وقال أشعيا أيضاً : [إن غلاما ولد لنا ، وإنا أعطيناه الذى رياسته على عاتقيه و بين منكبيه و يدعى اسمه ملكا عظيم المشية مسيرا عجيبا إلهاقويا مسلطا رئيس السلامة فى كل الدهور ، وسلطانه كامل ليس له فناء] ، فيقال : ليس فى هذه البشارة دلالة بينة أن المراد به المسيح عليه السلام ، ولو كان المراد به المسيح لم يدل على مطلوبهم ، بل قد يقال المراد بها محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الذى رياسته على عاتقيه و بين منكبيه من جهتين :

من جهة أن خاتم النبوة على بعض كتفيه وهو علامة من أعلام النبوة الذى أخبرت به الأنبياء وعلامة ختمهم .

ومن جهة أنه بعث بالسيف الذى يتقلد به على عاتقه ويرفعه . إذا ضرب به

على عاتقه ، و يدل على ذلك قوله : [مسلط رئيس قوى السلامة] ، وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإن دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن استيلاء عدوه عليه .

والمسيح عليه السلام لم يسلط على أعدائه ، كما سلط محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان أعداؤه بحيث يقدرون على صلبه ، وعند النصارى قد صلبوه ، وعند المسلمين ألقى الله شبهه على غيره ، فصلب ذلك المشبه ، فبهذه الطريق دفع الله الصلب عنه لا بقهر أعدائه وإهلاكهم وذلهم له ، كما نصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، على أعدائه ، وقال : [فى كل الدهور سلطانه كامل ليس له فناء] وهذا صفة خاتم الرسل الذى لا يأتى بعده نبى ينسخ شرعه . وسلطانه بالحجة واليد كامل لا يحتاج فيه إلى الاستعانة بشرع آخر ، وشرعه ثابت باق إلى آخر الدهر .

فصل فى أن روح القدس هو روح الله

قالوا : وقال «أشعيا» : [أيضاً يخرج عصاه من بيت سبى وينبث اور منها ، ويحل فيه روح القدس روح الله ، روح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة ، روح العلم وخوف الله .

وفى تلك الأيام يكون أصل يسبى آية للأمم ، وبه يؤمنون وعليه يتوكلون ، ويكون لهم النتاج والكرامة إلى دهر الداهرين]

والجواب : إن هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النبى ، وصحة الترجمة له باللسان العربى هو حجة على النصارى لا لهم ، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن من أن المسيح عليه السلام أيد بروح القدس ، فإنه قال : [ويحل فيه روح القدس ، وروح الله ، روح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة ، روح العلم وخوف الله] ، ولم يقل تحل فيه حياة الله فضلا عن أن يقول حل فيه الله أو اتحد به ، ولكن جعل روح القدس

هى روح الله ، وهى روح الحكمة والفهم والعلم ، وهى روح الحيل والقوة .

كما أن عندهم فى التوراة أن الذين كانوا يعملون فى قبة الزمان حلت فيهم روح الحكمة روح الفهم ، وروح العلم فهى ما يحصل به الهدى والنصر ، كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوبَ أولى الأيدى والأبصار ﴾ ، [سورة ص : ٤٥] . فقال : هى روح الله ، وهذا كقوله تعالى : ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروح منه﴾.[سورة المجادلة : ٢٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى ﴿ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره ﴾ ، [سورة النحل : ٢] فما أنزله يسمى هدى الله ، وروح الله ، ووحى الله ، ونور الله ، ونحو ذلك .

وقال تعالى لما ذكر أنبياءه من ذرية إبراهيم فقال : ﴿ ومن ذريته داود وسليمانَ وأيوبَ ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصَّالحين * وإسماعيل واليسعَ ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ ــ ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منِّى هُدًى فمن اتَّبع هداى فــلا يضل ولا يشقَى ﴾ [سورة طه : ٢] . وسماه نور الله كقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضىء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

فهذا هدى الله ، ونور الله هو روح الله كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فصل فى أن المسيح إنما هو رب الملائكة

قالوا : وقال « أشعيا » أيضاً : [من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من البشر] .

فيقال : مثل هذا الكلام لابد أن يكون قبله كلام وبعده كلام ، وهو منقول من لغة إلى لغة ونحن نعلم قطعاً أنه لم يرد أن رب العالمين يولد من البشر ، ولو أراد ذلك لم يقل رب الملائكة فقط ، فإن الله رب كل شىء لكن قد يريد أنه يولد من البشر من يكون سيد الملائكة تخدمه وتكرمه ، كما سجدت الملائكة لأبى البشر آدم .

والنصارى يسلمون أن اللاهوت ما هو متولد من البشر ، وإنما المتولد من البشر هو الناسوت وليس هو رب العالمين بالاتفاق . فعلم أنه لا حجة لهم فى ظاهر اللفظ إن قدر سلامته من التغيير .

ونظير هذا ما عندهم فى إنجيل متى : [أن ابن الإنسان يرسل ملائكته ، ويجمعون كل الملوك ربا على الأمم فيلقونهم فى أتون النار] . قال بعض علماء أهل الكتاب : لم يرد بذلك أن المسيح هو رب الأرباب ، ولا أنه خالق الملائكة ، بل رب الملائكة ، أوصى الملائكة بحفظ المسيح بشهادة النبى القائل : [إن الله يوصى ملائكته بك ليحفظوك] .

ثم شهادة « لوقا » أن الله أرسل له ملكا من السماء ليقويه قال : « وإذا

شهد الإنجيل باتفاق الأنبياء والرسل بأن الله يوصى ملائكته بالمسيح فيحفظونه على أن الملائكة تطيعه المسيح بالأمر ، وهو والملائكة فى خدمة رب العالمين .

وقال المسيح لتلاميذه : [من قبلكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فقد قبل من أرسلنى] .

وقال المسيح : [من أنكرنى قدام الناس أنكرته قدام ملائكة الله] .

وقال للذى ضرب عبد رئيس الكهنة : [أغمد سيفك ، ولا تظن أن لاأستطيع أن أدعو الله الأب فينقم لى أكثر من اثنى عشر جوقا من الملائكة] .

فصل فى شهادة علمائهم على التحريف

قالوا : ومثل هذا القول فى كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل شىء كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم المفرقين فى سبعة أقاليم العالم المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ونص واحد ، على ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم وردوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى ، سلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها إلى يومنا هذا .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أن القول فى سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدم ، وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله ، و بينوا ما وقع فى ذلك من تحريفهم لمعانى الكتب التى عندهم ، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله ما يتبين به بطلان قولهم ، وأنهم من تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه ، ولهذا أنزل الله فيهم : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

وهذا كقول المسيح عليه السلام لما سئل عن علم الساعة فقال : [لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الإبن إلا الأب فقط] ، فنفى عن نفسه علم الساعة ، وهذا يدل على شيئين : على أن اسم الإبن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت ، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة ، ويدل على أن الإبن لم يكن يعلم ما يعلمه الله ، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد ، فإنه لو كان الاتحاد حقا كما يزعمون لكان الإبن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه ، فإنه هو الله عندهم والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يُحْيِي ويميت .

وقال المسيح لتلاميذه: [آمنوا بالله وآمنوا بى] ، وقال أيضاً : [من يؤمن بى فليس يؤمن بى فقط ، بل وبالذى أرسلنى] ، وهم يذكرون أن المسيح عليه السلام استصرخ لله قائلا : [إلهى إلهى انظر لماذا تركتنى وتباعدت عن خلاصى] .

الوجه الثانى قولهم إن هذه الكتب التى بأيديهم من التوراة والإنجيل ، وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها قول لم يقيموا على صحته دليلا ، بل ادعوا ذلك دعوى مجردة .

ومثل هذا النقل إن لم يثبت بالتواتر لم يحتج به فى المسائل العلمية ، لا سيما إذ قيل فى الوجه الثالث : إن هذا كذب ظاهر ، فإن كثيراً من الألسنة ليس عند أهله إنجيل قديم ، ومن ذلك لسان العرب ، فإن العرب النصارى كثيرون قبل الإسلام ، ولا تعرف توراة ولا إنجيل ولا نبوات عربية ، إلا ما عُرِّب من النسخ العبرية والرومية والسريانية ، ونحن نطالبهم بهذه الكتب التى هى بالعربية التى فى زمن الحواريين أين هى ، ومن رآها ؟ ولو قدر أنها كانت بالعربية ، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدى الناس هى مما عُرِّب مما بأيديهم ، وحينئذ

فلا تعرف صحتها إن لم تعرف صحة الترجمة ، ويثبت نقل تلك عن المسيح عليه السلام ، وهكذا القول فى سائر الألسن .

الوجه الرابع : أن التوراة والنبوات التى نقلت من نسخ اليهود والأناجيل هى أربعة كتبت بعد المسيح عليه السلام ، واثنان ممن كتبها لم يريا المسيح ، وهما لوقا ، ومرقس ، واثنان رأياه وهما يوحنا ، ومتى .

والنسخ إنما كثرت عن الأربعة وما ينقله الأربعة لايجب أن يكون متواتراً معلوماً ، وإذا كثرت الألسن بها فمن بعد الأربعة ، لا إن الذين سمعوها من المسيح عليه السلام تكلموا باثنين وسبعين لساناً ، فإن هذا لم يقله أحد ، ولا يقوله عاقل ، إذ الحواريون كانوا اثنى عشر لم يكونوا اثنين وسبعين ، فإذا قيل إنه نقلها اثنان وسبعون فهم نقلوها عمن نقلها إليهم من الحواريين ، وهم إنما يسندون نقلها إلى الأربعة .

الوجه الخامس : أن الحواريين ليسوا معصومين ، بل يجوز على أحدهم الغلط فى بعض ما ينقله ، وما ينقل من خوارقهم للعادات ، فمن الناس من يكذبه ، ومنهم من يصدقه ولا دلالة فيه على عصمتهم ، إلا أن يثبت أنهم ادعوا النبوة ، وأقاموا المعجزات الدالة على نبوتهم ، ولم يكن الأمر كذلك ، وإلا فالصالحون إذا كانت لهم كرامات لم تدل كراماتهم على أنهم معصومون كالأنبياء ، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم .

والحواريون عندهم ليسوا بأنبياء وإن سموهم رسلاً ، فهم رسل المسيح لارسل الله تبارك وتعالى .

الوجه السادس : أن فى هذه الكتب التى بأيديهم ما يناقض قولهم من الأقوال الصريحة الكثيرة ماهو أكثر وأصرح مما احتجوا به على قولهم .

والواجب حينئذ التمسك بالصريح المحكم ، ورد المتشابه ، لايجوز التمسك بالمتشابه به ورد المحكم إليه .

الوجه السابع : أنه بتقدير أن يكون فى الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانا ــ سواء كانت منقولة عن الحواريين نقلاً صحيحاً ، أو كان نقل أكثرها أو كثير منها ــ مترجمة من لغة إلى لغة .

فمعلوم أنه بكل لسان عدة نسخ ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد مع كثرة النسخ بها فى مشارق الأرض ومغاربها لم يمكن أحداً أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد كما ادعاه هؤلاء فى الإثنين وسبعين لسانا ، حيث قالوا مثل هذا القول فى كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم ، المتفرقين فى سبعة أقاليم العالم ، المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ونص على ما تسلموه من الحواريين ، وردوهم عن عبادة الأصنام فسلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها إلى يومنا هذا ، فإن هذا الكلام يتضمن عدة دعاوى ليس فيها ما يمكن قائله أن يكون عالما به فعلم أن هؤلاء تكلموا بهذا الكلام بلا علم ، بل بالجهل والضلال ، كما هو عادتهم ، فإنه يقال لهم : من الذى جمع كل نسخة فى العالم من جميع التوراة والإنجيل والزبور وسائر النبوات الأربعة والعشرين بلسان واحد كالعربى مثلا ، وهل ميز جميع النسخ فلم يجد نسخة تزيد على نسخة ولا تنقص عنها ؟

ومعلوم إن كان هذا ممكنا أمكن أن يقال : جمعها جامع وغير بعض ألفاظها ، فلا يمكنهم دعوى بقائها بلا تغيير ، وإن لم يمكن ذلك لم يمكن أحداً أن يقول : أنا أعلم موافقة كل نسخة من نسخ هذه الكتب لكل نسخة توجد فى سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان ، فضلا عن اثنين وسبعين لسانا ، فضلا عن أن يقال : أنا أعلم أن هذه الألسن كلها تكلمت بها الحواريون ، وهى باقية على لفظهم إلى اليوم .

ومعلوم أن الإنسان إذا أمكنه جمع نسخ كتاب واحد من جميع الفنون

من كتب الطب والحساب والهندسة والنحو والفقه والحديث كان إمكان تغيير بعض ألفاظ تلك النسخ أيسر عليهم من مقابلة ألفاظ كل نسخة بألفاظ تلك النسخ مثلها .

فإن هذا لا يقدر عليه فى العادة ، بل هو متعذر أو متعسر ، ولاسيما المقابلة إن كانت بين اثنين فكل منهما ينقل للآخر لفظ نسخته فيكون مدار المقابلة على خبر واحد لم يقترن بخبره ما يعلم به صدقه ، فقد يغلطان أو يكذبان جميعاً .

و إن كانت بين عدد يحصل بهم العلم احتاجت كل نسخة بكل لسان إلى أن يشهد بلفظها جمع يحصل بهم العلم ؛ وأولئك بأعيانهم يشهدون بلفظ كل نسخة بكل لسان ، وشهدوا بلفظ كل نسخة ، و يشهد لهم من هو مثلهم بلفظ النسخة الأخرى وموافقتها لها ، وهؤلاء أو مثلهم بموافقة النسخة الثانية .

ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد ولا يقدر عليه أحد ، بل لو اجتمع جميع ملوك النصارى على ذلك وعلماء بلادهم على ذلك لم يقدروا عليه ، فإن من النسخ ما هو عند المسلمين ، ومنها ما هو فى بلاد لا حكم لهم عليها ، وأيضاً فقد يكون فى بلادهم من النسخ ما لم يظهرها أصحابها .

فكل من شهد من النصارى وغيرهم بأن كل نسخة فى العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهد زور شهد بما لا يعلم ، بل شهد بما يعلم أنه كاذب فيه ، وكذلك لو شهد بمثل هذا النسخ أى كتاب كان ، فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب تختلف و يزيد بعضها و ينقص بعضها . والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد فى نقله على نسخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له فى صدورهم .

ولهذا إذا وجد مصحف يخالف حفظ الناس أصلحوه ، وقد يكون فى بعض نسخ المصاحف غلط ، فلا يلتفت إليه مع أن المصاحف التى كتبها الصحابة

قد قيد الناس صورة الخط ورسمه ، وصار ذلك أيضاً منقولا بالتواتر ، فنقلوا بالتواتر لفظ القرآن حفظاً ، ونقلوا رسم المصاحف أيضاً بالتواتر .

ونحن لا ندعى اتفاق جميع نسخ المصاحف كما لا ندعى أن كل من يحفظ القرآن لا يغلط ، بل ألفاظه منقولة بالتواتر حفظاً ورسماً فمن خرج عن ذلك علم الناس أنه غالط لمخالفته النقل المتواتر ، بخلاف هذه الكتب ، فإن النصارى لم يحفظوها كلها فى قلوبهم تلقيا لها عن الحواريين حفظاً منقولا بالتواتر ، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها ، فضلا عن أن يحفظها كلها أهل التواتر ، فضلا عن أن يحفظ كل لسان منها من تواتر بهم ذلك اللسان .

وهذا أمر معلوم لجميع النصارى وغيرهم أنه لم يحفظها كلها بكل لسان من زمن الحواريين عدد التواتر ، بل ولا فى زمن من الأزمان ، بل بعد انتشار النصارى وكثرتهم وتفرقهم فى الأقاليم السبعة لا يكاد يوجد فيهم من يحفظها كلها عن قلبه ، كما يحفظ صبيان مكاتب المسلمين القرآن ، فكيف يحفظها فى كل زمان أهل التواتر ؟ فكيف يحفظ كل لسان من الإثنين وسبعين أهل التواتر ؟

وإذا كان اعتمادهم إنما هو على الكتب ، وهم لا يمكنهم معرفة اتفاق جميع النسخ بلسان واحد فضلا عن جميع الألسنة علم أن دعواهم إنها لم تزل متفقة على نص واحد ولفظ واحد ، وأن جميع نسخها متفقة فى هذا الزمان ، وفيما قبله كلام مجازف يتكلم بلا علم . بل يتكلم بما يعلم أنه باطل .

الوجه الثامن : أن هذا لو قدر إمكانه ، فإنما يكون منقولا لو لم يعلم أنه كذب فكيف مع العلم بأنه كذب ؟ فإنه يوجد فى هذا الزمان نسخ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات مختلفة متناقضة .

والنسخ التى عند النصارى مختلفة ، وهى أيضاً تخالف نسخ اليهود والسامرة

فى مواضع ، وحينئذ فإذا قالت النصارى : نسخنا هى الصحيحة لم يكن هذا أولى من قول اليهود : نسخنا هى الصحيحة .

بل معلوم أن اعتناء اليهود بالتوراة أعظم من اعتناء النصارى ، ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفى إن لم يعلم أن نسخهم توافق النسخ التى عند اليهود حتى السامرة ، وهذا غير معلوم .

وإن قالوا : إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريين لم يلتفت إليه لأنهم معصومون كان هذا مبنياً على دعوى عصمتهم ، وقد عرف فساده ، وإذا قالت النصارى : نحن ننقلها عن الحواريين المعصومين ، قالت اليهود : نحن ننقلها عن موسى المعصوم باتفاق أهل الملل ، أو عن العارف المعصوم باتفاق اليهود والنصارى ، وكثير من المسلمين . فالتوراة باتفاق الخلق مأخوذة عن موسى ابن عمران وهو معصوم ، وإنما يطعن من يطعن فى نقل بعضها ، لانقطاع التواتر فى أثناء المدة لما خرب البيت المقدس ولم يبق فيه ساكن أكثر من سبعين سنة ، فيقول بعض الناس : إن بعض ألفاظها غيّر حينئذ ، ويقول بعضهم : لم تغير ألفاظ جميع النسخ وإنما غير ألفاظ بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة عند كثير من الناس حتى لا يعرفون غيرها ، ثم بنو إسرائيل لم يزل فيهم نبى بعد نبى حتى جاء المسيح .

وبعد المسيح فلم يزاولوا خلقاً كثيراً لا يمكن تواطؤهم — فى مشارق الأرض ومغاربها — على تغيير جميع نسخ التوراة ، بخلاف الإنجيل فإنه إنما نقله أربعة ، ومن كتب التوراة والزبور والنبوات من أتباع المسيح ، فإنما كتبوها من النسخ التى كانت بأيدى اليهود .

وإذا قالوا : كانوا معصومين ، فهذا ممنوع عند المسلمين واليهود ، وعلى تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضاً عن المعصوم قبل هؤلاء ، فلا يمكن مع هذا أن يدعى مدع أن النبوات التى عند النصارى تواترت عن المعصوم أعظم

من تواتر ما عند اليهود ، بل لا يشك العقلاء العادلون أن نقل حروف التوراة أصح من نقل حروف الإنجيل

وهذا أمر يعرف من وجوه متعددة ؛ فإن التوراة أخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل ، وكانت منقولة قبل المسيح بين الأنبياء و بين بنى إسرائيل أعظم من نقل الإنجيل ، و بعد المسيح نقلها اليهود والنصارى .

و إذا كان كذلك ، فإذا وجد ما عند اليهود والسامرة من نسخ النبوات يخالف ما عند النصارى فى بعض الألفاظ كان هذا دليلا على أن هذه الكتب ليست ألفاظها منقولة عن نص واحد ، وأنه ليس كل لفظ من ألفاظها متواتراً ، والله أعلم .

الوجه التاسع : أن جميع ماعندهم من النصوص الصحيحة لايدل على مذهبهم ألبتة نصا ، بل غاية ما يدعون فيها الظهور ، وهم منازَعون فى ذلك حتى يقال ، بل الظاهر فيما يحتجون به خلاف قولهم .

ومعلوم أن أصول الإيمان التى يؤمن أهل الإيمان بها ، و يكفرون من خالفها لابد أن تكون معلومة عندهم عن الأنبياء ، والعلم لا يحصل بلفظ علم محتمل فعلم أنه لاعلم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام ، وهو محل النزاع .

الوجه العاشر : أن أصرح ما عندهم من التثليث ، هو قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] ، وعلى هذا القول بَنَوْا قولهم بالتثليث ، وأثبتوا لله ثلاثة أقانيم .

ولفظ الأقانيم لم ينطق به أحد من الأنبياء ، ولا أحد من الحوار يين باتفاقهم ، بل هو مما ابتدعوه . قيل : إنه لفظ رومى معناه : الأصل ، ثم أقنوم الإبن تارة ، يقولون « هو علم الله » وتارة يقولون : « هو حكمة الله » وتارة يقولون : « هو كلمة الله » وتارة يقولون : « هو نطق الله وروح القدس » ، وتارة يقولون : « هو حياة الله » وتارة يقولون : « هو قدرة الله » .

والكتب المنقولة عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسمية شيء من صفات الله لا باسم ابن ولا باسم روح القدس ، فلا يوجد[١] أن أحداً من الأنبياء يسمى علم الله وحكمته وكلامه ابناً ، ولا سمى حياة الله أو قدرته روح القدس ، بل روح القدس فى كلام الأنبياء يراد بها معنى ليس هو حياة الله ، كما يراد بها ملك الله أو ما ينزله فى قلوب الأنبياء والصالحين من هداه ونوره وتأييده ، ونحو ذلك .

وإذا كان كذلك علم أن ما فسروا به قول المسيح عليه السلام : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] ، كذب صريح عليهم ، وكذلك ما فسروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثلاثة كذب صريح عليهم ، كقولهم إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرادوا به إثبات ثلاثة آلهة ، فإن هذا مما يعلم بالضرورة ضلالهم فيه وافتراءهم على الأنبياء ، ويعلم أن إله الثلاثة هو إله واحد ليس إله إبراهيم إله آخر غير إله إسحاق حتى لو قيل بالأقانيم ، فلا يقول عاقل : إن أحد الأقانيم إله هذا ، والأقنوم الآخر إله الآخر ، فإن هذا لم يقله أحد من العقلاء ، لا النصارى ولا غيرهم ، يقولون : إن الأب إله إبراهيم مثلا ، والإبن إله اسحاق وروح القدس إله يعقوب بل هم متفقون مع قولهم بالتثليث إن الجميع إله واحد لجميع المرسلين ، ليس إله هذا أقنوما وإله الآخر أقنوما آخر ، فعلم أن مايفسرون به كلام الأنبياء كذب ، لا يصح لا على تثليثهم الذى ابتدعوه ، ولا قول أهل التوحيد لرسل الله تعالى .

فصل فيما بدله اليهود وغيروه وكفروا به

قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إذا كانت هذه النبوات عند اليهود ، وهم مقرون معترفون بها أنها حق وأنها عتيدة أن تكمل عند مجىء المسيح ، فأى حجة لهم يحتجون بها عن الإيمان به ؟

---

(١) قوله : « فلا يوجد » الأصح أن يقال فلم يعلم أن أحداً . . . الخ .

أجابوا قائلين إن الله اختار بنى إسرائيل واصطفاهم على الناس له شعباً فى ذلك الزمان ، وحيث كانوا فى أرض مصر فى عبودية فرعون أرسل إليهم موسى النبى دلّهم على معرفة الله ، ووعدهم أن الله يخلصهم من عبودية فرعون ، ويخرجهم من مصر ويريهم أرض الميعاد التى هى أرض بيت المقدس ، فطلب موسى من الله وعمل العجائب قدام عيونهم .

وضرب أهل مصر العشر ضربات ، وهم يرون ذلك جميعه ، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم وأخرجهم من مصر بيد قوية وشق لهم البحر وأدخلهم فيه ، وصار لهم الماء حائطاً عن يمينهم وحائطا عن شمالهم ، ودخل فرعون وجميع جنوده فى البحر وبنو إسرائيل ينظرون ذلك ، فلما برز موسى وبنو إسرائيل من البحر ، وخلفهم فرعون بجنوده فيه أمر الله لموسى أن يرد عصاه إلى الماء فعاد الماء كما كان وغرق فرعون وجميع جنوده فى البحر وبنو إسرائيل يشهدون ذلك .

فلما غاب عنهم موسى أتى الجبل ليناجى ربه وأخذ لهم التوراة من يد الله وتركوا عبادة الله ونسوا جميع أفعاله ، وكفروا به وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك ، ثم عبدوا الأصنام مراراً كثيرة ليس مرة واحدة ، وذبحوا لها الذبائح ليست حيوانات بل بنيهم مع البنات حسبما ذكر فيما قبل ذلك ، وجميع أفعالهم مكتوبة فى أخبار بنى إسرائيل ، فلما رأى الله قساوة قلوبهم وغلظ رقابهم وكفرهم به ، ورأى أفعالهم النجسة الخبيثة غضب عليها وجعلهم مرذولين ، وطبع على قلوبهم فلا يؤمنون ، وجعلهم مهانين فى جميع الأمم وليس لهم ملك ولا بلاد ولا نبى ولا كاهن إلى الأبد حسبما تنبئت عليهم الأنبياء على ما ذكرناه قبل ، وتشهد به كتبهم التى فى أيديهم إلى يومنا هذا .

وكذا قال الله لأشعيا : [اذهب إلى هذا الشعب ، فقل لهم تسمعون سماعا ولا تفهمون ، وتنظرون نظراً ولا تبصرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وقد سمعوا

بأفهامهم سمعاً ثقيلا ، وقد غمضوا أعينهم لئلا يبصروا بها وسمعوا بآذانهم ولا يفهمون بقلوبهم ويرجعون إلى فأرحمهم] .

وقال أشعيا : [قال الله : هكذا مقت نفسي سبوتكم ورءوس شهوركم صارت عندى مرذلة] وقال : وفى ذلك اليوم يقول الله : [سأبطل السبوت والأعياد كلها وأعطيكم سنة جديدة مختارة لا كالسنة التى أعطيتها لموسى عبدى « يوم خوريب » يوم الجمع الكثير ، بل سنة جديدة مختارة أمر بها وأخرجها من صهيون] فصهيون هى أورشليم ، والسنة الجديدة المختارة : هى السنة التى تسلمناها نحن معشر النصارى من يدى الرسل الحواريين الأطهار الذين خرجوا من أورشليم ، وداروا فى سبعة أقاليم العالم وأنذروا بهذه السنة الجديدة فأى بيان يكون أوضح وأصح من هذا البيان ، إذ قد أوردناه من قول الله ، ولا سيما وأعداؤنا اليهود المخالفون لدينا شهدوا لنا بصحة ذلك جميعه .

وأما حجة اليهود فى هذه النبوات يقولون ويعتقدون أنها حق وأنها قول الله ، لكن يقولون : إنها عتيدة أن تكمل وتتم عند مجىء المسيح ، لكن المسيح ينكرون مجيئه ، ويقولون : بعد ما جاء ، وأن الذى جاء ليس هو المسيح ، هذا قولهم وكفاهم أنهم يكفرون ويفتخرون مع الكفر ، ويقولون إن المسيح كان ضالا مضلا ، وأما المسيح الحق فعتيد ، إنه يأتى ويكمل نبوات الأنبياء إذا جاء ، وإذا جاء اتبعناه وكنا أنصاره ، وهذا رأيهم واعتقادهم فى السيد المسيح ، فماذا يكون أعظم من هذا الكفر الذى هم عليه ؟

ولأجل ذلك فى هذا الكتاب سماهم المغضوب عليهم لأجل خلافهم لقول الذى أرسل نطقه على أفواه الأنبياء ، ولما كنا نحن النصارى متمسكين بما أمرنا به الرسل الأطهار سمانا فى هذا الكتاب المنعم عليهم ، وأما قولنا فى الله : ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء ، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول : [حيث شاء الله أن يخلق آدم قال : لنخلق

خلقاً عن شبهنا ومثالنا] ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروح قدسه ، وحين خالف آدم وعصى ربه [ها آدم قد صار كواحد منا] .

وهذا واضح أن الله قال هذا القول لابنه ، أى كلمته وروح قدسه ، وقال هذا القول يستهزىء بآدم ، أى طلب أن يصير كواحد منا صار عريانا مفتضحاً.

وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة،وقال فى التوراة:[وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة ناراً وكبريتا] ، أوضح بهذا ربوبية الأب والإبن بذكر ثالث .

والجواب : أن يقال أما كفر اليهود كلهم لما أرسل المسيح عليه السلام إليهم فلم يؤمنوا به وكفر من كفر منهم قبل ذلك، إما بقتل النبيين ، وإما بتكذيبهم ، وإما بالشرك ، وإما بغير ذلك مما كفروا فيه فيه بما أنزل الله فهذا حق .

وهذا هو نظير كفر النصارى كلهم الذين بلغتهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقام الله عليهم الحجة به فلم يؤمنوا به ، وكفر من كفر منهم قبل ذلك بما أنزل الله إما بتكذيب بعض ما أنزله وإما بتبديله ، وإما بجعل مالم ينزله الله منزلا منه ، وإما بغير ذلك مما فيه كفر بما أنزل الله عز وجل .

وكذلك ما ذكر من أن الله أقام سنة جديدة وعهدا جديداً ، وهو ما بعث به المسيح عليه السلام من الشريعة التى بعث بها وفيها تحليل بعض ما حرمه الله فى التوراة ، كما فى القرآن عن المسيح ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم ﴾ فهذا أيضاً حق .

فصل فى البدع التى أحدثتها النصارى

وأما قولكم : السنة الجديدة المختارة هى السنة التى تسلمناها من يدى الرسل الأطهار ، على ما تسلموها من المسيح عليه السلام .

فيقال : لو كنتم على تلك السنة لم تغيروها لم ينفعكم المقام عليها ، إذا كذبتم

الرسول النبي الأمي الذى بعث إليكم وإلى سائر الخلق بسنة أخرى أكمل من السنن التى كانت قبله ، كما لم ينفع اليهود ، ولو تمسكوا بسنة التوراة ، ولم يتبعوا سنة المسيح الذى أرسل إليهم ، بل من كذب برسول واحد فهو كافر .

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠] .

فإنه ، وإن كانت السنة التى جاء بها المسيح عليه السلام حقاً ، وكل من كان متبعاً له فهو مؤمن مسلم ، من أولياء الله ، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [البقرة : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، فمن اتبع المسيح كان مؤمنا ، ومن كفر به كان كافرا .

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيٰمة ثمَّ إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥ ـ ٥٧] .

لكن غيرتموها وبدلتموها قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فصرتم كفارا بتبديل شريعة المسيح ، وتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كفرت

اليهود بتبديل شريعة التوراة ، وتكذيب شريعة الإنجيل ، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى سائر رسل الله أجمعين .

فإن المسيح لم يسن لكم التثليث والقول بالأقانيم ، ولا القول بأنه رب العالمين ، ولا سن لكم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات ، ولا ترك الختان ، ولا الصلاة إلى المشرق ، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب ، ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وسؤالهم الحوائج ، ولا الرهبانية وغير ذلك من المنكرات التى أحدثتموها ولم يسنها لكم المسيح ، ولا ما أنتم عليه هى السنة التى سلمتموها من رسل المسيح .

بل عامة ما أنتم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين ، كصومكم خمسين يوما زمن الربيع ، واتخاذكم عيدا يوم الخميس والجمعة والسبت ، فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين ، وكذلك عيد الحواريين : الميلاد والغطاس وغير ذلك من أعيادكم .

بل عيد الصليب إنما ابتدعته « هيلانة » الحرانية الفندقانية أم قسطنطين ، فأنتم تقولون : إنها هى التى أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيدا ، وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة فى زمن ملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلثمائة سنة .

وفى ذلك الزمان أحدثتم الأمانة المخالفة لنصوص الأنبياء فى غير موضع ، وأظهرتم استحلال الخنزير وعقوبة من يأكله ؛ وابتدعتم فى ذلك الزمان تعظيم الصليب وغير ذلك من بدعكم ، وكذلك كتب القوانين التى عندكم التى جعلتموها سنة وشريعة فيها شىء عن الأنبياء والحواريين ، وكثير مما فيها ابتدعه مَنْ بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريين ، فكيف تدّعون أنكم على السنة والشريعة التى كان عليها المسيح عليه السلام وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذب بيِّن .

فصل فى الفرق بين المشابهة والمماثلة

قالوا : وأما قولنا فى الله ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول حيث شاء الله أن يخلق آدم قال الله : [لنخلق خلقا على شبهنا ومثالنا] ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه ؟

وحين خالف آدم وعصى ربه ، قال الله تعالى : [ها آدم قد صار كواحد منا]، وهو قول واضح أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه .

والجواب : أن استدلالهم بهذا على قولهم فى المسيح هو فى غاية الفساد والضلال ، فإن لفظ التوراة : [نصنع آدم كصورتنا وشبهنا] ، وبعضهم يترجمه [نخلق بشراً على صورتنا . شبهنا] .

والمعنى واحد ، وهو كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته » ، وفى رواية « على صورة الرحمن » فقولهم : من هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه من أبطل الأباطيل من وجوه :

أحدها : أن الله ليس كمثله شىء ، وليس لفظ النص على مثالنا .

الثانى : أنه لا اختصاص للمسيح بما ذكر على كل تقدير حق وباطل بأى تفسير فسر قوله . [سنخلق بشراً على صورتنا شبهنا] ، لم يخص ذلك المسيح .

الثالث : أنهم إن أرادوا بالكلمة التى هى شبهه ومثاله صفته ، التى هى العلم القائم به والحياة القائمة به مثلا ، فالصفة لا تكون مثالا للموصوف ، إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها ، والصفة قائمة بها ، والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه .

وإن أرادوا به شيئاً غير صفاته ، مثل بدن المسيح وروحه ، فذلك مخلوق له ، والمخلوق لا يكون مثل الخالق ، وكذلك روح القدس سواء أريد به ملك أو هدىً وتأييد ، ليس مثلا لله عز وجل .

الرابع : أنه قال [لنخلق خلقاً] ،أو قال : [نخلق آدم أو نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] ، وعلى ما قالوه : [نخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا] ، وبكل حال ، فهذا مخلوق وكلمة الله وروحه عندهم غير مخلوق فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمته وروحه.

وإن قالوا : أراد بذلك الناسوت المسيحى ، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت ، مع أن المراد بذلك النص آدم أبو البشر باتفاق الأمم ، والناسوت نفسه ليس هو كلمة الله وروحه .

الخامس : أنه لو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه ، مثل كونه قديماً بقدمه ، لم يكن فى ذلك ما يدل على الأقانيم الثلاثة .

وكذلك اللفظ المعروف وهو قوله : [سنخلق بشراً على صورتنا شبهنا]. فهذا لا يدل على التثليث بوجه من الوجوه ، وشَبَهُ الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه ، وذلك لا يقتضى التماثل الذى يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وإذا قيل هذا حى عليم قدير ، وهذا حى عليم قدير فتشابها فى مسمى الحى والعليم والقدير ، لم يوجب ذلك أن يكون هذا المسمى مماثلا لهذا المسمى فيما يجب ويجوز ويمتنع .

بل هنا ثلاثة أشياء :

أحدها : القدر المشترك ، الذى تشابها فيه ، وهو معنى كلى لا يختص به أحدهما ، ولا يوجد كلياً عاماً مشتركا إلا فى علم العالم .

والثانى : ما يختص به هذا ، كما يختص الرب به من الحياة والعلم والقدرة .

والثالث : ما يختص به العبد من الحياة والعلم والقدرة ، فما اختص به الرب عز وجل لا يشركه فيه العبد ، ولا يجوز عليه شيء من النقائص التى تجوز على صفات العبد ، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ، ولا يستحق شيئاً من صفات الكمال التى يختص به الرب عز وجل .

وأما القدر المشترك كالمعنى الكلى الثابت فى ذهن الانسان فهذا لا يستلزم

خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق ، فالاشتراك فيه لا محذور فيه .

ولفظ التوراة فيه : [سنخلق بشراً على صورتنا يشبهنا] ، لم يقل : على مثالنا وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » فلم تذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كموسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم إلا لفظة « شبه » دون لفظ « مثل » .

وقد تنازع الناس : هل لفظ الشبه والمثل بمعنى واحد أو معنيين على قولين:

أحدهما : أنهما بمعنى واحد ، وأن ما دل عليه لفظ المثل مطلقا ومقيداً يدل عليه لفظ الشبه ، وهذا قول طائفة من النظار .

والثاني : أن معناهما مختلف عند الاطلاق لغة وشرعاً وعقلاً ، وإن كان مع التقييد والقرينة يراد بأحدهما ما يراد بالآخر ، وهذا قول أكثر الناس ، وهذا الاختلاف مبنى على مسألة عقلية ، وهو أنه هل يجوز أن يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه ، وللناس في ذلك قولان ، فمن منع أن يشبه من وجه دون وجه قال : المثل والشبه واحد ، ومن قال إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه فرق بينهما عند الاطلاق ، وهذا قول جمهور الناس ، فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشتبه في كونها ألوانا مع أن السواد ليس مثل البياض ، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشتبه في مسمى الجسم والجوهر ، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة ، فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب ، ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان ؛ ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء ، وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه .

وأيضاً فمعلوم في اللغة أن يقال : هذا يشبه هذا ، وفيه شبه من هذا ، إذ أشبهه من بعض الوجوه ، وإن كان مخالفاً له في الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥] .

وقوله : ﴿ منه آياتٌ محكمات هن أم الـكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ .

﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آيةٌ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٨] .

فوصف القولين بالتماثل ، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل ، فإن القلوب ، وإن اشتركت فى هذا القول فهى مختلفة لا متماثلة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم «الحلال بيّن والحرام بيّن ، و بين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

فدل على أنه يعلمها بعض الناس ، وهى فى نفس الأمر ليست متماثلة ، بل بعضها حرام و بعضها حلال .

والوجه السادس : أن قوله : [سنخلق خلقاً على شبهنا] لا يتناول صفته ، مثل كلامه وحياته القائمة به ، فإن ذلك ليس بمخلوق ، وحينئذ فهذا لا يتناول اللاهوت الذى يزعمون أنه تدرع الناسوت ، فإن اللاهوت ليس بمخلوق .

وأما الناسوت فهو كسائر نواسيت الناس لا اختصاص له ، بأن يكون شبيهاً لله دون سائر النواسيت ، فقوله : فمن هو الشبه المخلوق سوى كلمته وروحه ؟ باطل على كل تقدير .

وأما قوله : [ها آدم قد صار كواحد منا] ، وقولهم : إن هذا قول واضح أن الله قال : هذا القول لابنه وروح قدسه ، فإن أرادوا أنه يجعل الذى صار كواحد منا لابنه ، كان هذا من أبطل الـكلام ، فإن هذا الإبن إن كان المراد به الـكلمة التى هى صفة لله ، فتلك لم يخلق لها أمر يصير كواحد منهم ، وتلك لا تسمى آدم ولا سماها الله ابناً .

و إن أريد به ناسوت المسيح فذاك مخلوق مبتدع يمتنع أن يكون كالقديم الأزلى ، وأيضاً فإن الله قال هذا عن آدم ، وآدم ليس هو المسيح ، ولا يجوز أن يقال : آدم و يراد به المسيح ، كما لا يجوز أن يقال: عصى آدم و يراد به المسيح ،

وأيضاً فإنه قال : [ها آدم كواحد منا] وهذا إشارة إلى أمر قد كان فى الزمن الماضى ، ليس هو إشارة إلى ما سيكون بعد ذلك بألوف السنين ، وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذى هو كلمته وروحه وهذا هو مرادهم ، كقولهم : إنه قال القول يستهزىء بآدم أى أنه طلب أن يصير كواحد صار هكذا عرياناً مفتضحاً ، ويكون شبهتم قوله « منا » لأنه عبر بصيغة الجمع ، وكذلك إن أرادوا هذا بقوله « نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا » فاحتجوا على التثليث بصيغة الجمع .

وهذا مما احتج به نصارى نجران على النبى صلى الله عليه وسلم فاحتجوا بقوله تعالى « إنا ، ونحن » قالوا وهذا يدل على أنهم ثلاثة ، وكان هذا من المتشابه الذى اتبعوه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتركوا المحكم المبين ، الذى لا يحتمل إلا واحداً ، فإن الله فى جميع كتبه الإلهية قد بين أنه إله واحد ، وأنه لا شريك له ، ولا مثل له .

وقوله : إنا ، ونحن لفظ يقع فى جميع اللغات على من كان له شركاء وأمثال ، وعلى الواحد المطاع العظيم الذى له أعوان يطيعونه ، وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء ، والله تعالى خلق كل ما سواه ، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثل والملائكة وسائر العالمين جنوده .

قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، [سورة المدثر : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة الفتح : ٧]

فإذا كان الواحد من الملوك يقول : إنا ، ونحن ولا يريدون إنهم ثلاثة ملوك فالك الملك رب العالمين ورب كل شىء ومليكه هو أحق بأن يقول : إنا ، ونحن مع أنه ليس له شريك ، ولا مثل بل له جنود السموات والأرض .

وأيضاً فمن المعلوم آدم لم يطلب أن يصير مثل الله ولا مثل صفاته كملمه وصفاته ، وأيضاً فليس فى ظاهر اللفظ أن الله خاطب صفاته بذلك .

وأيضاً فالصفة القائمة بالموصوف لا تخاطِب ولا تخاطَب ، وإنما يخاطب الموصوف ، ولم يكن قد خلق آدم ناسوت المسيح ولا غيره من البشر حتى يخاطب، فعلم أن دعواهم أن الله خاطب صفته التي سموها هم ابناً وروح قدس كلام باطل ، بل قد يخاطب ملائكته ، وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد والملك كما قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٠] .

فصل في أن الصفة ليست ابنا

قالوا : وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة ، قال في التوراة : [وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارا وكبريتا] أوضح بهذا ربوبية الأب والإبن .

والجواب : أن احتجاجهم بهذا من أبطل الأباطيل لوجوه :

أحدها : أن تسمية الله علمه وحياته ابنا وربا تسمية باطلة ، لم يسم موسى في التوراة شيئاً من صفات الله باسم الإبن ولا باسم الرب ، فدعوى المدعى أن موسى عليه السلام أراد بالرب شيئاً من صفات الله ،أو أن له صفة تسمى ابنه كلام باطل .

الثاني : أنه لو قدر أن صفة الله تسمى بذلك معلوم أن الذي أمطر ، كان هو الذي كان المطر عنده ، لم يكن المطر عند أحدهما والآخر هو الممطر ، كما لا يجوز أن يقال خلق أحدهما من شيء عند الآخر ، ولا أنزل أحدهما المطر من سحاب الآخر .

الثالث : أن الصفة لا تفعل شيئاً ، ولا عندها شيء ، بل هي قائمة بالموصوف ، والذات المتصفة بالصفة هي التي تفعل ، وعندها يكون ما يكون .

الرابع : أن هذا بمنزلة قوله : [أمطر الرب من عنده] لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهاراً لأن الأمر له وحده في هذا وهذا .

ومثل هذا في القرآن كقوله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ [سورة الحاقة : ١ ، ٢] .

﴿ القارعة ما القارعة ﴾ [سورة القارعة : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيلُ الكتابِ من الله العزيز العليم ﴾ ، [سورة غافر : ٢] ﴿ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ﴾ [سورة فصلت : ٢] .

والله هو المنزل ولم يقل منى .

فصل فى معنى الرب

قالوا : نذكر ثالثاً ، وقال داود فى الزبور فى المزمور المئة والتسعة قائلا : [قال الرب : لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك تحت موطأ قدميك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه لا يجوز أن يراد بربى شيئاً من صفات الله ، فإنه لم يسم داود ولا أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله رباً ولا ابناً ، ولا قال أحد لشىء من صفات الله : يا رب ارحمنى ، ولا قال لعلم الله أو كلامه أو قدرته : يا رب ، وإذا لم يكونوا يسمون صفات الله رباً ، فلو كان المسيح صفة من صفاته لم يجز أن يكون هو الله المراد بلفظ الرب ، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك ؟

فعلم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللاهوت ولا الناسوت .

الثانى : أنه قال : قال الرب لربى ، فأضاف إليه الثانى دون الأول ، وأنه هو ربه الذى خلقه ، وعامة ما عند النصارى من الغلو أن يقولوا : إله حق من إله حق ، ويجعلونه خالقاً بأن يجعلوه أحق من الأب بكونه رب داود ، فهذا لم يقولوه ، وهو ظاهر البطلان .

الثالث : أنه ليس فى هذا ذكر الأقانيم الثلاثة غايته لو كان لما تأولوه أن يكون فيه ذكر الإبن ، وأما الأقانيم الثلاثة فلم ينطق بها شىء من كتب الله التى بأيديهم ، فضلاً عن القرآن لا بلفظها ولا معناها ، بل ابتدعوا لفظ الأقنوم ، وعبروا به عن ما جعلوه مدلول كتب الله ، وهى لا تدل على ذلك ، فكانوا فى ذلك مترجمين

لكلام الله ، وهم لم يفهموا معناه ، ولا عبروا عنه بعبارة تدل على المراد .

الرابع : أنه قال لربى ، وهذا يراد به السيد ، كما قال يوسف : ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ ، [سورة يوسف : ٢٣] .

وقال لغلام الملك : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

ولهذا ذكر الأول مطلقاً والثانى مقيداً فيكون المعنى وقال الله لسيدى : قال رب العالمين لسيدى ، وسماه سيداً تواضعاً من داود وتعظيماً له لاعتقاده أنه أنه أفضل منه .

فصل فى معنى الابن

قالوا : نذكر رابعاً ، وقال فى الزبور الثانى : [الذى قال لى : أنت ابنى وأنا اليوم ولدتك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا ليس فيه تسمية صفات الله : علمه وحياته ابناً ، ولا فى ذكر الأقانيم الثلاثة ، فليس فيه حجة لشىء مما تدعونه .

والثانى : أن هذا حجة عليهم ، فإنه سمى داود ابنه ، فعلم أن اسم الإبن ليس مختصاً بالمسيح عليه السلام ، بل سمى غيره من عباده ابناً ، فعلم أن اسم الإبن ليس لصفاته ، بل هو اسم لمن رباه من عبيده .

وحينئذ فلا يكون تسميته ابناً لكون الرب أو صفته اتحدت به ، بل كما سمى داود ابناً ، وكما سمى إسرائيل ابناً فقال [أنت ابنى بكرى] .

وهذا فى كتبهم ، كما ذلك فى كتبهم فلا حجة فيه ، لأن قول غير المعصوم ليس بحجة .

الثالث أن قوله : [وأنا اليوم ولدتك] يدل على حدوث هذا الفعل ،

وعندهم تولد الكلمة التى سموها الإبن من الأب قديم أزلى ، كما قالوا فى أمانتهم [وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء] .

فهذا الإبن عندهم مولود من الأب قبل كل الدهور ، وذاك ولده فى يوم خاطبه بعد خلق دواد فلم يكن فى هذا المحدث دليل على وجود ذلك القديم .

الوجه الرابع : أنه إذا كان الأب فى لغتهم هو الرب الذى يربِّى عبده أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوماً مصطفًى مختاراً .

والنصارى قد يحملون الخطاب الذى هو ضمير لغير المسيح ، يراد به المسيح فقد يقولون : المراد بهذا المسيح ، وهذا باطل لايدل اللفظ عليه ، و بتقدير صحته ، فهو يدل على أن المسيح هو الناسوت المخلوق ، وهو المسمى بالإبن ، كقوله [وأنا اليوم ولدتك] .

واللاهوت عندهم مولود من قبل الدهور ، وحينئذ فإن كان المراد به يوم ولادته ، فالمعنى خلقتك وإن كان يوم اصطفاه ، فالمراد اليوم اصطفيتك وأحببتك ، كأنه قال : اليوم جعلتك والداً وابناً على لغتهم .

فصل فى بطلان ما استدلوا به على التعدد

قالوا : نذكر خامساً ، وفى السفر الثانى من التوراة وكلم الله موسى من العليقة قائلاً : [أنا إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب] ولم يقل أنا إله إسحق . بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا : أنا إله وإله وإله لتحقق مسألة الثلاث أقانيم فى لاهوته .

والجواب : أن الاحتجاج بهذا على الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء ، وذلك يظهر من وجوه :

أحدها : أنه لو أريد بلفظ الإله أقنوم الوجود ، وبلفظ الإله مرة ثانية أقنوم الكلمة ، وبالثالث أقنوم الحياة ، لكن الأقنوم الواحد إله إبراهيم ، والأقنوم الثانى إله إسحق ، والأقنوم الثالث إله يعقوب فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة ، والأقنومين ليسا بإلهين له .

وهذا كفر عندهم ، وعند جميع أهل الملل ، وأيضاً فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة الثلاثة ثلاثة ، وهم يقولون : إله واحد ، ثم هم إذا قالوا : كل من الأقانيم إله واحد ، فيجعلون الجميع إله كل نبى ، فإذا احتجوا بهذا النص على قولهم لزم أن يكون إله كل نبى ، ليس هو إله النبى الآخر ، مع كون الآلهة ثلاثة .

الوجه الثانى : أنه يقال : إن الله رب العالمين ، ورب السموات ورب الأرض ورب العرش ورب كل شىء ، فيلزم أن يكون رب كل شىء ، ويقال : إله موسى وإله محمد ، مع قولنا : إله إبراهيم وإسحق .

أفتراه أثبت إلهين : أحدهما إلهه ، والآخر إله الثلاثة ؟ !

الوجه الثالث : أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات ، وتارة لتغاير الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غُثاء أحوى ﴾ .

[سورة الأعلى : ١ ـ ٥]

والذى خلق هو الذى قدر وأخرج ، وكذلك قوله : ﴿ إلهك وإله آبائك ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٣] .

وهو هو سبحانه ، وقال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه لقوله : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌّ لى إلا ربَّ العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يُطعمنى ويَسقين * وإذا مرضت فهو يَشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن

يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٧٥ ـ ٨٢] .

والذى خلقه هو الذى يطعمه ويسقيه ، وهو الذى يميته ثم يحييه ، فقوله فى التوراة : إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب هو من هذا الباب ، ولا يختص هذا بثلاثة ، بل يقال فى الإثنين والأربعة والخمسة بحسب ما يقصد المتكلم ذكره من الصفات ، وفى هذا من الفائدة ما ليس فى قوله : إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فإنه لو قيل ذلك لم يفد إلا أنه معبود الثلاثة ، لا يدل على أنهم عبدوه مستقلين ، كل منهم عبده عبادة اختص بها ، لم تكن هى نفس عبادة الأول .

وأيضاً فإنه إذا قيل إله إبراهيم وإسحق ويعقوب دلّ على عبادة كل منهم باللزوم ، وإذا قال : وإله دلّ على معبود كل من الثلاثة ، فأعاده باسم الإله الذى يدل على العبادة دلالة باللفظ المتضمن لها ، وفى ذلك من ظهور المعنى للسامع وتفرغه بصورة له من غير فكر ماليس فى دلالة الملزوم .

فصل أن الرب لا يتعدد

وإنما الذى يتعدد هو التقديس

قالوا : وكذلك شهد « أشعيا » بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره ، وذلك بقوله : [رب القوات] ، وبقوله : [رب السموات والأرض] ومثل هذا القول فى التوراة والمزامير شىء كثير حتى اليهود يقرأون هذه النبوات ، ولا يعرفون لها تأويلا ، وهم مقرون بذلك ، ولا ينكرون منه كلمة واحدة ، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها على ما ذكرنا قبل ذلك ، وأنهم إذا اجتمعوا فى كنيستهم كل سبت يقف الحزان أمامهم ، ويقول كلاماً عبرانياً هذا تفسيره ، ولا يجحدونه : [نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمكتوب على لسان نبيك] .

فيصرخ الجميع مجاوبين . [قدوس قدوس قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض] .

فما أوضح إقرارهم بالثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذى قاله الله فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء نجعلوه ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً ، طبيعة واحدة إلهاً واحداً أباً واحداً ، خالقاً واحداً ، وهو الذى نقوله : أب وابن وروح قدس .

والجواب : أما ما فى كتب الأنبياء عليهم السلام من تسميته اسم الرب عند إضافته إلى مخلوق آخر فهو من نمط تسميته اسم الإله ، وهذا لا يقتضى تعدد الأرباب والآلهة ، ولهذا يقتضى جعلهم اثنين وأربعة إذا ذكر اللفظ مرتين وأربعة .

فكذلك إذا كان ثلاث مرات لا يقتضى أن الأرباب ثلاثة ، وهم أيضاً لا يقولون بثلاثة أرباب وثلاثة آلهة تدل على نقيض قولهم ، بل هم يزعمون أنهم إنما يثبتون إلهاً واحداً ، ولكنهم يتناقضون فيصرحون بثلاثة آلهة ، ويقولون هم إله واحد .

والكتب لا تدل على قولهم المتناقض بوجه من الوجوه ، وأما ما ذكروه من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النبوات ، ودعواه أنهم لا يعرفون لها تأويلا ، فإن أراد بالتأويل تفسيرها وما يدل عليه لفظها ، فهذا ظاهر لا يخفى على الصبيان من اليهود وغيرهم .

ولكن النصارى ادعوا مايدل عليه اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه إن أرادوا بالتأويل معنى يخالف ظاهر اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه – إن كان يحتاج إليه – إذا كان ظاهره معنى باطلا ، لايجوز إرادته وليس ماذكر هنا من هذا الباب بل الكتب الإلهية يكثر فيها مثل هذا الكلام عند أهل الكتاب وعند المسلمين ، ولا يفهم منها ثلاثة أرباب أو ثلاثة آلهة إلا من اتبع هواه بغير هدى من الله ،

وقال قولا مختلفاً يؤفك عنه من أفك ، ومثل هذا موجود فى سائر الكلام ، فقال : هذا أمير البلد الفلانى ، وأمير البلد الفلانى ، وأمير البلد الفلانى ، وهو أمير واحد .

ويقال : هذا رسول إلى الأميين ، ورسول إلى أهل الكتاب ، ورسول إلى الجن والإنس ، وهو رسول واحد .

فصل فى معنى قوله : نثلث لك

وأما قولهم : [نقدسك، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا] .

قولهم · [قدوس،قدوس،قدوس ،رب القوات ، ورب السموات والأرض] فيقال :هذا الكلام صريح فى أن المثلث هو نفس التقديس ،لا نفس الإله المقدس.

وكذلك قولهم : [قدوس ، قدوس،قدوس] . قدسوه ثلاث مرات ، فإنه قال : [نقدسك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً] فنصب التثليث على المصدر الذى ينصب بفعل التقديس ، فقال : نقدسك تقديساً مثلثاً .

فنصب التقديس على المصدر، كما تقول:سبحتك تسبيحاً مثلثاً، أى سبحتك ثلاث مرات ، وقال : نثلث لك أى نثلث تقديساً لك ، لم يقل أنت ثلاثة ،بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث ، وهم يثلثون له ، وهذا صريح فى أنهم يسبحونه ثلاث مرات ، لا يسبحون ثلاثة آلهة ، ولا ثلاثة أقانيم .

وهذا كما فى السنن عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قال العبد فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه ، وذلك أدناه ، وإذا قال فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده وذلك أدناه » والتسبيح هو تقديس الرب وأدناه أن يقدسه ثلاث مرات ، فمعنى قدسوه ثلاث مرات : لا تقتصروا على مرة واحدة .

ولهذا قالوا مجاوبين : قدوس ، قدوس، قدوس ، فيقدسونه ثلاث مرات ، فعلم أن المراد حيث مادل على لفظه ، وما يفعلونه ممتثلين لهذا الأمر ، وما يفعل فى نظير ذلك تثليث تقديسه ، وأن يقدس ثلاث مرات ، لا أن يكون المقدس ثلاث أقانيم ، فإن هذا أمر لم ينطق نبى من الأنبياء به لا لفظاً ولا معنى ، بل جميع الأنبياء عليهم السلام أثبتوا إلهاً واحداً له الأسماء الحسنى .

وأسماؤه متعددة تدل على صفاته المتعددة ، ولا يختص ذلك بثلاثة أسماء ، ولا بثلاثة صفات ، وليست الصفات أقنوما هو ذات وصفة ، بل ليس إلا ذات واحدة لها صفات متعددة ، فالتعدد فى الصفات لا فى الذات التى سموها الجوهر ، ولا فى الذات والصفة التى يسمونها الأقنوم .

فصل فى المسيح الذى تنتظره اليهود

قالوا : فما أعظم إقرارهم فى الثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه .

فيقال هذا من الافتراء الظاهر على اليهود وجعلهم كفاراً فلم يكن كفرهم لأجل إنكار الثالوث ، بل لو أقروا به كان زيادة كفرهم يزيد به عذابهم .

كما أن النصارى لما كفروا لم يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشر به قد ظهر ليس هو المسيح الدجال الذى تنتظره اليهود ، وإذا خرج كانوا شيعته ويقتلهم المسلمون معه شر قتلة حتى إن الشجر والحجر يقول : يامسلم هذا يهودى ورائى تعالى فاقتله .

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادة فى كفرهم .

وعند اليهود ، وعندهم فى التوراة من التوحيد المحض مما يبطل تثليثكم مالا يخفى إلا عمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله ، وهداه الذى يهدى به عباده.

فصل فيما ذهب إليه النصارى من الأقانيم

قالوا : فلأجل هذا البيان الواضح الذى قاله الله فى التوراة ، وفى كتب

الأنبياء نجعل ثلاثة أقانيم: جوهراً واحداً، إلهاً واحداً، رباً واحداً، خالقاً واحداً.

وهو الذى نقول: أب وابن، وروح قدس.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن فى التوراة والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله، ونفى تعدد الآلهة، ونفى إلهية ما سواه ما هو صريح فى إبطال قول النصارى ونحوهم، وليس فيها ذكر الأقانيم لا لفظاً ولا معنى، حيث يجعلون الأقنوم اسماً للذات مع الصفة، والذات واحدة، والتعدد فى الصفات لا فى الذات.

ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشىء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم ولا إثبات ثلاث صفات دون ماسواها فى شىء من الكتب الإلهية، ولا كلام الحواريين، ولا إثبات إله حق من إله حق، ولا تسمية صفات الله مثل كلامه وحياته لا ابناً ولا إلهاً ولا رباً، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السموات والأرض بشىء من الآدميين، ولا حلول ذات وصفة دون ذات مع الصفات الأخرى، ولا حلول نفس الصفة ببدنه فى غيره ولا علمه ولا كلامه ولا حياته، ولا غير ذلك.

بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد ليس فى كتب الأنبياء التى بأيديهم مايدل عليه، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول وكتب الله المنزلة.

الثانى: أنهم يقولون: إنما نثبت إلهاً واحداً، ثم يقولون فى أمانتهم وأدلتهم وغير ذلك من كلامهم ما هو صريح بإثبات ثلاثة آلهة فينقضون كلام بعضهم ببعض، و يقولون من الأقوال المتناقضة ما يعلم بطلانه كل عاقل تصوره.

وهذا لا ينضبط لهم قول مطرد، كما يقول من يقول من عقلاء الناس: إن النصارى ليس لهم قول يعقله عاقل، وليست أقوالهم منصوصة عن الأنبياء، فليس معهم لا سمع ولا عقل، كما قال الله تعالى عن أصحاب النار: ﴿ لو كنا

نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] .

وهم أيضاً يبطنون خلاف مايظهرون، ويفهم جمهور الناس مقالاتهم خلاف ما يزعم بعضهم أنه مرادهم ، فإنه قد تقدم آنفاً من استدلالهم بالتوراة ، وقوله : [وكلم الله موسى من العليقة قائلا : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، و إله يعقوب]. قالوا : ولم يقل : إنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا: أنا إله، وإله وإله لتتحقق مسألة الثلاث أقانيم فى لاهوته، فيقال لهم :وإن كان هذا التكرير لا يقتضى إلا إثبات إله واحد فلا حجة لكم فيه ، لو قال أنا إله إبراهيم و إسحاق ويعقوب ، وإن كان يقتضى إثبات ثلاثة آلهة ، فقد أثبتم ثلاثة آلهة ، وأنتم تقولون : لا نثبت إلا إلهاً واحداً ، وإن كان المعنى: إنه إله واحد موصوف بأنه معبود إبراهيم ، ومعبود إسحاق ، ومعبود يعقوب .

فلا حجة لكم فيه التثليث والأقانيم ، حيث تجعلون الأقنوم اسماً للذات مع صفة الذات واحدة ، فالتعدد فى الصفات لا فى الذات ، ولا يمكن أن تتحد صفة دون أخرى ، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم وحلوله بشىء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر .

الوجه الثالث : قولهم : وهو الذى نقوله : أب وابن وروح القدس قد تقدم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لم يقولوه ابتداء ، ولا علموا بالعقل التثليث الذى قالوه فى أمانتهم ثم عبروا عنه بهذه العبارة ، بل هذه العبارة منقولة عندهم فى بعض الأناجيل أن المسيح عليه الصلاة والسلام أمر أن يعمدوا الناس بهـا ، وحينئذ فالواجب إذا كان المسيح قالها أن ينظر ما أراد بها ، وينظر سائر ألفاظه ومعانيها ، فيفسر كلامه بلغته التى تكلم بها تفسيراً يناسب سائر كلامه .

وهؤلاء حملوا كلام المسيح والأنبياء عليهم السلام على شىء لا يدل عليه كلامهم ، بل يدل على نقيضه فسموا كلام الله ، أو علمه أو حكمته أو نطقه ابناً ، وهذه تسمية ابتدعوها لم يسم أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله باسم الإبن ،

ولا باسم الرب ، ولا إله ، ثم لما أحدثوا هذه التسمية قالوا : مراد المسيح بالإبن الكلمة ، وهذا افتراء على المسيح عليه السلام ، وحمل لكلامه على معنى لا يدل عليه لفظه .

ولفظ الإبن عندهم فى كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم فى كلام الأنبياء لفظ الإبن إلا على مخلوق يحدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم إسرائيل ابناً وداود ابناً لله ، والحواريون كذلك بل عندهم فى إنجيل يوحنا فى ذكر المسيح إلى خاصته ، أى وخاصته لم يقبلوه ، والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله الذى ليس من دم ولا مشبه لحم ، ولا من مشبه رجل ، بل من الله ولد .

فهذا إخبار بأنهم يكونون جميعاً أبناء الله، وهم معترفون بأنه ليس فيهم لاهوت يتحد بناسوت ، بل كل منهم ناسوت محض ، فعلم أن الكتب ناطقة بأن لفظ ابن الله يتناول الناسوت فقط ، وليس معهم لفظ ابن الله ، والمراد به صفة من صفات الله .

فقولهم : إن المسيح أراد بلفظ الإبن اللاهوت كذب بيّن عليه ، والمسيح يسمى ابناً بهذا الاعتبار ، وروح القدس لم يعبر بها أحد الأنبياء عن حياة الله التى هى صفته ، بل روح القدس فى كتب الله يراد بها الملك ، ويراد بها الهدى والوحى والتأييد فيقال : روح الله ، كما يقال : نور الله وهدى الله ، ووحى الله وملاك الله ، ورسول الله لم يرد به أحد من الأنبياء ، بقوله روح الله وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله « روحى » .

فإن الإنسان مركب من روح وبدن ، وفى بدنه بخار يخرج من القلب ، ويسرى فى بدنه ، وله جوف يخرج منه هواء ويدخل فيه ، فإذا قيل : روح الإنسان فقد يراد بها الروح التى مع البدن ، وقد يراد بها البخار اللطيف الذى فى البدن ، وقد يراد بها الريح الذى يخرج من جوف البدن ، ويدخل فيه الله

تبارك وتعالى - بإجماع المسلمين واليهود والنصارى - ليس هو روحاً وبدناً كالإنسان وهو سبحانه أحد صمد لا جوف له ، ولا يدخل فيه شيء ، لا بخار ولا هواء متردد .

وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة ، والله تعالى حيّ له حياة ولكن لم ترد الأنبياء عليهم السلام بقولهم : روح القدس حياة الله بل أرادوا به ما يجعله الله فى قلوب الأنبياء وأيدهم به ، كما يراد بنور الله ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

فضرب الله مثلا للمؤمن الذى جعل صدره كالمشكاة ، وقلبه كالزجاجة فى المشكاة ، ونور الإيمان الذى فى قلبه ، وهو نور الله كالمصباح الذى فى الزجاجة ، وذلك النور الذى فى قلبه ليس هو نفس صفة الله القائمة به .

فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء ، وما قاله أهل البدع من النصارى وغيرهم لم يجد لهم فى كلام الأنبياء ما يدل على نقيض ضلالهم لا ما يدل على ضلالهم .

فصل فى الكلمة وأنها صفة الرب

قالوا : وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان ونطقه وروحه ثلاثة أناس ، بل إنسان واحد ، ولا إذا قلنا لهيب النار وضوء النار وحرارة النار ثلاثة نيران ، ولا إذا قلنا قرص الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ثلاثة شموس ، وإذا كان رأينا فى الله تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه فلا لوم علينا ، ولا ذنب لنا إذ لم نهمل ما تسلمناه ولا نرفض ما تقلدناه ونتبع ما سواه .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب عن عقيدة إيمانكم وفى

استدلالكم وغير ذلك من كلامكم ، فليس ذلكم شيئاً ألزمكم الناس به ، بل أنتم تصرحون بذلك ، كما تقدم من قولكم نؤمن بإله واحد ، ضابط الكل ، خالق ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله ، الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساوٍ الأب في الجوهر ، بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي مع الآب ، مسجود له وممجد .

فهذا تصريح بالثلاثة أرباب ، وأن الإبن إله حق من إله حق مع تصريحكم بثلاثة أرباب وتصريحكم بأن هذا إله حق من إله حق ، تقولون إن ذلك إله واحد ، وهذا تصريح بتعدد الآلهة مع القول بإله واحد ، ولو لم تذكروا ما يقتضي أنه جوهر آخر ، لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة ، لكن كان يكون كلامكم أعظم كفراً ، فتكونون قد جعلتم المسيح هو نفس إله الواحد الأب خالق ما يرى ، وما لا يرى ، وهذا من أعظم كفركم مع أن هذا حقيقه قولكم ، فإنكم تقولون : المسيح هو الله ، وتقولون : هو ابن الله ، كما يقوله بعض الناس ، بل القولان جميعاً يقولهما فرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية ونحوهم ، وهذا أيضاً من تناقضكم ، فإنه إن كان هو الله لم يكن هو ابن الله سواء عبر بالإبن عن الصفة أو غيرها ، فإن الأب هو الذات ليست هي الصفة ، وإن عنى بالإبن الذات مع صفة الكلام كما تفسرون الأقنوم بذلك .

فهذا الذات متصفة مع ذلك بالحياة والكلام سواء عنوا به العلم أو البيان مع العلم هو مع الحياة قائم بالأب ، والصفة ليست غير الموصوف ، بل ولا يعبر عنها بأنها ابن الموصوف ، ولا عبر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام .

والمقصود أنهم لم يريدوا بقولهم ، وبرب واحد يسوع المسيح عطف الصفة ،

وأن هذا هو الأب كما قال إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، فهذا إله واحد .

والعطف لتغاير الصفة ، فلو كان المراد بالإبن نفس الأب لكان هذا خلاف مذهبهم ، ويكونون قد جعلوه إلهاً من نفسه ، فقالوا : إلهان ، بل ثلاثة وهو واحد .

فهذا لو أرادوه لكان أعظم من الكفر ، بل قالوا : برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب كل الدهور ، نور من نور ، إله حق ، من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق . فصرحوا بأنه رب ، وأنه إله حق ، من إله حق ، وصرحوا بإله ثان مع الإله الأول .

قالوا : مع ذلك إنه مولود من الأب قبل كل الدهور ، وأنه مولود غير مخلوق فامتنع أن يريدوا بذلك الناسوت ، فإن الناسوت مخلوق .

وهم يقولون : إن الكلمة هي المتولدة من الأب ، والكلمة صفة المتكلم وقائمة به ، والكلام ليس برب ولا بإله ، بل هو كلام الرب الإله ، كما أن سائر كلام الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ليس هو الرب والإله ، ثم قلتم مساوٍ الأب في الجوهر فاقتضى هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهراً وأنه مساوٍ الأب في الجوهر والمساوي ليس المساوَى .

وهذا يقتضي إثبات جوهر ثان مساوٍ الجوهر الأول ، وهو صريح بإثبات إلهين ، وتقولون مع ذلك : إنه إله واحد جوهر واحد ، ولا يقال الجوهر مع العلم الذي تعتبرون عنه بالأقنوم مساوٍ الجوهر الذي هو الذات . فإن الجوهر هو الذات وليس هنا جوهران : أحدهما مجرد عن العلم ، والآخر متصف به ، حتى يقال : إن أحدهما مساوٍ للآخر ، بل الرب تعالى هو الذات المتصفة بالعلم ، فإن كان الأب هو الذات المجردة ، فالإبن أكمل من الأب ، وهو الذات مع العلم ، والأب بعض الابن .

وكذلك يلزمهم أن يكون الإبن هو بعض روح القدس ، فإنهم فى أمانتهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيي هو الذات المتصفة بالحياة ، والذات المجردة بعض ذلك ، فإن كان الأب هو الذات المجردة فالأب بعض روح القدس .

ثم قلتم فى أقنوم روح القدس الذى جعلتموه الرب المحيي أنه منبثق من الأب مسجود ممجد ، ناطق فى الأنبياء ، فإن كان المنبثق رباً حياً ، فهذا إثبات إله ثالث ، وقد جعلتم الذات الحية منبثقة من الذات المجردة ، وفى كل منهما من الكفر والتناقض مالا يخفى .

ثم جعلتم هذا الثالث مسجوداً له ، والمسجود له هو الإله المعبود ، وهذا تصريح بالسجود لإله ثالث مع ما فيه من التناقض ، ثم جعلتموه ناطقاً بالأنبياء وهذا تصريح بحلول هذا الأقنوم الثالث بجميع الأنبياء ، فيلزمكم أن تجعلوا كل نبي مركباً من لاهوت وناسوت ، وأنه إله تام وإنسان تام ، كما قلتم فى المسيح إذ لا فرق بين حلول الكلمة ، وحلول روح القدس ، كلاهما أقنوم .

وأيضاً فيمتنع حلول إحدى الصفتين دون الأخرى ، وحلول الصفة دون الذات ، فيلزم الإله الحى الناطق بأقانيمه الثلاثة حالاً فى كل نبي ، ويكون كل نبي هو رب العالمين ، ويقال مع ذلك هو ابنه ، وفى هذا من الكفر الكبير والتناقض العظيم مالا يخفى ، وهذا لازم للنصارى لزوماً لا محيد عنه ، فإن ما ثبت لنظيره ، ولا يجوز التفريق بين المتماثلين ، وليس لهم أن يقولوا : الحلول أو الاتحاد فى المسيح ثبت بالنص ، ولا نص فى غيره لوجوه :

أحدها : أن النصوص لم تدل على شيء من ذلك ، كما قد بُيِّن .

الثانى : أن فى غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه كلفظ الإبن ، ولفظ حلول روح القدس فيه ، ونحو ذلك .

الثالث : أن الدليل لا ينعكس فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول ،

وليس كل ما علمه الله وأكرم به أنبياءه أعلم به الخلق بنص صريح ، بل من جملة الدلالات دلالة الالتزام .

وإذ ثبت الحلول والاتحاد فى أحد النبيين لمعنى مشترك بينه وبين النبى الآخر وجب التسوية بين المتماثلين ، كما إذ ثبت أن النبى يجب تصديقه لأن نبى ربه ويكفر من كذبه لأنه نبىٌّ فيلزم من ذلك يجب تصديق كل نبى وتكفير من كذبه .

الرابع : هب أنه لا دليل على ثبوت ذلك فى الغير ، فيلزم تجويز ذلك فى الغير إذ لا دليل على انتفائه ، كما يقولون : إن ذلك كان ثابتاً فى المسيح قبل إظهاره الآيات على قولهم ، وحينئذ فيلزمهم أن يجوزوا فى كل نبى أن يكون الله قد جعله إلهاً تاماً وإنساناً تاماً كالمسيح وإن لم يعلم ذلك .

الخامس : لو لم يقع ذلك ، لكنه جائز عندهم ، إذ لا فرق فى قدرة الله بين اتحاده بالمسيح واتحاده بسائر الآدميين ، فيلزمهم تجويز أن يجعل الله كل إنسان إلهاً تاماً وإنساناً تاماً ويكون كل إنسان مركباً من لاهوت وناسوت ، وقد تقرب إلى هذا اللازم الباطل من قال بأن أرواح بنى آدم من ذات الله ، وأنها لاهوت قديم أزلى فيجعلون نصف كل آدمى لاهوتاً ، وهؤلاء يلزمهم من المحالات أكثر مما يلزم النصارى من بعض الوجوه ، والمحالات التى تلزم النصارى أكثر من بعض الوجوه .

الوجه الثانى : قولهم : ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان وروحه ونطقه ثلاث أناسى ، ولا إذا قلنا : النار وحرها وضوءها ثلاث نيران ، ولا إذا قلنا : الشمس وضوءها وشعاعها ثلاث شموس .

فيقال : هذا تمثيل باطل لوجوه :

أحدها : أن حر النار وضوءها القائم بها ليس ناراً من نار ، ولا جوهراً من جوهر ، ولا هو مساوى النار والشمس فى الجوهر ، وكذلك نطق الإنسان ليس

هو إنساناً من إنسان ، ولا هو مساوى الإنسان فى الجوهر ، وكذلك الشمس وضوءها القائم بها وشعاعها القائم بها ليس شمساً ولا جوهراً قائماً بنفسه ، وأنتم قلتم إله حق من إله حق ، فقلتم فى الأمانة : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مساوى الأب فى الجوهر] .

وقلتم فى روح القدس : [إنه رب ممجد مسجود له] فأثبتم ثلاثة أرباب .

الثانى : أن الضوء فى الشمس والنار يراد به نفس الضوء القائم بها ، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران ، وهذا مباين لما ليس قائما بها ، ولفظ النور يعبر به عن هذا وهذا ، وكلاهما صفة قائمة بغيرها وعرض ، وقد يراد بلفظ النور نفس النار ونفس الشمس والقمر ، فيكون النور جوهراً قائماً بنفسه ، وإذا كان كذلك فهم جعلوا الأب رباً جوهراً قائماً بنفسه والإبن أيضاً ربا جوهراً قائما بنفسه ، وروح القدس ربا جوهراً قائما بنفسه .

ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتها ليس كل منهما شمساً وناراً قائمة بنفسها ، ولا جوهراً قائما بنفسه ، فلو أثبتوا حياة الله وعلمه أو كلامه صفتين قائمتين به ولم يجعلوا هذا رباً جوهراً قائما بنفسه ، وهذا رباً جوهراً قائما بنفسه لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقاً ، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد جعلهما صفتين لله حتى جعلوا كلا منهما ربا وجوهرا وخالقا ، بل صرحوا بأن المسيح الذى يزعمون اتحاد أحدهما به إلها واحدا وخالقا ؛ فلو كان نفس كلمة الله وعلمه لم تكن إلها خالقا فإن كلام الله وعلمه ليس إلها خالقا ، فكيف والمسيح مخلوق بكلمة الله ، ليس هو نفس كلمة الله ؟

الوجه الثالث : أن قولهم الشمس وشعاعها وضوءها إن أرادوا بالضوء ما يقوم بها وبالشعاع ما ينفصل عنها فليس هذا مثال النار وحرها ولهبها إذ كلاهما يقوم بها ، وعلى هذا فالشمس لم تقم بها إلى صفة واحدة لا صفتين ،

فلا يكون التمثيل بها مطابقا ، وإن أرادوا بالضوء والشعاع كلاهما ما يقوم بها ، أو كلاهما ما ينفصل عنها فكلاهما صفة واحدة ليس هما صفتان كالحياة والعلم ، فعلم أن تمثيلهم بالشمس خطأ ، وبعضهم يقول : الشمس وحرها وضوءها ، كما يقولون مثل ذلك فى النار .

وهذا التمثيل أصح لو ثبت أن فى جرم الشمس حرارة تقوم ، فإن هذا لم يقم عليه دليل ، وكثير من العقلاء ينكره ، ويزعم أن جرم الشمس والقمر والكواكب لا توصف بحرارة ولا برودة ، وهو قول أرسطو وأتباعه .

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه ، فإن أرادوا بالروح حياته ، فليس هذا هو مفهوم الروح ، وإن أرادوا الروح التى تفارق بدنه بالموت وتسمى النفس الناطقة فهذه جوهر قائم بنفسه ليس عرضا من أعراضه ، وحينئذ فيلزم أن تكون روح الله جوهراً قائما بنفسه مع جوهر آخر نظير بدن الإنسان ويكون الرب سبحانه وتعالى مركبا من بدن وروح كالإنسان ، وليس هذا قول أهل الملل ، لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارى ، فتبين أن تمثيلهم بالثلاثة باطل .

والوجه الرابع : أن التمثيل إما أن يقع بصفات الشمس والنار والإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر أو بما هو مباين لذلك ، كالضوء الذى يقع على الأرض والحيطان والهواء ، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشمس أو النار أو الإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر ، فإن أريد بهذا فهذا شعاع منعكس وضوء منقلب ، وليس هو صفة قائمة بالشمس والنار .

وإذا أريد بما حلّ فى المسيح فهذا وهذا يسمى نورا وروحا ، ويسمى نور الله كما قال تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ .

فأخبر أنه جعل الروح الذى أوحاه نورا يهدى به من يشاء .

وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ .

فإذا أريد ماحل فى المسيح من الروح والكلمة بهذا المعنى فلا اختصاص للمسيح بذلك ، فإن هذا يحل فى جميع الأنبياء والمؤمنين وإن كانوا متفاضلين فيه بحسب درجاتهم ، وليس هذا الحال فيهم نفس صفة الله القائمة به ، وإن كان ذلك حاصلا عنها ومسببا عنها ، لكن ليس هو نفس صفة الله ، وإن كان من الناس من يقول : بل صفة الله التى اتصف بها حلت فى العبد . فهذا القول خطأ ، فإن صفة للموصوف القائمة به يمتنع قيامها بعينها بغيره ، ولكن الإنسان إذا تعلم علم غيره ، وبلغ كلام غيره يقال : هذا علم فلان ، وكلامه لأن هذا الثانى بلغه عنه .

والمقصود هو علم الأول ، وكلامه مع العلم بأن نفس ماقام بذات الأول ليس هو عين ماقام بذات الثانى ، وإن كان قد يكون مثله ، وقد يكون الأول هو المقصود بالثانى مثل من بلغ كلام غيره ، فكلام المبلغ هو المقصود بالتبليغ .

وصفات المبلغ كحركته وصوته بها يحصل التبليغ ليس هو نفس المقصود ، وإذا قيل هذا كلام المبلغ عنه ، فالإشارة إلى حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ ، لا إلى مايختص به المبلغ من أفعاله وصفاته ، ولهذا شبه الناس من قال بحلول صفة الرّب فى عبده بالنصارى القائلين بالحلول ، وهو شبيه بهم من بعض الوجوه .

لـكن النصارى لايقولون بحلول صفة مجردة ، بل بحلول الأقنوم الذى هو ذات متصفة بالصفة ، ويقولون : إن المسيح خالق ورازق ، وهو خالق آدم ومريم وهو ولد آدم ومريم ، وهو خالق لهما بلاهوته ابن لهما بناسوته .

و يقولون : هو ابن الله ، وهو الله بلاهوته ، و يقولون أيضاً : باللاهوت والناسوت لأجل الاتحاد ، والله كفرهم بقولهم : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ونحو ذلك ، وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشمس والنار والنفس التمثيل بنفس مايقوم بالشمس والنار والنفس من الضوء والحياة والنطق ، وجعلوا مايثبتونه من الأب والإبن وروح القدس صفات لله ، كما أن هذه صفات لهذه المخلوقات .

قيل لهم أولا : لم يعبر أحد من الأنبياء عليهم السلام عن صفات الله باسم الأب والإبن وروح القدس ، فليس لـكم إذا وجدتم فى كلام المسيح عليه السلام ، أو غيره من الأنبياء ذكر الإيمان بالأب والإبن وروح القدس أن تقولوا مرادهم بذلك صفة الله التى هى الـكلمة والعلم ، ولا حياة الله إذ كانوا لم يريدوا هذا المعنى بهذا اللفظ ، وإنما أرادوا باسم الإبن وروح القدس ماهو بائن عن الله عز وجل .

والبائن عن الله ليس صفة لله ، فضلاً عن أن يكون هو الخالق ، فضلا عن أن يكون البشر المتحد به خالقاً ، فقد ضللتم ضلالا بعد ضلال ، ضلالا حيث جعلتم مراد المسيح وغيره بالإبن وروح القدس صفة الرب ، ثم ضلالا ثانياً حيث جعلتم الصفة خالقاً ورباً ثم ضلالا ثالثاً حيث جعلتم الصفة تتحد ببشر هو عيسى .

ويسمى المسيح ويكون هو الخالق رب العالمين فضللتم فى الحلول ضلالا مثلثاً بعد ضلالـكم فى التثليث أيضاً ضلالات أخر ، حيث أثبتم ثلاث صفات دون غيرها ، وجعلتموها جواهر أرباباً ، ثم قلتم إله واحد فضللتم ضلال مثلثا فى التثليث ، وضلالا مثلثا فى الاتحاد .

وقيل لكم ثانيا : إذا جعلتم ذلك صفات الله ، كما أن الضوء والنطق والحرارة صفات لما تقوم بها امتنع أن تحل بغيرها ، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلة فعل النار والشمس والنفس ، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حاله بغير الله ، وجعلتم مايحل به إلها خالقا ، بل هو الإله الخالق ، ومعلوم أن أحداً من العقلاء لايجعل مايحصل فيه ضوء النار ناراً ، ولا مايحصل فيه شعاع الشمس شمساً ، ولا مايحصل فيه نطق زيد وعلمه هو نفس زيد ، فكان جعلكم المسيح هو الخالق للعالم مخالفا لتمثيلكم .

وتبين بذلك أن ماذكرتموه لايطابقه شيء من الأمثلة ، إذ كان كلاما باطلا متناقضاً يمتنع تحققه ، فلا تمثيل بشيء من الموجودات الثابتة المعلومة ، إلا كان تمثيلا غير مطابق .

ولهذا يشبهون الحلول والاتحاد تارة بحلول الماء فى الظرف وتارة بحلول النار فى الحديد وتارة بالنفس والبدن ، وتارة يقولون بأنهما جوهر واحد اختلطا كاختلاط الماء واللبن ، وكل هذه الأمثال التى ضربوها لله أمثال باطلة ، فإن الماء فى الظرف وغيره من الأوعية محتاج إلى وعائه لو انخرق وعاؤه لتبدد ، وهو محيط ولا يتصف الظرف بشيء من صفات الماء ، والرب تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شيء من مخلوقاته لا إلى العرش ولاغيره أو يحيط به شيء من الموجودات إذ هو الظاهر ، فليس فوقه شيء .

كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ، فهو غنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه ، ولهذا لم يكن ماوصف به نفسه مماثلا لصفات المخلوقين ، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين فهو مستو على عرشه ، كما أخبر عن نفسه مع غناه عن العرش .

والمخلوق المستوى على السرير أو الفلك أو الدابة لو ذهب ماتحته لسقط لحاجته إليه ، والله غنى عن كل ماسواه ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش ، وفرق النصارى الثلاثة يقولون بالاتحاد فلا ينفعهم التمثيل بحلول الماء فى الظرف ، ولو قدر أنهم قالوا بالحلول المجرد مع أن الرب لايحتاج إلى الناسوت لايحويه ولا يمسه ، بل كما خاطب موسى من الشجرة فهذا يوجب أن الناسوت لا يتصف بشىء من الإلهية كالشجرة ثم إنه معلوم بالضرورة أن الصوت الذى كان يسمع هو صوت الناسوت ، فالتمثيل بالشجرة أيضاً باطل ، كما بسط فى موضعه .

وأما الحديد والخشب وغيرهما إذا ألقى فى النار فإنه يستحيل ناراً لاتصاله بالنار ، لا أن النار الذى استحال إليها كانت موجودة فحلت به هنا استحالة بلا حلول ، والنار الذى صارت فى الحديدة حادثة عن تلك النار ليست إياها ، ثم تلك الحديدة إذا طرقت وقع التطريق على النار ، وكذلك إذا ألقيت فى الماء ، فلو كان هذا تمثيلا مطابقا لكان الضرب والصلب والإهانة وقع على اللاهوت ، وكان اللاهوت هو الذى يغتسل بالماء ، وهو الذى يأكل ويشرب ، وهذا من أعظم الكفر .

ويحكى عن بعض طائفة منهم كاليعقوبية أنه يقول : بهذا الكفر ، وإن كان كثير منهم كالملكية والنسطورية ينكره ، فهو لازم لهم ، وكذلك إذا شبهوه بالنفس والبدن ، فإن النفس تتألم تألم البدن ، وتستحيل صفاتها بكونها فى البدن ، وتكتسب عن البدن أخلاقا ، وصفات ، فلو كان هذا تمثيلا مطابقاً لزم تألم اللاهوت بآلام البدن ، وأن يكون متألماً بجوع البدن وعطشه وضربه وصلبه ، وأن يكون مستحيلا لما اكتسبه من صفات الناسوت الذى عندهم بمنزلة البدن للنفس ، وأما قولهم إذ لم نهمل ماتسلمناه ، ولم نرفض ماتقلدناه فقولهم فى ذلك بمنزلة قول اليهود للمسيح : إنا لا نهمل ماتسلمناه ولا نرفض ماتقلدناه من موسى عليه السلام .

وجواب الطائفتين من وجهين :

أحدهما : أنكم بدلتم وحرفتم الكتاب الذى أنزل إليكم ، والشرع الذى شرع لكم ، وتدليل المعانى والأحكام لاريب فيه عند جميع عقلاء الأنام ، وما كان عليه اليهود بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه موسى عليه السلام ، وما كان عليه النصارى بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه المسيح عليه السلام .

والثانى : أنكم كذبتم بالكتاب الآخر ، والرسول الآخر الذى أرسل ، ومن كذب ما أنزل إليه من ربه ، والرسول الذى أرسل إليه كان كافراً مستحقاً لعذاب الدنيا ولآخرة ، وإن كان قبل ذلك متبعاً لشرع رسول الله وكتاب غير مبدل ، فكيف إذا كان قد بدل من أحكامه ومعانيه ؟ .

فصل فى عدم تناقض القرآن

وأما قولهم : ولنا هذه الشهادات والدلائل من الكتاب الذى فى أيدى هؤلاء القوم .

فيقال : لايصح استشهادهم بهذا الكتاب ، واستدلالهم به من الوجوه ، فإنه الذى قد جاء به ، وقد تواتر عنه أنه أخبر مرسل إليهم ، وأنهم كفار إذا لم يؤمنوا به مستحقون للجهاد ، ومن لم يستحل جهادهم فهو كافر ، والقرآن مملوء بكفرهم ، فإن كان هذا رسولا من الله ، وقد أخبر بكفرهم ثبت أنهم كفار .

فإن الرسول لايقول على الله إلا حقاً لا يكذب على الله فى شىء ، ومن كذب على الله ولو فى كلمة واحدة فهو من الكذابين المفترين على الله الكذب، مستحق لعقوبة الكذابين كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤ ــ ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمحُ الله الباطل ويُحقّ الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا بدّلنا آيةً مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنمـــا أنت مُفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزّلهُ روح القدس من ربك بالحق ليُثبِّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ — ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لايرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدّله قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذابَ يوم عظيم * قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ، [سورة يونس ١٥ : ١٦] .

فمتى كانت كلمة من كلمات هذا الكتاب كذبا على الله لم يكن كتاب الله ، ولم يكن الذى جاء به رسول الله ، فإن الكاذب قد يصدق فى أكثر مايقوله لكن إذا كذب فى بعض مايقوله كان كاذباً ، والله تعالى لايرسل من يكذب عليه ، فإن المخلوق لايرضى أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه ، ولو فعل ذلك دل على جهله أو عجزه فكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه .

وحينئذ فمتى كذبوا بكلمة واحدة مما فى الكتاب لم يصح استشهادهم واستدلالهم بشىء مما فى الكتاب ؟ وإن صدقوا بالكتاب كله لزمهم الإيمان بما جاء به واتباع شريعته ، والاعتراف بكفر الذين كذبوه ، وكفر الذين يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم ، وإن الله ثالث ثلاثة .

وهذا بخلاف من آمن بالرسول ، ولم يثبت عنده بعض مانقل عنه ، أو لم يعرف معناه فإن هذا لايقدح فى أصل إيمانه بالرسول .

فالمسلمون إذا كذبوا ببعض ما نقل عن موسى والمسيح فهو لطعنهم فى الناقل ، لا فى النبى المنقول عنه .

وأما النصارى فيعلمون أن محمداً جاء بالقرآن فطعنهم فى بعضه طعن فى الرسول نفسه ، وكفر به ، وليس هذا بمنزلة ما مثلوا به من الوثيقة التى كتب وفاؤها فى ظهرها ، فإن الذى له الدين أقر بالاستيفاء المسقط له ، فلم يبق هناك حق له يدعيه ، بخلاف مايخبر به الذى يقول: إنه رسول الله ، فإنه يقول: إن الله أنزل على هذا الكتاب كله ، وأرسلنى بكذا وكذا إلى كذا وكذا ، فإن كذب فى شىء مما أخبر به عن الله لم يكن الله أرسله ، فإن الذى أرسله هو الذى جعله يبلغ عنه ما يقوله بلا زيادة ولا نقص ، وإرسال الله الرسول يتضمن شيئين :

إنشاء الله للرسالة والله حكيم وهو أعلم حيث يجعل رسالته لا يجعلها إلا فيمن هو من أكمل الخلق وأصدقهم .

ويتضمن إخبار الله عنه بأنه صادق عليه فيما يبلغه عنه مما يقول: إن الله أرسله به فكما صدقه بالآيات المعجزات فى قوله : إنه أرسلنى فقد صدقه بما يقول إنه أرسلنى به ، إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفة بصدقه فيما يخبر به لا فائدة فيه ، ولا يحصل به مقصود الإرسال .

والله عليم بما يشهد به لمن أرسله بخلاف المخلوق الذى يبعث من يظنه يصدق فيما يبلغه عنه ، فيظهر أنه كذب عليه والله يعلم عواقب الأمور ، والرسالة صادرة من علمه وحكمته وهو عليم ، ومن يكذب على الله ولو فى كلمة لم يبلغ عنه ما يقوله على هذا الوجه فلا يكون رسوله .

ولهذا اتفق أهل الملل على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله لا يكذبون عليه عمداً ولا خطأ ، فإن هذا مقصود الرسالة فكان تمثيل هذا بالوثيقة تمثيلا باطلا ، فإن المدعى للاسقاط لم يدع كلاماً متناقضاً ، بل قال :أقررت الدين ثم وفيتك إياه وأنت تقر بوفائه وإقرارك مكتوب فى ظهرها فليس لك أن

تحتج بإقرار الدين دون إقرارك بالوفاء ، بل إما أن تعتبر ما فى الوثيقة من إقراري وإقرارك ، وإما أن تبطل الأمرين .

وهذا كلام عدل ، كالشريكين المتفاوضين ، مثل شريكى العنان ، إذا قال لصاحبه : إن حصل ربح فهو لى ولك ، وإن لم يحصل ربح فلا لى ولا لك .

وكذلك البائع والمؤاجر الذى يقول : إن كان بيننا معاوضة فعليك تسليم ما بذلته وعلى تسليم ما بذلته ، لا يستحق هذا إلا بهذا فهذا كله كلام عدل وإنصاف ، بخلاف الشخص الذى يقال فيه : إنه رسول الله ، والكتاب الذى يقال : إنه كلام الله ، وأن الله أنزله ، فإن هذا إن كان رسولا صادقاً فجميع ما بلغه عن الله حق و إن كان كذباً لم يكن الله أرسله فجميع ما بلغه عن الله كذب على الله ، فلا يجوز بمجرد خبره أن ينسب إلى الله شىء ولا يحتج بما يخبره به عن الله على شىء .

ألا ترى أن من ادعى الرسالة وعلم أنه كاذب كالأسود العنسى ، ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى ، وغير هؤلاء لا يجوز لأحد أن يحتج بشىء مما ذكروا أن الله أرسلهم به ، وإن كان ذلك القول قد علم أنه حق من جهة أخرى ، فإنه قد علم بكذبهم أن الله لم يرسلهم فأى شىء قالوا إن الله أنزل عليهم كاذبين فيه ، ومتى علم أنه كاذب فى نفس الخبر المعين لم يجز أن يحتج بجنس الذى علم أنه كاذب فيه .

كذلك لو قال رجل عندى أن موسى أو داود أو المسيح لم يرسلهم الله بشىء لكن كذبوا فى قولهم أن الله أرسلهم فإذا أراد مع هذا أن يحتج بما ينقل من التوراة والزبور والإنجيل عن الله كان متناقضاً ، وكان احتجاجه باطلا غير مقبول ، بل لو قال : أنا أشك فى بعض ما أخبروا به عن الله ، هل كذبوا فيه أم لا؟ كان ذلك شكا فى أن الله أرسلهم ، فإن من أرسله لا يكذب فى شىء لا خطأ ولا عمداً ، ومع شكه فى ذلك لا يجوز أن يحتج بشىء مما ينقلونه عن الله لتجويز أن يكونوا

كاذبين فى نفس ذلك الذى نقلوه عن الله ، وليس هذا مثل رسول الواحد من الآدميين ، فإنه قد يكون أرسله ، ثم إن الرسول صدق فى بعض ما بلغه من مرسله ، وكذب فى البعض .

ويجوز على الآدمى أن يرسل من يكذب عليه لعدم علمه بكذبه ، أو عدم حكمته فى إرساله .

وأما الرب تعالى : فلا يجوز أن يرسل من يكذب عليه لا عمداً ولا خطأ ، وكذلك الشاهد والخبر الذى قد علم أنه تارة يصدق وتارة يكذب يمكن أن يستدل ببعض أخباره الذى يظهر فيها صدقه لدلالات تقترن بذلك ، بخلاف الرسول فإنه إذا كذب كذبة واحدة امتنع أن يكون الله أرسله ، فصار جميع ما يبلغه عن قدر هو كاذب فى أن الله أرسله به ، فكذبه فى كلة واحدة يوجب أنه كاذب فى جميع ما بلغه عن الله ؛ وأن جميع ما حكاه ورواه عن الله قد كذب فيه ، وإن قدر أن ذلك الكلام فى نفسه حق ، لكن تبليغه عن الله ونقله وروايته وحكايته عن الله كذب على الله .

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان ، مما يناقض مقصود التبليغ بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أُوتوا العلم أنه الحق مِنْ ربك فيؤمنوا به فتُخْبِت له قلوبهم وإن الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتةً أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ ـ ٥٥] .

وإن قالوا : خبره يناقض بعضه بعضاً كان الجواب من وجهين :

أحدها : أن هذا أيضاً إن كان حقاً فإنه يقدح فى رسالته ، فإن الرسول

لا يناقض بعض خبره بعضاً ، ومن كان كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا بشيء مما جاء به ، وإن كان باطلا لم يرد عليه فعلم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب على صحة دينهم الذى خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد ، وهو جمع بين النقضين واستدلال بما في الكتاب على مايوجب بطلان الاستدلال بشيء مما في الكتاب.

وإذا كانت النتيجة تستلزم فساد بعض مقدمات الدليل بطل الاستدلال بذلك الدليل ، الذى لا يصح إلا بصحة مقدماته ، فإذا كانت مقدمته لا تصح إلا مع فساد نتيجته ، ونتيجته مستلزمة لفساد مقدمته ، كان الجمع بين صحة المقدمة والنتيجة جمعاً بين النقيضين .

وكذلك من استدل بشيء من الكتاب على مايناقض مافي الكتاب ، كاستدلال النصارى بآيات فيه على صحة دينهم كان تناقضاً ، فإنه إن صح ذلك الدليل بأن مدح دينهم مع ذمه كان متناقضاً ، والكتاب المتناقض لا يكون كتاب الله ، وإن فسد أحدهما ، إما فساد دينهم ، وإما فساد مدحه .

فالكتاب الذى فيه فساد لا يكون كتاب الله ، فيلزم أن لا يكون كتاب الله على التقديرين ، فلا يصح الاستدلال به من جهة كونه خبر الله ، وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلم به رجلا عالماً حكيما ، وهذا لا يفيد العلم ، إذ ليس معصوماً إلا الأنبياء عليهم السلام .

والنصارى يجوّزون أن يكون معصوماً غير الأنبياء ، فبتقدير أن يكون كذلك فهو حجة عليهم ، وإن قالوا : هو رجل عالم ليس برسول من الله ، قيل لهم : فهذا قوله ليس بحجة لجواز أن يخطىء ، ولكن يعتضد بقوله ، وأما إذا ادعى أن الله أرسله وهو لم يرسله بهذا الكتاب كله ، فهذا كذاب لا يحتج بشيء من كلامه ، ولا يكون مثل هذا عدلا فضلا عن أن يكون حكيما ، بل هو من الذين افتروا على الله كذباً . ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوحَ إليه شيء ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] .

والجواب الثانى : أنا قد بيّنا ما ذكروه ، أنه لا يُناقض شيئاً مما أخبر به ، وأنه ليس فى هذا الكتاب تناقض يحتجون به بوجه من الوجوه .

وأما قولهم : وأعظم حجتنا ماوجدناه فيه من الشهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

فيقال : بل ما ذكروه حجة عليهم لا لهم ، فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وخبر الله حق ، ووعد الله صدق والله لا يخلف الميعاد ، فلما اتبع المسيح من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم .

ثم لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدّين الذى بعث به المسيح ، وسائر الأنبياء قبله، وكان محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما جاء به المسيح مبشراً برسول يأتى من بعده اسمه «أحمد» ، صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أتبعُ للمسيح عليه السلام من النصارى الذين غيّروا شريعته ، وكذّبوه فيما بشر به ، فجعل الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق النصارى إلى يوم القيامة .

كما جعلهم أيضاً فوق اليهود إلى يوم القيامة ، والنصارى بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح ، لكنهم أتبع له من اليهود الذين بالغوا فى تكذيبه وسبه فإنهم كذبوه أولا ، وكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ثانياً فصاروا أبعد عن المسيح من اليهود ، فكانوا مجعولين فوق اليهود

والمؤمنون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، هم المتبعون للمسيح عليه السلام ، ومن سواهم كافر به ، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فوق اليهود والنصارى إلى يوم القيامة .

ولهذا لما جاء المسلمون يقاتلون النصارى غلبوهم ،وأخذوا منهم خيار الأرض : الأرض المقدسة ، وما حولها من مصر والجزيرة ، وأرض العرب ، ولم يزل المسلمون منتصرين على النصارى ، ولا يزالون إلى يوم القيامة .

لم تنتصر النصارى قط على جميع المسلمين ، وإنما تنتصر على طائفة من المسلمين، بسبب ذنوبهم ، ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم ولو كان النصارى هم المتبعون المسيح عليه السلام ، والمسلمون كفاراً به لوجب أن ينتصروا على جميع المسلمين ، لأن جميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح ويكفرون النصارى ، فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارى .

فصل فى تناقض ما ذهب إليه النصارى

من اتحاد اللاهوت بالناسوت

قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء، وتجسدها بإنسان مخلوق ، وهو الذى أخذ من مريم العذراء المصطفاة ، التى فضلت على نساء العالمين واتحدت الكلمة به اتحاداً بريئاً من اختلاط أو تغير أو استحالة وخاطب الناس ، كما خاطب الله لموسى النبى من العوسجة ففعل المعجز بلاهوته ، وأظهر العجز بناسوته والفعلان هما من المسيح الواحد .

والجواب : إن فى هذا الكلام من أنواع الكذب والكفر والتناقض أموراً كثيرة ، وذلك يظهر بوجوه :

الأول : إن قولهم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء كلام متناقض ، فإن الخالق هو الإله الخالق ، وهو خلق الأشياء بكلامه ، وهو قوله : « كن » فالخالق لم يخلق به الأشياء ، بل هو خلقها والكلام الذى به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها ، بل به خلق الخالق الأشياء .

والفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين ما به خلق الخالق معقول ، وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذى به خلقت المخلوقات ، فجعلوا الكلمة هى الخالق ، وجعلوا المخلوقات خلقت بها .

وإيضاح هذا أن الكلمة إن كانت مجرد الصفة ، فإن الصفة ليست خالقة ، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق ، ليس هذا هو المخلوق به .

والثانى قولهم : تجسدها بإنسان مخلوق ، وقولهم : تجسم كلمة الله ، فإن قولهم تجسمت وتجسدت يقتضى أن الكلمة صارت جسداً وجسما بالإنسان المخلوق وذلك يقتضى انقلابها جسداً وجسماً ، وهذا يقتضى استحالتها وتغيرها ، وهم قالوا : اتحاداً بريًا من تغير واستحالة .

الثالث قولهم : اتحدت الكلمة به اتحاداً بريًا من اختلاط أو تغير ، أو استحالة ، كلام متناقض أيضاً ، فإن الاتحاد أن يصير الإثنان واحداً ، فيقال قبل الاتحاد كان اللاهوت جوهراً والناسوت جوهراً آخر .

وإن شئت قلت : كان هذا شيئاً وهذا شيئاً ، أو هذا عينا قائمة بنفسها ، وهذا عيناً قائمة بنفسها ، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا ، أو صار الإثنان واحداً ، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتحاد ، بل هما متعددان كما كانا متعددين ، وإن كانا قد صار شيئاً واحداً ، فإن كان هذا الواحد هو أحدهما فالآخر قد عدم وهذا عدم لأحدهما لا اتحاده ، وإن كان هذا الذى صار واحداً ليس هو أحدهما ، فلابد من تغيرهما واستحالتهما ، وإلا فلو كانا بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتهما لم يكن هناك اتحاد .

فإذا قيل : اتحد اتحاداً بَرِيًا من اختلاط أو تغير أو استحالة كان هذا كلاماً متناقضاً ، ينقض بعضه بعضاً ، فإن هذا إنما يكون مع التعدد والمباينة ، لا مع الاتحاد . يوضح ذلك أنه إذا اتحد الماء واللبن ، والماء والخمر ، ونحو ذلك كان الحاصل من اتحادهما شيئاً ثالثاً ليس ماء محضاً ولا لبناً محضاً ، بل هو نوع ثالث ، و كل من الماء واللبن قد استحال وتغير واختلط ، وأما اتحاد بدون ذلك فغير معقول .

ولهذا عظم اضطراب النصارى فى هذا الموضع ، وكثر اختلافهم ، وصار كل منهم يرد على الآخر ما يقوله ، ويقول هو قولاً يكون مردوداً ، فكانت أقوالهم كلها باطلة مردودة ، إذ كانوا اشتركوا فى أصل فاسد يستلزم أحد أمور

كلها باطلة ، فأى شيء أخذ من تلك اللوازم كان باطلا ، ولا بد له منها ، فيأخذ هذا بعض اللوازم فيرده الآخر ، ويأخذ الآخر لازماً آخر فيرده الآخر .

وهذا شأن جميع المقالات الباطلة ، إذا اشترك فيها طائفة لزمها لوازم باطلة ، وفساد اللازم يدل على الملزوم ، فإنه إذا تحقق الملزوم تحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم .

وهذا يتبين بالوجه الرابع ، وهو أن يقال كثير من النصارى يقول : إنها بعد الاتحاد جوهر واحد ، وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وهذا القول يضاف إلى اليعقوبية .

ويقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا ، كما يختلط الماء واللبن ، والماء والخمر . وهذا القول هو حقيقة الاتحاد ، لا يعقل الاتحاد إلا هكذا ، لكن فساده ظاهر لعقول الناس ، وإذا كان هذا لازماً لقول النصارى ، وفساده ظاهر كان فساد اللازم يدل على فساد الملزوم . فإن حقيقة هذا القول أن الذى كان يأكل ويشرب ويبول ويتغوط ، والذى ضرب وبصق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه هو رب العالمين .

ونفس تصور هذا القول مما يوجب العلم ببطلانه وتنزيه الله عن ذلك ، وإن قائله من أعظم المفترين على الله .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدَّهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ .

الوجه الخامس : قولهم : وخاطب الناس ، كما خاطب الله موسى من العوسجة يوجب أن يكون الذين كلمهم المسيح ممن آمن به وكفر به هو بمنزلة موسى ابن عمران الذى كلمه الله تكليما .

ومعلوم أن تكليم الله لموسى عليه الصلاة والسلام ، مما فضله به على غيره من النبيين ، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسى بن عمران لزم أن يكون كل من آحاد الناس في ذلك بمنزلة موسى بن عمران ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل .

الوجه السادس : أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيائه ورسله أفضل من خطابه لمن ليس بنبي ولا رسول . والمسيح عليه السلام لم يكلم عامة النبيين والمرسلين ، بل لم يكلم إلا ناساً منهم من آمن به ، ومنهم من كفر .

والتحقيق أنه لم يكلم أحداً من رسل الله ، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله ، وهذا باطل ، ولو سلم فلم يكلم إلا اثنى عشر رسولا ، وقد بعث الله قبله رسلا كثيرين . قد روى في حديث أبي ذر أن عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر .

وقد قال الله في القرآن : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] .

وفي الحديث الذي في المسند عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » ، وهذه السبعون سواء كانت هي التي هداها ، أو هي الجميع فإنه يدل على أكثرية الرسل ، ولم يكلم الله أحداً من هؤلاء من بشر حل فيه ، فلو كان المكلم للناس في عيسى هو الله لكان تكليم الله للذين كلمهم عيسى من الكفار .

والمؤمنون أكمل من يكلمه رسل الله الذين أرسلهم .

الوجه السابع : أن الناسوت ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواسيت ، والإنسان لا يستطيع أن يرى الله في الدنيا ، كما أخبر بذلك موسى وعيسى ومحمد ، فإذا لم يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصال به ومماسته ، فضلا عن أن الإتحاد به أولى وأحرى .

الوجه الثامن : أن الله لما كلّم موسى عليه السلام من الشجرة كان الكلام المسموع مخالفاً لما يسمع من كلام الناس ، ولهذا لم تطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت ، بل قالوا لموسى : صف لنا ذلك وهذا عندهم فى التوراة .

كما روى الخلال فى كتاب السنة ، عن أحمد بن حنبل ، فيما رواه من حديث الزهرى قال : « لما سمع موسى كلام الله قال : يارب هذا الكلام الذى أسمع هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسى هو كلامى ، وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها ، وأنا أقوى من ذلك ، وإنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من هذا لمت . فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له : صف لنا كلام ربك ، فقال ، سبحان الله ، وهل أستطيع أن أصفه لكم ؟ ! قالوا : فشبهه لنا قال : هل سمعتم أصوات الصواعق التى تقبل فى أحلى حلاوة وسمعتموها فكأنه مثله » .

وأما المسيح عليه السلام ، فكان كل أحد يسمع صوته كصوت سائر الناس لم يتميز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران .

الوجه التاسع : أن الجنى إذا حلّ فى الإنسى ، كما يحل فى المصروع ، ويتكلم على لسانه ، فإنه يتغير الكلام ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلام الإنسى مع أنه يتكلم بلسان الإنسى وحركة أعضائه ، فيعلم أن الصوت حصل بحركة بدن الإنسى ، مع العلم بأنه قد تغير تغيرا خالف به المعهود من كلام الإنسى ، والإنسان الذى حل فيه الجنى يغيب عنه عقله ولا يشعر بما تكلم الجنى على لسانه ، فربّ العالمين سبحانه وتعالى لو حل فى بشر واتحد به وتكلم بكلامه ، وكان الكلام المسموع كلام الله المسموع منه ، لكان يظهر من الفرق بين ذلك وبين المعهود من كلام الإنسى ما هو فى غاية الظهور ، وكان يتغير حال الإنسى غاية التغير ، فإن الربّ عز وجل لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فإذا كان البدن الإنسى لا يثبت لتجليه للجبل ، فكيف يثبت لحلوله فيه ويكلمه على لسانه من غير تغير فى البدن .

وقد كان الوحى والملائكة إذا نزلت على الأنبياء فى باطنهم يظهر التغير فى أبدانهم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى ثقل حتى ينزل به البعير ، وإن كان فخذه على فخذ أحد ثقل حتى كاد يرضه .

وفى الصحيحين عن عائشة : «أن الحارث بن هشام قال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك يكلمنى فأعى ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقا » .

وموسى عليه السلام لما سمع كلام الله مقت الآدميين ، لما وقر فى سمعه من كلام الله ، وكان النور يظهر على وجهه حتى كان يتبرقع . والمسيح عند النصارى قد اتحد به اللاهوت من حين علقت به مريم ولم يزل متحداً به وهو حمل فى بطنها يعظم اتحاده به كلما كبر ، ثم كذلك كان متحداً به وهو صبى إلى أن رفع إلى السماء ، وقعد عن يمين أبيه ، وهو متحد به عندهم واللاهوت والناسوت جميعا . ومع هذا لم يتغير بدن المسيح قبل أن يعمده « يوحنا » ويرى شبه الحمامة نازلا عليه لم يظهر الآيات ، بل كان كآحاد الناس .

وأول ما ظهر من الآيات قلب الماء خمراً .

وموسى عليه السلام بمجرد ما سمع الكلام ، وكلمه الله ظهر عليه النور ، وأين سمع الكلام من الاتحاد به . وموسى لما سمع الكلام وكلمه الله من الشجرة نزلت الملائكة وظهر له من آيات الله ، وعظمته ما يناسب تكليم الله عز وجل .

والرب دائما عند النصارى متحد ببدن المسيح ولم يظهر من آيات الربوبية والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء .

الوجه العاشر : أن المخاطب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت فكلامه صريح فى أنه مخلوق مربوب يدعو ويسأل ، والمجموع ليس بمخلوق يسأل الله ويعبده ، وإن كان هو اللاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا ، فهو أبعد

وأبعد ، وإن كان الناسوت وحده فلم يكن اللاهوت مخاطبا للناس من الناسوت كما كلم الله موسى من الشجرة .

وأيضاً فلم يكن فوق بين حقيقة كلام الناسوت ، وكلام المسيح الصريح فى أنه مخلوق كثير وهم يقرون به ، ولكن يقولون ذلك كلام عن الناسوت فيقال لهم حينئذ فالمخاطب للناس هو الناسوت دون اللاهوت ، ، أنتم قلتم إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح كما خاطب موسى من الشجرة .

والخطاب الذى سمعه موسى من الشجرة، هو كله كلام اللاهوت والكلام الذى كان يسمع من المسيح ليس فيه شىء يختص باللاهوت ، بل عامته صريح فى أنه كلام الناسوت .

الوجه الحادى عشر : أن الله لما كلم موسى من الشجرة ، كان الكلام كلام الله وحده لم يكن للشجرة كلام أصلا بوجه من الوجوه ، فإن كان هذا المثل مطابقاً ، كان الذى يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده .

ومعلوم أن فى الإنجيل وغيره من النصوص الصريحة ما يدل على أن الناسوت كان هو المتكلم ، مما يبين الفرق الواضح بين هذا وهذا .

الوجه الثانى عشر : أن الذى نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال : ﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾ ، [سورة القصص : ٣٠] .

﴿ إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ ، [سورة طه : ١٤ ـ ١٦] .

وسائر ما تكلم به كله يقتضى أنه كلام رب العالمين ، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلا ، بل كان فى كلامه من الإقرار بأنه رسول ، وأنه مخلوق محتاج ، وأنه ابن البشر وغير ذلك ما يناقض من كل وجه كلام المنادى لموسى من الشجرة ، فمن سوى بين هذا وهذا كان قد سوى بين

رب العالمين وبين إنسان من الآدميين ، وهو أضل من الذين قال الله فيهم : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسوِّيكم برب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٩٨] .

فإن أولئك جعلوهم أنداداً لله فى بعض الأمور مع اعترافهم مخلوقون ، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذى يتكلم هو رب العالمين الذى كلم موسى من الشجرة ، وقالوا : إن هذا الذى كلم العباد هو ذاك الذى نادى موسى من الشجرة .

الوجه الثالث عشر : أن يقال : معلوم أن الله أجل أعظم وأكبر من رسله بما لا يقدر المخلوق قدره ، فلو كان هو الذى كلم الخلق على لسان المسيح ، وكان الحواريون رسله الذين سمعوا كلامه منه بلا واسطة ، لكان الحواريون، إمامثل موسى وإما أعظم .

ومعلوم أن المسيح نفسه لم تكن له آيات مثل آيات موسى ، فضلا عن الحواريين ، فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى ، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء كإلياس وغيره .

وأهل الكتاب عندهم فى كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التى انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعصى التى للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا .

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره وهى أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان إذا كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول والله تعالى يحيى الموتى ، بإقامتهم من قبورهم وقد أحيا غير واحد من الموتى فى الدنيا .

وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال

والعصى فهذا أعجب من حياة الميت ؛ وأيضاً فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ ، [سورة البقرة٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾ ، [سورة البقرة : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ . [سورة البقرة : ٢٤٣] .

وأيضاً فموسى عليه الصلاة والسلام كان يخرج يد بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء البرص الذى فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العجب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من برص ثم عودها إلى حالها الأول ففيه أمران عجيبان لا يعرف لهما نظير .

وأيضاً فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن اهلاك الله لعدو موسى مالم يكن مثله للمسيح .

وأيضاً فموسى كان الله يطعمهم على يده المنّ والسلوى مع كثرة بنى إسرائيل ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثنى عشر عينا يكفيهم .

وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمراً ونحو ذلك مما يحكى عنه ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان لموسى فى عدوه من القمل والضفادع والدم وسائر الآيات مالم يكن مثله للمسيح ، فلو كان الحواريون رسلا قد كلمهم الله مثل ما كلم موسى من الشجرة كانوا مثل موسى ، فكيف والمسيح نفسه لم يكن له آيات مثل آيات

موسى ، ولو كان المسيح هو اللاهوت الذى كلم موسى لـكان يظهر قدرته أعظم مما أظهره على يد موسى ، فانه لم يحلّ فى بدن موسى ، ولا كان اللاهوت يكلم الخلق من موسى ، كما يزعمه هؤلاء فى المسيح ، ومع هذه فالآيات التى أيِّد بها عبده موسى تلك الآيات العظيمة ، فـكيف تـكون آياته إذا كان هو نفسه الذى قد حل فى بدن المسيح ، وهو الذى يخاطب الناس على لسان المسيح .

الوجه الرابع عشر : أن يقال إن قولهم إن الله خاطب الناس فى المسيح ، كما خاطب موسى النبى من الموسجة من أبطل الباطل ، فان الله باتفاق الأمم كلها لم يحل فى الشجرة ولم يتحد بها ، كما يزعمون هم أنه حلّ بالمسيح واتحد به ، فإنه عندهم حلّ بباطن المسيح ، بل و بظاهره واتحد به باطنا وظاهراً والرب تعالى لم يكن فى باطن الشجرة ولا حل فيها ولا اتحد بها وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله إنه :

﴿ نُودِيَ من شاطيء الوادى الأيمن ﴾ ، [سورة القصص : ٣٠] .

وذلك مثل قوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالوادى المقدَّس طوى ﴾ ، [سورة النازعات : ١٥، ١٦] .

وفى البقعة المباركة ونحو ذلك وليس فى شيء من ذلك أن الرب حلّ فى باطن الوادى المقدس ، أو البقعة المباركة أو الجانب الأيمن ، ولا أنه اتحد بشيء من ذلك ولا صار هو وشيء من ذلك جوهراً واحداً ولا شخصاً واحداً ، كما يقول بعض النصارى : إن اللاهوت والناسوت صار جوهراً واحداً ، وبعضهم يقول : صارا شخصاً واحداً ، بل ولا قال أحد : إنه حل فى شيء من ذلك كحلول الماء فى اللبن ، أو النار فى الحديد ، كما يقول بعضهم : إن اللاهوت حل فى الناسوت كذلك لو قدر أن بعض الناس قال شيئاً من المقالات التى لا تدل عليها الـكتب الإلهية ، ولا تعلم بالعقل لم يكن قوله حجة ، إذ لا يحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء ، أو بما يعلم بالعقل .

والوجه الخامس عشر : أن الذى كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا ، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق ، والكلام على ذلك مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأما حلوله فى البشر أو اتحاده به فيمتنع من وجوه كثيرة عقلا وسمعاً مع أنه لم يخبر به نبى .

وما تقوله النصارى فى غاية التناقض ، فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة ، وهو الخالق لأن الكلمة والذات شىء واحد ، فلا يفرقون بين الصفة والموصوف ثم يقولون : المتحد بالمسيح هو الكلمة دون الذات التى يسمونها الأب ، ويقولون مع ذلك : إنه لم يتبعض ولم يتجزأ .

ومعلوم بصريح العقل أن الكلمة التى هى الصفة لا يمكن مفارقتها للموصوف ، فلا تتحد وتحل دون الموصوف لا سيا والمتحد الحال عندهم هو الخالق ، فيجب أن يكون هو الأب وهم لا يقولون : المتحد الحال هو الأب ، بل هو الإبن ، وإذ قالوا : إن الإبن هو المتحد الحال دون الأب ، فالمتحد ليس هو الذى اتحد ، والابن اتحد والأب ما اتحد .

ويقولون : إن المتحد أخذ عيسى حجاباً احتجب به ، ومسكناً يسكن فيه خاطب الناس فيه ، ويقولون مع ذلك : إنه اتحد به والأب لم يحتجب به ولم يسكن فيه ولم يتحد به فلزم قطعاً أن يكون منه شىء اتحد ومنه شىء لم يتحد ، فالأب لم يتحد والإبن اتحد وهذا يناقض قولهم لم يتبعض ويبطل تمثيلهم بالخاطب من الشجرة ، فإن ذلك هو الله رب العالمين ليس هو الإبن دون الأب مع ما ذكر من الفروق الكثيرة البينة التى تبين بطلان تمثيل هذا بهذا .

الوجه السادس عشر : أن الرب عز وجل إذا تكلم بكلام الربوبية فلو كان فى المسيح اللاهوت الذى أرسل موسى وغيره لم يخضع لموسى والتوراته ويذكر أنه إنما جاء ليكملها لا لينقصها ، ولا كان يقوم بشرائعها فإن رب العالمين

أعظم وأجلّ من ذلك ، بل لو كان ملكا من الملائكة لم يفعل مثل ذلك ، فكيف برب العالمين ؟

وإذا قالت النصارى : فعل ذلك خوفاً من بنى إسرائيل ، أو خوفاً أن يكذبوه كان عذرهم أقبح من ذنوبهم ،فرب العالمين ممن يخاف سبحانه وتعالى ؟!

وموسى لما كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات ما يدل بها فرعون وقومه مع عتوه وعتو قومه ، ولم تكن بنو إسرائيل أعتى من فرعون وقومه ، فلو كان هو رب العالمين كان ما يؤيد به نفسه عن الآيات أعظم مما يؤيد به عبده موسى .

ومن عجائب النصارى أنهم يدعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب .

وأما المسلمون فيقولون : هو رسول مؤيد ، لم يصلب وهذه سنته سبحانه فى رسله ، فإنه يؤيدهم و ينصرهم على عدوهم ، كما نصر نوحاً وإبراهيم ومحمدا صلوات الله عليهم وسلامه ، فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولا مغلوبا ، فكيف يكون ربا مصلوبا ؟ .

الوجه السابع عشر : قولهم فعل المعجز بلاهوته ، وأظهر العجز بناسوته ، فيقال لهم : إن الله فعل من المعجزات ما هو أعظم من المعجزات التى ظهرت على يد المسيح عليه السلام ، ولم يكن متحداً بشىء من البشر ، فأى ضرورة به إلى أن يتحد بالبشر إذا فعل معجزات دون ذلك ؟

الوجه الثامن عشر : أن المسيح ظهرت على يديه معجزات كما ظهر لسائر المرسلين ، ومعجزات بعضهم أعظم من معجزاته ، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلا على اتحاد اللاهوت بالنبى الذى ظهرت على يديه ، فعلم أن الاستدلال بظهور المعجزات على يديه فى غاية الفساد .

والوجه التاسع عشر : أن اللاهوت إن كان متحداً بالناسوت لم يتميز فعله عن فعل الناسوت،فإنهما إذا صارا شيئاً واحداً كان كل ما فعله عن عجز ومعجز

هو ذلك الواحد ، كالأمثال التى يضربونها لله سبحانه ، فإنهم يمثلون ذلك بالنار مع الحديد ، والماء مع اللبن والخمر .

ومعلوم أن الحديدة إذا أدخلت النار حتى صارت بيضاء كالنار البيضاء ففعلها فعل واحد ، ليس لها فعلان متميزان : أحدهما بالحديد ، والآخر بالنار ، بل فيها قوة الحديد وقوة النار ، بل فيها قوة ثالثة ليست قوة الحديد ولا قوة النار ، إذ ليست حديداً محضاً ولا ناراً محضاً .

وكذلك الماء إذا اختلط باللبن والخمر ، فالمتحد منها شيء واحد فعله فعل واحد منه ليس ماء محضاً ولا لبناً محضاً ، لا يقول عاقل : إن له فعلين يتميز أحدهما عن الآخر ، فعلا بكونه لبناً محضاً ، وفعلا بكونه ماء محضاً فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللاهوت بالناسوت ، وأن يصير فعل المتحد شيئاً واحداً .

وإن كان اللاهوت لم يتحد به فهما اثنان شخصان جوهران وطبيعتان ومشيئتان ، وليس هذا دين النصارى مع أن حلول الرب عز وجل فى البشر ممتنع ، وكذلك إذا مثلوه بالنفس مع البدن ، فإن النفس تتغير صفاتها بمفارقة البدن ، وكذلك البدن تتغير صفاته بمفارقة الروح له .

والإنسان الذى نفخت فيه الروح هو نوع ثالث ليس فيه بدن محض ، وروح محض حتى يقال : إنه يفعل كذا ببدنه ، وكذا بنفسه ، بل أفعاله تشترك فيها الروح فهو إذا أكل وشرب فالروح تتلذذ بالأكل والشرب ، وبها صار آكلا شارباً ، وإلا فالبدن الميت لا يأكل ولا يشرب وإذا نظر واستدل وسمع ورأى وتعلم ، فالنفس فعلت ذلك بالبدن ، والبدن يظهر فيه ذلك ، والروح وحدها لا تفعل ذلك ، وعندهم إن فعل هو فعل اللاهوت بعد الاتحاد .

والقول بهذا مع الاتحاد فى غاية التناقض والفساد ولا يعقل نظير هذا فى شيء من الموجودات ، ونفس المتكلم بهذا من النصارى لا يتصور ما يقول ، ولا يمكنه أن يمثله بشيء معقول .

فصل فى امتناع كون المسيح إلهاً

قالوا : وقد جاء فى هذا الكتاب ، الذى جاء به هذا الإنسان يقول : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

وهذا يوافق قولنا : إذ قد شهد أنه إنسان مثلنا بالناسوت الذى أخذ من مريم وكلمة الله وروحه المتحدة فيه ، وحاشا أن تكون كلمة الله وروحه الخالقة مثلنا نحن المخلوقين ، وأيضاً قال فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾ .

فأشار بهذا القول إلى اللاهوت الذى هو كلمة الله التى لم يدخل عليها ألمٌ ولا عرض ،وقال أيضا : ﴿ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىّ يوم القيامة ﴾وقال فى سورة المائدة عن عيسى إنه قال : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ فأعنى بموته عن موت الناسوت الذى أخذ من مريم العذراء .

قال أيضاً فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

فأشار بهذا إلى اللاهوت الذى هو كلمة الله الخالقة ، وعلى هذا القياس نقول: إن المسيح صلب وتألم بناسوته ، ولم يصلب ولا تألم بلاهوته .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال : دعواهم على محمد صلى الله عليه وسلم أنه أثبت فى المسيح اللاهوت والناسوت ، كما يزعمه هؤلاء النصارى فيه هو من التكذيب الواضح المعلوم على محمدصلى الله عليه وسلم الذى يعلم من دينه بالاضطرار ، كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام ، وإثبات رسالته فلو ادعى اليهود على محمد صلى الله

عليه وسلم أنه كان يكذِّب المسيح ويجحد رسالته كان كدعوى النصارى عليه أنه كان يقول : إنه رب العالمين ، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أخبر فيما بلغه عن الله عز وجل بكفر من قال ذلك .

وبما يناقض ذلك في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه مَنْ يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحدٌ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت مِنْ قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾، [سورة المائدة : ٧٢ – ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون *

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأ كلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ـ ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولما ضُرِب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضَربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ ، [سورة الزخرف: ٥٧ ـ ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكان عليهم شهيداً مادام فيهم ، وبعد وفاته كان الله الرقيب عليهم ، فإذا كان بعضهم قد غلط فى النقل عنه أو فى تفسير كلامه ، أو تعمد تغير دينه لم يكن على المسيح عليه السلام من ذلك درك ، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين .

وقد أخبر الله سبحانه أن أول ماتكلم به المسيح أن قال : ﴿ إنى عبد الله آتانِىَ الكتاب وجعلنى نبيـاً * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادُمت حيًّا * وَبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ ، [سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٢] .

ثم طلب لنفسه السلام فقال : ﴿ والسلام علىَّ يوم وُلدتُ و يوم أموتُ و يوم أبعث حيا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٣] .

والنصارى يقولون : علينا منه السلام ، كما يقوم الغالية فيمن يدعون فيه الإلهية كالنصيرية فى علىّ ، والحاكمية فى الحاكم .

الوجه الثانى : أن يقال إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل ، و إنما قال : ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ، ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، وقال : ﴿ المسيح فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فبما نقْضِهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقٍ وقولهم قلوبنـــا غُلْفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * و بكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٥ — ١٦١] .

فذم الله اليهود بأشياء منها : ﴿ قولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ حيث زعموا أنها بغىّ ، ومنها قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شُبِّه لهم ﴾ ، وأضاف هذا القول إليهم ، وذمهم عليه ، ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهداً معهم ، بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح ، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الـكذب .

قال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم ﴾ فنفى عنه القتل ، ثم قال : ﴿ وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ .

وهذا عند أكثرهم العلماء معناه قبل موت المسيح . وقد قيل قبل موت اليهودى وهو ضعيف ، كما قيل إنه قبل موت محمد صلى الله عليه وسلم وهو أضعف ، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به ، فإن يقبل توبة العبد مالم يغرغر .

وإن قيل : المراد به الإيمان الذى يكون بعد الغرغرة لم يكن فى هذا فائدة فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذى كان يجحده ، فلا اختصاص للمسيح به ، ولأنه قال : قبل موته ، ولم يقل بعد موته ، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليهما وسلامه ، واليهودى الذى يموت على اليهودية فيموت كافراً بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، ولأنه قال : ﴿ وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، وقوله : ﴿ ليؤمنن به ﴾ فعل مقسم عليه ، وهذا إنما يكون فى المستقبل ، فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ، ولو أريد قبل موت الـكتابى لقال : وإن من أهل الـكتاب إلا من يؤمن به ، لم يقل « ليؤمنن به » .

وأيضاً فإنه قال : إن من أهل الـكتاب وهذا يعم اليهود والنصارى ، فدل

ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح ، وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذباً كما يقول اليهودى ، ولا هو الله كما تقوله النصارى .

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابى ليؤمنن به قبل أن يموت الكتابى ، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودى ونصرانى ، وهذا خلاف الواقع وهو لما قال : ﴿ وإن منهم إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ودل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجوداً حين نزوله أى لا يختلف منهم أحد عن الإيمان به ، لا إيمان من كان منهم ميتاً .
وهذا كما يقال : إنه لا يبقى بلد إلا دخله الدجال إلا مكة والمدينة أى فى المدائن الموجودة حينئذ ، وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر ، فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين .

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ ، وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر بإيمانهم به قبل موته ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلمٌ للساعة فلا تمترن بها واتبعونِ هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعونِ * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٩ :ـ ٦٥] .

فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن ينزل فيكم

ابن مريم حكما عدلاً، وإماما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»

وقوله تعالى: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل، وبين أنهم يومنون به قبل أن يموت.

وكذلك قوله: ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾، ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره.

ولفظ التوفى فى لغة العرب معناه: الاستيفاء والقبض، وذلك ثلاثة أنواع: أحدها: توفى النوم، والثانى: توفى الموت، والثالث: توفى الروح والبدن جميعاً، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس، ويخرج منهم الغائط والبول، والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو فى السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض، ليست حاله كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب واللباس والنوم، والغائط والبول، ونحو ذلك.

الوجه الثالث: قولهم إنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم: عنى بتوفيته عن توفى الناسوت. وسواء قيل موته أو توفيته فليس هو شيئا غير الناسوت، فليس هناك شىء غيره لم يتوف الله تعالى قال: ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ﴾ فالمتوفى هو المرفوع إلى الله وقولهم: إن المرفوع هو اللاهوت مخالف لنص القرآن، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى.

وكذلك قوله فى الآية الأخرى: ﴿ وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم: ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾، واليهود لم يدعوا قتل لاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتا فى المسيح، والله تعالى لم يذكر دعوى

نقله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه،فقال تعالى : ﴿وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه﴾ فأثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه ، وإنما هو الناسوت،فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل، وهو الذى رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصب فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود ، وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره ، كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه فعرفوه ، وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علما بل ظنا قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : ﴿ إنى رافعك إلى ﴾ ، وكذلك قوله ﴿بل رفعه الله إليه﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه ، وإذا قالوا : هو الكلمة فهم مع ذلك إنه الإله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ، ونحوهما مما هو كلام الله الذى قال فيه : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين ، ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله كنت أنت يدل على الحصر ، كقوله إن كان هذا هو الحق ونحو ذلك ، فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيباً على اتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم المحصى أعمالهم المجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع على أعمالهم ، ولا يحصيها ولا يجازيهم بها .

فصل فى كلمة الله ما هى

قالوا : وقد سماه الله أيضاً فى هذا الكتاب خالقاً حيث قال : ﴿ وإذ تخلقُ من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكونُ طيراً بإذنى ﴾ ، سورة المائدة : ١١٠] .

فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبى .

[بكلمة الله خلقت السموات والأرض ، ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه] .

وهذا مما يوافق رأينا ، واعتقادنا فى السيد المسيح لذكره ، لأنه حيث قال : ﴿ وتخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ أى بإذن اللاهوت الكلمة المتحدة فى الناسوت .

والجواب : إن جميع ما يحتجون به من هذه الآيات وغيرها ، فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشىء من كتب الله وكلام أنبيائه ، كان فى نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطق به أنبياؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبياناً للخلق وشفاء لما فى الصدور ، فلابد أن يكون فى كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، لكن

الناس يؤتون من قبل أنفسهم ، لا من قبل أنبياء الله تعالى .

أما من كونهم لم يتدبروا القول الذى قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه .

وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض ، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض ، فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ .

وإما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ، ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة ، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذى دل عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا ، وتعرف ماعادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به وتعرف المعانى التى عرف أنه أرادها فى موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته فى معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده .

وأما إذا استعمل لفظه فى معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله فى المعنى الذى جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذى قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ بجعل كلامه متناقضاً ، ويترك كلامه على ما يناسب سائر كلامه كان ذلك تحريفاً لكلامه عن موضعه ، وتبديلا لمقاصده وكذباً عليه .

فهذا أصل من ضل فى تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم ، فإذا عرف هذا ، فنقول : الجواب عما ذكروه هنا من وجوه :

أحدها : أن الله لم يذكر عن المسيح خلقاً مطلقاً ، ولا خلقاً عاما ، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى ، فأول ما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ؛ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ؛ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ﴾ .

فذكر نفسه بأنه الخالق البارىء المصور ، ولم يصف قط شيئاً من المخلوقات بهذا لا ملكا ولا نبياً ، وكذلك قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾ .

ووصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأنه له الملك وله الحمد ، وأنه الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا بشىء من الخصائص التى يختص بها ، التى وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .

وأما المسيح عليه السلام فقال فيه : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ﴾ .

وقال المسيح عن نفسه : ﴿ وأخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله ﴾ فلم يذكر إلا خلق شىء معين خاص بإذن الله ، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك ؟

الوجه الثانى : أنه خلق من الطين كهيئة الطير ، والمراد به تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير ، وغير الطير من الحيوانات ، ولكن التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح ، فإن الله أذن له فيه .

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله عز وجل ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين ، فإن هذا مشترك ، ولقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المصورين ، وقال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

الوجه الثالث : أن الله أخبر أن المسيح إنما فعل التصوير محرم، والنفخ بإذنه تعالى ، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمته التى أنعم بها على المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ .

وقال تعالى له : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى، وإذا كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ﴾ .

وهذا كله صريح فى أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله ، كما فعل مثل غيره من ذلك الأنبياء ، وصريح بأن الإذن غير المأذون له والمعلِم ليس هو المعلَّم ، والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه ، كما ليس هو والدته .

والوجه الرابع : أنهم قالوا : أشاروا بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، ثم قالوا فى قوله [بإذن الله] أى بإذن الكلمة المتحدة فى الناسوت ، وهذ يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن ، لأن الله أخبر فى القرآن أن المسيح خلق من الطين.

كهيئة الطير بإذن الله ، ففرق بين المسيح و بين الله ، وبين أن الله هو الآذن للمسيح وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق ، وهو الآذن فجعلوا الخالق هو الآذن ، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن .

الوجه الخامس : أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه ، فإنهم يقولون : هو إله واحد وهو الخالق ، فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه ؟

الوجه السادس : أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام ، أو الكلام الذى هو صفة للذات ، فإن كان هو الكلام ، فالكلام صفة لا تكون ذاتاً قائمة بنفسها خالقة ، ولو لم تتحد بالناسوت واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع و كان الاتحاد ممكناً ، فكيف وهو ممتنع ؟

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقة من وجوه ، وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام ، فذاك هو الله الخالق لكل شيء رب العالمين ، وعندهم هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الأب فلا يكون هو الخالق لكل شيء ، والقرآن يبين أن الله هو الذى آذن المسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير ، فتبين أن الذى خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته ، فليس المسيح هو الله ولا ابن قديم أزلى لله ، ولكن عبده فعل بإذنه .

الوجه السابع : قولهم فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت المأخوذ من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبى : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] .

فيقال لهم : هذا النص عن داود حجة عليكم ، كما أن التوراة والقرآن ، وسائر ماثبت عن الأنبياء حجة عليكم ، فإن داود عليه السلام قال : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] ولم يقل : إن كلمة الله هى الخالقة ، كما قلتم أنتم إنه أشار بالخالق إلى كلمة الله .

والفرق بين الخالق للسموات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض أمر ظاهر معروف ، كالفرق بين القادر والقدرة ، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء بقدرته ، وليست القدرة هي الخالقة ، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة ، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته ، وليست مشيئته هي الخالقة ، وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيء من صفاته ، فالناس كلهم يقولون : يا الله يا ربنا يا خالقنا ارحمنا واغفر لنا ، ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لنا وارحمنا ، ولا يا قدرة الله ، ويامشيئة الله ، ويا علم الله اغفر لنا وارحمنا ، والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه ، وليست صفاته هي الخالقة .

الوجه الثامن : أن قول داود عليه السلام : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] يوافق ما جاء في القرآن والتوراة ، وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا في القرآن في غير موضع ، وفي التوراة قال الله : [ليكن كذا ليكن كذا] .

الوجه التاسع : قولهم لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه ، إن أرادوا بكلمته كلامه ، وبروحه حياته فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته ، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله ، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب عليه ، ثم يقال : هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته ، وحينئذ فالخالق هو الله وحده وصفاته داخلة في مسمى اسمه ، لا يحتاج أن تجعل معطوفه على اسمه بواو التشريك التي تؤذن فإن الله له شريك في خلقه ، فإن الله لا شريك له .

ولهذا لما قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، دخل كل ما سواه في مخلوقاته ، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه ، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أشياء مباينة له ، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه

الصفات لا يجوز أن يراد بأسمائه ذاتاً مجردة عن صفات الكمال ، فإن تلك حقيقة لها ، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلا عن وجود ذاته تعالى ، مجردة عن صفات كماله ، التي هي لازمة لذاته يمتنع تحقق ذاته دونها .

ولهذا لا يقال : الله وعلمه خلق ، والله وقدرته خالق ، وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح ، أو شيئاً اتحد بناسوت المسيح ، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل والله وحده هو الخالق ، وإن شئت قلت : إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفة لله فتلك داخلة في مسمى اسمه ، وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت .

الوجه العاشر : أن داود عليه السلام لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت ، وهو عندهم اسم اللاهوت والناسوت لما اتحد ، والاتحاد فعل حادث عندهم ، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوت ولا ما يسمى مسيحياً ، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح ، ولكن غايتهم أن يقولوا : أراد الكلمة التي اتحدت فيها بعد المسيح ، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح ، كما نطق به القرآن بقوله : ﴿ يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ .

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي بها خلقت السموات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فاحتجاجهم بهذا على هذا احتجاج باطل ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض لم يكن معها ناسوت حين خلقت باتفاق الأمم ، والمسيح لا بد أن يدخل فيه الناسوت فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح .

فصل في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ فأعنى بقوله : ﴿ مثل عيسى ﴾ إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم

الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح ، إنما ذكر عيسى فقط [1] .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة ، فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة ، وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت ، وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلا إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلت فى مريم وتجسدت بإنسان كامل ، وعلى هذا المثال نقول : فى السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية : التى هى طبيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية : التى أخذت من مريم العذراء واتحدت به ، ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبى ، إذ يقول :[أليس هذا الأب الذى خلقك وبراك واقتناك]، قيل : وعلى لسان داود النبى :[روحك القدس لا تنزع منى] ، وأيضا على لسان داود النبى : [بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع قواهن] ، وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ، ونطقه أى كلمته ، وروحه أى حياته .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشرى على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ ، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى ، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح فى بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذى هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان

(١) وفى نسخة أخرى : فأعنى بقوله : (مثل آدم) إشارة إلى الناسوت المأخوذ من مريم الطاهرة .

سبحانه قادرا أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له: كن فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتا وناسوتا، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية فى ضمن الآيات التى أنزلها فى شأن النصارى ، لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه فى المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذى اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء فى غلوهم فيه ، وهؤلاء فى ذمهم له

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وقد امتثل النبى صلى الله عليه وسلم قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا ﴾ إلى آخرها ، وكان أحياناً يقرأ بها فى الركعة الثانية من ركعتى الفجر ويقرأ فى الأولى بقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وهذا كله يبين به أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم ، وقد

أمر أن يباهل من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ، ويدعون الله أن يجعل لعنته على الـكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين فى قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم ، وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبا حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق .

والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة ، وقد قال عقب ذلك : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ﴾ تـكذيبا للنصارى الذين يقولون : هو إله حق من إله حق ، فـكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت ، وناسوت ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت ؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال فى موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة ، لأنه لم يذكر الناسوت هاهنا اسم المسيح إلا ذكر عيسى فقط ، فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم والذى هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لـكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائـكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفـكون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾ .

الوجه الثانى : أن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين : فإن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفى فى مقابلتها المنع ، ولكن نقول فى الوجه الثالث : إنهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم .

ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التى فى الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التى فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس ، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضى أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذى ادعوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فان الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

الرابع : أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً ببشر فى جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا فى وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين ، وهو فى ذلك يستغيث بالله ويقول : « إلهى إلهى لم تركتنى » وهم يقولون الذى كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ، ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة ، وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعى المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضا فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً واما أن يكون مستغاثا به ، واما أن يكون داعيا وإما أن يكون

مدعوا ، فإذا قالوا : إن الداعى هو غير المدعو لزم أن يكونا اثنين لا واحد ، وإذا قالوا : هما واحد فالداعى هو المدعو .

والوجه الخامس : أن يقال لايخلو إلى أن يقولوا: إن اللاهوت كان قادرا على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادرا لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، أن يكون رب العالمين مقهورا مأسورا مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين ، وهذا أعظم من قولهم: إن لله ولدا ، وإنه بخيل وإنه فقير ، ونحو ذلك مما سبّ به الكفار رب العالمين .

وإن قالوا : كان قادرا ، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله فى مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال: [إلهى إلهى لماذا تركتنى] وإن كان هو قد فعل ذلك مكرا ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما فى ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ، ما يقتضى أن كل ما جرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم: مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ؟ بل لو يشاء اللاهوت ما يكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصوامع فى رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه ، لما ظهر الصوامع فى رحله ، كما جزع أخوته حيث لم يعلموا ، وكثيرٌ من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذى يصفون به المسيح ، وهو يقتضى غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية.

الوجه السادس : قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم، لأن عندهم أقنوم الـكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع : قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضا فى موضع آخر قائلا : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله فى القرآن فهو حق ، ولـكن ضللتم فى تأويله كما ضللتم فى تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إذ قالت الملائـكة يا مريم إن الله يبشرك بـكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت ربِّ أنَّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيـكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٥ ـ ٤٧] .

ففى هذا الـكلام وجوه تُبَيِّن أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى . منها أنه قال : [بكلمة منه] وقوله بكلمة منه نـكرة فى الإثبات يقتضى أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارى . ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيـكون ﴾ .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وقال تعالى فى سورة كهيعص : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتَّخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] .

فهذه ثلاث آيات فى القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا تفسير

كونه كلمة منه وقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ، وهذه كلها صفة مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك ، وقالت مريم: ﴿أنى يكون لي ولد؟!﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم . لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال في سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

فقد نهى النصارى عن الغلو في دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق ، و بين أن ﴿المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ ، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ، فبين أنه رسوله ، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم في المسيح إنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فأخبر أن ذلك ملك له ليس فيه شيء من ذاته ، ثم قال : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون﴾ أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع هذا البيان الواضح الجلي ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله :

﴿ وروح منه ﴾ المراد به أنه حياته أو روح منفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ،فقد بين مراده أنه خلقه بـ « كن» وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقا لقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ ويقال : درهم ضرب الأمير أي مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمرا، والمقدور قدرة وقدرا ، والمعلوم علما ، والمرحوم به رحمة؛ كقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ ، وقوله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، ويقول للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، وقال : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة فيها تتراحم الخلق ويتعاطفون ، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك ، فرحم بها الخلق » ؛ ويقال : للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أي معلومه ، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد في (كتاب الرد على الجهمية) ـ وذكره غيره ـ أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة ، فقالت النصارى: القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية: المسيح كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقا .

وأجاب أحمد وغيره: بأن المسيح نفسه ليس هو كلاما، فإن المسيح إنسان، وبشر مولود من امرأة ، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ، ولا مولود من امرأة، ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟

وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل

إذا سمع قوله تعالى فى المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ، ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام الله وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة ، وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقا ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة ، وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذى خلق عليه غيره ، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بروح منه ﴾ لايوجب أن يكون منفصلا من ذات الله ، كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٣] :

وقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، سورة النحل : ٥٣] .

وقو تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ .

فهذه الأشياء كلها من الله وهى مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التى أرسلها إلى مريم ، وهى مخلوقة .

فالمسيح الذى هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً ، قال تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب

لك غلاماً زكيا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ ـ ١٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، [سورة يم التحريم : ١٢] .

وقال : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] . فأخبر أنه نفخ فى مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفــخ فى آدم من روحه ، وقد بين أنه أرسل إليها روحه .

﴿ فتمثل لها بشراً سويا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال : كذلك ، قال ربك هو على هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً فحملته ﴾ .

فهذا الروح الذى أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكيا مخلوق ، وهو روح القدس الذى خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقا فكيف الفرع الذى حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وروح منه ﴾ خصّ المسيح بذلك لأنه نفخ فى أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التى يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح ؛ فلهذا سمى روحا منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين : روح منه ، أى رسول منه فسماه باسم الروح الرسول الذى نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى « روحا » لأنه كون بالكلمة ، لا كما يخلق الآدميون غيره ، ويسمى روحا ، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذى نفخ فيها لم تحبل به من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال : لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ، ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضى أربعة أشهر .

والنصارى يقولون فى أمانتهم : [تجسد من مريم ، ومن روح القدس] ، ولو اقتصروا على هذا ، وفسروا روح القدس بالملك الذى نفخ فيها ، وهو روح الله لـكان هذا موافقا لما أخبر الله به ، لـكنهم جعلوا روح القدس حياة الله ، وجعلوه ربا وتناقضوا فى ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغى فيه أقنومان : أقنوم الـكلمة ، وأقنوم الروح .

وهم يقولون : ليس فيه إلا أقنوم الـكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالـكلمة ، يسمى « روحا » لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال فى القرآن ﴿ والذين آتيناهم الـكتاب يعلمون أنه منزل من ربك ﴾ ، وقال : ﴿ تنزيل الـكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وقد قال : أئمة المسلمين وجمهورهم : [القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا] وقال : فى المسيح ﴿ وروح منه ﴾ قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقا ، وإن كان صفة مضافة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك ما منه إن كان عينا قائمة أو صفة قائمة تعين بغيرها كما فى السموات والأرض والنعم والروح الذى أرسلها إلى مريم ، وقال : ﴿ إنما رسول ربك ﴾ كان مخلوقا ، وإن كان صفة لاتقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقا ، فإن ذلك قائم بالله ، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقا .

والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم فى ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة فى سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات ، وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هو الذى أنزل عليك الـكتاب منه آيات محكمات هن أم الـكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ ، والآية نزلت فى النصارى فهم مرادون من الآية قطعاً ، ثم قال : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم

يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، و يقول : الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] . و يقول : ﴿ الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ﴾ وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما فى قوله تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا﴾، [سورة الحشر : ١٠] . أى قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ، ومعرفة معانيه .

والراسون فى العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصرى : لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيماذا نزلت ، وماذا عنى بها ؟ وقد يعنى بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر ، وقت الساعة ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل فى كتاب الله عز وجل .

ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل فى كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿ هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ ، وكقوله : ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٧] .

وقوله : ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ، [سورة النساء : ٥٩] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا فى ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

والكلمة عندهم هى جوهر ، وهى رب لايخلق بها الخالق ، بل هى الخالقة لكل شىء ، كما قالوا فى كتابهم : [إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم] ، والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التى ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لايلقيه شىء ، بل هو يلقى غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشىء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه التى جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول فى غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ ، [سورة النساء : ٩٤]

وقال تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَمَ ﴾ ، [سورة النحل : ٨٦ ، ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١] .

وأما لقيته القول فتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه ، فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم فى المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها ، وهى قول « كن » لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت فى مريم كما لم يلزم

أن تكون صفته القائمة به حلت في سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل متكلم فيمن يلقى إلى كلامه .

فصل في الرد على أن في عيسى طبيعتين

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية : التي هي طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية :التي أخذ من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم : كلام النصارى في هذا الباب مضطرب مختلف متناقض ، وليس لهم في ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ، ونقل الأقوال عنهم في ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولا ، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور في أمانتهم لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء ،ولا يوجد لا في كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ، ولكن عندهم في الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون في فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون في تفسيرها ، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعي لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذي يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ، ومنهم من يستتر ببعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم في ذلك .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفاً ، وذلك بحسب قول الطائفة التي ينقل

ذلك الناقل قولها ، والقول الذى يحكيه كثير من نظائر المسلمين يوجد كثير منهم على خلافه كما نقلوا عنهم ماذكره أبو المعالى ، وصاحبه أبو القاسم الأنصارى وغيرهما أن القديم واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، وأنهم يعنون بالأقنوم : الوجود ، والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين ، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر ، قالوا :ولو مثل مذهبهم بمثال لقيل : إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض ، قال : وربما يعبرون على الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود و بالإبن المسيح والكلمة ، وربما سموا العلم كلمة ، والكلمة علماً ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابناً ، بل المسيح عندهم مع ماتدرع به ابن ، قالوا : ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت، ثم اختلفوا فى معنى الاتحاد فمنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية ، قالوا :فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئاً واحداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً قالوا : وصارت شرذمة من كل صنف إلى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت ، كظهور الصورة فى المرآة ، والنقش فى الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من هذه الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول ،

قالوا وقد اختلفوا أيضاً فى الجواهر والأقانيم فذهبت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الجوهر ليس بغير الأقانيم .

ولا يقال : إنه هى ، صرحت الملكانية بأنه غير الأقانيم ، وآخرون قالوا : هو الأقانيم، قالوا : وافترقت النصارى من وجه آخر ، فذهبت الروم إلى التصريح بإثبات ثلاثة آلهة ، وامتنعت اليعقوبية والنسطورية من ذلك فى وجه والتزموه من وجه ، وذلك أنهم قالوا : الكلمة إله ، والروح إله ، والأب إله والثلاثة الأقانيم التى كل أقنوم إله ، إله واحد ، قالوا : وذهبت شرذمة من النصارى إلى أن عيسى كان ابناً لله على جهة الكرامة ، فكما اتخذ إبراهيم خليلا ، كذلك اتخذ عيسى ابناً قالوا : وهؤلاء يقال لهم : الأريوسية . فهذا نقل طائفة من نظار المسلمين ، وهذا قول لمن قاله من النصارى ، وفيه ما هو مخالف لصريح أمانتهم، وما عليه جمهورهم مثل قوله : إنهم لا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح ابناً ، بل المسيح مع ما تدرع به ابن ، فإن هذا خلاف ما عليه فرق النصارى من الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وخلاف ما تضمنته أمانتهم ، إذ صرحوا فيها بأن الكلمة ابن قديم أزلى مولود قبل الدهور ، وهذا صفة اللاهوت عندهم ، وفيها أشياء يقولها بعض النصارى لا كلهم ، وكذلك نقلهم عنهم أنهم لا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم صفة فعل ، وهذا قول طائفة منهم ومن اليهود ، وكثير منهم أو أكثرهم يقولون: إن كلام الله غير مخلوق وينكرون على من يقول : إنه مخلوق ، ونقلت طائفة أخرى منهم أبو الحسن بن الزاغونى عنهم ما يوافق هذا من وجه دون وجه ، فقالوا : اتفقت طوائف النصارى على أن الله ليس بجسم ، واتفقوا على أنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، وأن كل واحد من الأقانيم جوهر خاص يجمعها الجوهر العام، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إن الأقانيم مختلفة فى الأقنومية ، متفقة فى الجوهرية .

وقال آخرون : ليست مختلفة فى الأقنومية ، بل متغايرة ، وقال فريق منهم:

إن كل واحد منها لاهو الآخر ولاهو غيره وليست متغايرة ولا مختلفة ، وزعموا أن الجوهر ليس هو غيرها إلا ماذكر عن طائفة من الملكانية ، فإنهم قالوا : إن الأقانيم هى الجوهر ، وإن الجوهر غير الأقانيم ، وزعموا أن الجوهر هو الأب والأقانيم الحياة وهى روح القدس والقدرة والعلم ، وأن الله اتحد بأحد الأقانيم الذى هو الإبن بعيسى ابن مريم ، وكان مسيحاً عند الاتحاد لاهوتاً وناسوتاً حمل ، وولد ، ونشأ ، وقتل وصلب ، ودفن .

واختلفوا أيضاً فقالت النسطورية : إن المسيح جوهران أقنومان قديم ومحدث، وأن اتحاده إنماهو بالمشيئة ، وأن مشيئتهما واحدة ،وإن كانا جوهرين .

وقالت اليعقوبية : لما اتحدا صار الجوهران: الجوهرالقديم والجوهر المحدث جوهراً واحداً

. واختلفوا هاهنا فقال بعضهم : الجوهر المحدث صار قديماً . وزعم آخرون ، أنهما لما اتحدا صارا جوهراً واحداً قديماً من وجه محدثاً من وجه .

وقالت الملكانية : إنالمسيح جوهران أقنوم واحد . وحكىعن بعضهمأنه أقنومان جوهر واحد ، وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وأن المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وأنه نبى وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن لله ، وحكى عن بعضهم أنه ابن لله على التسمية والتقريب .

واختلفوا فى الكلمة الملقاة إلى مريم ، فقالت طائفة منهم : إن الكلمة حلت فى مريم حلول الممازجة ، كما يحل الماء فى اللبن فيمازجه ويخالطه ، فقالت طائفة منهم : إنها حلت فى مريم من غير ممازجة ، كما أن شخص الإنسان يحل فى المرآة ، وفى الأجسام الصقيلة من غير ممازجة .

وزعمت طائفة من النصارى أن الناسوت مع اللاهوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثر فيه بالنقش ، ثم لا يبقى منه شىء إلا أثره ، قالت هذه الطائفة وأبو الحسن بن الزاغونى ، ومن معه ، واختلفت النصارى فى الأقانيم ، فقال قوم

منهم : هى جواهر ، وقال قوم : هى خواص ، وقال قوم : هى صفات ، وقال قوم : هى أشخاص : والأب عندهم الجوهر الجامع للأقانيم ، والإبن هو الكلمة التى اتحدت عند مبدأ المسيح ، والروح هى الحياة ، واجتمعوا على أن الاتحاد صفة فعل ، وليس بصفة ذات .

قالوا : واختلف قولهم فى الاتحاد اختلافاً متبايناً ، فزعم قوم منهم أن الاتحاد هو : أن الكلمة التى هى الابن حلت جسد المسيح ، وقيل : هذا قول الأكثرين منهم .

وزعم قوم منهم أن الاتحاد : هو الاختلاط والامتزاج ، وقال قوم من اليعقوبية : هو أن كلمة الله انقلبت لحماً ودماً بالاختلاط ، وقال كثير من اليعقوبية والنسطورية : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء بالخمر وامتزاجهما ، وكذلك الخمر باللابن .

وقال قوم منهم : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اتحدا فصار هيكلا واحداً .

وقال قوم منهم : الاتحاد مثل ظهور صورة الإنسان فى المرآة ، وكظهور الطابع فى المطبوع مثل الخاتم فى الشمع ، وقال قوم منهم: الكلمة اتحدت بجسد المسيح على معنى أنها حلته من غير مماسة ولا ممازجة ، كما نقول : الله فى السماء على العرش من غير مماسة ولا ممازجة ، وكما نقول : إن العقل جوهر حال فى النفس من غير مخالطة للنفس ولا مماسة لها ، وقالت الملكانية : الاتحاد أن الإثنين صارا واحداً ، وصارت الكثرة قلة .

وهذا الذى نقله عنهم أبو الحسن الزاغونى هو نحو ما نقله عنهم القاضى أبو بكر بن الطيب، والقاضى أبو يعلى وغيرهما . وقال أبومحمد بن حزم :النصارى فرق منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله : التوحيد المجرد ، وأن عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض،

وكان فى زمن قسطنطين الأول بانى القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا .

قال : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطى، وكان بطريارًا بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه ألبتة ، وكان يقول : لا أدرى ما الـكلمة ولا روح القدس ، قال : وكان منهم أصحاب مقدنيوس كان بطريارکا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين ابن قسطنطين بانى القسطنطينية ، وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه وكان من قول مقدنيوس هذا التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق إنسان نبى رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والـكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك ، قال : وكان منهم البربرانية ، وهم يقولون : إن عيسى وأمه إلهان من دون الله تعالى ، قال : وهذه الفرق قد بادت وعمدتهم اليوم ثلاث فرق ، وأعظمها فرق الملـكانية ، وهى مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة ، ومذهب عامة أهل مملـكة النصارى حاشا النوبة والحبشة ، ومذهب جميع نصارى أفريقية ، وصقلية ، والأندلس ، وجمهور الشام ، وقولهم إن الله ــ تعالى الله عن قولهم ــ ثلاثة أشياء : أب ، وابن ، وروح القدس كلها لم تزل ، وأن عيسى إله تام كله وإنسان تام ليس أحدها غير الآخر ، وأن الإنسان منه هو الذى صلب وقتل ، وأن الإله منه لم ينله شىء من ذلك ، وأن مريم ولدت الإله والإنسان ، وأنهما معا شىء واحد ابن الله ــ تعالى الله عن كفرهم .

وقالت النسطورية : مثل ذلك سواء بسواء إلا أنهم قالوا : إن مريم لم تلد الإله ، وإنما ولدت الإنسان وإن الله لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله ــ تعالى الله عن كفرهم ــ

وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان ، وهم منسوبين إلى نسطور ، وكان بطرياركا بالقسطنطينية .

وقالت اليعقوبية : إن المسيح هو الله نفسه ، وأن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان والله عاد محدثا ، والمحدث عاد قديما ، وأنه تعالى هو كان فى بطن مريم محمولا به ، وهم فى أعمال مصر وجميع النوبة ، وجميع الحبشة ، وملوك الأمتين المذكورتين .

ومن أعلم الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم ، وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم ، كالحسن بن أيوب ، الذى كتب رسالة إلى أخيه على ابن أيوب يذكر فيها سبب إسلامه ، و يذكر الأدلة على بطلان دين النصارى ، وصحة دين الإسلام ، قال فى رسالته إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه بعد أن ذكر خطبته : « ثم أعلمك أن ابتداء أمرى فى الشك الذى دخلنى فيما كنت عليه ، والاستبشاع للقول به من أكثر من عشرين سنة ، لما كنت أقف عليه فى المقالة من فساد التوحيد لله عز وجل بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها مما تضمنته شريعة النصارى ، ووضع الاحتجاجات التى لا تزكو ولا تثبت فى تنوير ذلك ، وكنت إذا تبحرته وأجلت الفكر فيه بان لى عواره ونفرت نفسى من قبوله ، وإذا فكرت فى دين الإسلام الذى من الله على به وجدت أصوله ثابتة ، وفروعه مستقيمة ، وشرائعه جميلة .

وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحد ممن عرف الله عز وجل منكم ومن غيركم ، وهو الإيمان بالله الحى القيوم ، السميع البصير ، الواحد الفرد ، الملك القدوس ، الجواد العدل إله إبراهيم و إسماعيل وإسحاق و يعقوب والأسباط ، و إله عيسى وموسى ، وسائر النبيين ، والخلق أجمعين ، الذى لا ابتداء له ، ولا انتهاء ولا ضد ولا ند ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، الذى خلق الأشياء كلها لا من شىء ولا على

ثال ، بل كيف شاء و بأن قال لها : كونى فكانت على ما قدر وأراد وهو العليم القدير ، الرؤف الرحيم ، الذى لايشبهه شىء ، وهو الغالب فلا يغلب ، والجواد فلا يبخل ، لا يفوته مطلوب ، ولا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، فكل مذكور أو موهوم هو منه ، وكل ذلك به وكل له قانتون، ثم نؤمن بأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ، لا نفرق بين أحد منهم ، و نؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وسائر الكتب التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه ، ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾، ﴿وإن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين ﴾ ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ : [١٨٢ سورة آل عمران] .

قال : وكان يحملنى إلف دينى ، وطول المدة والعهد عليه ، والاجتماع مع الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأقارب والإخوان والجيران وأهل المودات على التسويف بالعزم والتلبث عن إبرام الأمر ، ويعرض مع ذلك الفكر فى إمعان النظر والازدياد فى البصيرة فلم أدع كتاباً من كتب أنبياء التوراة والانجيل والزبور ، وكتب الأنبياء والقرآن إلا نظرت فيه وتصفحته ، ولا شيئاً من مقالات النصرانية إلا تأملته ، فلم أجد للحق مدفعاً ، ولا للشك فيه موضعاً ، ولا للأناة والتلبث وجهاً خرجت مهاجراً إلى الله عز وجل بنفسى ، هاربا بدينى عن نعمة وأهل ومستقر ومحل وعز ومتصرف فى عمل ، فأظهرت ما أظهرته عن نية صحيحة وسريرة صادقة ، ويقين ثابت ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإياه نسأل أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب. قال : ولما نظرت فى مقالات النصارى وجدت صنفاً منهم يعرفون بالأريوسية يجردون توحيد الله ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام ،

ولا يقولون فيه شيئاً مما يقوله النصارى من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرها ، وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه ، والحاملون عنه .

فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق ، مخالفة لبعضه فى جحود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ودفع ما جاء به من الكتاب والسنة ، قال : ثم وجدت منهم صنفاً يعرفون باليعقوبية ، يقولون : إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين : إحداهما طبيعة الناسوت ، والأخرى طبيعة اللاهوت ، وأن هاتين الطبيعتين : تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانا واحداً ، وجوهراً واحداً ، وشخصاً واحداً . وإن هذه الطبيعة الواحدة ، والشخص الواحد هو المسيح ، وهو إله كله ، وإنسان كله ، وهو شخص واحد ، وطبيعة واحدة من طبيعتين .

وقالوا : إن مريم ولدت الله ــ تعالى الله عما يقولون ــ وإن الله مات وتألم وصلب متجسداً ودفن وقام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت ، أو على الأرض لانشقت ، أو على الجبال لانهدت فلم يكن لمحاجة هؤلاء وجه ، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك ، وكان غيرهم من النصارى كالملكانية والنسطورية يشهدون بذلك عليهم .

قال : ثم نظرت فى قول الملكانية وهم الروم ، وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا : إن الابن الأزلى الذى هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسدا كاملا كسائر أجساد الناس ، وركب فى ذلك الجسد نفسا كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس ، وأنه صار إنسانا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس ، وإلها بجوهر اللاهوت ، كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناسوت ، مثل إبراهيم وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وثبت له جوهر اللاهوت ، كما لم يزل وصح له جوهر الناسوت الذى لبسه من مريم ، وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وطبيعتان ، ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة ، فله بلاهوته مشيئة

مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود .

وقالوا : إن مريم ولدت إلها ، وأن المسيح ، وهو إسم يجمع اللاهوت والناسوت مات ، وقالوا : إن الله لم يمت والذى ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فهو إله تام بجوهر لاهوته ، وإنسان تام بجوهر ناسوته ، وله مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت ، وهو شخص واحد ، لا نقول شخصان لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم ، قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت اليعقوبية فى ولادة مريم ـ تعالى الله عما يقول الظالمون ـ وقالوا : إن المسيح ـ وهو اسم لا تشك جماعة النصارى أنه واقع على اللاهوت والناسوت ـ مات ، وأن الله لم يمت ، فكيف يكون ميت لم يمت ، وقائم قاعد فى حال واحد ؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع ؟

قال : ثم نظرت فى قول النسطورية فوجدتهم قالوا : إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة ، وأن طبيعة اللاهوت التى للمسيح غير طبيعة ناسوته ، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التى صارت الطبيعتان بجهة واحدة ، وإرادة واحدة واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصانا ، ولا يمتزج بشىء والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ، فكان المسيح بتلك إلها وإنسانا ، فهو إله بجوهر اللاهوت الذى لا يزيد ولا ينقص ، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان .

وقالوا : إن مريم ولدت المسيح بناسوته ، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته .

وقال : فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله ـ تعالى عما يصفه المبطلون ، و يقوله العادلون ـ وأنه تألم وصلب ومات ، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى وهذا الكفر الذى تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم ؟ ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ما هو دونه فى الظاهر ، فقالوا : إن

المسيح شخص واحد وطبيعتان ، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة كمشيئة ابراهيم وداود . وأوهموا الواقف على قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت . ثم عادوا إلى قول اليعقوبية فقالوا : إن مريم ولدت إلها ، وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون فى ذلك مات بالجسد ، وأن الله لم يمت والذى قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فكيف يكون ميت لم يمت ؟ وهل بين المقالتين إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع فرق ؟ أو إذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله ، وأن الذى ولدته مريم ، وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين ، للاهوت والناسوت قد مات فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال ، التى تحكى النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما فكيف يصح الذى عقل عبادة مولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات ؟ قلت : ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون : إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد ، مع قولهم إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين فيثبتون للجوهرين أقنوماً واحداً ، ويقولون : هو شخص واحد ، ثم يقولون : إن رب العالمين إله واحد ،وجوهر واحد ، وهو ثلاثة أقانيم ، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم ، وللجوهرين المتحدين أقنوماً واحداً مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة ، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين .

ومع هذا هما عندهم شخص واحد ، وأقنوم واحد ، وهذا يقتضى غاية التناقض ، فسواء فسروا الأقنوم بالصفة ، أو الشخص ، أو الذات مع الصفة ، أو أى شيء قالوه ، وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما قالوه ، بل كانوا ضلالا جهالا ، بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حق ، فلهذا لا يوجد عن المسيح ، ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم فى التثليث ،

والأقانيم والاتحاد ، ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل ، بل ألقوا أقوالاً مخالفة للشرع والعقل .

ثم قال الحسن بن أيوب : ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية ، قد خالفوا اليعقوبية والملكانية فى قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة ، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة ، ثم عادوا إلى شبيه قولهم فى أن مريم ولدت المسيح ، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين .

وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظاً زوقوها وقدروا بها التمويه على السامع ، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية ، لأن المتحد بالشىء هو الممازج له والجتمع معه حتى صار الذى مازجه وهو شيئا واحداً ، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه ، فما لم يفارق الشىء هل هو إلا أن يجرى مجراه فى سائر متفرقاته من ضر ونفع ، وخير وشر ، وحاجة وغنى .

قال : وأما قولهم : إن مريم ولدت المسيح بناسوته فهذه أغلوطة ، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشىء آخر مجامع له دون ذلك الشىء ؟ وكيف يكون ذاك ، وهم يقولون : إنه لم يفارقه قط ! وهل يصح هذا عند أهل النظر ، أو ليس الحكم عند كل ناظر ؟ ومن كل ذى عقل يوجب أن تكون الولادة واقعة على اللاهوت والناسوت معاً بمعنى الاتحاد ، وبمعنى الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح .

وكذلك الحمل بهما جميعاً وأن يكون البطن قد حواهما ، قال : فإن لجوا فى الباطل ، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة ، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته فنحن نقيم عليها شاهداً من أنفسهم لا يمكنهم دفعه ، وذلك أن شريعة إيمانهم التى ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة

والأحبار فى دينهم وذوى العلم منهم بحضرة الملك ، عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينية ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر رجلا ، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس ، وهى التى لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم فى المقالات فيها ، ولا يتم لهم قربان إلا بها على هذا النسق الذى تبينه [نؤمن بالله الأب ، مالك كل شىء ، صانع مايرى وما لايرى ، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء ، الذى من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب أيام فيطوس بن بيلاطوس ودفن وقام فى اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه روح ومجيئه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثليقية ، وبقيامة أبداننا ، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين] .

قال : فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها ، وتبذل المهج فيها ، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية .

وقد اعترفوا فيها جميعاً بأن الرب المسيح الذى هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب ، قال : فهل فى هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها المعنت المدافع عن الحجة ؟ فتدبروا هذا القول يامعشر النصارى ، فإنه لايمكن أحداً منكم أن يخرج عنه ، ولا أن يدفع ما صرح به فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فمريم على قولكم ولدت الله ــ سبحانه وتعالى عما يقولون ــ وإن قلتم إنه إنسان فمريم ولدت إنساناً وفى ذلك أجمع بطلان شريعة

إيمانـكم فاختاروا أى القولين شئتم ، فإن فيه نقض الدين .

قال : وقد يجب على ذوى العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم ، وهى امرأة آدمية ، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة ، تجرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم لا يتهيأ لـكم أن تدعوا أنه كان منه فى تلك المدة من أسباب اللاهوتية شىء ، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج ، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى ، والنبوات ، والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله تعالى ، وقد كان فى غيره من الأنبياء مثلها وما هو أعلا منها ، فـكانت مدته فى ذلك أقل ثلاث سنين ، ثم انقضى أمره بما يصفون أنه انقضى به ، وينسبونه إليه من حبس وضرب وقذف وصلب وقتل فهل تقبل العقول مايقولون من أن إلهاً نال عباده منه مثل ماتذكرون أنه نيل منه ؟ فإن تأولتم أن ذلك حلّ بالجسم ، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنى اتحاد اللاهوت به : فليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به ، وحلت الروح فيه ، وقد أنجبه الله على ماتزعمون وتصفون لخلاص الخلق ، وفوض إليه القضاء بين العباد فى اليوم الذى تجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب ، وقد وجدناكم تؤثرون أخباراً فى قوم عرضوا التوابيت فيها شهد لـكم بأن الأيدى التى بسطت إليها جفت أو هل نال أحداً من الجزع والهلع والغم والقلق والتضرع إلى الله فى إزالة ماحل به ، مثل مايحكى فى الإنجيل أنه ناله ، ووجدنا الـكتب تنبىء بأنه نيل من جورجيس ـ أحد من كان على دين المسيح صلى الله عليه وسلم ـ من العذاب الشديد بالقتل والحرق والنشر بالمناشير مالم يسمع بمثله فى أحد من الخلق ، ونال خلقاً كثيراً من تلامذته أيضاً عذاب شديد .

وقيل : لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلى الـكفر الذى كان أولئك الملوك عليه فصبروا على ذلك ، واحتسبوا أنفسهم ،

فلم يهربوا من الموت ، وقد كان يمكنهم الهرب من بلد إلى بلد ، والاستتار وإخفاء أشخاصهم ، وما أظهروا فى حال من تلك الأحوال جزعاً ولا هلعاً ، وهم بعض الآدميين التابعين له ، لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله عز وجل إيام.

قال : ثم نقول قولا آخر : قد نستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجه ، لا يقع فى شىء منها شك ولا طعن ، ولا زيادة ولا نقصان ، وهى أصل أمر المسيح عندكم .

فأولها : البشرى التى أتى بها جبريل عليه السلام .

والثانية : قول يحيى بن زكريا الذى شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله .

والثالثة : النداء المسموع من السماء .

والرابعة : قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه ، والذى قال جبريل على ماثبت فى إنجيلكم لمريم حين بشرها : [السلام عليك أيتها الممتلئة نعما ربنا معك أيتها المباركة فى النساء ، فلما رأته مريم ذعرت منه ، فقال : لا ترهبى يامريم فقد فزت بنعمة ربك فها أنت تحبلين وتلدين ابنا ، وتسميه يسوع ، ويكون كبيراً ، ويسمى ابن الله العلى ، ويعطيه الرب كرسى أبيه داود . ويكون ملكا على آل يعقوب إلى الأبد ، فقالت مريم : أنى يكون لى ذلك ولم يمسسنى رجل ، قال لها الملك : إن روح القدس يأتيك ، أو قال يحل فيك وقوة العلى تحبلك ، من أجل ذلك يكون الذى يلد منك قديساً ويسمى ابن الله العلى] . قال : فلم نر الملك قال لها : إن الذى تلدين ، وهو خالقك هو الرب كما سميتموه ، بل أزال الشك فى ذلك بأن قال : [إن الله الرب يعطيه كرسى أبيه داود ، ويصطفيه ويكرمه ، وأن داود النبى أبوه ، وأنه يسمى ابن الله] وما قال أيضاً : [إنه يكون ملكا على الأرض] وإنما جعل له الملك على بنى إسرائيل فقط ، وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعاً أبناء الله

بالمحبة ، وقول المسيح : [أبي وأبوكم ، وإلهي وإلهكم] في غير موضع من الإنجيل ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصاً ، فالسبيل في المسيح إذ لم تلحقوه في هذا الإسم بالجمهور أن يجرى في هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود تحقق أن أباه داود ، وأن التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة ، وأن حلول الروح عليه على الجهة التي قالها « متى » التلميذ للشعب عن المسيح في الإنجيل : [لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم] .

فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين ، وتتكلم فيهم ، وقال الملك في بشارته لمريم بالمسيح عليه السلام : إنه يكون ملكاً على آل يعقوب ، فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس ، ولم يقل إنه يكون إلهاً للخلائق ، ومعنى قول جبريل عليه السلام لمريم : [ربنا معك] مثل معنى قول الله عز وجل لموسى وغيره من الأنبياء : ﴿ إني معكم ﴾ فقد قال ليوشع ابن نون : [إني أكون معك ، كما كنت مع موسى عبدى] . فقول النصارى كلهم في مجارى لغتهم ومعاني ألفاظهم إن الله عز وجل ، وروح القدس مع كل خطيب وراهب وفاضل في دينه على هذه السبيل .

قال : وأما النداء الذي سمعه يحيى بن زكريا من السماء في المسيح ، وشهادة يحيى له فإن « متى » قال في إنجيله : [إن المسيح عليه السلام لما خرج من الأردن تفتحت له السماء ، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامة ، وسمع نداء من السماء : إن هذا ابني الحبيب الذي اصطفيته] .

وقد علمنا وعلمتم أن المصطفى مفعول ، والمفعول مخلوق ، وليس يستنكف المسيح عليه السلام من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك في كل كلامه ، وما زال يقول : [إلهي إلهكم وأبي أبيكم] ، وكلما يصحح به أنه عبد مرسل مربوب

مبعوث مأمور يؤدى ماسمع و يفعل ماحد له ، ونحن نشرح هذا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ثم قال : وقد وجدنا المسيح عليه السلام . احتاج إلى تكميل أمره بمعمودية يحيى له فصار إليه لذلك وسأله إياه فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب ، وقال «لوقا» التلميذ فى إنجيله [إن يحيى المعمدانى أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله : أنت ذلك الذى تجىء أو نتوقع غيرك ؟]فكان جواب المسيح لرسله أن [ارجعوا فأخبروه بما ترون من عميان يبصرون ، وزمن ينهضون ، وصم يسمعون ، فطوبى لمن لم يفتتن بى ، أو يذل فى أمرى] .

قال : فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله عز وجل ، ثم ماشهد به المسيح له من أنه ماقامت النساء عن مثله قد شك فيه فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه ، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشىء مما تصفون من الربوبية ، ولاقال : إنى خالقك وخالق كل شىء ، كما فى شريعة إيمانكم ، بل حذر الغلط فى أمره والاغترار ، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهره بنبوته من هذه الآيات التى يسبق إلى مثلها أكثر الأنبياء .

قال : ولارأينا يحيى زاد فى وضعه إياه لما قرظه وأعلاه ذكره مع تشككه فى أمره وحاجته إلى مسألته عن حاله إلى أن قال : [هو أقوى منى ، وأنى لا أستحق أن أحل معقد خفه] ولم يقل : إنه خالقى ، وقد يقول الرجل : الخير فيمن هو دونه مثل الذى قال يحيى فيه تواضعاً لله وخشوعاً ، كما قال المسيح فى يحيى : [إنه ماقامت النساء عن مثله] .

قل : فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات فى المسيح وهو أصلكم الذى وقع عليه أبناؤكم ، وجعلتم لأنفسكم شريعة غيرها ، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل من آمن بنبوة رجل ينتفى من النبوة ، لأن المسيح عليه السلام يقول : إنه مربوب مبعوث ، يقول جبريل : إنه مكرم مصطفى ، وأن أباه داود ، وأن الله

جعله ملـكا على آل يعقوب ، ينادى منادٍ من السماء بمثل ذلك ، ويشهد يحيى ابن زكريا على مثله ، وتقولون : بل هو خالق أزلى إلا أنه يستر نفسه ، ويقول المسيح وغيره ممن سمينا أنه معطى وأن الله معطيه ، ويقولون : بل هو رازق النعم وواهبها ، ويقول : إن الله أرسله ، وتقولون : بل هو الذى نزل لخلاصنا ، وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يخلصكم ، ويحتمل الخطيئة ، ويربط الشيطان فقد وجدنا الخلاص لم يقع ، قائمة لم تزل ، والشيطان أعتى ما كان لم يربط ، بل سلطه الله عليه على ماتقولون ، فحصره فى الجبل أربعين يوماً يمتحنه ، وقال له فى بعض أحواله معه : [إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزاً ، فقال له المسيح مجيباً له : إنه مكتوب أن حياة الإنسان لاتكون بالخبز ، بل بكل كلمة تخرج من الله ، ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس ، وأقامه على قرنة الهيكل ، وقال له : إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا ، فإنه مكتوب إن الملائـكة توكل بك ، لئلا تعثر رجلك بالحجر] .

قال يسوع ومكتوب أيضاً : [لاتجرب الرب إلهك ، ثم ساقه إلى جبل عال ، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها ، وقال له : إن خررت على وجهك ساجدا لى جعلت هذا الذى ترى كله لك . قال له المسيح : أغرب أيها الشيطان فإنه مكتوب اسجد للرب إلهك ، ولا تعبد شيئاً سواه ، ثم بعث الله عز وجل ملـكا اقتلع العدو من مكانه ورمى به فى البحر ، وأطلق السبيل للمسيح] .

وقال : أفلا يعلم من كان فى عقله أدنى مسكة أن هذا الفعل لا يكون من شيطان إلى إله ، ولو كان إلها لأزاله عن نفسه قبل نفسه قبل أن يأتيه الملاك من عند ربه ، ولما قال : [أمرنا أن لانجرب الله ، وأن نسجد للرب ولا نعبد شيئاً سواه] ، وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربطه عن أمته ، قال : فهذه أمور إذا تأملها المتأمل قبحت جدا ، وكثر اختلافها واشتد تنقضها واضطرابها .

قال : مما يعجب منه أنكم تعتقدون الإبن الأزلى اتحد بالمسيح فصارا بجهة

واحدة ، ولم يفارقه قط منذ اتحد به ، ومكث على ذلك فى بطن أمه تسعة أشهر ، ثم أقام مولودا ، وتغذى باللبن ، ومربو باصبياً مغذى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنة لا يظهر منه شيء من آلة الربوبية ، ولا أمر يوجب هذا المحل ، ولا كان بينه و بين نظرائه من الآدميين فرق ، ولا سطع منه نور ، ولا ظهرت له سكينة ولا حفته الملائكة بالتهليل ، ولا ألم به الشمث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله ، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء فأشرق ما حولها نورا وكلمه من طور سيناء فاضطرمت فى الجبل النيران ، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بنى إسرائيل بعد ذلك ، لأنهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه ثم سأل موسى ربه عز وجل لما قرب منه فقال :﴿ رب أرنى أنظر إليك ، قال: لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق ﴾ من صعقته استغفر ربه فتاب عليه ، وتجلى مجد الله لجماعة من الأنبياء فرأوا حول مجده ربوات الملائكة .

وقال داود : [يارب إنك حيث عبرت ببلاد سينين تزلزت الأرض منك ، وانفطرت من هيبتك] وقال أيضاً كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها : [مالك أيها البحر هاربا ، وأنت يانهر الأردن لم وليت راجعاً ، ومالك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل ، ومالكن أيتها الشوامخ والهضبات تنزوان نزول الشياء] ، ثم قال كالمجيب عنهم من قدام الرب [تزلزت البقاع] .

قال : فإن كان المسيح هو الأزلى الخالق أو كان متحداً به فكيف لم ترجف بين يديه الجبال ، ولم تتصرف عن مشيئة الأنهار والبحار ، أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجل من آيات الأنبياء قبله مثل المشى على متون الهوى ، والاضطجاع على أكناف الرياح . والاستغناء عن المآكل والمشارب وإحراق من قرب منه من الشياطين والجن ، كما أحرق إيليا من قرب منه من جند

أحاب الملك و يمنع الآدميين من نفسه ، وما فعلوا على زعمهم بجسمه ليعلم الناس أنه خلقهم ، أو أنه هيكل الخالق .

قال : ووجدناكم تقولون : إن الإبن إنما يسمى ابن الله وكلامه ، لأنه تولد من الأب وظهر منه فلم نقف على معنى ذلك ، لأن شريعة إيمانكم تقول : إن الروح أيضاً تخرج من الأب ، فإن كان الأمر كما تقولون : فالروح أيضاً ابن ، لأنها تخرج عن الله تعالى ، وإلا فما الفرق بينهما ؟

قال : ولم نفهم أيضاً قولكم إن الإبن تجسد من روح القدس ، وأن روح القدس ساقه إلى البر يمتحنه الشيطان ، فما كانت حاجة الإبن إلى أن تكون الروح وهى فى قولكم مثله تدبره وتغيره من حال إلى حال ؟ أو ما علمتم أن للغير السابق المدبر فاعل والمسبوق المدبر مفعول به فالإبن إذن دون الروح ، وليس كمثله لأن الأزلى لا ينفك من الأزلى وهو مثله .

قال : و إن المسيح من روح القدس ، كما قال جبريل الملك لأمه مريم : فلم سميتموه كلمة الله وابنه ، ولم تسموه روحه ، فإنما قال لها الملك : إن الذى تلدين من روح القدس ، والروح غير الإبن ، ولو كان المعنى واحدا لما قالت الشريعة : إنه تجسد من روح القدس ، و إن روح القدس ساقه إلى البر ، و إن روح القدس نزل عليه ولم تثلثون به فى أيمانكم ، فتقولون : نؤمن بالأب والإبن والروح القدس ؟

قال ووجدناكم تقولون : أيتها النسطورية إن الله علماً وحكمة هما الإبن ، وحياة هى الروح قديمين ، ولعلمه وحياته ذات كذات الله ، وذلك أن علم الله له علم وحياة ، ولحياته التى هى روحه علم وحياة ، وأن الله الأب لما رأى استيلاء العدو على خلقه ، ونكول الأنبياء عن مناوأته أرسل إليه ابنه الفرد وحبيبه ، وجعله فداء ووقاء للناس أجمعين ، و إن الله نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً ثم ولد ونشأ ، وعاش ثلاثين سنة يتقلب بين بنى إسرائيل كواحد منهم يصلى فى كنائسهم ، و يستن بسنتهم لا يبدى ديناً غير دينهم ، ولا ينتحل رسالة نبوة

ولا بنوة حتى إذا انقضت تلك السنون أظهر الدعوة ، وجاء بالآيات الباهرة والبراهين المشهورة ، فأنكرته اليهود وقتلته وصلبته ، ثم صعد إلى السماء .

وصدقتم بشريعة الإيمان ، وكفرتم من خالفها ، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها ، وقلتم : إن المسيح جوهران وأقنومان جوهر قديم ، وجوهر حديث ، ولكل جوهر أقنوم على حياله ، وإن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين ، فهو واحد يقوم بثلاثة معان ، وثلاثة لها معنى واحد ، كالشمس التي هي شيء واحد ، ولها ثلاثة معان : القرص ، والحر ، والنور .

فالمسيح هو الله ، وهو مبعوث غير أنه ليس بعبد ، فكان معنى قولكم هذا أن المسيح مولود لكنه ليس مفعولا به وهو مبعوث مرسل ، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولا إذ كنتم لا تفرقون بين الله وبينه فى شيء من الأشياء ، وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتفكير واللعن لقولهم : إن الله والمسيح شيء واحد ، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى ، وبدأتم به فى التمجيد ورفعتم إليه تهاليلكم ورغائبكم فى أوقات القرابين خاصة ، وهى أجل صلواتكم ، وأفضل محافلكم عندكم ، فإنه الإمام منكم على المذبح من مذابحكم وأهله مرعوبون فتتوقعون نزول روح القدس بزعمكم من السماء بدعائه .

فيفتتح دعاءه ويقول : [ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح ، ومحبة الله الأب ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين] . ثم يختم صلاته بمثل ذلك ، فهذا تصريح بالشرك وتصغير لعظمة الله وعزته إن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه ، ومن هو معطى ومخول من عند الله على قولكم ، وجعلتم لله بعد المسيح محبة ولروحه مشاركة .

قال : ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم : إن مريم ولدت الله ــ عز وجل عن ذلك ــ ، وفى شريعة الإيمان التي بيناها المجتمع عليها أن المسيح إله

حق وأنه ولد من مريم ، فما معنى المنافرة ، وما الفرق وما تنكرون من قولهم إن المقتول المصلوب هو الله ، عز وجل عن ذلك ؟

وشريعة إيمانكم تقول : نؤمن بالرب المسيح الذى من خبره وحاله الذى ولد من مريم ، وتألم وصلب على عهد الملك « بيلاطس » النبطى ، ودفن وقام فى اليوم الثالث ، أليس هذا إقراراً بمثل قولكم ؟ فتدبروا هذا القول يا أولى الألباب .

فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فإن مريم عندكم ولدت الله .

وإن قلتم : إنه إنسان فإن مريم ولدت إنساناً وبطلت الشريعة فأى القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم ، ثم عبتم على الملكانية قولهم : إنه ليس للمسيح إلا أقنوم واحد لأنه صار مع الأزلى الخالق شيئاً واحد لا فرق بينهما ، وقلتم بأن له أقنومين لكل جوهر أقنوم على حياله ، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم فقلتم : إن المسيح ، وإن كان مخلوقاً من مريم مبعوثا ، فإنه هيكل لابن الله الأزلى ونحن لا نفرق بينهما ، فإذا كان الأمر عندكم على هذا فما تنقمون على الملكية ، وما معنى الافتراق ، وقد رجعتم فى الاتحاد إلى مثل قولهم : إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام .

فإن كانت الشريعة بمعنى الأمانة عندكم حقاً ، فالقول ما قال يعقوب ، وذلك أنا إذا ابتدأنا من الشريعة فى ذكر المسيح ، ثم نسقنا المعانى نسقاً واحداً، وانحدرنا فيها إلى آخرها وجدنا القوم الذين ألفوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله ، وهو بكر الخلائق كلها ، وهو الذى ولد من مريم ليس بمصنوع وهو إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، وهو الذى اتقن العوالم وخلق كل شىء على يده ، وهو الذى نزل لخلاصكم فتجسد وحملته مريم وولدته وقتل وصلب ، فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التى تشهد بصحة قولهم وتلعن من ألفها .

قال : وإنما أخذت تلك الطائفة يعنى الذين وضعوا الأمانة بكلمات ، وذكروا

أنهم وجدوها فى الإنجيل مشكلات تأولت فيها ما وقع بهواها ، وتركت ما فى الإنجيل من الكلام البيّن الواضح الذى يشهد بعبودية المسيح وشهادته بذلك على نفسه، وشهادة تلاميذه به عليه. فأخذت بالمشكل اليسير وجعلت له ماأحبت من التأويل ، وألغت الواضح الكثير الذى لا يحتاج إلى تأويل .

قال : فأما احتجاجكم بالشمس ، وأنها شىء واحد له ثلاثة معان وتشبيهكم ما يقولونه فى الثلاثة الأقانيم بها ، فإن ذلك تمويه لا يصح لأن نور الشمس لايحد بحد الشمس ، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس ، إذ كان حد الشمس جسما مستديراً مضيئاًمسخناً دائراً فى وسط الأفلاك دوراناً دائماً، ولا يتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة ، ولا يقال : إن نورها أو حرها جسم مستدير مضىء مسخن دائم الدوران ، ولو كان نورها وحرها شمساً حقا من شمس حق من جوهر الشمس كما قالت الشريعة فى المسيح : إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه لكان ما قلتم له مثلا تاما ، والأمر مخالف لذلك فلا يشبهه ولا يقع القياس عليه والحجة منكم فيه باطلة .

قال : ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء فأبطل بنزوله الموت والآثام ، فإن العجب ليطول من هذا القول ، وأعجب منه من قبله ، ولم يتفكر فيه ، وممن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله تبارك وتعالى على مثل هذا القول المحال البائن مما تشهد به العقول وتنبىء به المشاهدة ، ويدعو الناس إليها فما هو ببعيد من عقد ما هو أحل وأبطل منها ، لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه ، فالذين قتلوه إذاً ليسوا خاطئين ولا مأثومين لأنه لا خاطىء بعد مجيئه ولا خطيئة .

وكذلك أيضاً الذين قتلوا حوارييه وأحرقوا أسفاره غير خاطئين ، وكذلك من يراه من جماعتكم ، منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت يقتل ويسرق ويزنى ويلوط ويسكر ويكذب ويركب كل ما نهى عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين ، ولا مأثومين .

فمن جحد ذلك فليرجع إلى التسبيحة التى تقرأ بعقب كل قربان ، وهو أن [ياربنا الذى غلب بوجهه الموت الطاغى] .

وفى الأخرى التى تقال فى اليوم الجمعة الثانية من الفصح : [إن فخرنا بالصليب الذى بطل به سلطان الموت وصرنا إلى الأمن والنجاة بسببه] . وفى بعض التسابيح [بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت ، وانطفأت فتن الشيطان ، ودرست آثارها] فأى خطيئة بطلت ؟ وأى فتنة للشيطان انطفأت أو أى أمر كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم والآثام تغير عن حالته .

قال: فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كل أحد بالمعرفة والعيان فهو فيما أشكل من الأمور وفعل بالتأويلات التى تأولها أولئك المتأولون أوقع .

وإذا كنتم قبلتم هذا المحال الظاهر الذى لاخفاء به عن الصبيان ، فأنتم لما هو أعظم منه من المحال أقبل، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول حيث يقول المسيح فيه ما أكثر من يقول لى يوم القيامة : [ياسيدنا أليس باسمك أخرجنا الشيطان فأقول : أغربوا عنى أيتها الفجرة الغاوون ، فما أن عرفتكم قط] فهذا خلاف قول علمائكم ما قالوا ووضعهم لكم ما وضعوا ، ومثله قوله [إنى جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتى وميسرتى] .

[وقائل لأهل الميسرة إنى جعت فلم تطعمونى ، وعطشت فلم تسقونى، وكنت غريباً فلم تأوونى ، ومحبوساً فلم تزورونى ، ومريضاً فلم تعودونى ، فاذهبوا إلى النار المعدة لكم من قبل تأسيس الدنيا] .

[وأقول لأهل الميمنة: فعلتم بى هذه الأشياء، فاذهبوا إلى النعيم المعد لكم من قبل تأسيس الدنيا] فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التى ركبوها وهل صار هؤلاء إلى النعيم إلا أعمالهم الجميلة التى قدموها بتوفيق الله إياهم فمن قال : إن الخطيئة قد بطلت فقد بهت وخالف قول المسيح ، وكان هو من الكاذبين .

قال : ويا أيها القوم الذين هم أولوا الألباب والمعرفة حيث ينسبونه إلى

الربوبية وينحلونه اللاهوتية ، ويجعلونه خالق الخلق أجمعين وإلههم ، بماذا ساغ ذلك لكم ، وما الحجة فيه عندكم ؟

هل قالت كتب النبوات فيه ذلك ، أو هل قاله عن نفسه أو قاله أحد عن تلامذته ، والناقلين عنه ، الذين هم عماد دينكم وأساسه ومن أخذتم الشرائع والسنن عنه ؟ ومن كتب الإنجيل وبيّنه ، بل قد أفصح فى كل الإنجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ومبدى ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ووصفوه لمن سأل عنه .

وفى كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبى له قوة وفضل فتأولتم فى ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت ، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله كما أفصح بأنه عبد ولكنه ما ذكره ولا ادعاه ، ولا دعا إليه ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ولا كتب تلامذته ، ولا حكى عنهم ولا أوجبه كلام جبريل الذى أداه إلى مريم ، ولا قول يحيى بن زكريا ما قال ، قال : فإن قلتم إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ومشى على الماء وصعد إلى السماء وصير الماء خمراً ، وكثر القليل . فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلا فنجعله رباً وإلهاً ، وإلا فما الفرق ؟ .

فمن ذلك أن كتاب « سفر الملوك » يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة ، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية ، وأن « حزقيال » أحيا بشراً كثيراً ، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلهاً .

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت ، وهذا موسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصر بهما ، وضرب بها الرمل فصار قملا لكل واحدة منها عينان تبصر بهما ، ولم يكن واحد منهم بذلك إلهاً .

وأما إبراءه الأبرص ، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا من عظماء الروم برص فرحل من بلده قاصداً اليسع عليه السلام ليبرئه من برصه ، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أياماً لا يؤذن له ، فقيل لليسع: إن ببابك رجلا يقال له «نعمان» ، وهو أجل عظماء الروم به برص ، وقد قصدك لتبرئه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك فلم يأذن له ، وقال لرجل من أصحابه : اخرج إلى هذا الرجل ، فقل له : يغمس فى الأردن سبع مرات ، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع ففعل ذلك ، فذهب عنه البرص ورجع قافلا إلى بلده فاتبعه خادم اليسع فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالا فسر الرجل بذلك ، ودفع إلى الخادم مالا وجوهراً ، ورجع فأخفى ذلك وستره .

ثم دخل إلى اليسع فلما مثل بين يديه ، قال له : تبعت نعمان وأوهمته عنى كذا وكذا ، وأخذت منه كذا وأخفيته فى موضع كذا ، إذ فعلت الذى فعلت به فليصر برصه عليك وعلى نسلك فبرص ذلك الخادم على المكان ، قال ، فهذا اليسع قد أبرأ أبرص وأبرص صحيحاً ، وهو أعظم مما فعل المسيح عليه السلام ، فلم يكن فى فعله ذلك إلهاً .

قال: وأما قولكم إنه مشى على الماء ، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس عليه السلام صار إلى الأردن ، ومعه اليسع تلميذه فأخذ عمامته فضرب بها الأردن فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع ، ثم صعد إلى السماء على فرس من نور ، واليسع يراه ، ودفع عمامته إلى اليسع فلما رجع اليسع إلى الأردن ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعاً ، ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلهاً ، ولا كان إلياس بصعوده إلى السماء إلها .

قال : وأما قولكم إنه صير ماء خمراً فهذا كتاب سفر الملوك يخبر بأن اليسع نزل بامرأة إسرائيلية فأضافته وأحسنت إليه فلما أراد الانصراف ، قال لها :

هل لك من حاجة ؟ فقالت المرأة : يانبي الله إن على زوجي ديناً قد فدحه ، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل .

فقال لها اليسع : اجمعي كل ما عندك من الآنية واستعيري من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم ففعلت ، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماء فقال: اتركيه ليلتك هذه ، ومضى من عندها فأصبحت المرأة ، وقد صار ذلك الماء كله زيتاً فباعوه فقضوا دينهم .

وتحويل الماء زيتاً أبدع من تحويله خمراً ولم يكن اليسع بذلك إلهاً. وأما قولكم المسيح عليه السلام كثر القليل حتى أكل خلق كثير من أرغفة يسيرة فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس نزل بامرأة أرملة وكان القحط قد عم الناس وأجدبت البلاد ومات الخلق ضراً وهزلا ، وكان الناس في ضيق ، فقال للأرملة: هل عندك من طعام ؟ فقالت : والله ما عندي إلا كف من دقيق في قلة أردت أن أخبزه لطفل لي ، وقد أيقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط .

فقال لها : احضريه فلا عليك فأتته به فبارك عليه فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هي وأهلها وجيرانها منه حتى فرّج الله عن الناس فقد فعل إلياس في ذلك أكثر مما فعل المسيح لأن إلياس كثر القليل وأدامه، والمسيح كثر القليل في وقت واحد ولم يكن إلياس بفعله هذا إلها . وقال : فإن قلتم إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنع في هذه الأفعال ، وإن الصنع فيها والقدرة لله عز وجل إذ كان هو الذي أجراها على أيديهم فقد صدقتم ، ونقول لكم أيضاً كذلك المسيح ليس له صنع فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب ، إذ كان الله هو الذي أظهرها على يديه ، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء ، والحجة في ذلك ؟

قال : وإن قلتم . إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آية تضرعت إلى الله ودعته وأقرت له بالربوبية وشهدت على أنفسها بالعبودية .

قيل لكم : وكذلك سبيل المسيح سبيل سائر الأنبياء قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله ويقر له بالعبودية ، فمن ذلك أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيي رجلا يقال له العازر ، فقال : [يا أبي أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني تستجيب لي ، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا] وقال : بزعمكم وهو على الخشبة [إلهي إلهي لم تركتني] ، وقال : [يا أبي اغفر لليهود ما يعملون فإنهم لايدرون ما يصنعون] .

وقال في إنجيل متى : [يا أبي أحمدك] ، وقال : [ياأبي إن كان بد أن يتعدانى هذا الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا فلتكن مشيئتك] .

وقال أيضا : [أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني] .

وقال : [لا أستطيع أن أصنع شيئا ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي] . وقال يعني نفسه [لاينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده ، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله] .

وقال : [إن الله لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم ولم يره أحد من خلقه ، ولا يراه أحد إلا مات] .

والمسيح قد أكل وشرب وَوُلِدَ ورآه الناس فما ماتوا من رؤيته ، ولامات أحد منهم ، وقد لبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة .

قلت : وعامة ماذكره هذا عن الكتب تعترف به النصارى لكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ فنازعه هنا في قوله : [لاينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده] ، وقال هذا إنما قاله المسيح للحواريين ، وذكر أنه لايعرف عنه لفظ لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ، قال : وقال في إنجيل «يوحنا» [إنكم متى رفعتم ابن البشر فحينئذ تعلمون أني أنا هو وشيء من قبل نفسي لا أفعل ، ولكن كل شيء كالذي علمني أبي] . وقال في موضع آخر : [من عند الله أرسلت معلماً]، وقال لأصحابه : [اخرجوا بنا من هذه المدينة ، فإن النبي لايحل في مدينته] ، وأخبر الإنجيل

أن امرأة رأت المسيح ، فقالت : إنك لذلك النبي الذى كنا ننتظر مجيئه ، فقال لها المسيح : [صدقت طوبى لك] وقال لتلامذته [كما بعثنى أبى كذلك أبعث بكم]، قال : فاعترف بأنه نبي وأنه مألوه ومربوب ومبعوث ، وقال لتلامذته : [إن من قبلكم وآواكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فإنما يقبل من أرسلنى ومن قبل نبياً باسم نبى فإنما يفوز بأجر من قبل النبى] .

فبين هاهنا وفي غير موضع أنه نبي مرسل ، وأن سبيله مع الله سبيلهم معهم. وقال «متى» التلميذ فى إنجيله يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله عز وجل : [هذا عبدى الذى اصطفيته ، وحبيبى الذى ارتاحت إليه نفسى ، أنا واضع روحى عليه ويدعو الأمم إلى الحق] ، فلن يحتاج إلى حجة أوضح من هذا القول الذى جعلتموه حجة لكم ، فقد أوضح الله أمره وسماه عبداً ، واعلم أنه يضع عليه روحه ويؤيده بها ، كما أيدّ سائر الأنبياء بالروح فأظهروا الآيات المذكورة عنهم ، وهذا القول يوافق ما بشّر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها ، وقال القول الذى سقناه فى صدر كتابنا قال : وقال يوحنا التلميذ فى الإنجيل عن المسيح عليه السلام : [إن كلامى الذى تسمعون هو كلام من أرسلنى] ، وقال فى موضع آخر : [إن أبى أجلّ وأعظم منى] ، وقال أيضاً : [كما أمرنى أبى كذلك أفعل أنا ، أنا الكرم وأبى هو الفلاح] ، وقال يوحنا : [كما للأب حياة فى جوهره ، فكذلك أعطى الابن أن تكون له حياة فى قينومه] قال : فالمعطِى خلاف المعطَى لا محالة والفاعل خلاف المفعول .

قال : وقال المسيح فى إنجيل يوحنا : [إنى لو كنت أنا الشاهد لنفسى على صحة دعواى لكانت شهادتى باطلة لكن غيرى يشهد لى فأنا أشهد لنفسى ويشهد لى أبى الذى أرسلنى] وقال المسيح لبنى إسرائيل : [تريدون قتلى ، وأنا رجل قلت لكم الحق الذى سمعت الله يقوله] قال : وقال فى الرجل الذى أقامه من الموتى : [ياأبى أشكرك على استجابتك دعائى وأعترف لك بذلك ، وأعلم أنك

كل وقت تجيب دعوتى لـكن أسألك من أجل هذه الجماعه ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتنى] ، قال : فأى تضرع وإقرار بالرسالة والمسألة والطلب للاجابة من الله عز وجل أشد من هذا أو أكثر قال : وقال فى بعض مخاطبته لليهود ، وقد نسبوه إلى الجنون : [أنا لست بمجنون ، ولـكن أكرمُ أبى ولا أحب مدح نفسى ، بل مدح أبى لأنى أعرفه ، ولو قلت : إنى لا أعرفه لـكنت كذابا مثلـكم ، بل أعرفه وأتمسك بأمره] ، قال : وقال داود فى مزمور مئة وعشرة [قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لرجليك] .

[عصا العظمة تبعث الرب من صهيون وتبسط على أعدائك شعبك يامسيح يوم الرعب فى بهاء القدس من البدىء] .

[اليوم ولدتك ياصبى عهد الرب ولا تـكذب إنك أنت الـكاهن المؤيد يشبه ملـكليز داق][1] قال : فهذه مخاطبة ينسبونها إلى اللاهوت ، وقد أبان داود فى مخاطبته أن لربه الذى ذكره ربا هو أعظم منه وأعلى ، أعطاه ما حكيناه ومنحه ذلك وشهد عليه ، إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون وسماه صبياً محققاً لقوله الأول : اليوم ولدتك ونسقاً على أول كلامه وهو ربه ووصف أنه الـكاهن المؤيد الذى يشبه ملـكيز داق . قلت : قالوا : وهذا الـكاهن هو الذى ذكره فى التوراة إن الخليل أعطاه القربان ، وإذا كان المسيح مشبها به مع تسميته كاهنا كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه مخلوق قال : فأما قوله [من البدىء . ولدتك] فهو يشبه قول داود [تبنى على نفسه من البدىء ذكرتك وهديت كل أعمالك] ، وبعضهم يقول : لفظ النص : [إن الرب يبعث عصاه من صهيون] قال : وقال شمعون الصفا رئيس الحواريين فى الفصل الثانى من قصصهم: [يا رجال بنى إسرائيل اسمعوا مقالتى إن يسوع النصرى رجل ظهر لـكم من

---

(١) قال أبو نصر : ملـكير داق ، وهو حبر عظيم من أحبار بنى إسرائيل .

عند الله بالقوة والأيدى والعجائب التى أجراها على يديه وإنكم أسلمتوه وقتلتموه فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات] .

قال : فأى شهادة أبين وأوضح من هذا القول وهو أوثق التلاميذ عندكم يخبر كما ترون أن المسيح رجل وأنه من عند الله وأن الآيات التى ظهرت منه بأمر الله أجراها على يديه وأن الذى بعثه من بين الموتى هو الله عز وجل قال : وقال أيضاً فى هذا الموضع : اعلموا أن الله جعل يسوع الذى قتلتموه رباً ومسيحاً قال: فهذا القول يزيل تأويل من لعله أن يتأول فى الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت ، لأنه يقول : إن الله جعله رباً ومسيحاً ، والمجعول مخلوق مفعول ،قال أبو نصر : وإنما سمى ناصرى ، لأن أمه كانت من قرية يقال لها « ناصرة » فى الأردن ، وبها ، سميت النصرانية .

قال : وقد سمى الله جل ثناؤه يوسف رباً قال داود فى مزمور مئة وخمسة : [وللعبودية بيع يوسف ، وشدوا بالكبول رجليه ،وبالحديد دخلت نفسه حتى صدقت كلمته قول الرب جربه بعث الملك نخلاه وصيره مسلطاً على شعبه ، ورباً على بنيه ومسلطاً على فتيانه] .

وقال لوقا فى آخر إنجيله : إن المسيح عرض لعملوقا ولوقا تلميذه جبريل فى الطريق وهما محزونان فقال لهما ، وهما لا يعرفانه : مابالكما محزونين ؟ فقالا : كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس إذ كنت لا تعلم ماحدث فيها فى هذه الأيام من أمر يسوع الناصرى ، فإنه كان رجلا نبياً قوياً فى قوله وفعله عند الله وعند الأمة أخذوه وقتلوه] على قولهم فيه .

قال : فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدى إلى الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه . وقال داود فى المزمور الثانى فى زبوره مخاطباً لله ومثنياً على المسيح : [مَنْ الرجل الذى ذكرته والإنسان الذى أمرته وجعلته دون الملائكة قليلا ،وألبسته المجد والكرامات ؟] ، وقال فى المزمور الثانى:

[قال لى الرب : أنت ابنى وأنا اليوم ولدتك سلنى فأعطيك] ، فقوله ولدتك دليل على أنه حديث غير قديم، وكل حادث فهو مخلوق ، ثم أكد ذلك بقوله : [اليوم] لحد باليوم حداً لوالدته أزال به الشك فى أنه ما كان قبل « اليوم » ودل بقوله : سلنى فأعطيك على أنه محتاج إلى المسألة غير مستغن من العطية ، قال : فهذا ماحضرنا من الآيات فى تصحيح خلق المسيح وعبوديته وبطلان ما يدعونه من ربوبيته ، ومثله كثير فى الإنجيل لا يحصى فإذا كانت الشهادات منه على نفسه ، ومن الأنبياء عليه ومن تلاميذه بمثل ماقد بيناه فى هذا الكتاب ، وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم ، فما الحجة فيما تدعونه له ومن أى جهة أخذتم ذلك واخترتم الكلام الشنيع الذى يخرج عن المعقول ، وتنكره النفوس ، وتنفر منه القلوب، الذى لا يصح بحجة ولا قياس ولا تأويل على القول الجميل الذى تشهد به العقول وتسكن إليه النفوس وتشا كل عظمة الله وجلاله .

قال : وإذا تأملتم كل ما بيناه تأمل إنصاف من أنفسكم وإشفاق عليها علمتم أنه قول لا يحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئاً دون اللاهوت .

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله [أبى وأبيكم - ويا أبى - وبعثنى أبى] قلنا : فإن كان الإنجيل أنزل على هذه الألفاظ لم تبدل ولم تغير ، فإن اللغة قد أجازت أن يسمى الولىّ ابناً ، وقد سماكم الله جميعاً بنيه ، وأنتم لستم فى مثل حاله .

ومن ذلك أن الله عز وجل قال لإسرائيل فى التوراة : [أنت ابنى بكرى]. وقال لداود فى الزبور : [أنت ابنى وحبيبى] . وقال المسيح فى الإنجيل للحواريين: [أريد أن أذهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم] فسمى الحواريين أبناء الله وأقر بأن له إلهاً هو الله ، ومن كان له إله فليس بإله كما تقولون : فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهية بأن الله سماه ابناً فنلتزم ذلك ، ونشهد بالإلهية لكل من سماه الله ابناً وإلا فما الفرق ؟ .

قال : فإن قلتم : إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سُمُّوا أبناء لله على جهة

الرحمة من الله لهم ، والمسيح ابن الله على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك .

قلنا : يجوز لمعارض أن يعارضكم ، فيقول لكم ما تنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابنى الله على الحقيقة ، والمسيح ابن رحمة ، وما الفرق ؟ .

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن المسيح جاء إلى مُقْعَد فقال له : [قم فقد غفرت لك] فقام الرجل ، ولم يدع الله فى ذلك الوقت.

قلنا لكم : هذا إلياس أمر السماء أن تمطر فمطرت ، ولم يدع الله فى ذلك الوقت ، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومى بأن يغتمس فى الأردن من غير دعاء ، ولا تضرع ، على أنا وجدناه فى الإنجيل قد تضرع ، وسأل مسائل قد تقدم ذكرها .

وقال فى بعض الإنجيل : [ياأبى أشكرك على استجابتك دعائى ،وأعلم أنك فى كل وقت تجيب دعوتى لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتنى] .

فإن قلتم : إن الغفران من الله عز وجل ، وإن المسيح قال لبعض بنى إسرائيل : [قم فقد غفرت لك] والله هو الذى يغفر الذنوب .

قلنا :فقد قال الله فى السفر الخامس من التوراة لموسى :[اخرج أنت وشعبك الذى أخرجت من مصر وأنا أجعل معكم ملكا يغفر ذنوبكم] .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه غفر ذنوب المقعد ، فالملك إذاً إله لأنه يغفر ذنوب بنى إسرائيل وإلا فما الفرق ؟ !

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سبحانه ربا فقال : [ابن البشر رب السبت] .

قلنا : فهذه التوراة تخبر بأن لوطاً عليه السلام لما رأى الملكين قد أقبلا من البرية لهلاك قومه قال لهما [يا ربى مهلا إلى منزل عبدكما] وقد تقدم لنا الاحتجاج

فى هذا الـكتاب رباً من يوسف وغيره ، فإن كان المسيح إلهاً لأنه سمى رباً فهؤلاء إذاً آلهة لأنهم سموا بمثل ذلك .

فإن قلتم: إن الأنبياء قد تنبت على إلهية المسيح فقال أشعيا : [العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى اسمه « عمانويل »] وتفسيره « معنا إلهنا » .

قلنا : قيل : إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس ، وإن كان الله عز وجل المنفرد بمعنى الإلهية جل ثناؤه فقد قال الله فى التوراة لموسى عليه السلام [قد جعلتك لهارون إلهاً وجعلته لك نبياً] .

وقال فى موضع آخر : [قد جعلتك يا موسى إلهاً لفرعون] ، وقال داود فى الزبور لمن كانت عنده حكمة : [كلـكم آلهة ومن العلية تدعون] .

فإن قلتم : إن الله عز وجل جعل موسى إلهاً لهارون على معنى الرياسة عليه .

قلنا: وكذلك قال أشعيا فى المسيح إنه إله لأمته على هذا المعنى، وإلا فما الفرق؟

فإن قلتم : إن المسيح قد قال فى الإنجيل : [من رآنى فقد رأى أبى وأنا وأبى واحد] .

قلنا : إن قوله [أنا وأبى واحد] إنما يريد به أن قبولـكم لأمرى هو قبولكم لأمر الله ، كما يقول رسول الرجل : أنا ومن أرسلنى واحد ، ويقول الوكيل : أنا ومن وكلنى واحد ، لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه ، ويؤدى عنه ما أرسله به ويتكلم بحجته ، ويطالب بحقوقه ، وكذلك قوله : [من رآنى فقد رأى أبى] يريد بذلك أن من رأى هذه الأفعال التى أظهرها فقد رأى أفعال أبى .

فإن قلتم : إن المسيح قد قال فى الإنجيل : [أنا قبل إبراهيم] فـكيف يكون قبل إبراهيم ، وإنما هو من ولده ؟ ولـكن لما قال قبل إبراهيم علمنا ما أراد أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية :

قلنا : هذا سليمان بن داود يقول فى حكمته : [أنا قبل الدنيا وكنت مع الله حيث بدأ الأرض] ، فما الفرق بينه وبين من قال : إن سليمان ابن الله ، وإنه إنما

قال أنا قبل الدنيا بالإلهية ، وقد قال داود أيضاً فى الزبور : [ذكرتك من البدء يارب فى البدء ، وهديت بكل أعمالك] .

فإن قلتم : إن كلام سليمان بن داود متأول لأنهما من ولد إسرائيل ، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا .

قلنا : وكذلك قول المسيح أنا قبل الدنيا متأول ، لأنه من ولد إبراهيم ، ولا يجوز أن يكون كان قبل إبراهيم ، فإن تأولتم تأولنا وإن تعلقتم بظاهر الخبر فى المسيح تعلقنا بظاهر الخبر فى سليمان وداود ، وإلا فما الفرق ؟

وقد قدمنا هذا الاحتجاج على تأويلكم لتعلموا بطلان ماذهبتم إليه على أنه تأويل غير واقع لحقه ، وإنما حقه أن يكون هذا الاسم يعنى « عمانويل » لما وقع على المسيح كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن « إلهنا معنا » ، يعنى أن الله معه ، ومع شعبه معيناً وناصراً .

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به ، ولو كان المعنى ماذهبتم إليه لما جاز لأحد أن يتسمى به ، كما لم يجز أن يتسمى بالمسيح لأنه مخصوص بمعناه .

فإن قلتم : إن تلاميذ المسيح كانوا يعملون الآيات باسم المسيح .

قلنا لكم : فقد قال الله عز وجل ثناؤه ليحيى بن زكريا [قد أيدتك بروح القدس وبقوة إلياس ، وهى قوة تفعل الآيات] فأضاف القوة إلى إلياس .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فعلت الآيات باسمه ، فما الفرق بينكم وبين من قال : إلياس إله فإنه فعلت بقوته الآيات ؟ . فإن قلت : إن الخشبة التى صلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميت فعاش ، وإن هذا دليل على أنه إله ، قلنا لكم ، فما الفرق بينكم وبين من قال : إن اليسع إله ؟ واحتج فى ذلك بأن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا مات فحمله أهله إلى المقبرة ، فلما كانوا بين القبور رأوا عدواً يريد أنفسهم فطرحوا الميت عن رقابهم وبادروا إلى المدينة وكان الموضع الذى ألقوا عليه الميت قبر اليسع ، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر

اليسع عاش ، وأقبل يمشى إلى المدينة ، فإن زعمتم أن المسيح إله لأن الخشبة التى ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميت فعاش فاليسع إله لأن تراب قبره لصق بميت فعاش ، فإن قلتم أن المسيح كان من غير فحل .

قلنا لكم : قد كان كذلك ، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية ولا الربوبية ، لأن القدرة فى ذلك للخالق تبارك وتعالى لا المخلوق ، وعلى أنه يوجدكم . لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثى ، وخلق أنثى من ذكر بلا أنثى أعجب من ذكر من أنثى بغير ذكر وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من تراب ، وخلق بشر من تراب أعجب وأبدع من خلق ذكر من أنثى بلا فحل ، فما الفرق ؟ .

قال : وهذه الأسباب التى ذكرناها كلها هى الأسباب التى تتعلقون بها فى نحلتكم المسيح الربوبية وإضافتكم إليه الإلهية ، وقد وصفناها على حقائقها عندكم وقبلنا قولكم ، وإن كنا لا نشك فى أن أهل الكتب قد حرّفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه ، وأوجدناكم بطول ماتنتحلونه ، وفساد ماتتأولونه من الكتب التى فى أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل ، فما الذى يثبت الحجة بعد ذلك لكم ؟ قال : وقد قال السيد المسيح فى الانجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة :[إن ذلك اليوم، وتلك الساعة لا يعرفه أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن أيضاً ، ولكن الأب وحده يعرفه]: قال: فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم وأن الله تبارك وتعالى أعز وأعلم منه ، وأنه خلافه وأعلا منه ، وقد بين بقوله أحد عمومه بذلك الخلق جميعاً ، ثم قال ، [ولا الملائكة] وعندهم من علم ما ليس عند أهل الأرض ، ثم قال: [ولا الابن] ، وله من القوة ما ليس لغيره وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لا يعلم كل ما يعلمه الله ، بل ما علمه الله إياه وأطلعه على معرفته وجعله له وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية ، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه ـ تعالى الخالق لكل شىء علواً كبيراً ـ ولو كان إلهاً كما يقولون : لعلم ما يعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور

وعلانيتها ، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذى إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت .

قلت : مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لا يعلمه أحد ، ثم خص الملائكة بالذكر لئلا يظن أن أحدا منهم يعلمه ، فقال : [ولا الملائكة الذين فى السماء] ثم قال : [ولا الإبن يعرفه ، وأن الأب وحده يعرفه] فنفى معرفة الإبن وأثبت أن الأب وحده يعرفه ، ومراده بالإبن المسيح فعرف أن المسيح لا يعرفه وأثبت أن الرب يعرفه دون الإبن .

ودل ذلك على أن لفظ الإبن عند المسيح ، إنما يراد بها الناسوت وحده إذ كان لا يجوز نفى العلم عن اللاهوت ، فإن اللاهوت يعلم كل شيء ، وقد دل ذلك على أن قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن] ، والمراد به الناسوت وحده، كما أريد بلفظ الإبن فى سائر كلامه وكلام غيره لم يرد قط أحد منهم بلفظ الإبن اللاهوت ، بل إطلاق الإبن على اللاهوت مما ابتدعته النصارى ، وحملوا عليه كلام المسيح فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وحملوا عليها كلام المسيح وإنما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم على معنى لغتهم التى جرت عادتهم بالتكلم بها لا على لغة يحدثها من بعدهم ، ويحمل كلامهم عليها

قلت : فإن هذا الذى فعلته النصارى وأشباههم بفتح باب الإلحاد فى كتب الله المنزلة ، وقد قال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾ ،[فصلت : ٤٠] وذلك أن كل من اعتقد معانى برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظ تناسبها بنوع مناسبة ، وتلك الألفاظ موجودة فى كلام الأنبياء عليهم السلام لها معان أخر ، ويجعل تلك الألفاظ دالة على معانيه التى رآها ، ثم يجعل الألفاظ التى تكلمت بها الأنبياء ، وجاءت بها الكتب الالهية أرادوا بها معانيه هو ، وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد فى سائر الكتب الإلهية كما فعلته النصارى مثل ما عمدت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان

القائلون بأن هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الالهية ، ولا هو عالم بالجزئيات لا بموسى بن عمران ولا بغيره ، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئة ولا يقيم الناس من قبورهم ، فقالوا : خالق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك يقال على الإحداث الذاتى ، والإحداث الزمانى .

فالأول : هو إيجاب العلة لمعلومها المقارن لها فى الزمان .

والثانى : إيجاد الشيء بعد أن لم يكن ، ثم قالوا : ونحن نقول : إن الله خالق السموات والأرض ومابينهما وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام ، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتى وهو أن ذلك معلول له لم يزل معه .

فيقال لهم : لم يستعمل أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ الخلق والإحداث إلا فيما كان بعد عدمه وهو ما كان مسبوقاً بعدمه ووجود غيره ، ومعنى هذا اللفظ معلوم بالاضطرار فى جميع لغات الأمم ، وأيضاً فاللفظ المستعمل فى لغة العامة والخاصة لا يجوز أن يكون معناه مالا يعرفه إلا بعض الناس ، وهذا المعنى الذى يدعونه لو كان حقاً لم يتصوره إلا بعض الناس ، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذى تداوله العامة والخاصة موضوعاً له إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات ، ويبطل تعريف الأنبياء للناس ، فكيف وهو باطل فى صريح المعقول ، كما هو باطل فى صحيح المنقول ، فإنه لم يعرف أن أحداً قط عبر عن القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً ، ولا يزال بأنه محدث أو مخلوق أو مصنوع أو مفعول ، فهذا الذى ذكرتموه كذب صريح على الأنبياء عليهم السلام ، لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم والكتب الالهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، والقديم الأزلى لا يكون مخلوقاً فى ستة أيام ، وكذلك

الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن قد أخبرت بتكليم الله لموسى ، و بندائه إياه من الطور من الشجرة ، وفى التوراة إنها شجرة العليق .

وأخبرت بأن موسى عليه السلام كان يلقى عصاه فتصير حية تسعى ، ويخبر بأن الله فلق له البحر ، فقال الملاحدة : إن الشيء الثابت يسمى طوراً ، فإنه ثابت كالجبل والقلوب تسمى أودية ، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم والحجة المبتلعة كلام أهل الباطل هى عصا معنوية ، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال الذى فاض منه العلم على قلب موسى عليه السلام ، والوادى قلب موسى ، والكلام الذى سمعه موسى من سماء عقله ، وتلك الأصوات كانت فى نفسه لا فى الخارج ، والملائكة التى رآها كانت أشخاصاً نورانية تمثلت فى نفسه لا فى الخارج ، والبحر الذى فلقه هو بحر العلم ، والعصا كانت حجته غلب على السحرة بحجته العلمية فابتلعت حجته شبههم التى جعلوها حبالا يتوسلون بها إلى نيل أغراضهم ، وعصياً يقهرون بها من يجادلونه .

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على الكتب الإلهية التى أخبرت بقصة موسى كالتوراة والقرآن ، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسى هذا ، بل صرحوا بأن موسى سمع نداء الله له ، وأنه كلّمه من الطور طورسينا الذى هو الجبل ، وقلب عصاه التى كان يهش بها على غنمه ثعباناً عظيما ، وفلق له البحر ، وغرق فيه آل فرعون فغرقوا وماتوا فيه وهلكوا ، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير .

فهكذا النصارى حرفوا كتب الله وسموا صفة الله القديمة الأزلية التى هى علمه أو حكمته ابناً ، وسموها أيضاً كلمة وسموا صفته القديمة الأزلية ، التى هى حياته روح القدس ، وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لاتوجد فى شىء من كلام الأنبياء ولا غيرهم ، ولا يعرف أن أحداً قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمى علم الله القائم به ابنه ، بل ولا سمى علم أحد من العالمين القائم به ابنه ، ولكن

لفظ الإبن يعبر به عمن وُلِد الولادة المعروفة ، ويعبر به عمن كان هو سبباً في وجوده ، كما يقال ابن السبيل لمن ولدته الطريق ، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده .

ويقال لبعض الطير ابن ماء ، لأنه يجىء من جهة الماء ، ويقال : كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن الإبن ينتسب إلى أبيه ويحبه ، ويضاف إليه أى كونوا ممن ينتسب إلى الآخرة ويحبها ، ويضاف إليها ، وهذا اللفظ موجود فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب فى حق الصالحين الذين يحبهم الله ويربيهم كما ذكروا أن المسيح قال : [أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم] وفى التوراة : إن الله قال ليعقوب : [أنت ابنى بكرى] .

ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحاً له معنى صحيح ، وهو المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعنى مفهوماً عند الأنبياء عليهم السلام ، ومن يخاطبونه ، وهو من الألفاظ المتشابهة ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل .

وزعم كثير من الكفار أن لله سبحانه وتعالى بنين وبنات ، وأن الملائكة بناته ، وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون العقول العشرة هى بنوه ، والنفوس الفلكية هى بناته ، وهى متولدة عنه لازمة لذاته ، فجاء القرآن الذى هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعانى ، ومنع استعمال هذا اللفظ فى حق الله تعالى فنزه الله عن أن يتخذ ولداً ، كما نزهه عن أن يكون له ولد ، والأول من باب تنزيهه عن الأفعال المذمومة ، وهذا على قول جماهير المسلمين وغيرهم الذين ينزهون الله ويقدسونه عن الأفعال القبيحة التى لا تليق به ، بل تنافى ما وجب له من الكمالات فى أفعاله ، كما وجب له الكمال فى ذاته وصفاته ، وأما من كان من المسلمين وغيرهم لا ينزه الله عن فعل من الأفعال إلا ما كان ممتنعاً لذاته ، فأما الممكن المقدور فيقول : لا يعلم انتفاؤه إلا بالخبر أو بالعادة المطردة التى يمكن انتقاضها فهذا لا يبقى معه ما ينفى به عن الله الأفعال المذمومة القبيحة ،

والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧] .

وقال تعالى ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين و بنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى عن المؤمنين : ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ ، سورة آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾ ، سورة الفرقان : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله و إنهم لكاذبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ ، [سورة النساء : ١٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٠] .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك ، وشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله أنى يعيدنى كما بدانى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : إنى اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، إنهم ليجعلون له ولداً وشريكا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولهذا كان معاذ بن جبل يقول : لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر . فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية حرمت أن يتكلم فى حق الله باسم ابن أو ولد سداً للذريعة ، كما منعت أن يسجد أحد لغير الله، وإن كان على وجه التحية، كما منعت أن يصلى أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبه عباد الشمس والقمر ، فكانت بسدها للأبواب التى تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع

مثل تحريمها قليل المسكر ، لأنه يجر إلى كثيره ، فإن أصول المحرمات التى قال فيها : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ـ منها ـ والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] .

مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء بخلاف تحريم الطيبات عقوبة ، فإن هذا جاء فى شرع التوراة دون شرع القرآن ، فإن الله أحل لأمة محمد الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وكذلك تكميل التوحيد من كل الوجوه ، وسد أبواب الشرك من كل الوجوه جاءت به هذه الشريعة مع اتفاق الأنبياء على إيجاب التوحيد وتحريم أن يجعل لله شريك أو ولد ، فإذا كان مراده المسيح عليه السلام بالإبن هو الناسوت ، وهو لم يسم اللاهوت ابنا . وقد ذكر أن الابن لا يعلم الساعة فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده وأنه لا يعلم الساعة ، وهذا هو الحق وإن قالوا مراده بالابن اللاهوت والناسوت لزم من ذلك أن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لا يعلم الساعة ، وهذا باطل ، وكذب وهو أيضاً مناقض لقولهم .

فدل هذا النص من المسيح مع سائر نصوصه ونصوص الأنبياء على أن مسمى الابن هو الناسوت وحده ، وأنه لا يعلم ما يعلمه الله ، وذلك صريح فى أنه مخلوق ليس بخالق ، ولا يجوز أن يكون هذا خطأنا للناسوت المتحد باللاهوت دون اللاهوت . كما يتأوله عليه بعض النصارى ، لأن كل ما علمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت ، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به ، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت ، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت ، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده لم يستثن علم الابن الأزلى عندهم ، بل نفى علم ما سوى الأب به ، وهذا مناقض بقولهم من كل وجه .

فصل فى بطلان ما قاله النصارى فى المسيح

قال الحسن بن أيوب : ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب فى الإنجيل فقال له : أيها الخير ، فقال :ليس الخير إلا الله وحده ، قلت : وبعضهم يترجه أيها الصالح فقال :ليس الصالح إلا الله وحده ،قال : ومثله قوله فى الإنجيل [إنى لم آت لأعمل بمشيئتى لكن بمشيئة من أرسلنى] قال : ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون : لما قال هذا القول فقد أبطل به ما تدعونه فى ذلك ، قال : ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله ، ومن قوة الله غير بائنة ولا متصلة عنه ، وتشهدون عليه فى الإنجيل بقوله : إنه يصعد السماء ، ويجلس عن يمين أبيه ، ويدين الناس يوم القيامة ،ويجازيهم بأعمالهم ، ويتولى الحكم بينهم، وأن الله عز وجل مدحه ذلك إذ كان لا يراه أحد من خلقه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين والقاعد عن يمين أبيه هو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذى كان فى الأرض المتوحد به الربوبية ، فقد فصلتم بين الله تبارك وتعالى وبينه ، وبعضتموه باجتماعهما فى السماء شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه ، وهذا كفر وشرك بالله عز وجل وإن كان جسداً خالياً من الإلهية ، وهى الكلمة ، وقد عادت إلى الله كما بدت منه فقد زال عنه حكم الربوبية التى تنتحلونه إياها .

قال : ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التى ترجع بزعمكم إلى جوهر واحد ، وهو اللاهوت ماهو؟ ومن أين أخذتموه ؟ ومن أمركم به؟ وفى أى كتاب نزل ؟ وأى نبى تنبأ به ، أو أى قول للمسيح تدعونه فيه ؟ وهل بنيتم أمركم فى ذلك إلا على قول « متى » التلميذ عن المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم : [اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] ؟

قال : وهذا كلام يحتمل معناه ـ إن كان صحيحاً ـ أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه المسيح وروح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل ، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم صلاة فلان القديس تكون معك ، ومعنى الصلاة الدعاء ، واسم فلان النبي يعنيك على أمورك .

وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ يقرن طاعته بطاعة نبيه وأولى الأمر من المسلمين ، أفنقول لذلك إنهم جميعاً آلهة ؟

قال : وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل إن لم يكن معناه ما قلناه ، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به ، فلم حكم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله صارت آلهة ، وجعلتم لها أقانيم لكل اسم أقنوم بعينه ، وهو شخص ، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله بالتأويل الذي لا يصح .

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته ، فلابد من أن تعترفوا ضرورة بأن كل أقنوم منها سميع حي بصير عالم حكيم منفرد بذاته ، كما يقولون في المسيح إنه جالس عن يمين أبيه فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموهما مع الله من جهة أن الله حكيم حي لحكمته الكاملة ، وهي المسيح وروحه وروح القدس ، وهذه صفة من صفات الله مثلها كثير ، لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حي قدير .

وكذا ربنا تعالى وإن كانت صفاتنا إياه لا تلحق صفاته ، ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه فنحلتم صفاته التي هي معناه وليست سواه غيره وجعلتموه أقانيم لكل واحد من الحياة والحكمة وسائر الصفات مثل الذي له ، وما فيها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكونوا صفته مثله ، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة ، وكل صفة إله ، وهي من من جوهره فيجب

أن تـكون كل صفة لـكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلهاً مثله إذ كان من جوهره فيتسع الأمر فى ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية .

قال : و إذا قلتم بثلاثة أقانيم هى فى السماء من جوهر قديم أفاييس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة ، لأن الأقانيم أشخاص يوماً إليها ، ويقع الحد عليها ، وإلا فلا الحجة وأنتم تذكرون فى بعض احتجاجكم أنها الثلاثة ترجع إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة وتشبهونها فى اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس ، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على أن المسيح إله وإنسان متحدين وأنه يصعد إلى السماء ويجلس عن يمين أبيه ، والجالس عن يمين صاحبه أليس هو منفصلا عنه مفروزاً عنه ؟ فكيف يصح على هذا القول قياس ، أو يصح به عقد دين ؟ تقولون مرة مجتمع ، ومرة منفصل ، وما شبهتموه به من الشمس ، فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه ، وأنه لا يكون قياسه القياس الذى تعلقتم به .

على أنا وجدناكم تقولون فى معنى التثليث : إن الذى دعاكم إليه ما ذكرتم أن « متى » التلميذ حكاه فى الإنجيل عن المسيح عليه السلام ، إذ قال لتلاميذه : [سيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس باسم الأب والإبن] ، والروح القدس وأنكم فكرتم فى هذا القول بعقولكم فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له محدثا فتوهمتموه شيئا موجوداً ، ثم توهمتموه حياً ناطقاً لأن الشىء ينقسم لحى ، ولا حى ، والحى ينقسم لناطق ، ولا ناطق .

وأنكم علمتم بذلك أنه شىء حى ناطق فأثبتم له حياة ونطقا غيره فى الشخص وهما هو فى الجوهرية .

فنقول لكم فى ذلك : إذا كان الحىّ له حياة ونطق فأخبرونا عنه أتقولون إنه قادر عزيز أم عاجز ذليل ؟

فإن قلتم : لا بل قادر عزيز ، قلنا : فأثبتوا له قدرة وعزة كما أثبتم له حياة وحكمة .

فإن قلتم : لا يلزمنا ذلك لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه ، قلنا لكم : وكذلك ، فقولوا : إنه حيّ بنفسه ، وناطق بنفسه ، ولا بد لكم مع ذلك من إبطال التثليث أو إثبات التخميس ، وإلا فما الفرق ، وهيهات من فرق .

وقال الحسن بن أيوب أيضاً : إنا كلما تأملنا معكم فى نسبة للمسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التى تذهبون إليها ، وطلبنا لكم الحجة فى ذلك من كتبكم ، ازددنا بصيرة فى استحالة ذلك ، ووضعكم له من القول ما لا يثبت لكم به حجة ولا يشهد به لكم شىء من كتبكم ؛ ووجدنا أبين ما جاء فى المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال « متى » التلميذ [إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال : ماذا يقول الناس فى أنى ابن البشر؟ فقالوا : منهم من يقول : إنك يوحنا المعمدانى ، وآخرون يقولون : إنك أرميا أو أحد الأنبياء] .

[فقال لهم يسوع : فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا وهو رئيسهم فقال : أنت المسيح ابن ابن الله الحق فأجابه المسيح ، وقال : طوبى لك يا سمعان ابن يونان إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم ، ولكن أبى الذى فى السماء] .

وحكى لوقا فى انجيله هذا الخبر فقال : إن سمعان أجابه فقال : [أنت مسيح الله] ولم يقل ابن الله فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال .

وقوله : إنه لم ينطق بذلك الا ما أوحاه الله فى قلبه ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله ، ولا عن أنه كما تقولون فى لغتكم إنه ابن الله بالرحمة الصفوة مع الاختلاف الواقع فى ذلك فى الإنجيلين ، وقد قال : مثل ذلك فيكم جميعاً [إن الله إلهى وإلهكم وأبى وأبوكم] فتعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم فى معنى النبوة ونجعله مثل من سمى فى الكتب ابنا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره بل قد خص إسرائيل بأن قال عز وجل . [أنت إبنى بكرى] . وهذا كلام له مذهب فى اللغة القديمة التى جاءت بها الكتب ، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه فى هذا الاسم غيره فلم لا جعلتموه كما جعل نفسه ؟ .

ومما يؤكد المعنى فى ذلك ، ويزيل تأويل من يتأوّل له ما لم يدعه ولم يرض به قوله فى علم الساعة . [إن ذلك شىء لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون ولا الإبن ـ يعنى نفسه ـ إلا الأب وحده] ، ثم قال للرجل الذى أتاه فقال له : [أيها العالم الصالح ، أى الأعمال خير لى ، الذى تكون لى حياة إلى يوم الدين؟ فقال له : لم تقل لى صالحاً ، ليس الصالح إلا الله وحده] فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له ، ونفى عن نفسه فلم يجعلها ـ ولا أحدا من الخلق ـ أهلا لذلك .

وقوله للمرأة التى جاءته فقالت : أنت ذلك النبى الذى كنا ننتظر مجيئه .

فقال لها المسيح [صدقت طوبى لك] ثم قال الشيطان حين اختبره فسامه أن يلقى نفسه من رأس الهيكل ، فقال : أمرنا أن لا نجرب الرب ثم سامه أن يسجد له ، فقال : [أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده ، ولا نعبد سواه] ثم صلاته فى غير وقت لله ، وآخرها الليلة التى أخذته اليهود فيها ، فإذا كان إلها كما زعمتم فلمن كان يصلى و يسجد ؟

ثم قول الجموع الذين كانوا معه حين دخل أورشليم ، وهى مدينة بيت المقدس على الأتان لمن كان يسأله عن أمره لما راجت المدينة به : هذا هو يسوع الناصرى النبى الذى من الناصرة ، ثم قوله فى بعض الإنجيل : [اخرجوا بنا من هذه المدينة فإن النبى لا يبجل فى مدينته] وفى موضع آخر إنه قال : [لا يهان نبى إلا فى مدينته وفى بيته وأقاربه] :

وقوله فى بعض خطبه [إن هذا الجيل السوء يريد آية وأنه لا يعطى إلا آية يونس ، كما كان يونس لأهل «نينوى» كذلك يكون ابن البشر لهذا الجيل ، رجال نينوى يقدمون فى الدين مع هذا الجيل فيخصمونهم لأنهم تابوا على قول يونس النبى ، وإن ها هنا أفضل من يونس] .

ثم قول داود فى نبوته عليه : [من هذا الرجل الذى ذكرته وجعلته دون الملائكة قليلا] ثم قول تلاميذه فيه ما شرحناه فى صدر كتابنا هذا ما تقدم

ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدى والقوة .

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلاميذته فركبوا السفينة ، وقال لهم: [امضوا فإنى ألحق بكم فأتاهم يمشى على البحر فلما رأوه فى تلك الحال قالوا : ما هذا الحال ويح ، ومن الغرق صاحوا ، فقال لهم يسوع : اطمئنوا ولا تخافوا أنا هو ، فأجابه شمعون الصفا ، وقال له : يارب إن كنت أنت هو فاذن لى آتيك على الماء . فقال له : تعالى فنزل سمعان إلى الماء ليمشى عليه ، فلم يستطع وجعل يغرق ، فصاح ، وقال : يارب أغثنى فبسط يده يسوع فأخذه ، وقال له تشككت ياقليل الأمانة ؟] قال فبان بذلك عجز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفا ، ومثله أمر الرجل الذى قال ليسوع خبر ابنته وما ينالها من الشيطان ، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه ، فلم يستطيعوا أن يخرجوه ، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها .

وقال فى الإنجيل ، وهو يذكر الأمثال التى ضربها لرؤساء الكهنة إنهم لما سمعوها منه علموا أنها فى شأنهم ، فهموا أن يأخذوه ، ثم فرقوا من الجموع لأنها كانوا ينزلونه مثل النبى .

وقال فى الإنجيل ؟ [لما جاءته أم ابنى زندا ، وكانت من تلامذته مع ابنيها ، فقال لها : ما تريدين ؟ قالت : أريد أن تجلس ابناى أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك فى ملكوتك ، فقال: ليس إلى ذلك سبيل ، لأنه ليس لى أن أعطيه ، ولكن من وعد له أبى] .

قال الحسن بن أيوب : فما يكون ياهؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم فى كتبكم ما رضيتم بقوله فى نفسه ، ولا بقول تلامذته فيه ، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء ، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله ، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم فإنهم قد اختلفوا أيضاً فى الرأى ، فقال كل قوم فى المسيح ما اختاروا ، واتبع كلامهم طائفة قالوا بقولهم ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء فى الاقتداء بهم ، فبينوا لنا

حجتكم فى ذلك وهيهات من حجة ، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه .

قال : ومما يشبه ما تقدم قوله لتلاميذه فى إنجيل لوقا : [فأما أنتم الذين صبرتم معى فى بلائى ومخازىّ ، فإنى أعدكم كما وعدنى أبى الملكوت لتأكلوا وتشربوا معى على مائدتى فى ملكوتى] فبين أن الله عز وجلّ ثناؤه وعده أن يجعله فى ملكوت السماء يأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته ، وهذا ما لاشك لكم فيه ، وهو مخالف لقولكم فيما يصير إليه ، وفى الأكل والشرب والنعيم هناك ، ثم قوله لشمعون حين أتته الجموع فأخذوه : [أم يظن أنى لست قادراً أن أطلب إلى أبى فيقيم لى اثنى عشر جنداً من ملائكته أو أكثر ، ولكن كيف يتم الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون] ، ولم يقل : إنى قادر أن أدفعهم عن نفسى ، ولا أبى آمر الملائكة أن يمنعوا عنى ، كما يقول من له القدرة والأمر .

قال : ونجدكم تقولون فى المسيح عليه السلام : إنه مولود من أبيه أزلى ويجب على المدعى القول أن يثبت الحجة فيه ، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها لاسيما فى مثل هذا الخطب الجليل الذى لا يقع التلاعب به ، ولا تجترىء النفوس على ركوب الشبهات فيه ، والويل الطويل لمن تأول فى ذلك تأويلا لا حقيقة له ، فإنه يهلك نفسه ، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله إن كان هذا الإبن أزلياً على ما فى شريعة إيمانكم ، فليس بمولود ، وإن كان مولوداً فليس بأزلى ، لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول له ولا آخر .

ومعنى المولود أنه حادث مفعول ، وكل مفعول فله أول ، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة ، قال : ونسألكم أيضاً عن واحدتلم سميتم الأب أباً ، والإبن إبناً ، فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه فالإبن أيضاً يستحق هذا الاسم بعينه إذ كان قديماً مثله . وإن كان الأب عالماً عزيزاً فهو أيضاً عالم عزيز تشهد له شريعة الإيمان له بذلك فى قولها إنه خلق الخلائق كلها ، وأتقنت على يده وأنه نزل لخلاصكم ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالماً عزيزاً ، فهذه المعانى

التى ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة ، وفى إبطالها بطلان الشريعة التى تقول ولد من أبيه ، وإلا فإن كان الأب والإبن متكافئين فى القدم والقدرة ، فبأى فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه فصار الأب باعثاً والإبن مبعوثاً والأب متبوعاً مطاعاً والإبن تابعاً مطيعاً .

ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ماتأوله أولوكم فى عبودية المسيح أن «متى» التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ بهأن قال كتاب مولديسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم فنسبه إلى من كان منه على الصحة ، ولم يقل : إنهابن الله ، ولا إنه إله من إله ، كما يقولون . فإن قلتم إن تسمية يسوع للناسوت الذى قد جعلتموه حجة بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به للمسيح من العبودية ، فقد نسق متى على اسم يسوع الذى هو عندكم اسم للناسوت المسيح الذى هو جامع الناسوت واللاهوت ، فأى حجة فى إبطال هذا التأويل أوضح من هذا .

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها إنه ابن داود على ما ثبت من ذلك فى الإنجيل ، قال : ووجدنا كم قد ذكرتم فى شريعة الإيمان أن يسوع المسيح بكر الخلائق .

فإن كنتم ذهبتم فى ذلك إلى أنه على نحو ما يسمى أول ولد الرجل وكبيرهم فجائز . وهو محقق لقولنا فى عبوديته ، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم . فلسنا نعرف للبكر معنى فى لغة من اللغات إلا للأكبر من الأخوة ، والأول من الولد وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق .

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما ، وباكورة الثمار لا يكون إلا ثمرة ، ولأن من المحال أن يقول قائل بكر ولد آدم ملك من الملائكة ، وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع وبكر المخلوقات ليس بمخلوق .

وقد قال الله تعالى فى التوراة : [ياابنى بكرى] أى إسرائيل ، وقال فى موضع آخر : [إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن] ، فهل يوجب لآل إسرائيل الإلهية بهذا القول ؟

قال : وقلتم : إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم ، وليس بمصنوع فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئاً موجوداً أو غير موجود . فإن كان لم يزل موجوداً فإن الأب لم يلد شيئاً . وإن كان غير موجود ، وإنما هو حادث لم يكن فهو مخلوق كما قلنا . قال : ومما يبين قولنا فى خلق المسيح : إن هذا الإسم إنما وقع له ، لأنه مسح للنبوة والخير ، وماسحه الله تبارك وتعالى ، وقد قال داود فى زبوره قولا يشهد على ذلك بعينه : [من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك] ، فأبان داود بهذه الآية معنى المسيح بإنجيله ، وأن ماسحه الله إلهه ، وأنه مصطفى مكرم بزيادة على نظرائه ، وقال داود أيضاً فى مزمور إحدى وثلاثين يخاطب الله : [من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك عهد الرب لداود بالحق ، ولا يرجع عنه] يعنى بمسيحه نفسه لأن الله مسحه للنبوة والملك ، وقد قال فى مثل هذا فى غير موضع من زبوره [فسمى نفسه مسيح الله] ، وإذا نظر فى الإنجيل .

وكتب «بولص» وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحوا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح ، وكلها تنطق بعبودية المسيح ، وأنه مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ماخلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبوديته ، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التى يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التى قد بانت بغير تأويل ، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستدل على ما غاب بما حضر ، وعلى ما أشكل بما ظهر ، فمن تلك

الآيات المشكلات ما قد ذكرناه فى كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه ، وأنه ليس كما تأولوه

ومنها ما يحكون عن المسيح أنه قال : [أنا بأبى] ، وقد فسر المسيح عليه السلام ذلك ، وكشفه قال «يوحنا» فى إنجيله : إن المسيح تضرع إلى الله فى تلاميذه ، وقال : [يا أيها الرب القدوس احفظهم بإسمك الذى أعطيتنى ليكونوا هم أيضاً واحداً ، كما أنا شىء واحد ، وكما أنك أرسلتنى إلى العالم ، وكذلك أرسلهم أنا أيضاً ، ثم قال بعد هذا أيضاً : إنى قد منحتهم من المجد الذى أعطيتنى ومنحتنى ، ليكونوا أيضاً شيئاً واحداً كما أنا شىء واحد ، فأنا بهم ، وأنت بى] قال : هو معنى ذلك أنه قال أنت لى كما أنا مع تلاميذى ولهم .

قلت : أو أراد إنك بى هديت الخلق وعلمتهم وأنا أهديهم وأعلمهم ، والباء للسببية ، فإن الله برسله هدى عباده وعلمهم ، والرسل علموا الغائبين عنهم ، فالحاضرين الذين بلغوا عنهم ، وقوله ليكونوا شيئاً واحداً : أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم ، وهذا مفسر ، وقد قال : ليكونوا هم شيئاً واحداً ، كما أنا شىء واحد . فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه .

وهذا يبين أن قوله كما أنا شىء واحد أى أنا موافق فى أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك ، لم يرد بذلك اتحاد ذاته به ، كما يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض ، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه ، قال : أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه إلا أنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم ممازجته عز وجل فى اللاهوت بقوله فى تلاميذه : إنه بهم ، كما أن أباه به ، لأنه إن تأول متأول فى هذ المعنى أنه ذهب فى بعض وصفه بأبيه ، وأن أباه به إلى مشاركته فى اللاهوت فقد قال فى تلامذته مثل هذا القول ، فيجب أن يكونوا على هذا القياس شركاء فى المحل ، وهذا مالا يكون ، ولا يجترىء على القول به أحد .

قال : ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها وعبودتها ومعبودها واحداً يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام ، وتلامذته ، وإنجيله ، وسننه ، وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف فنهم ، من يقول : إنه عبد ، ومنهم من يقول : إنه إله ، ومنهم من يقول : إنه ولد ، ومنهم من يقول : إنه أقنوم وطبيعة ، ومنهم من يقول : إنه أقنومان وطبيعتان .

وكل يكفر صاحبه : ويقول : إن الحق في يده ، وكلهم لا يأتي من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه ، ولا من قياسه لنفسه وتأوله بما يصح له عند المناظرة وإنما يرجع في دينه واعتقاده إلى ما تأوله المتأولون ، بما يخالف إنجيلهم ، وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم . فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له ويدعون له ولداً من جهة ما أحدثوا لأنفسهم سبحانه أنى يكون له ولد !!!

فهرست الجزء الثانى

من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة

صفحة


Bibliotheca Alexandrina
0231171